Weghat Nazar - Volume 6 - Issue 66 - July 2004

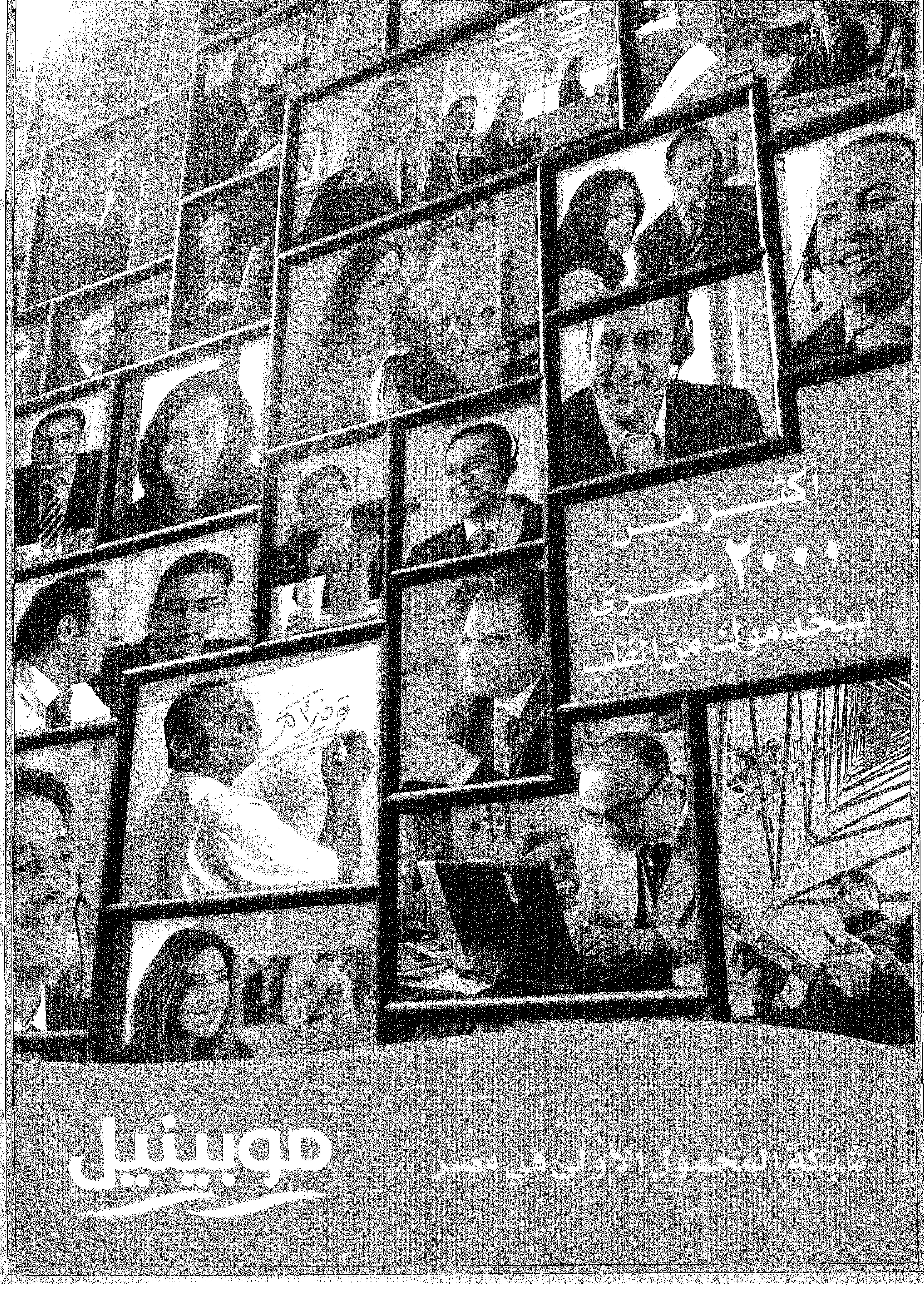
مجلة شهرية. العدد السادس والستون. السنة السادسة. يوليو ٢٠٠٤. الثمن عشرة جنيهات

مناقشة كبير الأساقفة / البيت والأطفال أولا / القاهرة الخديوية

طارق البشرى - سليم العوّا - سمير مرقس - يوسف عدس / كلوديا واليس - هدى الصدّة / سهير حواس

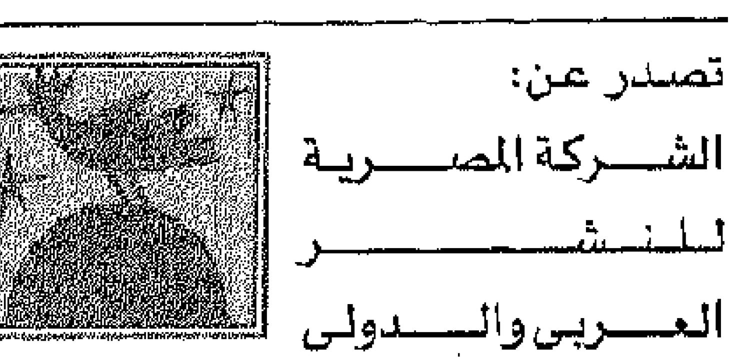
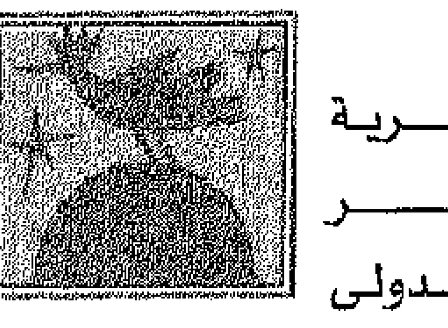
نون: ثورة ثقافية تقتحم عالم السياسة

سلامة أحمد سلامة


أكثر من
٢٠٠٠
مصري
بيخدموك من القلب
موبينيل
شبكة المحمول الأولى في مصر

السنة السادسة
العدد السادس والستون
يوليه ٢٠٠٤

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى
البحوث والمتابعة
هديل غنيم


وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر
تصدر عن:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة
رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى
مدير التحرير
أيمن الصياد



محتويات العدد:

كتّاب العدد :

- آلن ميخائيل.. مدرس بقسم التاريخ بجامعة كاليفورنيا.
- أيمن الصياد .. صحفى.
- لورد كارى.. كبير أساقفة كانتربرى (١٩٩١ ـ ٢٠٠٢).
- رشيد الخالدى.. أستاذ كرسى إدوارد سعيد ومدير معهد الشرق الأوسط بجامعة كولومبيا.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- سمير مرقص.. باحث معنى بقضايا المواطنة والحوار الإسلامى المسيحى.
- سهير زكى حواس.. أستاذ بكلية الهندسة جامعة القاهرة.
- سو هالبيرن.. روائية وأستاذ زائر بميدلبورى كوليدج.
- صبرى حافظ.. أستاذ الأدب العربى الحديث بجامعة لندن.
- طارق البشرى.. كاتب ومؤرخ.
- كلوديا واليس.. صحفية.
- لورا سيكور.. كاتبة تعيش فى نيويورك.
- محمد سليم العوا.. كاتب إسلامى ومحام.
- محمد يوسف عدس .. باحث فى التاريخ والشئون السياسية مقيم فى إنجلترا.
- هدى الصدة.. أستاذة الأدب الإنجليزى ورئيس ملتقى المرأة والذاكرة.
- يحيى الرخاوى.. أستاذ الطب النفسى بجامعة القاهرة.
- يوسف إبراهيم.. مدير المجموعة الاستراتيجية للطاقة بدبى.

رسوم العدد للفنانين :

محمد حجى ـ أحمد اللباد ـ محمد العكش





المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٣٩٣٠٤٩٠/ ٣٩٣٠٤٩٢/ ٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@alkotob.com
الموقع على الإنترنت: www.weghatnazar.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الاشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص ـ ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ ـ e-mail: weghat @alkotob.com

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ٢٠ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ٢٠ درهما ـ البحرين ديناران ـ قطر ١٥ ريالا ـ عُمان ريالان ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة

ثـــورة ثقافيـة تقتحم عــالم السياسة..

يتحول المشهد الثقافى العالمى الآن، ونحن فى مطلع القرن الواحد والعشرين إلى صناعة معقدة، تمثل ثورة عميقة الجذور متعددة الأبعاد، تشبه تلك الثورة الثقافية والمعرفية التى عرفها العالم فى أعقاب اختراع المطبعة، التى تكفلت بنقل ثمرات التقدم الفكرى والعلمى والحفاظ عليها ونشرها فى أرجاء المعمورة، وكانت عاملاً مهمًا من عوامل قيام الثورة الصناعية التى غيرت وجه البشرية، وأفضت بدورها إلى الثورات الاجتماعية والاقتصادية التى مازالت تتفاعل وتتوالد فى أطوار مختلفة حتى اليوم.

ومنذ تنوعت وتعددت وسائل الاتصال ووسائط نقل الثقافة ونشرها بأساليب تتقاطع وتتوازى بأشكال وتركيبات مدهشة، من الطباعة إلى الراديو والتليفزيون، ثم ما طرأ عليها من تنويعات عديدة: من الفيديو إلى شبكات الإنترنت، ومن أفلام وثائقية، إلى مسرحيات غنائية وعروض كلاسيكية وغير كلاسيكية، ينفق على إنتاجها أموال ضخمة، تعيد إنتاجها فى ظل قوانين العولمة التى اخترقت الحواجز والدول، ظهرت وظائف جديدة لمعنى الثقافة بمفهومها الأوسع، وطبيعة تأثيرها على المجتمعات الإنسانية.. هى التى باتت تميز العالم اليوم، وتزعزع أركان السلطة مهما بلغت قوتها وجبروتها، وتشكل شبكات اتصال تغطى جماعات وتجمعات متناثرة هنا وهناك، تؤثر فى مشاعر الناس وأنماط تفكيرهم وسلوكياتهم، وتحدد طرائق حياتهم ومواقفهم من الحياة ومن المشكلات السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجارية.

حدثت تغيرات هيكلية ثقافية، ليس فقط فى الأشكال والأجناس الثقافية، ولكن أيضًا فى أذواق الناس والشعوب والنخب الثقافية، وفى طريقة تقبلهم واستيعابهم لهذه الأشكال الثقافية الجديدة. لم يعد استعداد الناس أو حماسهم للأدب الكلاسيكى وفنون الشعر والفنون التقليدية.. وذخائر الفكر الإنسانى كما كانت عليه فى القرن التاسع عشر أو القرن العشرين، يستمدون منها حكمة الحياة وعصارة التجربة الإنسانية، ويضبطون على إيقاعها مبادئ الخير والشر، والجمال والقبح، والتقدم والتخلف التى تشكل منظومة القيم فى أى مجتمع.. بل أصبح من الضرورى أن يعاد إنتاجها وإخراجها بأساليب متجددة، تلائم عصر الاستهلاك السريع لمنتجات الحضارة، سواء كانت فى أشكالها المادية والصناعية والحياتية، أو فى تجلياتها الفنية والعلمية والتكنولوجية. فلم تعد أذواق الناس وثقافتهم فى الطعام والشراب مثلاً هى التى كانت سائدة قبل نصف قرن، بل دخلت على أذواقهم معايير ومشارب جديدة، تتفق مع مستويات وعيهم بالأوامر والنواهى الصحية والحفاظ على مقاييس الجمال، وتتجاوب مع مقتضيات عصر السرعة ونمو طبقة متوسطة عاملة تخضع لضوابط صارمة تحكمها قوانين العمل فى المجتمعات الرأسمالية المهيمنة، ولا تسمح للموظف أو العامل بأن يفقد من وقت العمل ما يؤثر على عجلة الإنتاج أو تكاليفه ولو كانت فترة استراحة الغداء القصيرة أوقات العمل.



ويمكننا أن نلاحظ كيف ترتب على ذلك ظهور «ثقافة جديدة» تقف على التخوم الفاصلة بين الجمال والصحة، بين مقاييس الجمال التى يحتفل بها المجتمع بالنسبة للمرأة أو الرجل، وبين ما تؤدى إليه ثقافة الوجبات السريعة وعدم الاهتمام بمفردات الطعام وقيمته الغذائية من مؤثرات على ما يعانيه إنسان العصر من أمراض السمنة والسكر وأوجاع القلب وغيرها.

هذا مجرد مثل لثقافات من نوع جديد، لا تقل أهمية وتأثيراً عن الثقافة بمفهومها التقليدى. والكلاسيكى، الذى ساد العالم ويسود مجتمعاتنا العربية الآن. وقد دخلت هذه الثقافات على استحياء إلى المجتمعات المتقدمة فى بادئ الأمر، ولكنها تحولت خلال السنوات الأخيرة إلى ثورة جارفة فى الفضاء الثقافى العالمى.. طبعت بطابعها فنون العمارة والإسكان والبيت وإنشاء التجمعات السكنية.. وامتدت إلى فنون الرسم والتصوير وفنون الأزياء ومقاييس الجمال الأنثوية، وأناقة الرجل وتأثير ذلك على أدائه السياسى وفى الحياة العامة.. وقدمت صوراً جديدة لفنون تمضية أوقات الفراغ وإجازات الصيف والاستمتاع بالحياة سواء فى مجتمعات الوفرة أو فى مجتمعات الفقر.. ثم فى فنون التسلية واللهو وما تقدمه من إغراءات جنسية وعروض للرقص الحديث تقدمت فيها أساليب الإخراج والمؤثرات الضوئية والصوتية على نحو باهر غير مسبوق، حيث تستثمر أموال طائلة لإنتاجها فى شرائط الفيديو والوسائط الإلكترونية المتعددة من التليفزيون إلى الإنترنت.

وبعبارة أخرى، فلا يوجد الآن مجال من مجالات الحياة العامة والنشاط الإنسانى إلا وتشكلت له خلال العقود القليلة الماضية، خلفية ثقافية حديثة تستند إلى دراسات وبحوث ونظريات، وإلى تطبيقات عملية تترجم فى برامج وكتب ووسائط معرفية واسعة الانتشار. وهذه الثقافات المتنوعة هى التى تغير أذواق الناس وسلوكياتهم. وتؤثر على مجالات السلوك والميول والعواطف، بقصد إحداث التغيير الاجتماعى أو السياسى أو الدينى الذى يسهم فى تطوير المجتمع وتقدمه أو تأخره، ويضبط درجة الانسجام الداخلى بين أفراده وشرائحه وطبقاته.

لم تعد الثقافة إذن بمفهومها الحديث مقصورة على ما يملأ العقول والأفكار والمدارك، ويزحمها بينابيع الحكمة والدراسات القديمة وعيون الشعر والتراث العقلى والفكرى الذى أبدعته العقول والتجارب الإنسانية فى عصور سابقة.. ذلك أن هذا المخزون وإن ظل قابعًا فى الوعى الإنسانى نعيد استحضاره ومراجعته ومذاكرته واستنطاق معانيه ومدلولاته، إلا أنه يظل محصوراً فى دائرة ضيقة من ذوى الاختصاص الذين تنحسر دائرة تأثيرهم عند حدود ضيقة. فإذا امتلك أحدهم ملكة الإبداع والتواصل مع العصر، تحولت المادة الثقافية بتنويعاتها المختلفة بين يديه إلى عجينة سحرية من نوع خاص، تمتزج مع أشكال الثقافات الجديدة وتنويعاتها. وتصل إلى المتلقى العصرى فى مجتمعات الوفرة والسرعة والاستهلاك فى ثوبها الجديد، حتى ليكاد المرء ينكر أصولها القديمة ولا يتعرف عليها. وهو ما يعبر عن نفسه بشكل خاص فى فنون الإخراج المسرحى والسينمائى، عندما تتماهى الأبعاد الفلسفية والتاريخية فى دراما الصراع الإنسانى وتطرح القضايا الفكرية والإنسانية بل والمشكلات العلمية والتكنولوجية التى تواجه إنسان العصر الحديث، لتحوله إلى عمل سينمائى أو مسرحى خلاق قادر على تجاوز الواقع بتفصيلاته الجزئية، وتسجيلاته الوثائقية، وسير الحياة الشخصية، وما رصدته نشرات الأنباء وأفلام الفيديو وصور التليفزيون.. إلى آخر هذا الكم الهائل من ملايين الوقائع والأحداث والمعلومات التى تتدفق على المتلقى ليل نهار.

وأقرب مثال على هذا المفهوم الجديد للثقافة الجديدة، ذلك الفيلم الوثائقى «فهرنهايت ٩/١١» الذى حاز به المخرج مايكل مور على جائزة السعفة الذهبية فى مهرجان كان، وأثار ضجة عالمية كبرى مازالت تتردد أصداؤها فى العالم، ولن ينتهى أثرها على الأرجح فى القريب العاجل؛ إلا بما قد تفضى إليه من خروج جورج بوش من البيت الأبيض.

هذا الفيلم الوثائقى الذى تضافرت فيه عناصر متباينة ذات أجناس ثقافية مختلفة، من الفيديو إلى الصورة إلى الكلمة إلى الوثائق التاريخية، يحكى برصانة تمتزج بالسخرية كيف واجه بوش أحداث سبتمبر ٢٠٠١ وكيف نجح فى الكذب على الشعب الأمريكى ليرسل بأبنائه إلى الحرب فى العراق، وأخفى الرئيس علاقة أسرته بأسرة بن لادن المالية والتجارية.

وهذا النوع من «الثقافة» المفتوحة التى تنهل منها كل الطبقات، وتدخل غرف النوم فى منظومات من الشبكات التى أتاحها «مجتمع المعرفة»، لتؤثر على حياة الناس وأفكارهم وردود فعلهم، وتجعل من المجال الإعلامى بمعناه الواسع ميداناً لمعارك الأفكار والإرادات والسياسات، هو المعترك الثقافى الحقيقى الذى يمكن أن يجرى على أرضيته صراع الثقافات ولقاء الحضارات وأشكال الحوارات المختلفة بين الفلسفات والديانات والعقائد، بما يعرى نوازع التنفس البشرية وبأس الحروب واختلاف الأمزجة والعقائد، وهو ما كانت تقوم به فنون الرواية والقصص.

ويمكن أن نضع فى السياق نفسه فيلم «آلام المسيح» بكل ما فجره من مناقشات ومجادلات، وما أعاد تفسيره من وقائع تاريخية ولاهوتية، وصراعات سياسية ودينية.. انعكست حتى على الحاضر الدموى الذى تجرى فصوله فى فلسطين وفى الصراع العربى الإسرائيلى. غير أن الأهم من ذلك أنه مثل هذا الفيلم، وهو يتحول من خلال التفاعل الحر والحوار المنطلق بغير قيود، يصبح عملاً ثقافيًا بالدرجة الأولى ويصل إلى دائرة واسعة من

سلامة أحمد سلامة

الأذواق والثقافات والمستويات، تتجاوز بكثير أفق الكتاب ووسائل النشر التقليدية التى مازلنا نعيش عليها فى ظل فضاء ثقافى عربى مغلق.

ثقافة «مجتمع المعرفة» إذن ثقافة مختلفة عن الثقافة التقليدية، بمعطياتها وأدواتها وتقنياتها المتقدمة التى أتاحت استخدام التقدم الذى طرأ فى مجال العلوم السلوكية والطبيعية، وفى مجال علوم الاتصالات وثورة المعلومات والسرعة الفائقة فى التقاطها وبثها فى جميع أنحاء الكرة الأرضية. وهو ما أعطى للملايين حول العالم، ربما لأول مرة فى التاريخ، فرصة الدخول بضمائرهم وأحاسيسهم إلى غرف التعذيب فى سجن أبو غريب ليروا بعيونهم كيف تتم عمليات القتل المنظمة لكرامة الإنسان وامتهانه.. وكيف كانت تتدلى الأسلاك الكهربائية من أجسام المسجونين، أو يجرى سحلهم على الأرض والعبث بأعضائهم التناسلية واغتصابهم. وبعبارة أخرى فقد تهيأ من خلال هذه الثقافة الجديدة.. ثقافة المعلومات المباشرة، الفرصة الكاملة لاستعادة ما جرى فى غرف التعذيب النازية، وحقول الموت الصربية، وفظائع فيتنام الجنوبية. وأصبح الفرد. مهما كان بعيداً عن الحدث. شريكاً وفاعلاً ومسئولاً عنه أمام ضميره الأخلاقى والإنسانى. وهذه فى المحصلة النهائية هى مهمة الثقافة التى ترتقى بالوعى الإنسانى، وتفتح له آفاق الوجود، وتحصنه من البلادة والجمود والتعصب، وتجعله أكثر قدرة على فهم السلوك الإنسانى وضبط نوازعه.



أين نحن من هذا الانفجار الثقافى الجديد؟ وأين يوجد الإنتاج الثقافى العربى الذى يضعنا فى قلب هذه الثورة الثقافية الهائلة التى تجتاح العالم من حولنا؟

هذا هو السؤال الذى يلح علىّ كثيراً، وأنا أنظر من حولى إلى ضآلة ما ينشر فى فضاء الثقافة العربية من كتب ودوريات ودراسات، وما يجرى إنتاجه من مسرح ومسلسلات تليفزيونية وأفلام، وما تغرق فيه صناعة الفيديو نفسها من برامج التسلية والخلاعة والإسفاف. ولا أحد يعترض على صناعة اللهو والتسلية فهى جزء من «الثقافة الحديثة» بمعناها الواسع، ولكنك لا تجد إلى جانبها عندما ما يخاطب العقل أو يدعو إلى التفكير أو يرتفع بمستوى الإدراك والمعارف. أو يضع أحداث التاريخ ويوثقها فى رؤية سياسية نقدية اجتماعية كما فى «فهرنهايت ١١/٩».

ويضاعف من الشعور بالاختناق والحصار، أن حركة الترجمة فى العالم العربى مازالت دون المستوى، ليس فقط فى عدد ما يتم ترجمته ولكن أيضاً فى فروع الإنتاج المعرفى المختلفة التى مازالت مقصورة على الآداب واللغات والدراسات التاريخية والدينية، وبالأخص ما يعيد منها اجترار الجوانب المضيئة من التراث الثقافى والإسلامى التى قام بها مستشرقون أو باحثون فى جامعات ومراكز بحث أجنبية.. وربما بدرجة أقل فى المجالات الاجتماعية والاقتصادية والمالية والتجارية، وبدرجة أقل وأقل فى مجالات العلم وفروعه المتقدمة فى الطب والكيمياء والفيزياء، ومازلنا نحبو فى مجالات الكمبيوتر وتقنية الاتصالات والمعلومات.

إن ما يثير قلق المتأمل للمشهد الثقافى العربى، من أمثالنا الواقفين على شاطئ البحر، هو أنه بينما تتحرك دوائر الإنتاج الثقافى فى العالم بسرعة هائلة، وتتنوع وتتداخل وتتكاثر وتمتزج لتخرج أشكالاً ثقافية جديدة تعبر عن هموم الغرب وأشواقه بأكثر مما تعبر عن همومنا وأشواقنا نستمتع بها عن بعد، فإن حالة الثقافة فى بلادنا مازالت تدور فى حلقاتها المفرغة التى اعتادت عليها منذ القرن التاسع عشر، أى منذ بداية النهضة الفكرية والثقافية التى قادتها كوكبة المستنيرين منذ رفاعة الطهطاوى ومحمد عبده ومن تبعهم من المفكرين من أمثال طه حسين ومصطفى عبد الرازق وغيرهم من الرعيل الأول، الذى أرسى دعائم النهضة الثقافية الحديثة، ولم تلبث أن فقدت قدرتها على المد والتوسع والانفتاح على آفاق العصر. وكما نشهد الآن فقد عجز المد الثقافى فى تلك الحقبة عن اختراق حواجز الجمود العقلى والدينى واصطدم فى أيامنا هذه بعقليات أكثر جموداً وأقل تطوراً عن تلك التى فرضت وجودها على المشهد الثقافى فى العقود الماضية. وكانت النتيجة هى أن معظم الأسئلة والمشاكل التى أثيرت فى القرن الماضى مازالت على مائدة العقل العربى، يعاد طرحها من جديد. ولا تنفك الندوات والمناقشات واللقاءات الثقافية تعيد بحثها ومحاولة استكناه أسرارها وتحليل مضامينها، دون خطوة إلى الأمام.

وربما كانت الإضافة الوحيدة التى طرأت على الحياة الثقافية فى العالم العربى، هى تعدد منابر الحوار ومؤسسات تطلق على نفسها مؤسسات الفكر العربى، انتشرت واستشرت فى العواصم العربية تحت مسميات مختلفة، وبمساعدة سخية من ذوى اليسار. وكأن سخاء الإنفاق سوف يفضى إلى سخاء الأفكار ونماء الحريات وتعدد الثقافات وكسر القيود على حرية التفكير والإبداع. أما مبادرات الفكر الفردية، وتجريب الأشكال الثقافية الجديدة، ومحاولة ابتداع أنواع منها تجتذب دوائر جديدة فى المجتمع، وتكسر حاجز الأبراج العاجية التى يعيش فيها المثقفون يمارسون نفاق الأنظمة ويقتاتون من فضلاتها، فمازالت محدودة الانتشار ولا تمثل غير نسبة ضئيلة من الفئات الاجتماعية المتعلمة ونصف المتعلمة، المثقفة ونصف المثقفة، المسيسة ونصف المسيسة.



إن المجتمعات العربية مهددة، إن لم تكن تعيش بالفعل، فى ظل انشقاق ثقافى ومعرفى عميق يقسم هذه المجتمعات إلى نصفين: إلى لغتين رغم أنها لغة عربية واحدة، وعقلين رغم وجود عقل جمعى وفكرى واحد، وثقافتين رغم عباءة ثقافية وحضارية وقيمية واحدة. ولا يهم هنا أن تكون لغة عامية أو محلية أو فصحى، ولكنها لغة أو لغات الخطاب التى تسود المجتمع، والتى تتفاوت بسبب تفاوت المستويات الثقافية والتعليمية فى مجتمعات عربية لم تنجح فى القضاء على الأمية بنسب تصل إلى ٤٠ و ٥٠ بالمائة. مما أعطى للخطاب الدينى فى صوره البدائية البسيطة سلطان السحر على العقول والأفهام لدى الأغلبية. وخلق تربة صالحة للتعصب وضيق الأفق والأخذ بالخرافات.

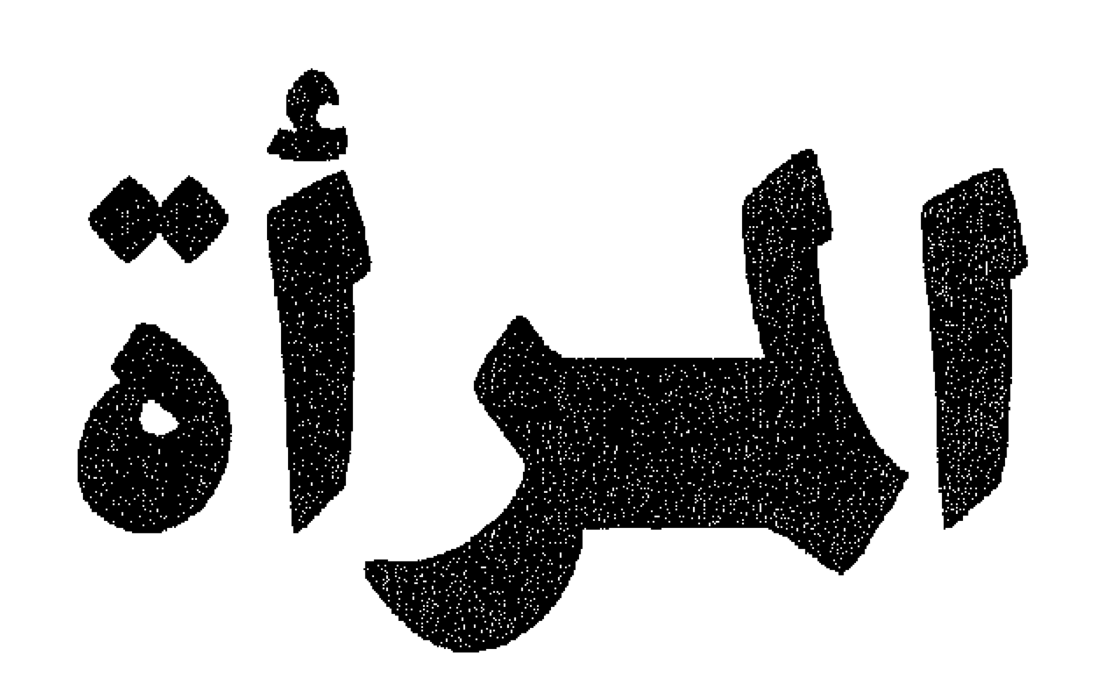
يتحرك المثقفون داخل دوائرهم المغلقة بحرية زائفة بلغت درجة الإدمان، وتتحرك جموع الجماهير فى مساراتها التقليدية القديمة أشبه بقطار عتيق يسير على قضبان بالية. وهو ما يؤدى إلى نوع من «ثقافة الجماهير الواسعة أو ثقافة الدهماء» mass culture التى تتوالد وتنتشر وتتكرس المفاهيم والمعانى فيها من خلال التليفزيون والراديو والفيلم. وذلك فى مقابل ما يمكن أن يطلق عليه «الثقافة العامة» Popular culture التى يرى العلماء أنها تتوالد وتنتشر وتتكرس بمفاهيمها من خلال ديناميات عملية اجتماعية، تتفاعل فيها الآراء والأفكار، ويكون من حق أى فرد من أفراد المجتمع أن يكون جزءاً منها ويشارك فيها. وهذه هى الديمقراطية بمفهومها الحقيقى. حيث يصبح التفاعل الثقافى جزءاً من العملية الديمقراطية، وتصبح العملية الديمقراطية هى البيئة أو السياق الصالح للتفاعل الثقافى الذى يرتفع بمستوى الحراك الاجتماعى، ويجعل من الانفتاح على الثقافات الأخرى فريضة حاضرة وليست غائبة ولا مذمومة فى مجتمعاتنا العربية، ويضفى على الخطاب الثقافى قدراً من الانسجام والتصالح والتسامح، يقضى على مظاهر الاستقطاب والتضاد التى باتت تشق معظم المجتمعات العربية شقاً حتى النخاع.

إن أكثر ما يؤخذ على الاتجاهات الثقافية القائمة فى العالم العربى، هو أنها مازالت تحبس نفسها فى البحث عن أشكال الكتابة وأساليب التعبير الحديثة فى أضيق حدود صور الإنتاج الأدبى والروائى دون غيره. بينما تجلجل فى العالم أصداء ثورة ثقافية عارمة، دخلتها واقتحمتها عناصر ثقافية جديدة، صنعتها ثورة الاتصالات والمعلومات ومبادئ الديمقراطية والحرية وحقوق الإنسان، وسوقتها آليات «مجتمع المعرفة» بفضل قوانين العولمة، اعتماداً على شبكة عالمية واسعة معقدة أشبه بشبكات الجهاز العصبى فى جسم الإنسان. وهذا هو الانقلاب الثقافى الحقيقى الذى يجب أن يسعى المثقفون إلى توظيفه.. أما الوقوف على أطلال ما تبقى من الحضارة العربية القديمة ومحاولة إحيائها، وإعادة اجترار الماضى وكيل المديح للذات باعتبار ما كان، والجمود على الموجود دون حركة إلى الأمام، فهو دعوة إلى الانتحار الثقافى أو الموت البطىء فى مقابر المجد الغابر! ■



إن المجتمعات العربية مهددة، إن لم تكن تعيش بالفعل، فى ظل انشقاق ثقافى ومعرفى عميق يقسم هذه المجتمعات إلى نصفين: إلى لغتين رغم أنها لغة عربية واحدة، وعقلين رغم وجود عقل جمعى وفكرى واحد، وثقافتين رغم عباءة ثقافية وحضارية وقيمية واحدة





إلــــى البــــيت: غـــــربًا
إلــــى الخـــارج: شـــرقـًا

فى الوقت الذى تحتل فيه شعارات «تمكين المرأة.. وتحريرها.. ومساواتها بالرجل فى فرص العمل» مكانًا متقدمًا على لائحة مصطلحات هذه الأيام، تخرج مجلة Time «الأمريكية» بموضوع غلاف ينادى بعودة المرأة للبيت «لتضمن تربية جيل جديد صحيح».

هل يبدو فى المشهد شىء من المفارقة. البعض يرى ذلك مشيرًا إلى أنه فى حين نسمع فى الغرب دعاوى عودة المرأة للبيت، تعقد الندوات والمؤتمرات فى الشرق ترويجًا لمفاهيم مختلفة.

ورغم المتجادلين على الناحيتين، ينظر الكثيرون - أو الكثيرات على الأحرى - للمسألة على أنها «ترف فكرى». فبعضهن على الأقل لم يخترن العمل إهمالاً للأبناء. بل على الأغلب اضطررن إليه. (٢٢٪ من الأسر المصريةعلى سبيل المثال تعولها امرأة بمفردها)

ونظرة واحدة حولنا إلى الأسواق والحقول قد يكون فيها الكفاية.

المحــــرر

الغرب يعود.. البيت والأطفال أولا

كـــلـــوديـــا والـــيـــس

■ ذات نهار صحو فى بلدة كمبردج الإنجليزية الأنيقة تقضى هيلين باول (٣٣ عامًا) وقتا من أحلى أوقات حياتها. فى ٦٠ دقيقة تنفخ حمام السباحة المطاطى، تجمع الديناصورات البلاستيكية من أطراف الحديقة، تصنع قالب جاتوه من الصلصال و تبنى قاربًا من المكعبات البلاستيكية الكبيرة الملونة. فى غرفة المعيشة يمرح ابنا باول - جاك ٥ سنوات- وتوم ٣ سنوات. يلهوان بالبيانو قبل الانضمام إلى والدتهما فى القارب لممارسة بعض من الإبحار الخيالى. «يجب أن تبعث شركات الاستشارات الإدارية بموظفيها إلى العائلات لتدريبهم». تقول هيلين وهى تأخذ رشفة من الشاى بينما يتجه ولداها إلى الحديقة، «يمكن للأم إدارة الوقت مثل أى شخص آخر على الأرض».

قبل ست سنوات كانت هيلين محامية متخصصة فى شئون التقاعد فى إحدى شركات المحاماة فى مدينة لندن بينما كان يعمل زوجها كمحاسب. عندما كانت باول حاملاً فى شهرها الثالث بدأ قلقها من مستوى الحياة وازداد مللها من «مواعيد تسليم العمل التى كانت تسبب لها المغص». لذا فقد قررت التركيز فقط على كونها أماً، فتركت العمل الذى كان يربحها ٧٦ ألف دولار سنوياً. أما الآن فبالإضافة لإدارة شئون عائلتها و مجموعة اللعب التى تضم الأطفال فى حيها، فإنها تشرف أيضاً على مكتبة لاستعارة الألعاب.

«من الغريب» كما تقول «أن ما تعلمته كمحامية أعدنى لأشياء أخرى بطرق كثيرة غير متوقعة. إن الدبلوماسية اللازمة للتعامل مع العملاء تشبه مهارات التفاوض اللازمة للتعامل مع الأطفال».

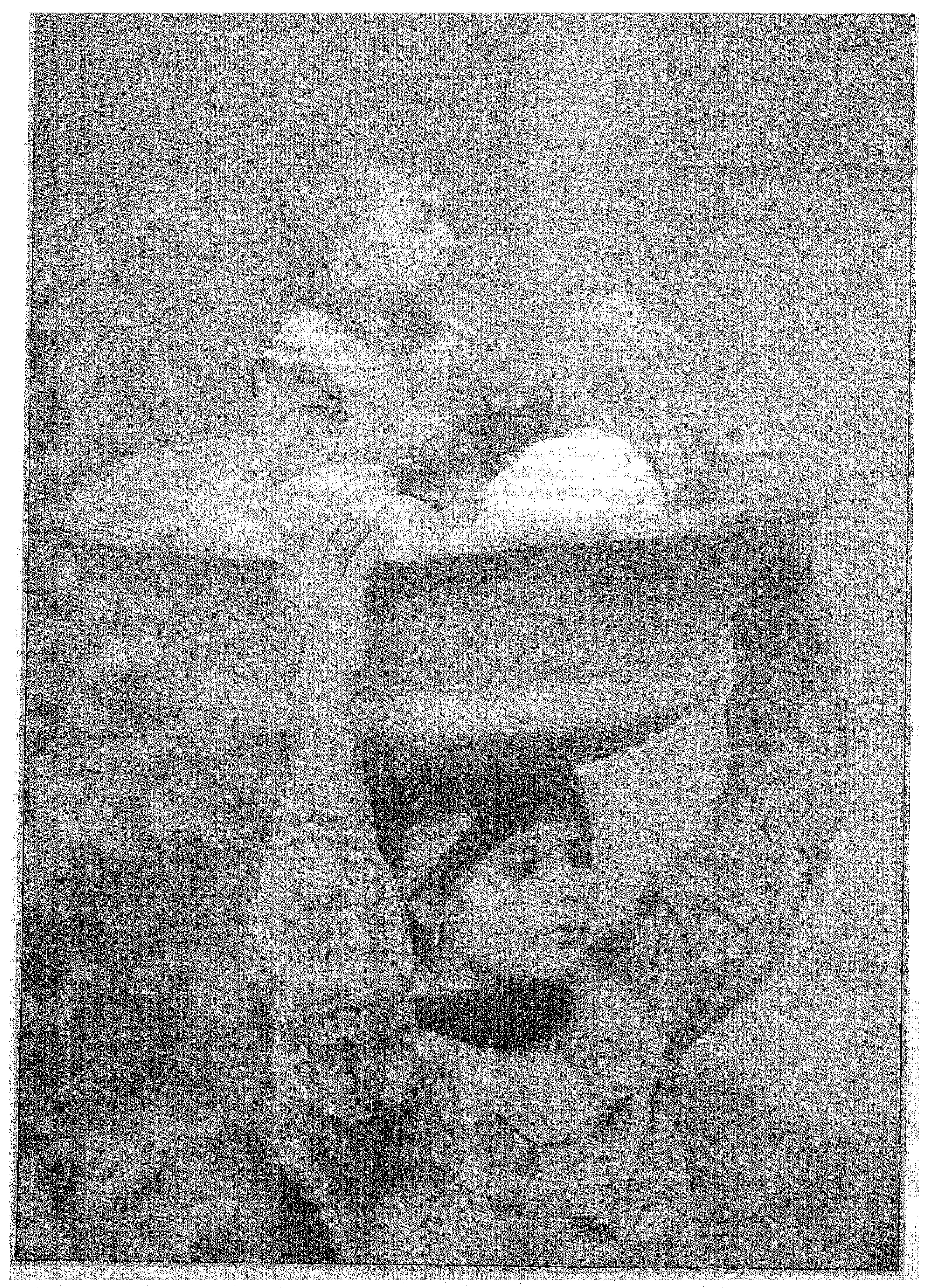
بما أن جاك فى سنته المدرسية الأولى وبقى لتوم ١٨شهرا على هذه الخطوة الرئيسية فإنها تفكر فى العودة إلى العمل و تأتيها رسائل إلكترونية من زملائها السابقين كل فترة يقولون فيها كم سيسعدهم ذلك.

ولكنها لا تظن أن ذلك سيحدث «حتى وإن عرضوا على المرء ساعات عمل محددة فإن ذلك سيعنى أنه من الممكن العودة إلى المنزل فى السادسة مساء. سأظل خارج المنزل طوال الوقت الذى يكون فيه الأطفال مستيقظين» إن أكثر ما يقلقها هو ما يمكن أن يفوتها خلال وجودها فى المكتب فى يناير الماضى، بعد سقوط الثلج، أخذت جاك من المدرسة على زحافة زرقاء «كانت النجوم ساطعة والقمر ظاهراً لقد كان وقتاً ذهبياً. إننى متأكدة أنى سأعود إلى العمل إلا أن ذلك سيكون صعبا بسبب ساعات العمل». تتذكر بأسى: «المجال المهنى إما أن يأخذ الوقت كله أو لا يكون» كان الأمر يبدو سهلا منذ ١٠ أو ١٥ سنة، تأتى باللحم إلى المنزل، تقليه فى المقلى ثم تقتسم وردية العمل الثانية مع رجل حساس يتبنى أفكار العصر الحديث. ثم تغير إيقاع العمل، الحياة، المرح بالنسبة للمهنيات من أمثال هيلين باول. بالطبع لقد منحت الدول الأوروبية المرأة الحق فى إجازة وضع وفى بعض الأحيان دعماً سخياً للعناية بالأطفال وسمح الفرنسيون لأسبوع ◄

The Mommy Myth
(خرافة الأمومة)
Susan Douglas, Meredith Michaels
Fee Press, 2004, 400 Pages

The Time Bind: When Work Becomes Home and Home Becomes Work
(عندما يصبح العمل هو المنزل والمنزل هو العمل)
Arlie Russell
Owi Books, 2001, 336 Pages

ترجمة : نيرمين نزار
عن Time Magazine



تصوير: أيمــن الصيــاد - ١٩٨٩.. من مجموعة منظمة الأمم المتحدة للطفولة والأمومة (unicef)

عمل من ٣٥ ساعة. ولكن لا يزال من المعتاد أن يكون معدل ساعات العمل للموظفات الأوروبيات ٥٠ ساعة فى الأسبوع و ٥٥ ساعة للموظفين حسبما تقول المجموعة الأمريكية للأبحاث والاستشارات كاتاليست المهتمة بأمور المرأة فى مجال الأعمال. بالنسبة لكبار الإداريين فى الشركات الكبرى يصل العمل إلى ٦٠ و ٧٠ ساعة أسبوعياً. لقد زاد إجمالى ساعات العمل للعائلات الأمريكية التى يعمل فيها الطرفان من ٨١ ساعة أسبوعيا سنة ١٩٧٧ إلى ٩١ ساعة أسبوعياً سنة ٢٠٠٢ حسبما تقول مؤسسة العائلات والعمل.

فى السنوات الأخيرة بشر البريد الإلكترونى والهواتف المحمولة وأجهزة النداء الآلى بإمكانية العمل من المنزل. وكانت تلك نهاية المنزل كمكان آمن؟

فاليوم تنتشر أجهزة النداء الآلى على أطراف ملاعب الأطفال لكرة القدم، وتهتز الهواتف المحمولة فى مسرحية المدرسة ونعود للبريد الإلكترونى بعد حدوتة قبل النوم، هذه الحقيقة بالذات على نفس القدر من العولمة مثل الأعمال التجارية نفسها. تقول مريديث مور مديرة الأبحاث فى كاتليست عن العراقيل التى تواجه النساء الإداريات فى أوروبا والولايات المتحدة «أدهشتنا قلة التنوع التى وجدناها. فى الوقت ذاته ازدادت سرعة الإيقاع على الجبهة المنزلية حيث اتسعت وظيفة الأم لتشمل إدارة جدول ضخم من الأنشطة المدعمة للطفل».

سوزان دوجلاس أستاذة دراسات الاتصال جامعة ميتشجان ومرديت مايكلز مدرسة الفلسفة فى كلية سميت بماستشوستس فى كتابهما الجديد (أسطورة مامى) تسميان الظاهرة الجديدة «الأمومة الجديدة» وتصران على أن الثقافة فى الوقت الحالى تؤكد على أنه على المرأة إن كانت تريد أن تكون محترمة ولو بقدر ضئيل أن توهب كامل كيانها الجسمانى والعاطفى والفكرى ٢٤ ساعة فى اليوم لأطفالها.

بالنسبة لأغلب الأمهات -والآباء أيضاً- لا يوجد خيار سوى الصمود على الجبهتين. إن ٧٢ ٪ من أمهات الأطفال الأصغر من ١٨ عاماً هن جزء من القوى العاملة الأمريكية - وهذا الرقم قد ارتفع بشدة منذ عام ١٩٧٥ حين كانت النسبة ٤٧٪ و لكنه ثابت منذ عام ١٩٩٧، فى ألمانيا تعمل ٦٤٪ ما بين أعمار ١٥ سنة و ٦٤ سنة.

أما فى الطبقات الإدارية والمهنية حيث تتيح الدخول الأعلى اختيارات أكثر فإن هناك ثورة متململة فى الطريق.

إن النساء الإداريات أقل استعداداً للعبة الموازنة بين الأدوار خاصة بشكلها السريع الحالى وهن أكثر استعدادا للتضحية بالمرتب والوضع الاجتماعى مقابل وقت أكثر مع عائلاتهن.

كما هو الحال مع هيلين باول فإن أغلب هؤلاء النساء يخترن التوقف المؤقت، وليس الخروج كلياً من سوق العمل، عادة بنية كبيرة فى الرجوع مرة أخرى وشعارهم فى ذلك: يمكنك الحصول على كل الأشياء و لكن ليس فى نفس الوقت. وعلى عكس بعض التقارير فإن هؤلاء النساء لم يعتنقن طراز الأمومة فى الخمسينيات وإنما طريق غير منتظم إلى قمة الهرم الوظيفى مع الإصرار على العودة إلى شكل ما من العقلانية.

تقول أرلى هوشايلد عالمة الاجتماع و مؤلفة كتاب (تطويق الوقت: عندما يصبح العمل منزلاً و المنزل عملاً) «إن ما تبعد عنه هذه المجموعة هو الأسبوع المكون من ٨٠ ساعة عمل. إنهن ملتزمات بالعمل ولكن كثيرات منهن قد شاهدن أمهاتهن و آباءهن يطحنهم العمل ويودون بالتالى إعطاء أبنائهم أكثر مما أخذوه. إنهم يريدون تحقيق توازن بين العمل والعائلة».

تبلغ إجازة الوضع فى بريطانيا حالياً ١٢ شهرا وتحصل الأمهات على راتب كامل لأول ٦ شهور وفى السويد يتقاسم الوالدان إجازة وضع تصل حتى ١٦ شهراً بنسبة من الراتب تصل إلى ٨٠٪ و لكن القليل من الناس يأخذون كامل مستحقاتهم بسبب ضغوط التنافس.

لقد عادت أنيكا سيفنسون مديرة قسم الأصول الثابتة إلى العمل بعد ١٣ شهرا من ميلاد طفليها، تقول : «لقد شعرت أنه ليس لدى خيار سوى العودة إلى العمل و إلا سأجد رجلاً عند البوابة لأخذ وظيفتى».

فى ألمانيا حيث تستطيع الأمهات العودة إلى وظائفهن حتى ثلاث سنوات بعد الوضع - وأحياناً حتى عيد الميلاد الثامن للطفل- تريد الكثير من الأمهات العودة إلى العمل ولكنهن يبقين فى المنزل بسبب قلة سبل العناية البديلة بالأطفال.

و تكشف الإحصائيات الأمريكية عن ارتفاع عدد الأمهات اللاتى يبقين فى البيت من حملة الشهادات العليا أو الشهادات المهنية - نفس النساء اللاتى كان مقدراً لهن اختراق السقف الزجاجى المتوقع لهن - فالآن يوجد ١٢٪ منهن بالمنزل مع الأطفال. وجدت دراسة لكتاليست أن واحدة من كل ٣ حاصلات على ماجستير إدارة أعمال لا تعمل وقتًا كاملاً (الرقم يصل إلى واحد من كل ٢٠ عند أمثالهن من الرجال) ترى الاقتصادية والمؤلفة هيوليت التى تدرس فى جامعة كولومبيا بنيويورك أن هناك إهدارا للعقول بين أفضل ١٠٪ من القوى العاملة النسائية (من يربحون أكثر من ٥٥ ألف دولار) تقول: «إن ما اكتشفناه بالنظر إلى هذه المجموعة هو أن النساء اللاتى يملكن بعض الاختيار يتوقفن عن العمل».

يرى بعض الخبراء الآخرين أن معدل التوقف عن العمل لا يزداد ولكنه يصبح ملاحظاً بشكل أكبر لأن هناك عدداً أكبر من النساء فى وظائف عليا.

فى عام ١٩٧١ حصلت النساء فى الولايات المتحدة على ٩٪ فقط من شهادات الطب ٧٪ من شهادات المحاماة و ٤٪ من شهادات الماجستير فى إدارة الأعمال. بعد ٣٠ عاماً أصبحت الأرقام بالتوالى ٤٣٪، ٤٧٪، ٤١٪ و من الأصعب العثور على الأرقام الأوربية، و لكن كاثرين حكيم عالمة الاجتماع فى لندن سكوول أوف ايكونوميكس تقول أن هذه الظاهرة أكثر تطابقاً للأجيال الأصغر و تقول سيسكا درسيلهايز (٦٠ عاماً) رئيسة تحرير الصحيفة النسوية الهولندية الشهيرة «البداية كانت من صنع جيلى والآن نرى أن بناتنا لديهن كل هذه الاختيارات التى لم تكن متاحة لنا. ماذا نختار؟ بالإمكان اختيار كل شىء ولكن هذا كثير بالنسبة لشخص واحد».

عامـــل الجيـــل

بالنسبة لمجموعة المهنيات الأكبر عمراً مثل درسيلهايز، اللاتى كبرن على سماع زمجرة هيلين ردى، تبدو هجرة النساء الأصغر عمراً رجعية بشكل مزعج. فاى كلايتون ٥٨ عاماً، الشريكة فى مكتب محام صغير بشيكاغو راقبت بتذمر خسارة شركتها المكونة من ١٥ شخصاً لثلاث شابات تركن العمل بعد الإنجاب وإن كانت إحداهن قد عادت للعمل نصف الوقت. تقول فاى كلايتون:«أخشى أن هناك شقاقا بين الأجيال و ربما خطوة للوراء بالنسبة للنساء الأصغر سناً».

أخريات يأخذن موقفاً أكثر تفاؤلاً. تقول جوان برنداج ٥١ عاماً المديرة التنفيذية لمنظمة (مذرآند مور) الداعمة للأمهات بـ ٧٥٠٠ عضو و ١٨٠ فرعاً فى الولايات المتحدة «إن الأمهات الأصغر عمراً لديهن توقعات أكبر بالنسبة للموازنة بين العمل و الحياة».

بينما كانت السيدات المولودات فى الخمسينيات يخشين التحدث عن أولادهن فى العمل خوفاً من أن يبدون غير جادات مهنياً، ترى النساء الأصغر: «أن هذه ليست طريقة للحياة. ما فائدة الحصول على كل هذه الأموال إن لم تكونى قادرة على التمتع بحياة عائلية طبيعية؟».

تقول سيدة من بروكسل لا تشاء ذكر اسمها إنما كانت تعرف أن مسارها المهنى المبشر كمحامية لدى الاتحاد الأوروبى كان فى طريقه للزوال. عندما عادت إلى العمل بعد انقطاع لمدة سبع سنوات رأت العمل غير مشبع فتركته ثانية لم يكن لديها شك أنها بدون أطفال كانت ستحصل على راتب أعلى ووظيفة أهم. ولكنها تختلف مع التعاريف التقليدية للعمل الشاق والإنجاز. «لا أعرف الكثير من النساء اللاتى يرين إنجازا فى الجلوس إلى مكتب والطيران حول العالم فى مدة ٨٠ ساعة فى الأسبوع. أنا أراه إنجازا وأعتقد أن أغلب النساء يرين ذلك حماقة» وتضيف أن الكثير من الطموح المهنى مجرد خيلاء. رغبة فى لقب وسيارة الشركة ولكن من يأبه لذلك.«تقول هذه



«الكثير من الطموح المهنى مجرد خيلاء. رغبة فى لقب وسيارة الشركة ولكن.. ماقيمة ذلك..؟ إن تربية الأطفال تكمن فيها «القوة والسيطرة الحقيقية على مستقبل العالم»

السيدة أن تربية الأطفال تكمن فيها القوة والسيطرة الحقيقية على مستقبل العالم».

كشفت دراسة لكاتاليست عام ٢٠٠١ على ١٢٦٣ رجلاً وامرأة أن الجيل المعروف بـ «جيل إكس» «لم يريدوا أن يقدموا نفس التنازلات التي قدمتها الأجيال السابقة. لقد رفضوا الضغوطات والتضحيات» كما تقول بوليت جركوفتش من كاتاليست: «لقد أعطى النساء والرجال معا أولوية أعلى للأهداف العائلية من الأهداف المهنية.»

وتخطط كاتاليست لبحث ميداني مماثل في أوربا.

تقدم دراسة أخرى قامت بها مجموعة ريتش أدفيسورز للتسويق أدلة أكثر على التغير في المواقف. قال الآباء والأمهات في جيل إكس (من ولدوا بين ٦٥- ١٩٧٩) إنهم يقضون وقتاً أكبر في تربية الأطفال من الآباء و الأمهات من بيبي بومرز (من ولدوا بين ٤٥-١٩٦٤) ومع ذلك فإن (جيل إكس) أكثر شكوى من البومرز في إنهم يحتاجون لوقت أكثر.

يقول جيمس تشانج رئيس (ريتش أدفيسورز) «في البدء تساءلنا هل هم جيل من الشكائين؟ ولكنهم فعلاً يريدون تمضية وقت أكبر مع أبنائهم».

وجدت ريتش أدفيسورز أن ٥١٪ من أمهات جيل إكس من الفئة الأعلى دخلاً (أكثر من ١٢٠ ألف دولار) لا يعملن خارج المنزل بالمقارنة بـ ٣٣٪ من أمهات البومرز من نفس الشريحة، ولكن هناك احتمالاً أكبر أن تختار النساء الأصغر سناً اللاتي لا يعملن خارج المنزل العودة إلى العمل. ٤٦ ٪ من جيل إكس عبرن عن هذا الهدف في مقابل ٣٤٪ من البومرز.

يتوقع تشانج وآخرون أن يكون من الممكن تفسير الاختلاف في الموقف جزئياً بالقوى المشكلة لكل جيل.

فبينما سعت الأمهات من جيل بومرز لفرص عمل لم تكن متاحة لأمهات ربات البيوت فإن جيل إكس عانوا من كونهم أبناء لآباء مطلقين كما أن مساراتهم المهنية كانت عثرة بين تقلبات الاقتصاد التي هزت ثقتهم في الإشباع في العمل.

لقد قضت بام بلا (٣٥ سنة) من سولت ليك سيتي بولاية يوتا سنوات في التقدم المهني في مجال الإنشاءات الذكوري حتى وصلت إلى منصب مهندس مواقع إنشائية في شركة كبرى ولكن بعد ولادة ابنتها قبل ١٢ شهرا قررت البقاء في المنزل. تقول بام: «لم تكن أمي تستطيع العناية بنا لأنها كانت تعمل، كانت تتركنا وحدنا في المنزل فنخاف ونختبيء تحت حوض المطبخ إذا دق جرس الباب».

تريد بام العودة إلى العمل عندما تدخل ابنتها إلى المدرسة و لكنها تأمل ألا تعاقب على السنوات التي قضتها في المنزل. تقول: «أشعر أنه سيكون على البدء في وضع أقل مما كنت عليه عندما تركت العمل. إن هذا يبدو غير عادل».

رغبات وشكوك الأمومة

وبرغم الشكوك فإن أغلب النساء اللاتي يتركن العمل يجدن متعاً متوقعة على الجبهة المنزلية هذا بالإضافة إلى الارتياح الذي يسببه عدم القلق من التقصير مع الأولاد. منذ ست سنوات أصبحت الحياة غير محتملة للكاتبة الدنمركية لوته جابرز البالغة من العمر ٣٦ سنة حالياً. فقد كانت تدير ميكروسوفت الدنمارك نهاراً وتقسم مشاوير الحضانة مساء مع زوجها لإحضار ابنيهما راسموس (١١ سنة) وجوناس (٨ سنوات) تقول: «لقد اكتشفت أنني لا أحب هذه الحياة مطلقاً» فهي اليوم صاحبة ثلاث روايات و كومبيوتر محمول يطن بهدوء في ركن المنزل المشمس في إسبرجراد، ٤٠ كيلو متراً شمال كوبنهاجن. في غرفة المعيشة يصنع جوناس خيمة مع صديقه بتغطية بعض كراسي موضوعة بشكل دائري بملاءة وتساعدهم لوته في إعادة بنائها كلما انهارت وتقول «لا أتصور العودة إلى العمل فهذا يتطلب حياة مبرمجة منذ الصباح الباكر حتى وقت متأخر مساء. أنا أحب أن يقضي أبنائي أياما هادئة معي».

وهناك آخرون يقدرون الإيقاع الاكثر هدوءاً وأن يكونوا حاضرين حين يسأل الطفل سؤالا صعبا. في ماكلين بولاية فرجينيا سأل ديلان (٨سنوات) ابن أوكي راسل فجأة «ماما من هو أبو الله؟» تقول راسل (٤٥ سنة) التي تركت وظيفة الأحلام كإدارية بمحطة تليفزيون «تغنين وأنت واقفة أمام الحوض ويداك منهمكتان بغسيل الصحون. هذا أمر ممتع جداً» وتتحدث عالمة النفس دافني دي مارنيف عن هذه المتع الخاصة في كتابها رغبات الأمومة الذي سيصدر في بريطانيا في سبتمبر. ترى دي مارنيف أن أنصار الحركة النسوية والمجتمع الأمريكي عامة قد تجاهل رغبة أغلب الأمهات الأساسية في قضاء وقت ذي معنى مع أبنائهن.

إن الكتاب يضفي على البقاء في المنزل لمعة ومثالية ولكنه يمكن أن يتسبب في ألف استقالة.

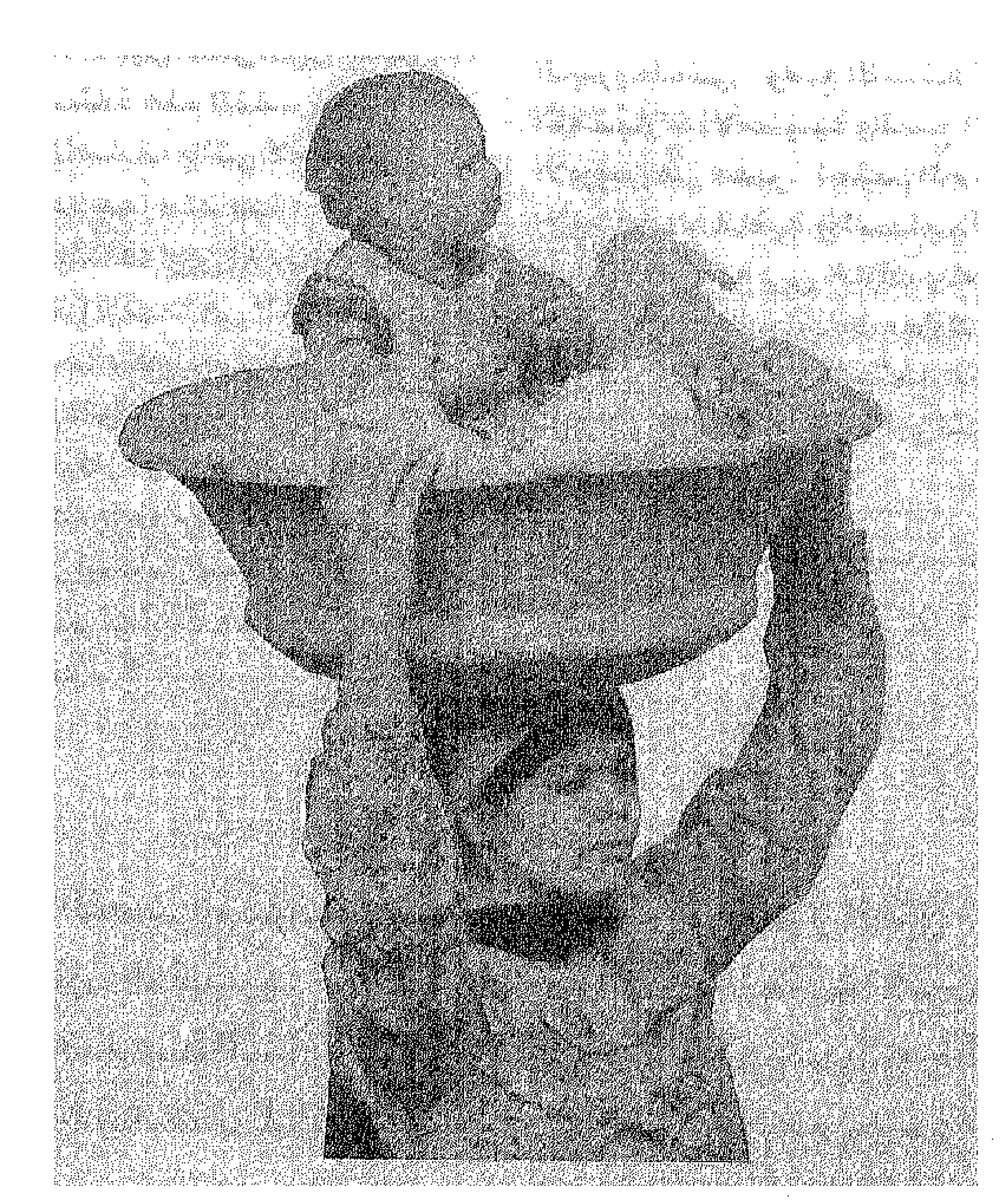
إن ما تغفله دي مارنيف بشكل كبير هو الإحساس بالفخر الذي تجنيه النساء من عملهن. فالنساء اللاتي يتوقفن عن العمل يجدن فقدان الهوية أصعب من فقدان الدخل. بعد ولادة ابنيها التوأم منذ ٦ سنوات قررت آجاثا برجيه (٣٤سنة) المراقبة المالية بشركة آرثر أندرسن بباريس أن تنتقل إلى قسم آخر داخل الشركة للتقليل من ضغط العمل ثم أتى طفلها الأصغر تشارلز بعد عامين فاختارت العمل نصف الوقت في نفس الشركة ولكنها كانت تفتقد أولادها فتقول «ببساطة لم أكن أراهم وهم يكبرون وكان هذا أمراً يشغل فكري دوماً».

في عام ٢٠٠٣ اختارت ترك العمل كلياً وكانت سعيدة لقضائها وقتاً أطول مع الأطفال ولكنها وجدت حنيناً لهويتها وقت العمل. و هي الآن تبحث عن عمل نصف الوقت و تقول «في الحقيقة إن العمل ليس المال أو القوة ولكنه الوجود. إن المجتمع ينظر بدونية للمرأة التي تبقى في المنزل».

و تقول برونوين تول (٤١ سنة) التي تخلت عن وظيفتها في واشنطن لتبقى مع ابنيها «أنا لست نادمة على تركي العمل و لكن شيئاً كبيراً مني قد اختفى.» الآن عندما تحضر دعوة لها علاقة بالعمل مع زوجها رايموند الذي يعمل في الغرفة التجارية الأمريكية تشعر أنها مهمشة. تقول تول «الجميع يتحدث عما يعملون وعندما تقولين أنا أم ولا أعمل خارج المنزل فإن هذا يقتل الحديث».

في العام الماضي عندما دخل أصغر أبناء تول إلى الحضانة عادت قليلاً إلى عالم العمل فوجدت عملاً نصف الوقت في شركة معمارية تقدمية التفكير ولكنها تأمل في العودة إلى مجالها قريبا و تضيف «أتمنى لو كان هناك عمل أكثر نصف الوقت أو بالمشاركة مع آخرين».

إنها رغبة تشاركها فيها الكثير من الأمهات العاملات سابقاً في الولايات المتحدة. ولكنه واقع في أغلب أوربا لقد بدأت الحكومة الهولندية في تشجيع العمل نصف الوقت كطريقة لمواجهة البطالة. ويحصل العاملون نصف الوقت على نفس الامتيازات و فرص التدريب والتعلم المتاحة لمن يعملون كامل الوقت. الآن يعمل ٢٠٪ من الرجال الهولنديين و٧٣٪ من النساء الهولنديات نصف الوقت



بالمقارنة بـ١٧٪ من الأمهات اللاتى لديهن طفل أصغر من ١٨سنة فى الولايات المتحدة. و يوجد عاملون لنصف الوقت بهولندا أكثر من أى مكان فى العالم الصناعى.

ولقد أصبح لخيارات العمل نصف الوقت شعبية لدرجة أن ١٠٪ من الآباء والأمهات يختارون العمل لكل منهم ٤ أيام فى الأسبوع. بعد أن أنجبت الصحفية بيتزيل جروين ٣٢ سنة العاملة فى أمستردام ابنتها كيكا (سنتان ونصف) خفضت هى و شريكها توبس باردمان أيام عملهما إلى ٤ أيام أسبوعياً لكل منهما. تقول جروين «لقد كان قراراً سهلاً فعطلة نهاية الأسبوع وحدها ليست كافية لقضاء وقت مع ابنتى».

ولدى باردمان الذى يبدأ إجازته الأسبوعية الآن مساء الخميس نفس الشعور إذ يقول «انا سعيد جداً فأنا الآن قادر على المضى فى مسارى المهنى بشكل جدى ويكون عندى الوقت لعمل أشياء أخرى فى حياتى» ولكن ليس كل الأوروبيين مرتاحين لفكرة العمل جزءاً من الوقت فتقول الأم السويدية سيفنس«انا مقتنعة انى إذا طالبت بساعات عمل مخفضة فسأنتقل إلى وظيفة أقل أهمية كما أن الآباء الأوروبيين يخشون أن يخسروا موقعهم لخصومهم إذا استفادوا من إجازة الأبوة».

البناء على المنحدرات

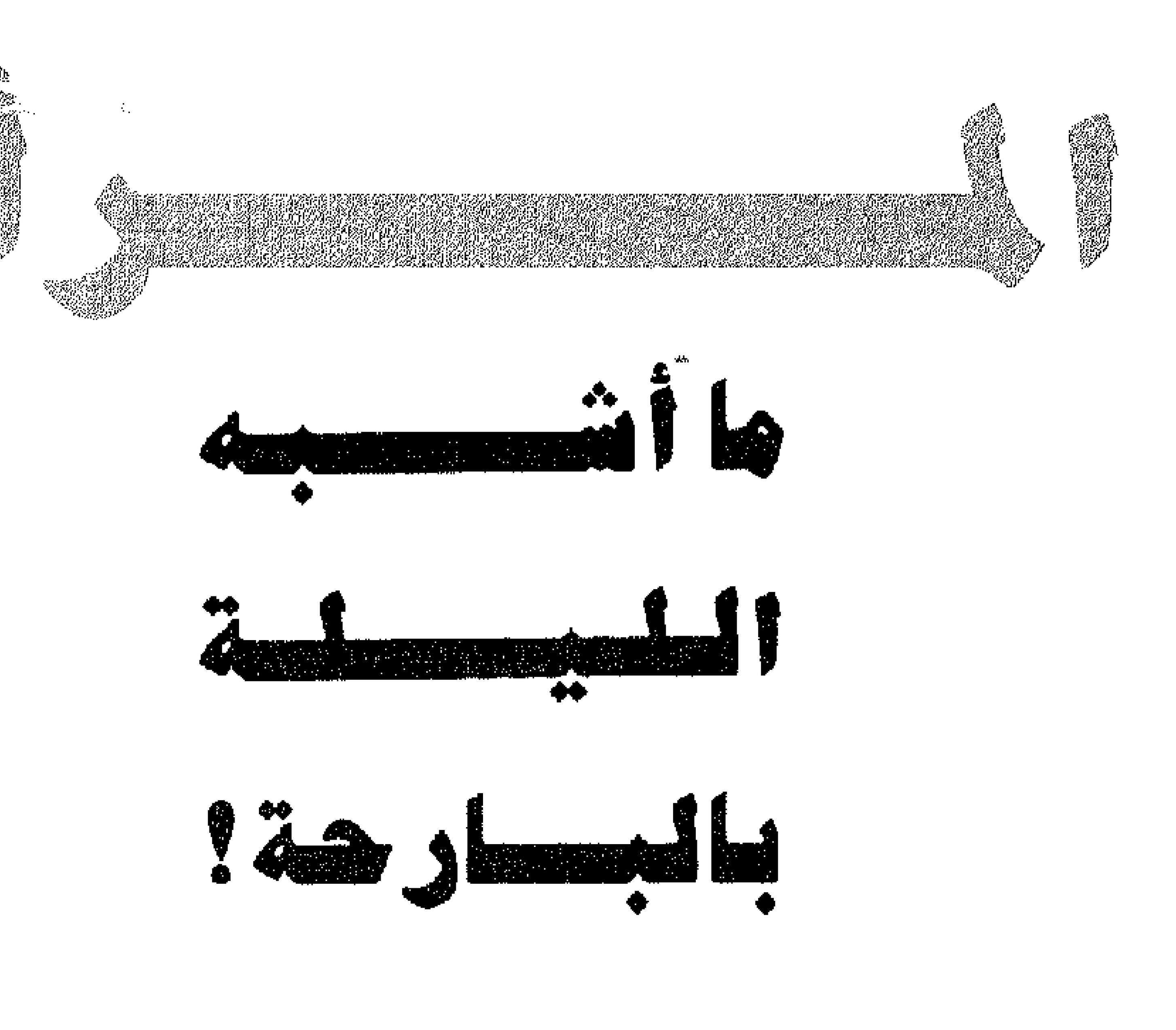
«إنها حرب حول الموهبة» كما تقول كارولين بلك لوس الشريكة فى شركة إرنست و يونج للمحاسبة و التى تشارك أيضاً فى رئاسة فريق العمل. فالعشرون عاماً الماضية مثلت النساء نصف من تم توظيفهم فى إرنست أند يونج تلحظ لوس أن الشركة ليست فقط حريصة على الاحتفاظ بهن و لكن أيضا على إعادة جذب من تركن العمل لرعاية أطفالهن. فى هذا الربيع أطلق ديلويت تو شيه توهماتسو برنامج المسعى الشخصى الذى سيتيح لمن يكون أداؤهم فى العمل أعلى من المتوسط أن يحصلوا على إجازة بدون مرتب لمدة ٥ سنوات لأسباب شخصية. ومع أن أغلب الامتيازات ستتوقف إلا أن الشركة التى كانوا يعملون فيها ستستمر فى دفع الرسوم السنوية للتراخيص (لممارسة المهنة) لمن يقومون بالإجازة وستدفع أيضاً تكاليف إرسالهم لدورات تدريبية لمدة أسبوع سنوياً للحفاظ على مهاراتهم. ولقد أطلقت هذه المجهودات مصطلحاتها الخاصة فالمهنيون الذين يعودون لأصحاب العمل مرة أخرى يعرفون بالـ(البومرانج) و الجهود لإعادتهم للعمل تعرف بشئون الخريجين. وتدفع الأسباب الديموغرافية الشركات لأخذ الأمر بجدية. فالبومرز يقتربون من سن التقاعد مما يهدد بنقص مقداره ١٠ ملايين عامل فى العام ٢٠١٠ فى الولايات المتحدة.

هل ستنجح هذه البرامج؟

هل ستكون الوظائف لجزء من الوقت فعلاً؟ أم ستكون وظائف نظامية مدفوعة جزئياً؟

هل يمكن للمهنيين الذين سينتقلون إلى الطريق الأبطأ أن يزيدوا من سرعتهم عندما يكبر الأولاد؟ و الأهم هو هل ستتطور ثقافة الشركات إلى الحد الذى سيجعل الموظفين يشعرون بجرأة حقيقية عند استخدام هذه الخيارات؟

ولكن المنحدرات الصاعدة والطرق البطيئة والاختيارات المرنة وكل المسارات المماثلة لا تأتى بسرعة كافية للأمهات اللاتى يرغبن فى إرساء مثال وتقديم اختيارات للجيل التالى. تارى لافلين (٣٨ سنة) أستاذة علم النفس فى جامعة نبراسكا سابقاً والتى لا تعمل حالياً انزعجت جداً منذ عدة أسابيع حين أعلنت ابنتاها ارين (٨ سنوات) ومولى (٦سنوات) نيتهما فى الزواج من رجال «لديهم ما يكفى من المال لنبقى فى المنزل» و تقول لافلين «أريد أن أتأكد من أنهما تدركان أن البقاء فى المنزل شىء رائع ولكنه واحد من عدة اختيارات. ما أتمنى أن أوضحه لهما هو أننى فى وقت ما يمكننى أن أعيد خلق نفسى والعودة إلى العمل». ■



المرأة
ما أشبه الليلة بالبارحة!

هدى الصدة

شهد النصف الثانى من القرن التاسع عشر تطورات سريعة على المستوى السياسى والاجتماعى والثقافى. فبعد إنشاء مطبعة بولاق فى النصف الأول من القرن سنة ١٨٢٠، ثم انتشار المطابع الخاصة، انتشر التعليم حيث بدأ التوسع فى إنشاء المدارس الحديثة الى جانب الكتاتيب، ونشطت حركة الترجمة، وزاد عدد الصحف الصادرة فى مصر بشكل ملحوظ، ولا سيما المجلات النسائية التى أفسحت الطريق لأعداد كبيرة من النساء للتعبير عن همومهن. ومن ثم ازدهرت وانتشرت المنابر الثقافية والسياسية المكرسة للتحاور والجدل. ومع إعلان الحماية البريطانية على مصر سنة ١٨٨٢ بدأ عصر الاحتلال البريطانى. ومع الاحتلال زادت الامتيازات الأجنبية واتسع النفوذ الأوروبى فى مصر. احتدم الجدل فى الأوساط الثقافية والسياسية حول العلاقة المرغوبة بين التراث والمعاصرة، بين الشرق والغرب، ودارت معارك فكرية وسياسية حول شكل المجتمع الحديث، حول الصورة الأمثل للرجال والنساء فى الوطن، حول قضايا اللغة والأنواع الأدبية والفنون، حول الانتماءات الأيديولوجية والتحالفات السياسية. تعقدت القضايا واختلطت الهموم بسبب التدخل المستمر لممثلى الاحتلال الإنجليزى فى الشأن المصرى والعربى.

ومن القضايا الرئيسية التى طرحت بقوة على الساحة الثقافية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، قضية وضع المرأة فى المجتمع. ارتبطت هذه المسألة بمشروع تحديث المجتمع بسبب شيوع فكرة أساسها أن وضع المرأة العربية «المتخلف» هو من أهم أسباب تخلف المجتمعات العربية، وأن تحسين هذا الوضع هو شرط أساسى لقيام الدولة الحديثة. كان لممثلى الاستعمار الفضل فى الترويج لهذه الفكرة، واستخدمت حجة معاناة المرأة العربية من القهر الواقع عليها بسبب سطوة المجتمع الذكورى العربى لتبرير «ضرورة» استمرار قوات الاحتلال البريطانى فى حكم مصر لأن رجالها غير قادرين على توفير العدل والمساواة لكافة أفراد الشعب. المهم أن هذه الفكرة الاستعمارية كان لها أثر بالغ على جميع الأطراف، واختلفت ردود الأفعال، ولكن نجد أن معظم الفاعلين اتفقوا على أهمية التركيز على تحسين وضع المرأة فى المجتمع. ولذا، نجد أن جميع مفكرى النهضة بلا استثناء تطرقوا بطريقة أو بأخرى لمسألة المرأة، والقواعد التى سوف

من مقدمة الكتاب الذى إصدره ملتقى المرأة والذاكرة (القاهرة) عن عائشة التيمورية



القصد هو توضيح أن هذه الأفكار التى تحول المنزل إلى المكان «الطبيعى» للنساء، وتجعل الوظيفة الأساسية للنساء هى خدمة الزوج والأولاد، هى أفكار تم بلورتها ونشرها على نطاق واسع نتيجة للتفاعل الذى حدث بين الثقافة العربية والثقافة الغربية

تحكم علاقتها بالرجل وفق المتغيرات الجديدة التى يأتى بها المجتمع الحديث.

كان من تداعيات هذه الفكرة أن سادت واستقرت فكرة أخرى بالغة الخطورة، مفادها أن المجتمع الحديث جاء بكل الحقوق للنساء، فلقد أتاح للنساء التعليم وفرص الخروج للعمل والظهور فى المجال العام، وأن جميع الانحيازات أو المشاكل التى تواجه نهضة النساء هى من بقايا العهود القديمة التى عزلت النساء وحرمتهن من حقوقهن الإنسانية. استشرت هذه الفكرة فى القرن العشرين وتأصلت فى جميع المحافل التى تركز على إنجازات النساء فى العصر الحديث، وظهور أول طبيبة وأول مدرسة وما إلى ذلك. يستند خطاب الأوائل هذا إلى فرضية أن هذه المهن، على سبيل المثال لا الحصر، لم تمارسها النساء إلا فى العصر الحديث حين حصلن على حقوق لم تكن متاحة لهن من قبل. هذا الخطاب مبنى على مغالطة تاريخية تركز فقط على فترات الانحسار وتتجاهل انخراط النساء فى مجتمعات ما قبل العصر الحديث، وتنفى عنهن مساهماتهن فى صنع التاريخ والحضارة الإنسانية. ومع اعتبار أن المجتمع الحديث أتاح فرصة التعليم لأعداد كبيرة من النساء والرجال، وأن هناك تطورات وإضافات على مستويات كثيرة فى الحياة الاجتماعية والثقافية لا يمكن إغفالها، ولكن، الإصرار على فكرة أن جميع الإيجابيات فى حياتنا هى نتاج العصر الحديث، وجميع السلبيات هى تراث الماضى تؤدى الى مغالطات جسيمة. أولا، إن المبالغة فى تمجيد العصر الحديث والمفاهيم الحداثية التى تدعم من التعارض بين الجديد والقديم، أدت فى مجال تاريخ النساء مثلا الى إغفال مساهمات لنساء قدمن خطابا مغايرا للخطاب الحداثى السائد، أو حاولن تقديم رؤى لا ترى حتمية هذا الصراع بين القديم والجديد. ثانيا، يؤدى هذا الإصرار على إيجابيات العصر الحديث إلى التعمية على المشاكل والسلبيات التى استجدت فى حياتنا وثقافتنا مع قدوم هذا العصر الحديث، بل والأدهى من ذلك، نجد أن أفكارا حديثة مناهضة لحقوق النساء والتى لم يكن لها وجود قبل القرن التاسع عشر قد أضفى عليها صبغة ثقافية وأصبحت تقدم بوصفها جزءاً أصيلاً من ثقافتنا العربية. ثالثا وأخيرا، أدت هذه المبالغة فى طرح قضية المرأة بوصفها رمزًا للمجتمع الحديث أن أغفل المحللون تناول «قضية الرجل»، أو بعبارة أخرى، لم يلتفت كثيرا الى أن أى محاولات لتعريف ماهية الأنوثة فى سياق ثقافى تنطوى على محاولات لتعريف ماهية الرجولة، ومن ثم المواقف المعلنة بصفة متكررة تجاه قضية المرأة هى مواقف مستترة من مأزق الرجل العربى فى العصر الحديث. وتكون النتيجة خلطًا مفزعًا للأوراق حينما نتحدث عن مسألة المرأة.

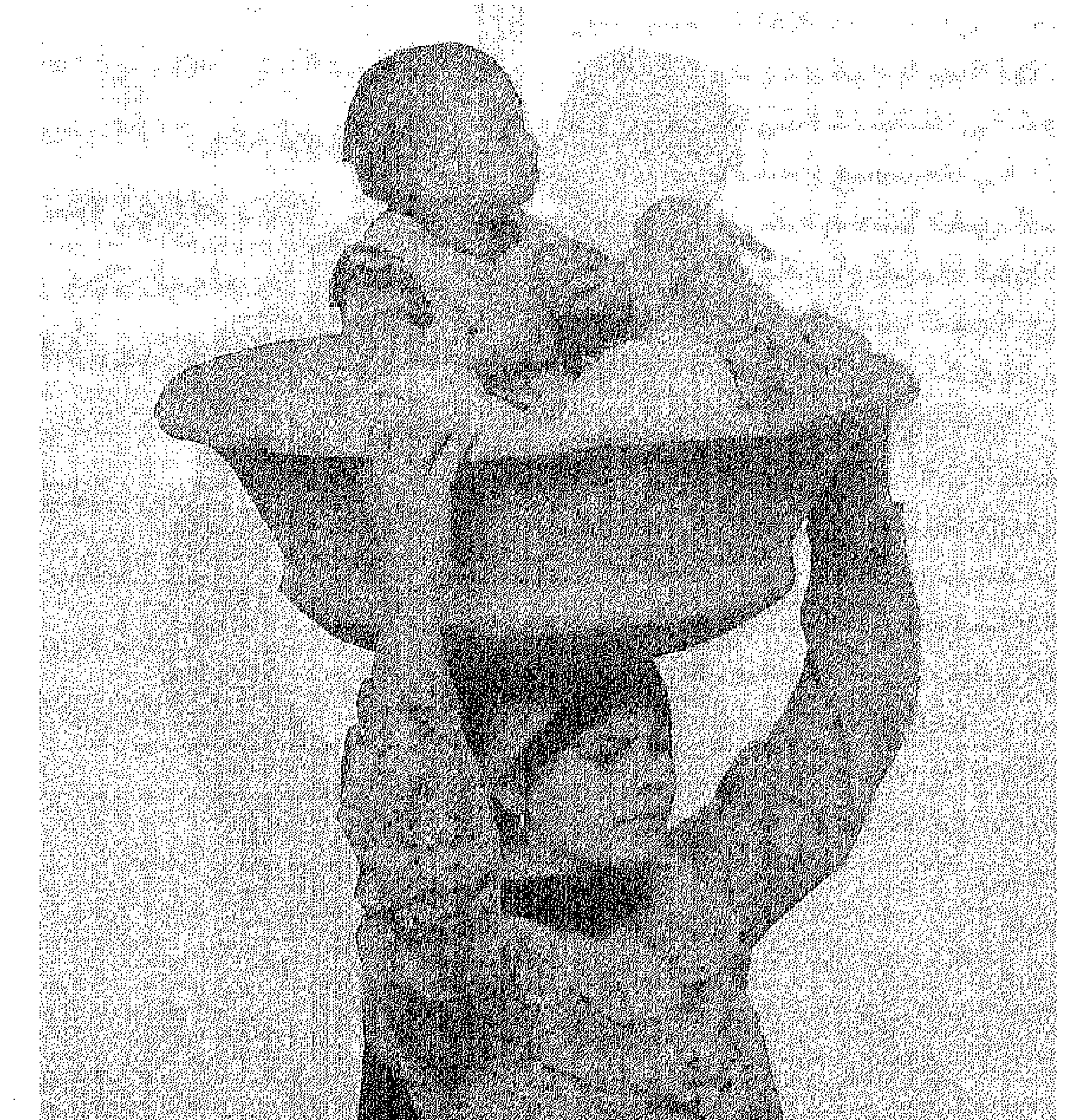
سوف أتعرض بإيجاز شديد لفكرتين أو أسطورتين على درجة عالية من الشيوع تم استحداثهما فى العصر الحديث وكان لهما سطوة بالغة، وما زال، فى التأثير على تعريفات الأنوثة والرجولة، والطرح الثقافى والاجتماعى لقضية المرأة: أسطورة أن البيت هو مملكة المرأة، وأسطورة أن الرجل متفوق بيولوجيا، ومن ثم عقليا على المرأة.

البيت: مملكة المرأة

من أعتى المعوقات التى تقف أمام النساء فى سعيهن نحو الحصول على المساواة فى الحقوق والواجبات إلى يومنا هذا افتراض أن المكان الطبيعى للمرأة هو المنزل وأن وظيفتها هى رعاية الزوج والأولاد، وأن هذا النمط من الحياة هو النمط المعبر عن ثقافتنا العربية. فمن القضايا التى احتلت حيزا كبيرا على الساحة الثقافية قضية وضع المرأة وعلاقتها بالمجال العام. وضمن مشروع وطنى لتحديث المجتمع والنهوض بمستوى جميع أفراده طرحت هذه الأسئلة: هل يمكن للمرأة أن تخرج للعمل مثل الرجل، أو أن مكانها الأمثل هو البيت؟ هل مطلوب من النساء المشاركة فى المجال العام، أم أن وظيفتهن الأساسية هى رعاية الأسرة والأطفال؟ هل النساء قادرات على القيام بأعمال الرجال؟ هل هن مؤهلات لحمل أعباء الحياة الثقيلة، أم أن طبيعتهن لا تسمح لهن بذلك؟

فكرة أن البيت هو مملكة المرأة فكرة حديثة بالدرجة الأولى. فلقد كان للثورة الصناعية فى القرن الثامن عشر فى أوروبا بعض الآثار العميقة على حياة النساء فى إنجلترا على سبيل المثال. أفرزت الثورة الصناعية أشكالا جديدة من العمل وأظهرت أنماطا من العيش لم تكن شائعة من قبل. فقبل قيام هذه الثورة الصناعية، كان النساء والرجال يعملون جنبا الى جنب فى الحقول مثلا، ولم يكن هناك هذا الفصل الصارم بين ما هو داخل المنزل وما هو خارجه. مع بدايات القرن التاسع عشر، تبلورت سمات الطبقة المتوسطة الصاعدة التى ارتبطت حياتها بمقومات الإنتاج الصناعى الحديث وبأشكال العمل الجديدة القائمة أساسا على مفهوم «تقسيم العمل». فنجد الأسرة التى يذهب الزوج فيها الى العمل خارج المنزل فى المصنع أو المكتب، ويترك المنزل تحت رعاية زوجته. فى هذه اللحظة تبلور مفهوم المجال العام والمجال الخاص، وارتبط المجال العام بعمل الرجال الدفوع الأجر خارج حدود المنزل، وتحدد المجال الخاص بعمل النساء غير المدفوع الأجر داخل حدود المنزل. وبالتدريج، تشكلت أيديولوجية جديدة عن ماهية الأنوثة، بحيث أصبحت المرأة مكلفة برعاية بيتها وأولادها فى أثناء ذهاب زوجها للعمل خارج المنزل. وتحددت خصائص هذه الأنوثة الأصيلة بصورة مثالية عن امرأة الطبقة المتوسطة التى تحافظ على بيتها فى غياب زوجها ولا تضطر للقيام بأعمال شاقة خارج المنزل. وفى عصر الملكة فيكتوريا (١٨٣٧-١٩٠١) انتشرت هذه الأيديولوجية الجديدة واستقرت متأثرة بالصورة المثالية التى قدمت للناس عن الملكة فيكتوريا راعية الأسرة ورمز الأمومة المثالية. ومع ازدهار الصحافة والتوسع الذى شهده القرن التاسع عشر فى صدور المجلات النسائية، انتشرت هذه الأيديولوجيا وأثرت على قطاعات كبيرة من الناس. وعلى الرغم من أن هذه الصورة المثالية لامرأة الطبقة المتوسطة القابعة فى مملكتها الصغيرة لم تكن ممكنة أو متاحة لأغلبية النساء من الطبقات الفقيرة اللاتى كن يعملن ليعلن أسرهن، إلا أن هذه الأيديولوجية استقرت واستشرت الى درجة أنها أصبحت تمثل النموذج القيمى لسلوك المرأة وعلاقتها بالمجتمع. ومن الكتب الشهيرة التى روجت لهذه الصورة كتاب جودى أو Godey's Ladies Book الذى صدر سنة ١٨٥٠، أما كتاب السيدة بيتون أو Mrs. Beeton's Book of Household Management الصادر سنة ١٨٦١، فكان من الكتب الأكثر مبيعا لمدة خمسين عاما. ثم، طغت هذه الأيديولوجية على محتوى المجلات النسائية فامتلأت هذه المجلات بنصائح لربة المنزل الحديثة ترشدها الى كيفية إدارة شئون منزلها على أكمل وجه. ومن الجدير بالذكر أن نلحظ التزامن بين ظهور هذه الأيديولوجية الطاردة للنساء من المجال العام، وبين نمو حركات المطالبة بحقوق النساء ودخولهن المجال العام فى إنجلترا وبلدان العالم.

انتقلت هذه الفكرة إلى العالم العربى من خلال الكتب والصحف والمجلات. فمن تجليات الاهتمام



العميق بوضع المرأة فى المجتمع، أن اهتم رواد النهضة بصورة المرأة الأوروبية، وعقدت مقارنات عديدة بينها وبين المرأة المصرية، وقامت معظم الصحف والمجلات بالحديث عن حياة هذه المرأة الغربية باعتبارها نموذج المرأة العصرية الحديثة. تنوعت المادة المقدمة، فقدمت المرأة الغربية وهى تقتحم مجالات «جديدة» غير متاحة للمرأة المصرية فى ذلك الوقت، وامتلأت الصحف بصور لهذه المرأة الجديدة. وفى نفس الوقت، تم تقديم مادة مستوحاة من المجلات الغربية التى تقدم نصائح عن تدبير المنزل، وكيفية رعاية الأطفال. نرصد هنا أبوابا استقرت بعد ذلك فى الصحف والمجلات عنوانها «المرأة والطفل»، «تدبير المنزل»، وغير ذلك من الأبواب التى تكرس لنمط حياة لنموذج محدد من النساء المنتميات للطبقة المتوسطة، وتروج لهذه الأيديولوجية المستحدثة عن البيت بوصفه المكان الأمثل للنساء. ومن الجدير بالذكر أن كثيرا جدا من المجلات التى صدرت فى مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين اعتمدت على ترجمة موضوعات مأخوذة من مجلات غربية، أو استوحت موضوعات وطوعتها لتناسب السياق العربى، هذا بالطبع الى جانب نشر الموضوعات والقضايا النابعة من الواقع العربى. ليس الهدف من هذا الطرح القول بأن الصحافة النسائية المصرية مثلا وقعت تحت أسر أفكار غربية وقدمتها، ولكن القصد هو توضيح أن هذه الأفكار التى تحول المنزل الى المكان «الطبيعى» للنساء، وتجعل الوظيفة الأساسية للنساء هى خدمة الزوج والأولاد، هى أفكار تم بلورتها ونشرها على نطاق واسع نتيجة للتفاعل الذى حدث بين الثقافة العربية والثقافة الغربية.

وعندما نادى قاسم أمين (١٨٦٣-١٩٠٨) بتحرير المرأة، كان يتحدث عن امرأة الطبقة المتوسطة التى تعيش فى المدينة. فهذه المرأة هى التى اعتبرها سبب تخلف المجتمعات العربية لأنها لا تتساوى مع زوجها فى التعليم ولا تعرف مقداره. وبالتالى، وفقا لقاسم أمين، فهى لا تكسب احترامه لأنها تفشل فى إدارة منزله وتفشل فى رعاية أولادها حسب قواعد التربية الحديثة ولا تستطيع أن تكون شريكة الحياة والروح التى يتطلع لها الرجل المصرى الحديث. أيضا، تشكلت حياة هذه الطبقة فى العصر الحديث وفقا للمتغيرات الاقتصادية والاجتماعية التى أفرزت أشكالا جديدة من العمل خارج المنزل، وحصرت نساء هذه الطبقة داخل المنزل. فنجد أن قاسم ركز على إتاحة التعليم الابتدائى للنساء لكى يساعدهن على القيام بوظيفتهن الأساسية فى رعاية الزوج والأولاد. أدرك قاسم أمين أن هذه الفجوة بين الزوج وزوجته هى من خصائص عائلة الطبقة المتوسطة، وليست موجودة بين الفلاح والفلاحة، حيث تعمل الفلاحة جنبا الى جنب مع زوجها، كما تتساوى مع زوجها فى مستوى التعليم والثقافة. ولكن، تجاهل قاسم أمين وضع المرأة الفلاحة المنتجة ولم يعتبرها النموذج المعبر عن وضع النساء فى المجتمع، وركز على نساء الطبقة المتوسطة وصاغ خطابا ليبراليا عن تحرير المرأة يستوحى حياة طبقة بعينها ليعممه على جميع النساء. أما عبدالله النديم، فعلى الرغم من توجهه إلى عامة الناس فى كتاباته، إلا أنه يروج لقيم وأخلاقيات الطبقة المتوسطة ويتجاهل واقع حياة النساء والرجال من الطبقات الفقيرة حيث تعمل النساء مع الرجال وحيث تتلاشى ثنائية العام والخاص خاصة فى الريف. أى أن النديم يروج هو أيضا لأيديولوجية مستحدثة فى العصر الحديث قوامها أن البيت مملكة المرأة وأن المرأة الفاضلة هى التى لا تخرج عن حدود بيتها.

الإصرار على فكرة أن جميع الإيجابيات فى حياتنا هى نتاج العصر الحديث، وجميع السلبيات هى تراث الماضى يؤدى الى مغالطات جسيمة



أسطورة التفوق البيولوجى

من النظريات التى كان لها تأثير قوى على صياغة وبلورة الأيديولوجية الحداثية عن البيت بوصفه المكان الطبيعى والمفضل للنساء، هى نظرية تعرف الآن بالعنصرية العلمية. يرجع تاريخ نشأة هذه النظرية إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر ويمتد ليصل إلى ذروته فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. تشمل هذه النظرية اتجاهات مختلفة أو تيارات فكرية متعددة ولكنها فى النهاية تصب فى رافد واحد وهو التأصيل العلمى لتراتب هرمى بين الحضارات والأجناس والأعراق والأنواع حيث تقدم الأبحاث والنظريات العلمية مبررا «علميا» للممارسات العنصرية أو الاستعمارية التى تميز بين الأجناس والشعوب بدعوى التمايز فى درجة الرقى أو الحضارة أو التطور. وإذا حاولت تقديم أهم الاتجاهات التى ظهرت ضمن هذه النظرية العلمية باختصار، يمكننا رصد اتجاهين أساسيين. الاتجاه الأول هو ما يطلق عليه monogenesis القائل بوحدة الأصل أو أن جميع الأجناس والأعراق تأتى من أصل واحد ولكنها تختلف فى درجة التطور أو فى مرحلة التطور، حيث يحتل الجنس الأبيض أعلى مراتب التطور ومن ثم يحق له إرشاد بقية الأجناس إلى طريق الحضارة والمعرفة. أما الاتجاه الثانى فيطلق عليه polygenesis أى أن الأجناس المختلفة تأتى من أصول مختلفة ومن ثم لها خصائص وقدرات مختلفة، وبهذا يحتل الرجل الأبيض المكانة الأعلى ولكن يتقلص أمل بقية الأجناس فى الوصول إلى نفس درجة التطور لأنها، وفقا لهذا الاتجاه، لا تملك الخصائص المؤهلة. يرصد روبرت يونج Robert Young مسار هذه الاتجاهات المتعددة فى سياق تاريخى اجتماعى، فيذهب إلى أنه فى أوائل القرن التاسع عشر، تأثرت الأيديولوجيا العنصرية بالفكر التبشيرى المسيحى الذى تعامل مع التوسع الاستعمارى من منطلق نشر قيم مسيحية من شأنها تحقيق السمو الأخلاقى ومن ثم الحضارى للشعوب، كما تأثرت النظرية بحركات تحرير العبيد التى علا صوتها خاصة فى أمريكا والتى نادت بالمساواة بين البشر من حيث القيمة الانسانية. ولكن، فى منتصف القرن، خاصة فى ١٨٥٠ مع ظهور كتاب روبرت نوكس Robert Knox الأجناس البشرية (The Races of Man) انتشرت نظرية تعدد أصول الأجناس ووجدت صدى واسعا خاصة فى أمريكا ضمن دوائر مناهضة حركة تحرير العبيد، وأيضا عند منظرى التوسع الاستعمارى الذى نشط فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر. وكما يقول يونج، أصبح الجنس (race) المحدد الأساسى للحضارة والشخصية والتاريخ. كان لهذه الاتجاهات تداعيات علمية ونظرية عديدة، فمثلا استحدث

فرانسيس جالتون Francis Galton، وهو من أقارب داروين، نظرية الـ eugenics حيث قام بالترويج لضرورة تشجيع الأشخاص الذين يملكون جينات أفضل على التناسل من أجل تحسين مقومات البشرية، وهى أفكار دعت بطريقة مباشرة أو غير مباشرة الى التخلص من الأشخاص أو الأجناس «الأدنى»، ويرى كثير من المحللين أن هذه النظرية ساهمت بشكل أساسى فى صياغة الأيديولوجية النازية فى ألمانيا فى النصف الأول من القرن العشرين. أما اوجست كونت Auguste Conte وهو مؤسس علم الاجتماع، فلقد استخدم أيضا نظريات العنصرية العلمية للقول بأن للرجل خصائص عقلية تميزه عن الحيوان وأن هذه الخصائص فى درجة أعلى عند الرجل مقارنة بالمرأة ومن ثم فإن الدعوة الى المساواة بين الجنسين تتعارض مع الطبيعة البيولوجية والاجتماعية للإنسان.

وجدت هذه النظريات العنصرية طريقها الى الشرق والعالم العربى بطبيعة الحال من خلال كتابات ومفكرين كثيرين نهلوا من المصادر العلمية الغربية ونقلوا النظريات والأفكار من أجل إثراء الواقع الثقافى العربى. ومن المهم فى هذا المقام التأكيد على أهمية الدور الذى لعبه هؤلاء المفكرون فى التقريب بين الشرق والغرب وسعيهم نحو نهضة الشرق بواسطة نقل أحدث النظريات العلمية اليه، وهو هدف جليل فى مشروع النهضة العام. ولكن، أحاول هنا التدقيق فى فحوى بعض هذه النظريات، لا بهدف التشكيك فى المشروع الثقافى ككل، ولكن بهدف تفكيك مقولة أن كل ما جاء مع الحداثة كان جيدا ومساندا لحركة تحرير النساء.

سوف أعرض باختصار لمقالة كتبها شبلى شميل سنة ١٨٨٦ ونشرها على صفحات المقتطف، عنوانها: «المرأة والرجل وهل يتساويان». درس شبلى شميل (١٨٥٠-١٩١٧) الطب فى سوريا وباريس ثم جاء الى مصر حيث مارس مهنة الطب وانخرط فى الحياة الثقافية المصرية. ويعد شميل واحدا من مفكرى القرن التاسع عشر الذين آمنوا بأهمية العلم والنظريات العلمية الحديثة فى توضيح بعض القضايا الثقافية والاجتماعية وإيجاد حلول لها. وكما فعل أوجست كونت، استخدم شميل نظريات عنصرية علمية للترويج لمقولة أن هناك اختلافات «طبيعية» بين الرجل والمرأة مرتبطة برحلة التطور والارتقاء بحيث يحتل الرجل مرتبة أعلى من المرأة. يقول فى نهاية مقالته:

والخلاصة من جميع ما تقدم أن غلبة الأنثى على الذكر لا ترى إلا فى بعض أنواع الحيوانات السفلى أو فى بعض فروع البشر السفلى ولا يرى تساويهما إلا فيما كان فوق ذلك قليلا كما فى بعض الأنواع الحيوانية والفروع البشرية السافلة وكما فى أحداث الأمم المتمدنة ومشايخهم إذ أن الطرفين يتساويان فى كل أمر وأما فى الأنواع الحيوانية العليا وفى فروع البشر المرتقية وفى منتهى النمو فالغلبة دائما للذكر جسديا وعقليا وأدبيا ولا تكون غير ذلك إلا إذا انقلب الموضوع وانعكس المطبوع. وعليه فنطلب فى المستقبل ألا يقدر لنسائنا أن يتغلبن على رجالنا أو يساوينهم ولا نظن أن نساءنا يرضين غير ما طلبنا بناء على ما عهدن من سنن الارتقاء.

وجدت هذه الأفكار صدى واسعا خاصة ضمن الدوائر العلمية الثقافية وقام بعض الأطباء والمتخصصين فى العلوم الطبيعية بابداء رأى العلم فى القضايا الاجتماعية. وفى ١٨٩٤، عندما أرسل أحد القراء رسالة الى مجلة الهلال يسأل فيها رأى المفكرين فى شرعية حركة المطالبة بحقوق النساء، أحال جورجى زيدان الرسالة الى أمين خورى، وهو طبيب، لابداء رأيه فى هذا الخصوص. استخدم أمين خورى النظريات العنصرية مرة أخرى لمناهضة دعاوى المساواة، واستمر الجدل حول هذا الموضوع ستة أشهر، واشترك فيه النساء والرجال. والنقطة الأساسية فى هذا الموضوع أن هذه النظريات «العلمية» عن طبيعة المرأة، وعن العلاقة الحتمية بين صفاتها البيولوجية وقدراتها المجتمعية أدرجت فى المناقشات التى دارت حول دور المرأة فى المجتمع واستخدمت هذه النظريات لدعم مقولات أن المرأة مخلوقة للبيت وأن خروجها للعمل خارج البيت يتنافى مع «طبيعتها البيولوجية».

الخلاصة أننا نجد أنفسنا أمام أفكار ونظريات مناهضة لحقوق النساء ظهرت وتبلورت فى العصر الحديث، أى أنها ابتدعت مع قدوم رياح الحداثة. ومع هذا، وإلى يومنا هذا، نجد كثيراً من هذه المقولات فى خطابنا المعاصر ولكنها تقدم بوصفها أفكاراً أصيلة نابعة من تراثنا وثقافتنا. أو، نجد أنه ما زال هناك اتجاه قوى يمجد كل ما هو حديث بدون تمحيص. ■

كتاب الزاوية

هكذا غنى طاغور

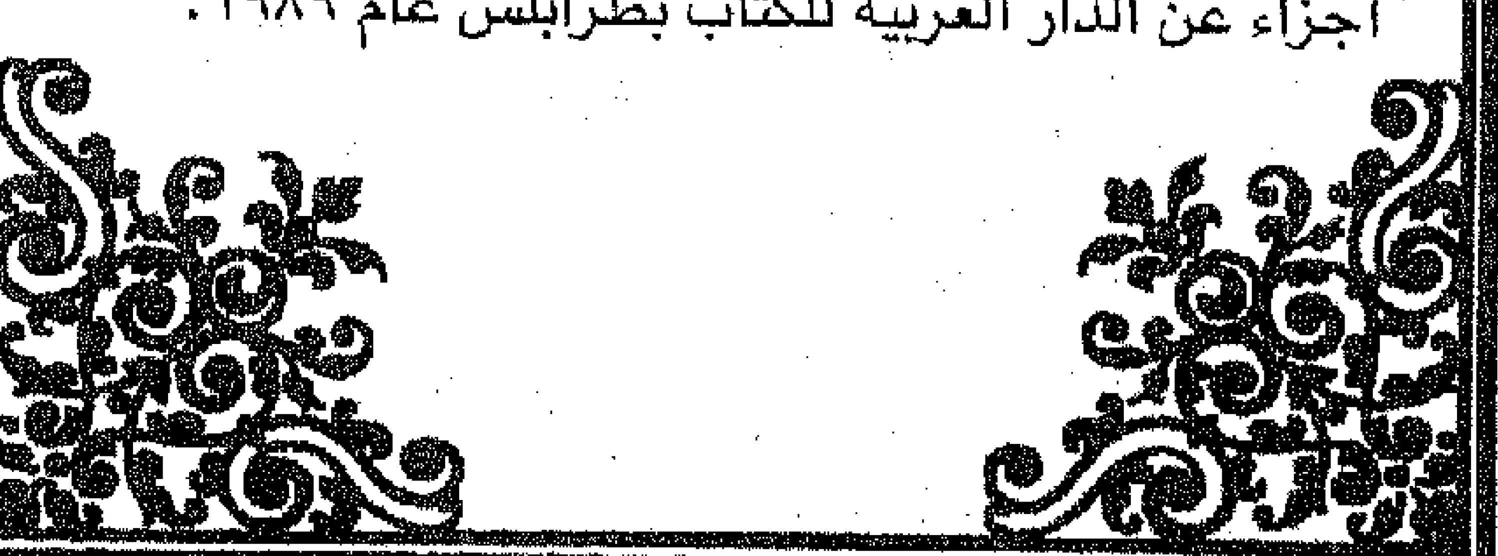
ترجمة: خليفة محمد التليسي

ولد شاعر الهند العظيم رابندرانات طاغور عام ١٨٦١ بمدينة كلكتا في أسرة هندوكية معروفة بالمكانة العلمية والوجاهة الاجتماعية ، ويصف طاغور عائلته البنغالية بكلماته على أنها نتاج «الاندماج بين ثلاث حضارات، الهندوكية والإسلامية والبريطانية» . فالانتماء الطائفي لأسرته لم يمنع مواطني بنجلاديش -وأغلبهم من المسلمين- من الشعور بالتوحد مع طاغور وأفكاره ، ولا تزال أشعاره وأغانيه تتردد في أنحاء الجزء الشرقي من الهند وفي كل أنحاء بنجلاديش، كما أن رواياته ومقالاته لا تزال تقرأ على نطاق واسع بالرغم من وفاته عام ١٩٤١.

وقد درس طاغور في انجلترا قليلاً، ولكنه طاف بها وبأوروبا كثيراً ، ونشأت بينه وبين شعراء أوروبا وأمريكا علاقات وثيقة، خاصة عزرا باوند ووليام بيتس. وفي عام ١٩١٤ نال طاغور جائزة نوبل للآداب عن ديوانه «جنتجالي» (قربان الأغاني) فكان أول شاعر شرقي يحظي بها. وفي العام التالي، منحته الحكومة البريطانية لقب «سير» و هو اللقب الذي أعاده لها احتجاجًا على الأعمال القمعية التي قامت بها عام ١٩١٩ بإقليم البنجاب.

كانت لطاغور فلسفة خاصة في التعليم وقد أسس مدرسة ثم جامعة تتلمذ فيها نوابغ الهند المعاصرون مثل عالم الاقتصاد الشهير أمارتيا سين. وهو بجمعه بين الفلسفة والقيادة الفكرية والثقافية في شبه القارة الهندية وبين موهبته في الشعر والكتابة والرسم يعد من أندر شعراء العالم في العصر الحديث.

المختارات التالية من المجموعة التى صدرت فى ثلاثة أجزاء عن الدار العربية للكتاب بطرابلس عام ١٩٨٩.



يبحث عن النتائج الممكنة

البراجماتى

لورا سيكور

يطالب قرار مجلس الأمن رقم ١٥٤٦ الأخضر الإبراهيمى، بوصفه المبعوث الخاص للأمم المتحدة إلى العراق، بالقيام بـ «دور رئيسى» للمساعدة على عقد مؤتمر وطنى خلال شهر يوليو الجارى، وتقديم المشورة والدعم إلى «الحكومة المؤقتة، اللجنة الانتخابية المستقلة، والجمعية الوطنية الانتقالية» من أجل تسهيل، وإتمام، عملية نقل السلطة إلى العراقيين.

ويدعو، هذا القرار الصادر - بإجماع دولى فى العاشر من يونيو المنصرم - الأمين العام للأمم المتحدة إلى تقديم تقرير، فى غضون ثلاثة أشهر، عن «عمليات بعثة المنظمة الدولية وما تم إنجازه على طريق إجراء انتخابات مباشرة قبل يناير عام ٢٠٠٥.

وهذا التقرير، الذى أعدته Laura Secor واختارت The Pragmatist عنوانًا له(١)، يرسم ملامح دقيقة للأخضر الإبراهيمى ورؤيته لدوره فى العراق، ومدى قدرته على تحقيق رؤيته هذه وخاصة فى التقائها أو تعارضها مع «الرؤية الأمريكية» ومع الحقائق على أرض الواقع. لكن هذا التقرير - وقد كتب قبل تشكيل «حكومة إياد علاوى» واختيار غازى عجيل الياور رئيسًا انتقاليًا للعراق - يحمل أيضًا إجابة واضحة على سؤال من شقين: هل ينجح الإبراهيمى فى «رتق ما اهترأ»، والوصول بسفينة المفاوضات إلى شاطئ السلام والاستقرار وسيادة القانون، أم أن رجل مهام الأمم المتحدة الشاقة حول العالم، بات يدرك أن مهمته فى العراق «محددة» و«محدودة»؟

(المحرر)

الأخضر الإبراهيمى، السياسى المحنك فى مهام الأمم المتحدة، من هايتى إلى الكونغو، واليمن ثم ليبيريا ونيجيريا والسودان، وأفغانستان مؤخرا، هو المكلف الآن بمهمة الإصلاح فى العراق: الصعوبة فى هذه المهمة لا تحتمل المبالغة: فرغم الالتزام الأمريكى بنقل نوع ما من السيادة إلى العراقيين فى ٣٠ يونيو، يبدو من غير الممكن إجراء انتخابات قبل شهر يناير ٢٠٠٥. وإضافة إلى الفوضى التى يعيشها العراق إن أى إدارة انتقالية مؤقتة لن تملك السلطة الفعلية لإدارة شئون العراق، وتكون فرصتها ضئيلة للقبول بها كحكومة شرعية وممثل حقيقى للشعب.

الإبراهيمى شديد المراس والذى يعمل رسميًا تحت مسمى المستشار الخاص للأمين العام للأمم المتحدة فيما يتعلق بالموقف السياسى فى العراق هو الند الغريب لمشروع إدارة بوش «الويلسونى»(٢) فى العراق، وهو لا يرى أن من بين مهامه «هندسة» الديمقراطيات الجديدة أو فرض «رؤى» خارجية على مجتمعات رافضة لها. بل على العكس من ذلك. فإنه واقعى يحترم ويفهم معادلات القوة، تعامله مع المواقف المعقدة يبدأ بتحديد من منَ اللاعبين يملك سلطة على الأرض، وسبل تحقيق الحد الأدنى من مطالب هؤلاء. فى أفغانستان. على سبيل المثال. حيث فاوض بنجاح من أجل سلام بين مجموعات مسلحة متناحرة بعد الغزو الأمريكى عام ٢٠٠١، كسب الإبراهيمى خصومة المدافعين عن حقوق الإنسان عندما سمح لـ «لوردات الحرب» القتلة، ليس بالنجاة من العدالة فحسب، بل وأن يتحولوا إلى مسئولين فى الحكومة الجديدة. وفى تفسيره لذلك أوضح الإبراهيمى أن ضمان السلام والاستقرار أولوية تفوق إقرار العدل، وأن الطريق الآمن لسرعة استعادة السلام يأتى من خلال جعل لوردات الحرب يمسكون بزمام الأمور فى الحكومة الجديدة.

فى مفاوضات الأفغان التى رأسها فى بون، وبدأت فى نوفمبر ٢٠٠١، توصل الإبراهيمى إلى إدارة مؤقتة تدعو إلى عقد مجلس قبائل «معروف باسم لويا جيرجا» طارئ خلال سبعة أشهر تكون مهمته اختيار حكومة تقود أفغانستان لسنتين قادمتين.

إن مجلس القبائل الذى نظم بواسطة لجنة من الأفغان تحت رعاية الأمم المتحدة، أثبت أنه أحد أكثر «المشاريع» إثارة للجدل فى الحياة المهنية الطويلة للإبراهيمى البالغ من العمر ٧٠ عامًا. ويقول نادر نادرى، وهو أفغانى من نشطاء الدفاع عن حقوق الإنسان خلال الحقبة التى حكمت فيها طالبان أفغانستان، وعمل فى لجنة مجلس القبائل، أن الأفغان فى اللجنة وضعوا خطوطًا هادية صارمة لاستبعاد أى فرد يعرف عنه أنه منتهك لحقوق الإنسان، من عضوية المجلس. «لكن السيد الإبراهيمى والحكومة المؤقتة، أصروا على دعوة لوردات الحرب. لقد دفع باللجنة إلى انتهاك قوانينها ولوائحها الداخلية».

وسواء كان مجيء لوردات الحرب قد تم بمبادرة من الإبراهيمى أو من وزارة الدفاع الأمريكية، فالأمر يظل موضع جدل. لكن الإبراهيمى دافع عن الفكرة فى حوارات معه فى ذلك الوقت، وفى مقابلات إعلامية لاحقة. لقد أوضح الإبراهيمى للأفغان أن عدم دعوة لوردات الحرب سيدفع بهم إلى عدم قبول قرارات مجلس القبائل. وأشار إلى أن لوردات الحرب، وهم الذين سلحتهم ودعمتهم الولايات المتحدة فى الحرب ضد طالبان، يسيطرون بالفعل على أنحاء كبيرة من أفغانستان، ولا يمكن. بالتالى. استبعادهم.



بعد أربعة أشهر، وفى محاضرة «متلفزة» حول «المفاوضة» نظمتها كلية الحقوق فى جامعة هارفارد، قال الإبراهيمى إن القادة المدنيين، ورغم ادعائهم بأنهم الأحق بتمثيل الشعب الأفغانى من لوردات الحرب، إلا أنهم كانوا بلا قواعد شعبية تدعم هذا الادعاء. «نعم. إنهم شرفاء ويريدون الخير لبلادهم. لكنك إذا قلت إنهم يمثلون الشعب فإن سؤالى هو: كيف؟ ولا تستطيع أن تقارن إن كان الآخرون أكثر تمثيلا أم لا».

واقع الأمر أن لوردات الحرب لم يشاركوا فى مجلس القبائل «اللويا جيرجا» فحسب، بل احتلوا أيضًا مقاعد الصف الأمامى ولم يبالوا بما يجرى من أمور مهمة داخل جلسات الحكومة. لقد كانت نقطة تحول فى أفغانستان الجديدة. وقال منتقدو الإبراهيمى أن فرصة مواتية قد أهدرت. ورغم اعتقاد بعض الخبراء أن لوردات الحرب كان يجب استبعادهم من العملية السياسية، إلا أن من تحدثت إليه من هؤلاء ظن أن الإبراهيمى والولايات المتحدة، والأمم المتحدة، عملوا على تقوية لوردات الحرب فى وقت كان باستطاعتهم إضعافهم. ويرى فيكرام باريخ Vikram Parekh الباحث المقيم فى كابول لجماعة دولية لا تسعى للربح وتعمل فى مجال حل الأزمات، أن الإبراهيمى أخطأ فى عدم استعانته إلا بالقليل من خبرة أعضاء طاقمه الخاص الذين ربما أخبروه بأن بعض لوردات الحرب كانوا «نمورًا من ورق وتواجدهم غير ملحوظ». ويستعيد نادر نادرى وقائع حضوره انتخابات ما قبل مجلس القبائل فى مزار الشريف لاختيار مجموعة من اللجان الإقليمية باقتراع سرى بين مرشحين يبلغ عددهم ٦٠ من الوجهاء المحليين. كان الجنرال عبد الرشيد دوستم من بين المرشحين وهو أحد لوردات الحرب المرهوبى الجانب المشهور بقسوته، ولأول مرة كان طريقه إلى السلطة مشكوكا فيه. «عندما بدأ فرز الأصوات رأيت أن يديه ترتعشان. كان فى غاية التوتر وبدا وكأنه مهموم بالسؤال: ماذا سيحدث لو أنه خسر. لكنه لم يخسر». يرجع نادرى الأسباب إلى الحضور الواضح لمعاونى دوستم. لكن الأكثر إحباطًا لمعارضيه تمثل فى الشرعية التى منحت لمن هم على شاكلة دوستم عن طريق مجتمع دولى رآهم ليس كعلامات تتلاشى فى ماضى أفغانستان القبيح، بل كشركاء حاسمين فى تحديد مستقبلها.

يقول نادرى: «لقد غادر الجنرال دوستم خيمة مجلس القبائل كشخص مختلف. قبل بضعة أيام كانت خيمة مجلس القبائل كشخص مختلف. قبل بضعة أيام كانت يداه ترتجفان. ويغادر الخيمة الآن الشخص نفسه الذى كان فى عام ١٩٩٢. لقد نال شرف المجتمع الدولى والحكومة».

إن المشكلة فى رؤية الإبراهيمى تمثلت فى أن الاستقرار والعدل لا

بترتيب مع:
Atlantic Monthly

ترجمة: جمال إسماعيل

.. لا عن المعجزات



ينفصمان. ولم يكن من المفاجئ أن لوردات الحرب أداروا وزاراتهم كما يدير القبضايات أعمالهم الخارجة عن القانون. لقد أدى تحصنهم السياسى والاقتصادى فى السلطة، جنباً إلى جنب مع فشلهم فى نزع السلاح، إلى استحالة قيام الحكومة المركزية بفرض سيادة القانون فى نطاق واسع على البلاد. ورغم طغيان الأنباء المأساوية عن التمرد وتعذيب السجناء فى العراق، يظل الوضع فى أفغانستان يتدهور بانتظام.

فى الواقع، ومع اقتراب نهاية رئاسته لبعثة الأمم المتحدة فى أفغانستان، بدا الإبراهيمى وكأنه أدرك عدم استطاعته ضمان أمن طويل المدى هناك إذا كان الذين يتولون المناصب الوزارية الرئيسية من المجرمين الذين يصعب تطبيق القانون عليهم. لقد قال لى مصدر دبلوماسى أن الإبراهيمى اقتنع بأن استمرار وجود لوردات الحرب سيقود أفغانستان إلى كارثة وبدأ يعطى اهتماماً أكبر لقضايا حقوق الإنسان. «لقد أعاد النظر فى أفكاره وأدرك أن العملية لن تنتهى بشكل جيد ما لم يتوفر شكل من دستور ونزع سلاح وسيادة قانون. وقبل مغادرته أفغانستان بوقت قصير، فى يناير من ذلك العام، ألقى الإبراهيمى خطاباً مثيراً بهذا المعنى أمام مجلس القبائل الدستورى.

بخلاف الدروس القريبة فى أفغانستان، جاء الإبراهيمى بمجموعة واضحة من القيم والخبرات المتميزة إزاء الموقف فى العراق. فهو، بداية، لديه ارتياب متأصل فى أى شىء يدعو إلى هيمنة استعمارية سواء باحتلال أمريكى صريح، أو بإدارة قبضتها قوية من الأمم المتحدة. هذا أمر منطقى فى ضوء معرفتنا بخبرته السياسية التى تشكلت داخل حركة استقلال الجزائر. لقد ولد الإبراهيمى عام ١٩٣٤ لأسرة ريفية ثرية جنوب الجزائر العاصمة، وكان طالباً فى باريس، خلال الخمسينيات، حيث شارك فى تأسيس اتحاد الطلبة الجزائريين وكان النواة التى ضمت الصفوة السياسية الجزائرية لعقود تالية لاستقلال الجزائر عام ١٩٦٢.

ما بين الستينيات والسبعينيات، عمل الإبراهيمى سفيراً للجزائر فى مصر أولاً، ثم لدى بريطانيا. وفى عام ١٩٨٩، وعندما كان أميناً عاماً مساعداً للجامعة العربية، فاوض من أجل عقد اتفاق الطائف «فى السعودية» الذى وضع نهاية للحرب الأهلية الطائفية فى لبنان. وكان إنجازاً ميزه كواحد من الدبلوماسيين الأصعب مراساً والأكبر تأثيراً فى العالم العربى، كما ميزه كواقعى على استعداد للتفاوض حتى مع الأشرار. بعد ذلك بسنوات يستعيد الإبراهيمى ذكريات ما جرى ويقول إن بعض رموز المجتمع المدنى اللبنانى وجهوا إليه اللوم لأنه كان يتفاوض مع الأشرار. وكان يجيب قائلاً: «لقد حضرت إلى لبنان لمقابلة هؤلاء الأشرار. الطيبون يعيشون هناك، فى باريس».

فى أعقاب الطائف ذاع صيت الإبراهيمى عالمياً، لكن صيته داخل الوطن، فى الجزائر، حيث عمل كوزير للخارجية بين عامى ١٩٩١ و١٩٩٣، سرعان ما أصبح ملبداً بالغيوم. ومع فوز جبهة الإنقاذ الإسلامية فى الانتخابات البرلمانية عام ١٩٩٢، فرضت جبهة التحرير الجزائرية الأحكام العرفية وشكلت لجنة أمنية من ستة أعضاء لإدارة البلاد كان الإبراهيمى أحد أعضاء هذه اللجنة ودافع عن شرعيتها بقوله إن جبهة الإنقاذ الإسلامية ما كان ينبغى منحها الشرعية.

عندما استقال الإبراهيمى من عمله كوزير

كتـــاب الـزاويـــة

هكذا غنى طاغور

دُمـــى

ما أسعدك أيها الطفل الصغير
وأنت جالس فوق التراب
تلعب طوال الصباح بغصنٍ صغير
إنى أضحك من لهوك هذا بذلك
الغصن المكسور
أما أنا فمستغرق استغراقًا كاملاً
فى جمع أرقامى، ساعات وساعات
ربما رمقتنى مفكرًا ساخرًا قائلاً فى ذهنك
يا لها من لعبة غبية يضيع فيها الصباح
أيها الطفل، لقد نسيت فن اللعب
بأكوام الوَحل والعصيّ
إنى أبحث عن دُمى غالية
وأجمع أكوامًا من الذهب والفضة
وأنت تستطيع خلق ألعابك المفرحة
بكل ما يقع تحت يدك
أما أنا فإنى أبدد وقتى وقواى
فى سبيل أشياء لا أنجح أبدًا
فى الحصول عليها
وأجهد نفسى وزورقى البدائى الخفيف
لعبور بحر الشهوات وأنسى
أن زورقى هو الآخر

.. مجرد لعبة

«البـــراجمـــاتـــى»



يدرك الأخضر الإبراهيمى أن السـلام والعـدل قد يصعب تحقيقهما فى العراق ولعل هذا ما يجعل منه الرجل المناسب الذى تحتاجه البلاد



للخارجية تعاقدت معه الأمم المتحدة وأسندت إليه عبر سنوات متعاقبة مهام تسوية بعض أكبر الصراعات المتعثر تسويتها فى العالم، الأمر الذى حقق شهرته كمفاوض داهية لا يعرف الكلل. وفى وقت كانت الأمم المتحدة تعانى فيه من احتقار واسع النطاق بسبب عدم فاعليتها فى البوسنة ورواندا، حظى الإبراهيمى باحترام واسع نظراً لاستقلاليته وتعاملاته الصريحة. فى عام ٢٠٠٠ كلف برئاسة هيئة مستشارين لتقييم ماضى ومستقبل قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة. وقد اقترح الإبراهيمى فى تقرير كشفت عنه وثائق الهيئة فيما بعد، إجراء تغيير وتجديد شاملين لكافة عمليات قوات حفظ السلام. ودعت توصياته إلى تأسيس إدارة مركزية للمعلومات والتحليل، إنشاء قوة انتشار سريع لحفظ السلام، وإعادة النظر فى الموقف الحيادى للأمم المتحدة. وأكد واضعو التقرير أن عدم التحيز يجب أن لا يبلغ حد التآمر مع الشيطان.

تقرير الإبراهيمى، وحسب ما وصفه لى مسئول سابق فى الأمم المتحدة، كان بمثابة علامة مهمة بشأن دور عمليات حفظ السلام فى مرحلة ما بعد الحرب الباردة: «لقد عكس التقرير مستوى عالياً من الطموح والتفاؤل إزاء ما يمكن للأمم المتحدة أن تقوم به فى المستقبل». لكن الوهن أصاب «توصيات» أكثر التقارير طموحاً ربما بسبب نقص فى الموارد أو الإدارة السياسية.

كيف يمكن للإبراهيمى أن يستفيد من خبراته فى أفغانستان، ومناطق أخرى، إزاء ما يواجهه من تحديات فى العراق؟ إن درس المدافعين عن حقوق الإنسان المستفاد من تجربة أفغانستان يلخصه سام ظيا ظريفى، كبير الباحثين فى «هيومان رايتس ووتش» لحقوق الإنسان فى كلمات قليلة: «إذا عولت على الأشرار: لوردات الحرب، القادة العسكريين، وحزب البعث، لضمان أمن قصير المدى للتعويض عن نقص مبكر فى موارد أو تخطيط من جانب الولايات المتحدة سيكون من الصعب جداً التخلص من هؤلاء الأشرار». ويبدو أن الإبراهيمى فهم هذا الدرس وحفظه عن ظهر قلب. لقد اقترح، فى إيجاز له أمام مجلس الأمن فى ٢٧ أبريل الماضى، حكومة انتقالية مؤلفة من تكنوقراط ومهنيين ليس لديهم طموحات سياسية أو انتخابية. وفى إطار هذه الخطة لن يكون للسياسيين وقادة الميليشيات أى دور سياسى، وهم الأطراف التى لها فاعلية على الأرض وقوة لتخريب السلام.

وقت كتابة هذا التقرير تتواتر أنباء عن معارضة الولايات المتحدة لهذه الخطة وممارستها للضغوط على الإبراهيمى لكى تشمل الحكومة الانتقالية أعضاء من مجلس الحكم الحالى. وسواء كسب الإبراهيمى هذه المعركة أم خسر، فإن خطته الأساسية تعكس إدراكه لمدى محدودية المهمة المكلف بها فى العراق. ويبدو أن رهانه الحالى يتمثل فى المعادلة التالية: كلما قل تظاهر الحكومة الانتقالية بأن مهمتها أكبر من كونها حكومة قصيرة المدى للوصول بالعراق إلى انتخابات وإنهاء الاحتلال، قل احتمال أن ترسخ نفسها أو أن تثير السخط الجماهيرى على عدم فاعليتها.

ربما يكون للإبراهيمى فرصة أفضل من غيره كى يفاوض من أجل سلام، حتى وإن كان غير كامل، بين قوات التحالف والميليشيات المسلحة للسنة والشيعة، أو ترتيب اقتسام السلطة بين كتل سياسية وأخرى عرقية فى العراق. لكن التوصل إلى حكومة عراقية مؤقتة مسلوبة السلطة تجعل الإبراهيمى يضع فى اعتباره ليس دروس أفغانستان فحسب، بل. وفى النهاية. ضآلة ما يمكنه عمله، ومحدودية المطلوب منه فعله، فى العراق. ■

الـهـــوامـــش

(١) البراجماتى هو الشخص المؤمن بفلسفة الذرائع وبأن قيمة الأفكار وصدقها يقاس بالنتائج (معجم وبستر).

(٢) نسبة إلى الرئيس الأمريكى الراحل وودرو ولسن (١٨٥٦ - ١٩٢٤) والذى كانت لديه رؤية مثالية لتغيير العالم من خلال دور أمريكى فعال ونشط فى هذا التغيير.

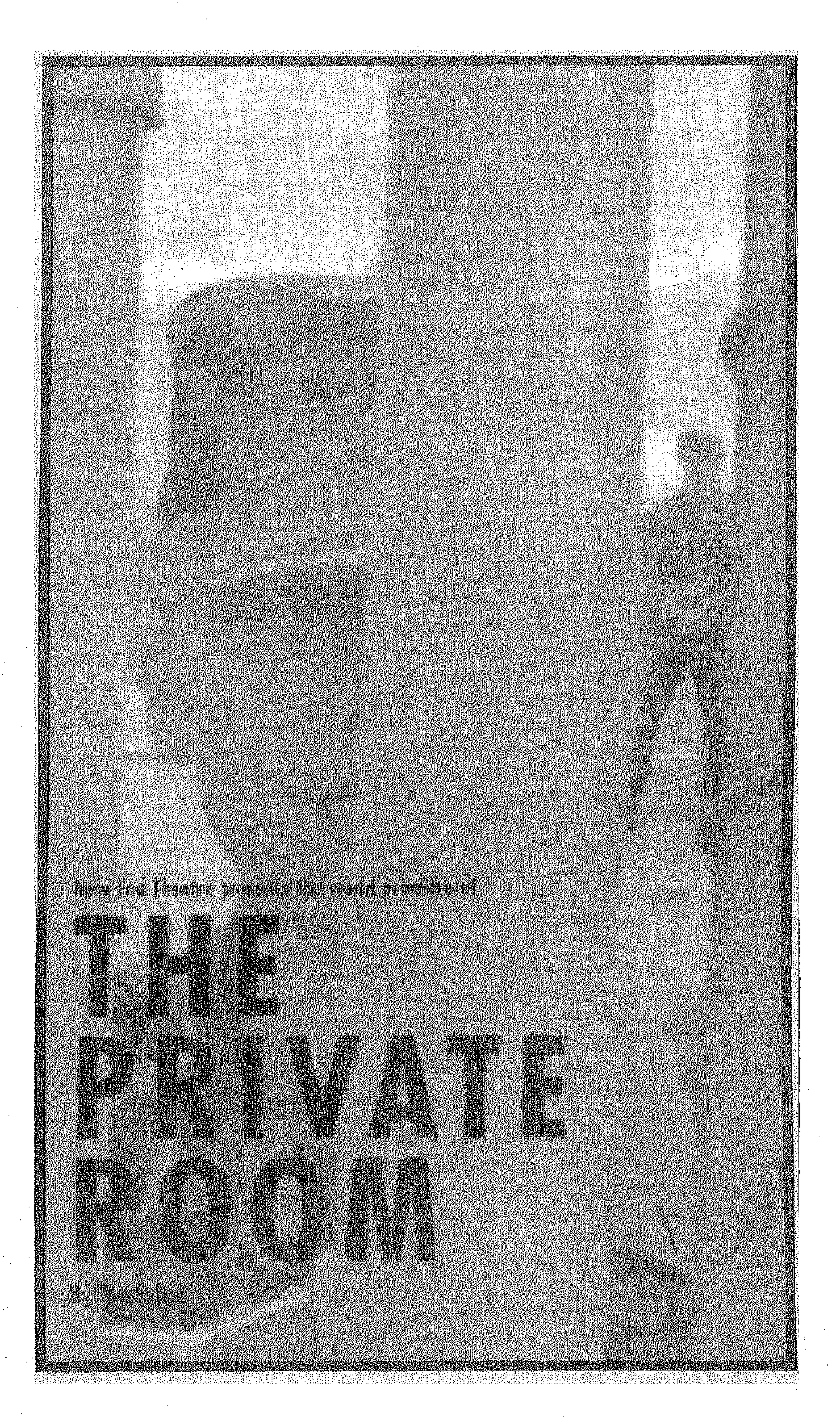
مأساة «جوانتانامو»

صبري حافظ

■■ تعرض الآن على المسرح الانجليزي مسرحيتان تحظيان باهتمام واسع، أدى إلى انتقال إحداها من المسرح الصغير الذي بدأت فيه إلى أحد مسارح «الويست إند»، حي المسارح الشهير في لندن. لأنهما تتناولان موضوع معتقل «جوانتانامو» باعتباره وصمة عار في جبين الحضارة الغربية في مفتتح القرن الحادي والعشرين. وخطوة على طريق تراجع الإنسانية عما أنجزته من معايير وقوانين لحماية حقوق الإنسان وصيانة كرامته. والواقع أن أي تناول فني أو درامي لهذا المعتقل الكابوسي يهم كل القراء في كل بقاع الأرض، ولكنه يهم القارئ العربي والمصري بشكل أساسي لسببين. أولهما أنه إذا كنا نحن العرب من ضحايا هذه الحرب البشعة التي شنتها أمريكا ضد ما تسميه «الإرهاب» ندرك بشاعة ما تمخضت عنه هذه الحرب، لأننا عانينا ولازلنا نعاني من تبعاتها الرهيبة في فلسطين المحتلة والعراق المستباحة ظلما وعدوانا، فإن الرأي العام الأمريكي وقطاعا كبيرا من الرأي العام الأوروبي الذي أيد هذه الحرب، سرعان ما بدأ يشك في قيمتها القانونية والسياسية والأخلاقية بعد كل ما تمخض عنه معتقل «جوانتانامو» من حقائق مقلقة للضمير الغربي، ومؤرقة للكثيرين من الذين يؤمنون بنزاهة الغرب ورقيه والتزامه بالحد الأدنى من العدالة والقانون، واحترامه لحقوق الإنسان. وثانيهما أن المسرحيتين مع تباينهما من حيث المنهج والموقف والاتجاه، واعتمادهما بنيتين مسرحيتين مختلفتين، فإن كلا منهما على حدة بادرت باتهام دولة عربية (مصر)!! بمشاركة الولايات المتحدة بالتغاضي عن حقوق الإنسان والمساعدة في تعذيب المعتقلين، وهو الأمر الذي تتصنع الولايات المتحدة الترفع عنه. وهو اتهام غريب وبالغ الخطورة ويستدعي كثيراً من التساؤلات حول ملابساته وتوقيته. خاصة أنه يتردد في المسرحية الأمريكية القادمة من وراء المحيط الأطلسي، بنفس القوة التي يتردد بها في المسرحية الإنجليزية التي يعرضها أهم مسرح للدراما السياسية الوثائقية في لندن، وهو «مسرح الترايسكل Tricycle Theatre». إذ تقول المسرحيتان أن مصر تقوم بالدور القذر الذي لا تريد أمريكا الاعتراف بالتدني إلى حضيضه أو التلوث بأوحاله. وأن المعتقلين الذين يستعصون على المحققين الأمريكيين في «جوانتانامو» يرسلون إلى دول عربية لاستنطاقهم بطرق الاستنطاق الجهنمية. وهو اتهام لو كان صحيحا، لألصق بنا عارا نحن في غنى عنه، وإن كان غير صحيح فلابد من حملة إعلامية واسعة لتفنيد هذه الاتهامات القذرة ورفع الدعاوي على مروجيها. خاصة أنني قبل مشاهدة أي من المسرحيتين كنت قد شاهدت برنامجا إخباريا في التليفزيون الانجليزي عن مواطن أسترالي من أصول مصرية يدعى «ممدوح حبيب» اتهمته الولايات المتحدة بأن له علاقة ما بتنظيم «القاعدة». وبدلا من أن تطلب من استراليا ترحيله إلى الولايات المتحدة لمحاكمته أو التحقيق معه، طلبت منها ترحيله لمصر التي عذب فيها حسب شهادة زوجته «مها حبيب» التي ظهرت في هذا البرنامج، وأخبرتنا أن زوجها أصر على براءته من التهم الموجهة إليه، وأصر أكثر على تمسكه بجنسيته الاسترالية، ورفضه أن يعامل كمصري، فاضطرت حكومة مصر إلى ترحيله إلى الولايات المتحدة، التي أرسلته بدورها إلى معتقل «جوانتانامو» الشهير.



وسرعان ما أخذت تداعيات هذه القضية في التطور في الإعلام البريطاني حتى نالت أصابع الاتهام فيها عددا لابأس به من البلاد العربية وغير العربية. لأن الصحافة البريطانية ـ وجزء كبير منها يملكه الصهاينة ـ مغرمة بكل ما يشوه سمعة العرب، وبكل ما يثير قراءها ضدهم، ويبرهن على ما يروجونه عن تخلفهم. وإذا كانت الصورة التي نتجت عن هذه الحملة الإعلامية التي لاتزال فصولها تتتابع في الإعلام البريطاني والأوروبي تدين العرب وتشوه صورة مؤسساتهم الحاكمة، فإنها تكشف في الوقت نفسه عن الوجه القبيح للعولمة، وهي عولمة السجن والتعذيب بإدارة أمريكية مركزية، وحوافز باهظة في عدد كبير من السجون السرية التي يمارس فيها التعذيب بالنيابة عن أمريكا ووفقا لأوامرها. ويبدو أن ما بلغنا عن صور التعذيب التي تمارسها قوات الاحتلال الأمريكية في سجن «أبوغريب»، ما هو إلا



١. **The Private Room**
(الغرفة الخاصة)
mark lee
London: New End theatre,

٢. **Guantanamo: Honor Bound to Defend Freedom**
(جوانتانامو: ملتزماً بالشرف للدفاع عن الحرية)
Victoria Brittain and Gillian Slovo
London: Tricycle Theatre,

فى مسرحيتين بريطانيتين

فى الوقت الذى تتزايد فيه الضغوط الغربية مطالبة الدول العربية بالإصلاح، وتخصص فيه النيوزويك الأمريكية موضوعها الرئيس للتأكيد على أن مصر «يجب أن تصبح قاطرة الركب العربى على هذا الطريق...»، وفى الوقت الذى تتفاعل فيه - أمريكيًا - فضيحة سجن أبو غريب، تخرج إلى خشبة المسرح (بالمعنى الحقيقى لا المجازى) مسرحيتان «أمريكية وبريطانية» تتهمان مصر ودولاً عربية أخرى بالمشاركة فى عمليات استجواب و«تعذيب» معتقلين فى جوانتانامو. ويصبح لافتًا للانتباه أن الاتهام أو صداه كان قد وجد طريقه أيضًا إلى غير صحيفة أوروبية وأمريكية.

وفى هذا الزمن «العولمى»، والذى أصبحت فيه «حقوق الإنسان» بندًا ثابتًا على كل أجندة «ترغيبًا وترهيبًا»، قد لا تصبح سياسة «الأذن الصماء» ملائمة.

وجهات نظر

الجزء الظاهر من جبل الجليد العائم كما يقولون. وأن ما خفى كان أعظم! لأن شبكة السجون والتعذيب تمتد كالأخطبوط فى عدد من البلدان التى تحكمها حكومات حليفة أو عميلة للولايات المتحدة، منذ اندلاع ما يسمى بالحرب الأمريكية على «الإرهاب»، ومع امتدادها إلى مناحى المعمورة. فلا يقتصر الأمر على اتهام مصر وحدها فى هذا المجال، وإنما تمتد أصابع الاتهام إلى الأردن وسوريا والمغرب والسعودية وعمان وقطر وأذربيجان وتايلاند. وهى كلها بلاد إسلامية باستثناء تايلاند. وهو أمر مثير للمفارقة المؤسية، لأن ابرز عواقب ما يسمى بالحرب على «الإرهاب» هو تشويه صورة الإسلام والمسلمين فى الرأى العام الغربى. وها هى حفنة من البلدان الإسلامية تتعرض لتشويه أكبر بسبب تعاونها مع الولايات المتحدة فى هذه الحرب، وكسرها للقوانين الدولية من أجل إرضائها. بمعنى أننا فى موقف الخاسر دائما أبدا، سواء تحالفت حكوماتنا مع الولايات المتحدة أو عادتها. وهو أمر يحتاج منا إلى المزيد من التأمل والتدبر والعمل.

جولاج أمريكى رهيب

ليس بعيدا عن هذا ما فاجأتنا به أيضا جريدة الأوبزرفر البريطانية فى تحقيق صحفى لجاسون بيرك Jason Burke (عدد ١٣ يونيو ٢٠٠٤) عن أن هناك أكثر من ثلاثة آلاف مشتبه بهم معتقلين بلا محاكمة فى شبكة من السجون الأخطبوطية تشرف عليها الولايات المتحدة، ولكنها لاتقع تحت سلطة القانون الأمريكى، ويتعرض عدد كبير منهم للتعذيب. وأن عددا من هؤلاء قد اختفى فى هذه السجون دون أن يخلف وراءه أثرا، وأنه قد تم نقل بعضهم من سجن إلى آخر بمعرفة الشرطة السرية الأمريكية والشرطة العربية وبعض شرطات الشرق الأقصى، دون أن يخضع هذا النقل للقواعد الدولية والقانونية المتعلقة بتبادل المشتبه فيهم، وضمان حقوقهم القانونية التى ينظمها الانتربول. وكشف هذا التحقيق عن وجود «جولاج» أمريكى واسع - و«الجولاج» هو اسم اشتهر بعد أن نشر الكاتب الروسى الشهير الكسندر سولجينتسين عام ١٩٧٣ روايته الشهيرة (أرخبيل الجولاج) التى تناولت شبكة المعتقلات السياسية السرية فى الاتحاد السوفيتى - تمتد شبكته العنكبوتية فى مناطق كثيرة من كرتنا الأرضية. وليس تعبير الجولاج الأمريكى من ثمار خيالى، ولا هو استعارة أدبية راقتنى، ولكنه التعبير الذى وصف به سيدنى بلومنتال - أحد مستشارى الرئيس الأمريكى السابق بيل كلينتون - هذه الظاهرة الأمريكية الجديدة. حينما قال «لقد خلق جورج بوش فى حقيقة الأمر جولاجا يمتد من سجون أفغانستان إلى العراق، ومن جوانتانامو إلى سجون وكالة المخابرات المركزية التى تنتشر فى كل أنحاء العالم». وهى ظاهرة خلق سجون أو مناطق يعلق فيها القانون الدولى، بل القانون الأمريكى ذاته، وتمنح فيها الشرائع والقوانين المتعارف عليها محليا ودوليا أجازة مفتوحة. وتتحول هذه المناطق إلى مجال تتجلى فيه أحط الممارسات الإنسانية من قهر وظلم وتعذيب.



وإذا كان معتقل «جوانتانامو» فى كوبا هو أشهر هذه السجون الأمريكية التى تسعى للتملص من قبضة القانون الأمريكى بدعوى أنها لاتقع فى الأرض الأمريكية ولا تنطبق عليها بالتالى قوانينها، فإن هناك أكثر من «جوانتانامو» لأنه إذا كان «جوانتانامو» هو فى حقيقة الأمر معتقل فى قاعدة عسكرية أمريكية خارج الأرض الأمريكية، فإن هناك عددا كبيرا من السجون المماثلة. سواء فى قاعدة دييجو غارسيا فى المحيط الهندى أو فى القاعدة الأمريكية فى قطر أو عمان. بل هناك عدد آخر من السجون السرية فى بعض سفن الأسطول الحربى الأمريكية فى المحيط الهندى. وقبل الإشارة إلى بقية شبكة هذا الجولاج العنكبوتى الرهيب علينا أن نعرف حقيقة سجن «جوانتانامو» هذا، لأنه أصبح النموذج الدال على ظاهرة واسعة وخطيرة ضمن جولاج العولمة الأمريكية. و«جوانتانامو» هى قاعدة من قواعد الأسطول الأمريكى تقع فى الركن الجنوبى لجزيرة كوبا، وتبعد عن مدينة ميامى بولاية فلوريدا الأمريكية التى يحكمها جيب شقيق «جورج بوش» حوالى أربعمائة ميل جوى. وهى أقدم القواعد الأمريكية فى أعالى البحار. أبرمت معاهدة استغلالها عام ١٩٠٣، واستأجرت الولايات المتحدة بمقتضاها خمسة وأربعين ميلا مربعا من الأرض، بشرط تزويد كوبا لها بالماء لتستعملها كمحطة لتموين سفن الأسطول بالفحم أيامها. ثم جددت المعاهدة عام ١٩٤٣ مانحة الولايات المتحدة حق استئجار القاعدة مقابل دفع إيجار سنوى مقداره ألفا دولار ذهبى (وهوما يعادل الآن أربعة آلاف دولار) ومانحة كوبا وشركاءها التجاريين حق حرية الملاحة فى خليج «جوانتانامو».

لكن هذه المعاهدة الجديدة اشترطت ضرورة موافقة كلا الطرفين على إنهاء عقد الإيجار، ونصت على أنه لايحق لأحد الطرفين إلغاؤه وحده. وهذا هو السر فى بقاء هذه القاعدة فى أيد أمريكية بالرغم من تغير النظام فى كوبا واستعار العداء بين البلدين لعشرات السنين. لكن فيديل كاسترو - الذى وجد نفسه مكتوف الأيدى بمعاهدة ١٩٤٣ - استغل فرصة تغريم الأسطول الأمريكى عددا من الصيادين الكوبيين لصيدهم فى الخليج، وقطع الماء والكهرباء عن القاعدة منذ ٦ فبراير عام ١٩٦٤. فما كان من الولايات المتحدة إلا أن بنت معملا رهيبا لتحلية مياه البحر - ينتج ثلاثة ملايين ونصف مليون جالون من الماء العذب يوميا - ومحطة توليد الكهرباء - تنتج ثمانمائة ألف كيلو وات فى الساعة - لتحقيق الاكتفاء الذاتى للقاعدة. ومنذ عام ١٩٩١ - أى فى عهد بوش الأب - تم توسيع القاعدة بسبب مرور أربعة وثلاثين ألفا من اللاجئين الهايتيين بها، وتوسيع «معسكر أشعة إكس» للاعتقال، وهو الاسم الرسمى لسجنها الرهيب كى يستوعب ما يزيد على ثلاثمائة معتقل فى السجن الانفرادى. وفى ٢٨ أبريل عام ٢٠٠٢ تم إنشاء سجن إضافى هو «معسكر دلتا» والذى يتكون من ٦١٢ وحدة سجن انفرادى تتكون كل منها من زنزانة مساحتها ٢,٤ × ١,٨ متر وارتفاعها متران، مصنوعة من إطار من الصلب وحوائط من شبكة مخرمة من الصلب، مما يجعل المحتجز مكشوفا لحراسه من جميع الجهات آناء الليل وأثناء النهار.

هذا التاريخ نفسه هو السر فى الموقف الملتبس لسجن «جوانتانامو» الشهير، لأنه بسبب أبدية عقد إيجاره يعد أرضا أمريكية من وجهة النظر العسكرية، تمتد عليها سلطات الرئيس الأمريكى الاستثنائية. إذ يمنح الدستور الأمريكى الرئيس المسئولية الأولى عن أحوال الاتحاد، ويخول له سلطات مطلقة لضمان أمن الولايات المتحدة فى أى ظروف قهرية غير متوقعة.

وهذا النص الدستورى هو ما ←



شبكة السجون والتعذيب تمتد كالأخطبوط فى عدد من البلدان التى تحكمها حكومات حليفة أو عميلة للولايات المتحدة، منذ اندلاع ما يسمى بالحرب الأمريكية على «الإرهاب»



تعتمد عليه الإدارة الأمريكية فى تبرير ما يدور فى «جوانتانامو»، وما يضمن عبره وزير الدفاع «دونالد رامسفيلد» الذى طالب محامى وزارته بإعداد وثيقة قانونية تعتمد على هذا النص الدستورى، كى تضمن حرية موظفيه فى العمل، وتضعهم فوق القانون العادى وتحميهم من أى اتهام.

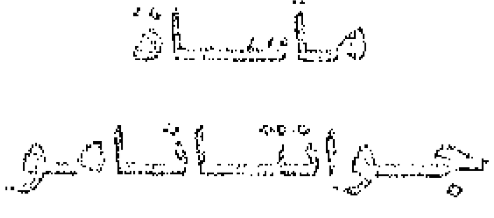


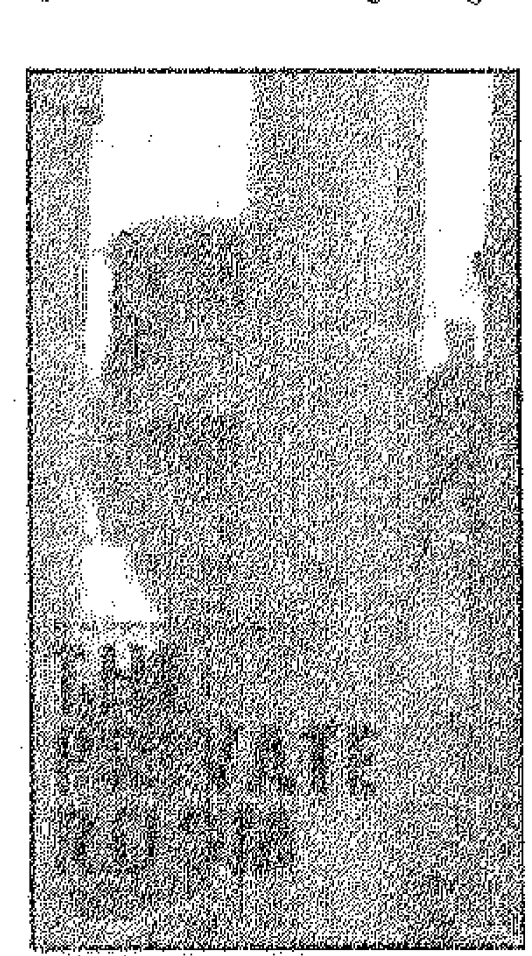
هذا من الناحية الدستورية، أما من الناحية الدولية فإن الإدارة الأمريكية تجد أن «جوانتانامو» يقدم لها تبريرا آخر بأنه ليس جزءا من الأراضى الأمريكية، وأن من تسميهم «مقاتلين معادين enemy combatants » لا أسرى حرب prisoners of war لاتنطبق عليهم قوانين أسرى الحرب الدولية ومعاهدات جنيف فى هذا المجال. وهذا ما يجعل ما يدور هناك من أكثر الأمور الملتبسة من الناحية القانونية، خاصة أن الإدارة الأمريكية تحرص على ربط المعتقلين فيه بما دار فى الحرب الأمريكية على أفغانستان، والتى لم تكن حربا بين جيشين نظاميين على عكس الحرب مع العراق. وهناك بالإضافة إلى هذه السجون الأمريكية عدد آخر من السجون فى البلدين اللذين احتلتهما أمريكا مؤخرا أثناء حربها على الإرهاب وهما أفغانستان والعراق. ففى أفغانستان هناك قاعدة «باجرام الجوية» والتى تقع شمال عاصمتها كابول وتعد أكبر هذه المعتقلات جميعا وأكثرها بشاعة. ناهيك عن مجموعة أخرى من السجون الأفغانية التى تستخدمها الحكومة لخدمة المصالح الأمريكية هناك. أما فى العراق، فحدث عنه ولا حرج. فبالإضافة إلى سجن «أبوغريب» الذى تقول آخر تقارير الصليب الأحمر الدولى أن به عشرة آلاف معتقل دون محاكمة ودون أن توجه لهم أى اتهامات. وأنه نموذج بشع للتعذيب فى جولاج السجون الأمريكية. هناك سجن مطار بغداد الدولى والذى تخصصه إدارة الاحتلال الأمريكى لمن تعترف لهم بحق «أسرى الحرب» مثل صدام حسين نفسه وقيادات نظامه الذين شكلوا أوراق «الكوتشينة» الشهيرة وعدد آخر من المعتقلين المهمين. وهناك أيضا عشرات السجون الأخرى فى مدن العراق المختلفة والتى تضم عشرات الآلاف من المعتقلين حسب أكثر التقديرات الغربية محافظة.

لكن كل هذه السجون التى تخضع للإشراف المباشر للأمريكيين ليست هى كل ما تنطوى عليه شبكة الجولاج الأخطبوطية. ربما لا يعنينا هذا كثيرا ولكن ما يجب أن نهتم بالرد عليه هو ما ذكره تحقيق الأوبزرفر عن أن هناك سجونا أخرى تحت أمرتهم فى بلد حليف. حيث أودعت الولايات المتحدة عشرات من معتقليها فى سجن الاستجواب الشهير فى «تمارا» الذى يقع خارج العاصمة المغربية الرباط. والذى أودعت فيه العديد من الذين قبضت عليهم السلطات الباكستانية، وسلمتهم للأمريكيين. ومن بينهم «عبدالله تبارك» المعتقل منذ عام ٢٠٠١ والذى يشتبه فى أنه كان أحد حراس «أسامة بن لادن» الشخصيين. وقد قبض عليه الباكستانيون، وسلموه للأمريكيين الذين نقلوه إلى «باجرام» ثم إلى «جوانتانامو» وأخيرا انتهى به المطاف فى «تمارا». أما فى سوريا فإن المعتقلين الذين ترسلهم لها الولايات المتحدة يرسلون إلى الجناح الفلسطينى فى إدارة الأمن العام السورية، أو إلى سجن «السادنية» بدمشق. وهذا هو الحال بالنسبة لمصر التى يحاول الاعلام هناك الترويج بإلحاح أنها تلقت عددا كبيرا من المقبوض عليهم، وتم نقلهم فى طائرات خاصة تابعة لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وأنهم يرسلون إما إلى إدارة المباحث العامة فى لاظوغلى أو إلى ملحق سجن مزرعة طرة السياسى الشهير. كما استخدمت الولايات المتحدة سجون عمان فى الأردن أو سجونا أصغر فى البادية إلى الشرق من العاصمة الأردنية. وقد أرسلت الولايات المتحدة آخرين إلى «باكو» فى أذربيجان، وإلى أماكن مجهولة أخرى فى تايلاند. وهناك العشرات الذين يعتقد أنهم معتقلون فى القاعدة العسكرية الأمريكية فى قطر، وآخرون فى المملكة العربية السعودية التى يعتقد أن ممثلى وكالة المخابرات الأمريكية يسمح لهم بحضور عمليات الاستجواب بها. وفى جل الحالات الأخرى فإن مسئولى الأمن فى هذه البلدان يزودون الولايات المتحدة بملخصات لعملية الاستنطاق، وما يدلى به المعتقلون تحت التعذيب من أقوال.



لكن ما أفزع محرر جريدة «الأوبزيرفر» هو أن بعض المشتبه بهم، والذين انتهى بهم الأمر إلى هذه السجون الرهيبة مواطنون بريطانيون تم نقلهم بناء على رغبة أمريكية إلى بلد ثالث، كى يمكن تعذيبهم واستنطاقهم بالعنف والوحشية. وأن ما يسفر عنه هذا الاستنطاق ينقل إلى الولايات المتحدة، وأحيانا وليس دائما إلى أجهزة المخابرات البريطانية. وكشف أحد مسئولى المخابرات المركزية فى هذا التحقيق عن أن عددا من الذين تفرج عنهم المحكمة، إما فى بريطانيا أو حتى فى الولايات المتحدة، يرسلون إلى بلد ثالث، إذا ما اعتقد المحققون الأمريكيون أن «المعاملة القاسية» المحظورة فى الولايات المتحدة يمكن أن تأتى بالنتائج التى يرجونها بمثل هذا الأسلوب فى الاستنطاق. وسرعان ما أدركت أن قصة «ممدوح حبيب» ما هى إلا واحدة من عشرات القصص المشابهة. فقد كان حظه أفضل







إننا بإزاء مسرحية مقلقة بحق، وقادرة على طرح عدد من الأسئلة الحرجة عن جوهر القيم التى ينهض عليها المجتمع الأمريكى نفسه



من حظ عربى آخر هو السورى «ماهر عرار» وهو كندى من أصل سورى اعتقلته السلطات الأمريكية عام ٢٠٠٢ أثناء مروره بنيويورك للاشتباه فى قيامه بأعمال إرهابية. وبعد عدة أيام من الاستجواب تم نقله إلى الأردن حيث أودعه الأمريكيون فى أيدى سلطات الأمن التى اعتدت عليه أكثر من مرة، قبل نقله برا إلى سوريا، حيث أمضى عدة شهور فى الحبس الانفرادى والتعذيب، قبل أن يفرج عنه بعدما اكتشفت الولايات المتحدة أنها اعتقلته بالخطأ. وكانت الكلمة التى أثارت اشمئزاز كل من كتب حول هذا الموضوع، بما فى ذلك المسرحيتان اللتان تناولتاه هى كلمة render أو rendition التى تعنى الضغط عليهم حتى تذوب إرادتهم، أو تتحلل شخصيتهم ذاتها. لأن الكلمة تعنى تسييح الدهون أو تذويبها، أو هى أقرب إلى الكلمة العامية «توضيب» وأمثالها من الممارسات التى كانوا يتهمون بها النظم الشمولية من قبل. والتى ترعى أمريكا الآن ممارستها فى أكثر من عشر دول على امتداد الخريطة.

الغرفة الخاصة

هذه المقدمة التى طالت قليلا هى أمر ضرورى للكشف عن طبيعة السياق الذى كتبت فيه المسرحيتان. وللكشف عن سبب القلق الأخلاقى والسياسى الذى يسرى فيهما. فإذا بدأنا بالمسرحية الأولى، وهى مسرحية (الغرفة الخاصة The Private Room) التى تعرض الآن على مسرح «نيو إند New End Theatre» فى هامبستد، وهى مسرحية أمريكية كتبها مارك لى Mark Lee وأضطر إلى أن يجىء بها للعرض فى لندن بعد أن أستحال عليه عرضها فى الولايات المتحدة الأمريكية، ورفضها ثمانية عشر مسرحا أمريكيا، الواحد تلو الآخر، سنجد أننا بإزاء مسرحية مقلقة بحق، وقادرة على طرح عدد من الأسئلة الحرجة عن جوهر القيم التى ينهض عليها المجتمع الأمريكى نفسه. وقبل الحديث عن أسباب رفضها علينا أولا أن نتعرف على المسرحية وكاتبها الذى يكتب المسرح منذ ما يقرب من عشرين عاما، وقدمت له العديد من المسرحيات، فى كل من بريطانيا والولايات المتحدة. فقد عرضت مسرحيته الأولى (قتال الكلاب فى كاليفورنيا) على المسرح الأمريكى فى كل من نيويورك ولوس أنجلوس، ثم جاء بها إلى لندن لتعرض على مسرح «بوش Bush Theatre» عام ١٩٨٥. ثم تتابعت بعدها مسرحياته، وكان من أشهرها (القراصنة Pirates) و(قصة حب أمريكية An American Romance) و(مدينة القرن Century City) و(جيوش المتمردين تتوغل فى تشاد Rebel Armies Deep into Chad). فهو كاتب يهتم بالسياسة، وسبق له أن غطى عددا من

الحروب أو الورطات الأمريكية فى أفريقيا، وكتب بالإضافة إلى المسرح روايتين، كما أنه نائب رئيس نادى القلم الأمريكى.

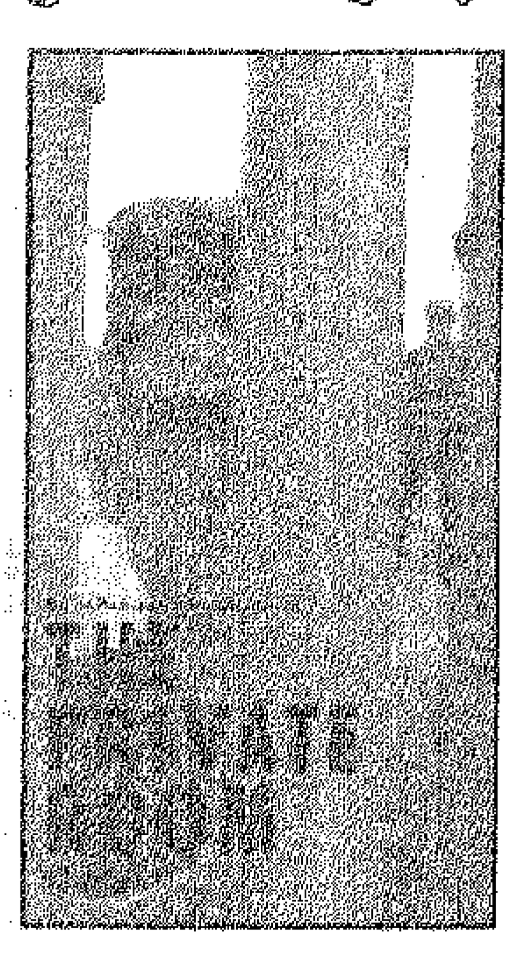
مستهل المسرحية مشهد صامت أقرب ما يكون إلى عرض البانتومايم يضع المسرحية كلها فى قبضة هذا المشهد الكابوسى من البداية، ويلفها بقدر من الغموض. وهو مشهد معتقل «جوانتانامو» بزى المعتقلين البرتقالى الشهير فيه، معتقل مكبل بالسلاسل يؤدى الصلاة. ثم تنتقل بعد هذا المشهد الاستهلالى إلى أحداث الفصل الأول التى تقع فى نيويورك، وتشكل مفارقة صارخة مع المشهد الأول أن ثنائية نقيضة له. ويدور هذا المشهد لمرارة المفارقة فى الحى الذى اندلعت منه الأحداث التى أدت إلى حرب «جورج بوش» الابن على ما يسميه «الإرهاب»، حى «وول ستريت»، حى المال والتجارة الذى كانت تشرف عليه بناية برجى التجارة العالمية اللذين تفجرا فى الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١ عندما اصطدمت بهما طائرتان من طائرات الركاب الضخمة.



تبدأ المسرحية فى «الغرفة الخاصة» وهى غرفة العنوان، بأحد مطاعم هذا الحى الفخمة الذى نعرف أن زوجين أسساه بعناية ومثابرة، ووصلا به إلى حد أن أصبح أحد أشهر المطاعم التى يتردد عليها كبار السماسرة فى هذا الحى. فالمطعم نفسه نموذج للمشروع الأمريكى الخاص، والغرفة الخاصة، وهى غرفة بالمطعم تحجز لكى تتناول فيها مجموعة صغيرة وجبة عمل يناقشون خلالها صفقات معينة فى حميمية توفرها هذه الغرفة الخاصة، نموذج أيضا لغداءات العمل الشهيرة التى تعقد فيها الصفقات، وتسير فيها أمور البورصة. حيث يدعو كل من «لورانس» وهو شاب طموح صعد بسرعة فى سلك السمسرة فى بورصة «وول ستريت» حتى أصبح من كبار السماسرة، وزميله أو مساعده «تومى» إحدى السكرتيرات وهى «باربرا» لرشوتها، أو بالأحرى لشراء صمتها على ما اكتشفته من تزوير ضرورى فى إحدى الصفقات. وتجىء «باربرا» إلى المطعم، وتكشف لهم ليس فقط عن معرفتها بما اقترفاه من مخالفات قانونية لتمرير الصفقة فحسب، ولكن أيضا عن احتفاظها بصور من كل المستندات التى تسجل هذه المخالفات وتدينهما، وربما تقضى على مستقبلهما المرموق، وما يصاحبه من دخل كبير يصل إلى أكثر من ربع مليون دولار فى السنة. وحينما يهددانها، تسخر من تهديدهما الفارغ، وتتكشف عن صلابة نادرة تزرى بكل شراسة السماسرة.

فهى الأخرى نموذج للفتاة الأمريكية الجديدة التى تقتنص الفرص من أجل

مأساة جوانتانامو



تنجح «باربرا» بالفعل فى كسر طوق الصمت الذى ضربه «سلمان» حول نفسه من خلال استخدام تقنيات التحقيق النفسية، ومن خلال التهديد والوعيد



الصعود السريع. وسبق لها أن عانت من الاضطهاد ولكنها عرفت كيف تصعد وتصل إلى غايتها، وهى وإن كانت مجرد سكرتيرة ناشئة ذات مرتب تافه، إلا أنها تدرك أن لديها الإمكانيات التى تجعلها سمسارة تكسب آلاف الدولارات فى اليوم الواحد. وها هى الفرصة قد جاءتها ساعية، ولذلك فلن تفوتها أبدا. وهى فضلا عن هذا كله قد انضمت إلى الجيش الاحتياطى، وتدربت على القتال الشرس، وتمارس هذه الشراسة فى حياتها اليومية بعيدا عن الجيش، كى تصعد سلم النجاح الأمريكى قفزا. وتفاوضهما بحنكة سمسار عريق، حيث تطلب أن يسعى «لورانس» لتعيينها سمسارة فى البورصة مقابل سكوتها عن مخالفاته، وأن هذا هو الثمن الوحيد الذى يوقفها عن تسليم ما لديها من مستندات للسلطات. ولا يجد السمساران المحنكان مناصا من التسليم بكل شروطها، والرضوخ لكل مطالبها. ويكشف لنا هذا القسم الأول من المسرحية عن مدى استشراء الفساد فى بنية المؤسسة المالية الأمريكية، وعن طموح الشخصيات الأعمى للنجاح السريع، ورغبتها جميعا فى دفع ثمن هذا النجاح السريع من تخل عن القيم، أو مخالفة للقوانين، شريطة أن يدفع كل منهم ثمن التغطية على هذه المخالفات. وأن يحافظ كل بأنانية مطلقة على مصالحه، ومكاسبه التى تتنامى يوما بعد يوم. فنحن فى عالم سعار الأرقام المحمومة، والمكاسب الضخمة التى يمكن أن تتحقق بين عشية وضحاها. ولا تكتفى المسرحية بهذا الجانب العملى من حياة شخصياتها الثلاث، ولكنها تمزجه باستمرار بالجانب الشخصى، حيث نتعرف على حياة «لورانس» الأسرية، وعلى نمط العلاقات المادية بينه وبين زوجته الحريصة على تحقيق كل علامات النجاح فى مثل هذا المجتمع الوالغ فى سعار الاستهلاك والأنانية الفردية والخداع، بما فى ذلك الخيانة الزوجية بالطبع.

ثم ينتقل بنا الفصل الثانى إلى معسكر «جوانتانامو» حيث تم استدعاء «باربرا» للخدمة العسكرية، وأرسلت إلى معتقل «جوانتانامو» للتحقيق مع المعتقلين. وفى «غرفة خاصة» أخرى هى غرفة الاستجواب هذه المرة، وفق الشروط التى وفرتها المؤسسة العسكرية للمحققين كما بينّا من قبل، يعهد إليها بالتحقيق مع «سلمان بشير» وهو شاب باكستانى فى مثل عمرها أعتقلته السلطات الباكستانية بعدما عبر الحدود الأفغانية، وسلمته للجيش الأمريكى، الذى عثر معه على بعض أقراص الكومبيوتر، التى أصبحت دليل إدانته. وسرعان ما نقله الجيش الأمريكى إلى معتقل «جوانتانامو» لاستجوابه، ولكنه يعد من الحالات الصعبة لأنه أصر على الالتزام باتفاقية جنيف، ولم يقدم سوى اسمه، واعتصم بالصمت، ورفض الإجابة على أى من الأسئلة التى وجهها له المحققون. ويعهد «جون» قائد الوحدة التى تعمل بها «باربرا» إليها بالتحقيق معه، لأنه يعتقد، حسب فهمه للإسلام، أن المرأة تستطيع أن تكسر إرادته أكثر من أى رجل. حيث يشعر «سلمان بشير» أمامها بالخجل والهوان كمسلم، هكذا يقول لنا. ويبدأ التحقيق الذى يتكون من عشرين سؤالا على «باربرا» أن تحصل منه على إجاباتها الواحد بعد الآخر. وتنجح «باربرا» بالفعل فى كسر طوق الصمت الذى ضربه «سلمان» حول نفسه من خلال استخدام تقنيات التحقيق النفسية، ومن خلال التهديد والوعيد. التهديد بأنها إن أخفقت فى مهمتها فسوف يرسله رئيسها إلى مصر كى ينتزعوا منه اعترافا بما ارتكب وبما لم يرتكب، وبكل ما يريدونه أن يعترف به، مهما كانت براءته. هكذا تقول لنا المسرحية. والوعيد بعدد من الحيل والرشوات البسيطة مثل إتاحة الفرصة له لأن يكتب خطابا لأمه. أو استثارة حنينه إلى أهله، وشفقته على ما يعانونه من حيرة لعدم معرفتهم أى أخبار عنه من اعتقاله قبل وقت طويل.

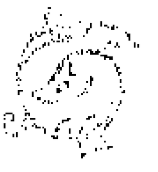


ونعرف من خلال هذا التحقيق الذى يكشف لنا عن شخصية «سلمان» بقدر ما يكشف عن الإنسان الكامن فى «باربرا» ومدى ما تعانيه من وحدة ويتم، أنه برىء من كل ما ينسب إليه. فكل ذنبه أنه إنسان طموح، سبق له أن سافر إلى بريطانيا عندما استدعاه عمه المقيم فيها منذ سنوات طويلة، ومناه بالدراسة بها. وبالفعل ذهب والتحق بأحد معاهد الكومبيوتر لدراسة البرمجة، ولكنه اكتشف أن السر فى دعوة عمه له أنه يريده زوجا لابنته التى لم ينسجم معها، ومعاونا يساعده فى إدارة الدكان الذى يملكه فى الحى الذى يعيش به. وهو الأمر الذى ينفر منه «سلمان»، لأن كل ما يهمه هو دراسة الكومبيوتر، والاهتمام بأمور دينه. لذلك يقرر العودة من جديد إلى باكستان، حيث يعمل فى أحد مكاتب الكومبيوتر، ويرشحه صاحب المكتب لإصلاح كومبيوتر فسد مخزن المعلومات hard disk به فى أفغانستان. ولكنه قبل أن يصل إلى هدفه، تم القبض عليه، ولم يكن معه سوى أقراص البرامج الخاصة بإصلاح «مخزن المعلومات». لأن الجيش الأمريكى يشك فى أنه ذاهب لإصلاح أحد كومبيوترات «القاعدة»، وهو لا يعرف شيئا عن القاعدة، ولا عن الكومبيوتر الذى أرسل لإصلاحه، ولم يصل حتى إليه. والواقع أن فصل التحقيق هذا من أكثر فصول المسرحية درامية وثراء، لأنه يكشف لنا عن المشترك الإنسانى بين كل من «سلمان» و«باربرا»، وانجذاب أحدهما الحذر للآخر، برغم وعى كل منهما بالسدود الفاصلة بينهما، بقدر ما يكشف لنا عن المختلف بينهما ثقافيا ونفسيا. ويلمس هذا الفصل مسألة التأثير المزدوج

لعملية الاستجواب، لأنها وإن كانت تؤثر سلبيا على المستجوب، بفتح الواو، وتستهدف كسر إرادته، فإنها تؤثر كذلك على المستجوب، بكسر الواو، وتدفعه للمقارنة الدائمة بين موقفه وموقف خصمه، وماذا يكون رد فعله لو انقلب الوضع. خاصة أن «سلمان» وثق فى «باربرا» وصدق كل وعودها، ووضعها هذا التصديق فى امتحان صعب.

لأن المؤسسة العسكرية التى تعمل «باربرا» فيها لم تثق فيها ولم تحترم وعودها لها. ومن هنا تكتشف «باربرا» حقيقة الخواء الأخلاقى الذى يعشش فى قلب المؤسسة العسكرية الأمريكية، لأن الطريقة التى تتعامل بها المؤسسة العسكرية معه، بعد أن ائتمن «باربرا» على أسراره، تقوم على الغش والخداع. وتدفع «باربرا» إلى فقدان الثقة فى المؤسسة، وإعادة التفكير فى كل شىء فى حياتها العملية والشخصية على السواء. وفى كل ما مارسته من غش وخداع من أجل تحقيق مكاسب شخصية صغيرة، بينما يتحمل «سلمان» الإهانات والعذاب دون أن يقدم أى تنازلات يمكنها أن تضر بالآخرين. ألم تغض الطرف عن خداع «لورانس» الذى أضر برئيسها بينما أتاح لها ذلك أن تحقق المكاسب لنفسها وتترقى؟ ومن خلال المواجهة بين الإيثار والأثرة التى يمارسها «سلمان»، تشعر بالقلق والاضطراب. فهذا الفصل هو فى الوقت نفسه فصل التحول فى العمل الدرامى. وفصل الاستقطاب بين القيم والمواقف بالصورة التى تخرج منها القوة الغاشمة مهزومة أخلاقيا برغم انتصارها المادى. ويعلل رئيسها «جون» ما انتابها من قلق بأنها قد اقتربت بشكل أكثر من اللازم من المعتقل، وهذا ما يجعلها تنسى أنه فى نهاية الأمر عدو، وليس إنسانا مثلهما. لكنه هو لم ينس ذلك، وقد قرر أن يرسل «سلمان» ـ برغم نجاحها فى الحصول على أجوبة لكل الأسئلة العشرين التى طلب منها الحصول على أجوبة عليها ـ إلى مصر للتحقيق معه هناك بأسلوب مغاير. وهو القرار الذى يشكل صدمة الإفاقة بالنسبة لها.

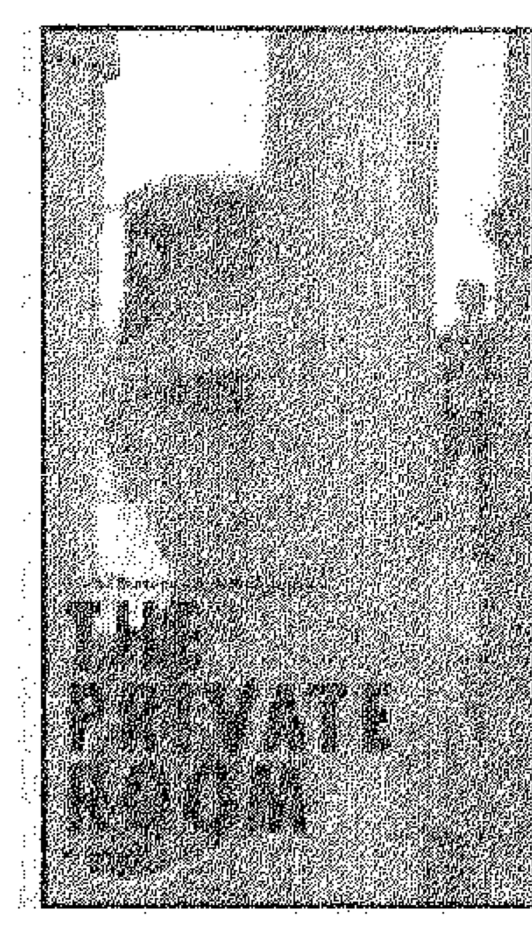
ولذلك ما إن تراها فى الفصل الثالث وقد جاءت إلى موعد جديد مع نفس سمسارى الفصل الأول وفى نفس غرفة المطعم الخاصة، فى بنية دائرية تعود فيها الأحداث إلى متابعة ما جرى فى الفصل الأول، حتى تدرك فداحة هذه الصدمة. فبعد أن أمضت عاما كاملا فى الخدمة العسكرية، وعادت من جديد إلى عملها السابق محاطة بهالة من المجد الزائف والغار؛ حتى نكتشف أننا بإزاء «باربرا» جديدة. دفعتها تجربة العمل فى «جوانتانامو» ورؤية أخطاء المؤسسة العسكرية من الداخل إلى طرح الأسئلة التى لا تطرح، وإلى الشك فى المسلمات الشائعة التى تنهض عليها القناعات الأمريكية الثابتة. وقبل وصولها ندرك مدى تدهور أحوال «لورانس» الاجتماعية بعد أن انفصلت عنه زوجته التى عثرت على قطعة ملابس داخلية لإحدى عشيقاته فى سيارته، فطلبت الطلاق منه. وحصلت على البيت والأولاد والمدخرات. وتركت له الديون وحدها. لدرجة أن صاحبة المطعم تهدده إن لم يسدد ما عليه من ديون بلغت عدة آلاف من الدولارات، بأن تسلط عليه مساعديها وعمالها. ويحاول تخفيف حدة غضبها عليه، بأنه ينتظر واحدة من الأبطال الذين حاربوا ضد «الإرهاب». وأن هذا شرف لمطعمها. وهو أمر توافق عليه، بل يسعدها. وما أن تصل «باربرا» وتعرف صاحبة المطعم أنها شاركت فى الحرب على «الإرهاب»، حتى تفتح زجاجة «شمبانيا» على حساب المطعم على شرفها، وهى التى رفضت قبل لحظات أن تقدم لـ«لورانس» زجاجة بيرة.

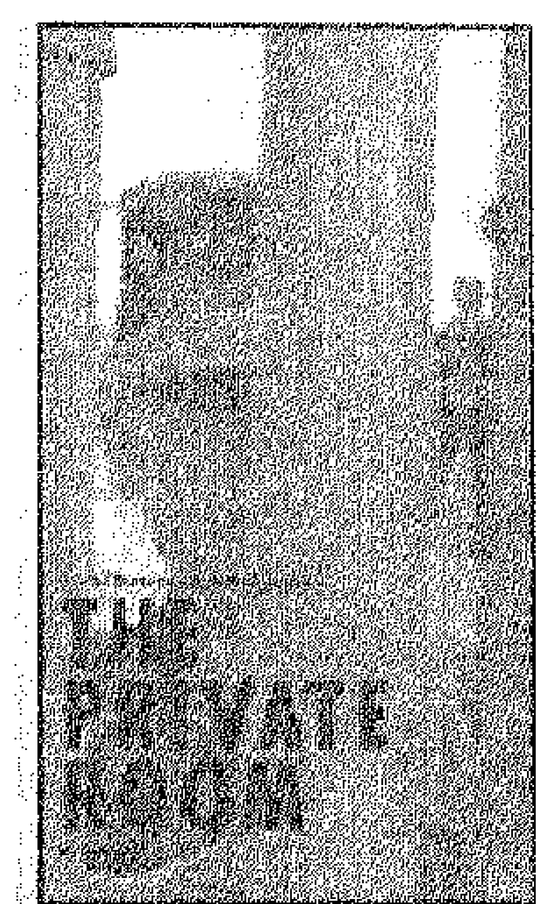


لكن المفاجأة أن «باربرا» ترفض عقب وصولها أى مزاعم للبطولة. لأن كل ما قامت به خلال عملها هو النقيض الكامل للبطولة، وينهض على الخسة والدناءة وإهانة الآخر، والتعذيب النفسى والخداع. وتكشف لزميليها، وصاحبة المطعم معا، شيئا من أساليب التعذيب النفسى الجهنمية لإثبات تفوق الأمريكى على أعدائه، وسيطرته الكلية عليه، وإصابة المعتقل بالخلل أو الخبال. ويتحدث معها زميلاها اللذان يعانيان من الحيرة فى تفسير سبب طلبها مقابلتهما عن مستقبلها فى الشركة، وكيف يمكن أن تطلب الترقى إلى وظيفة أعلى، وإن كانت أدنى قليلا من وظيفة «لورانس». ولكنها تخبر الزميلين أن رئيس الشركة عرض عليها فعلا وظيفة «لورانس» التى يصل دخلها إلى ربع مليون دولار فى السنة؛ ولكنها طلبت منه أن يعطيها مهلة للتفكير. فيصابان بالدهشة وعدم الفهم، لأن الأمر فى نظرهما لا يحتاج لأى تفكير أمام فرصة كهذه لا تأتى إلا مرة واحدة فى العمر كما يقول «تومى». وقد طلبت لقاءهما ذلك، لتخبرهما أنها لن تقبل هذه الوظيفة. لأنها قررت أن تكشف كل ما قاموا به من خداع وتزوير فى الماضى، وتسلم كل ما لديها من أوراق لمكتب التحقيقات الفيدرالى. فيقع عليهما هذا القرار وقع الصاعقة. ويحاولان إثناءها عنه، لأنها ستضار هى الأخرى منه قبلهما. فتخبرهما بأنها تدرك ذلك، ولكن قرارها نهائى ولا رجعة فيه، وتغادر «الغرفة الخاصة» وقد تركتهما فى ورطة كما تركت «سلمان بشير» فى زنزانته فى «جوانتانامو» ولم تستطع مساعدته.

وكل ما يمكن الخلوص إليه من هذه النهاية أن مثالية «سلمان» وصموده وحرصه على ألا يخون مبادئه قد دفعتها لطرح الأسئلة المقلقة على نفسها عن ممارساتها السابقة واللاحقة على السواء. وقد شاهدت هذه المسرحية فى عرض خاص نظمه نادى القلم الدولى، وتحدثت مع المؤلف الذى أكد لى أن كل المسارح التى عرضها عليها رفضتها لأسباب سياسية، واعتبرت أنها تسىء إلى المشاعر الأمريكية، وتنتقص من صورة الجيش الأمريكى وبطولاته. لأن رفض «باربرا» للزعم بأنها قامت بأى بطولة يشكل صدمة للجمهور الأمريكى الذى ارتفعت حدة شوفينيته فى السنوات الأخيرة. ويعامل أبطال «الحرب على الإرهاب» بشىء من التقديس. وأن تشكيك المسرحية فى أخلاقية الحرب الأمريكية الراهنة سيدفع الجمهور إلى الثورة على المسرح الذى يقدم مثل هذه المسرحية، والتخلى عن دعمه له. صحيح أنه ليس ثمة رقابة فى الولايات المتحدة تمنع المسرحيات من العرض، ولكن «مارك لى» مؤلف المسرحية كشف لى أن معظم المسارح الصغيرة تعيش على ما يدعوه بالتذاكر السنوية التى يشترى فيها المشاهد تذاكر موسمية بأثمان كبيرة تتيح له مشاهدة كل عروض الموسم، وتتيح للمسرح الأموال التى ينفق منها مقدما على إعداد عروضه. فإذا ما كان بها عرض من هذا النوع فإن أصحاب التذاكر السنوية سيردون تذاكرهم للمسرح غضبا، مما يؤدى إلى إغلاقه بسحب الأموال التى تمكنه من الإنفاق على هذه العروض. وحينما قلت له أن هذا يشكل نوعا جهنميا من الرقابة غير تلك التى تعانى منها المسارح فى البلدان غير الديموقراطية، وافقنى على هذا الرأى، وأكد أن هذا النوع هو أسوأ أنواع الرقابة، لأنه يمكن الجمهور، أو بالأحرى الشريحة الثرية منه، من فرض رقابتها ورؤيتها السياسية المتخلفة على المسرح.

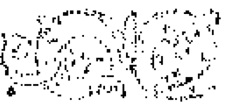
مأساة جوانتانامو




THE PRIVATE ROOM




تكتشف «باربرا» حقيقة الخواء الأخلاقى الذى يعشش فى قلب المؤسسة العسكرية الأمريكية، لأن الطريقة التى تتعامل مع سلمان بعد أن ائتمن «باربرا» على أسراره، تقوم على الغش والخداع

جوانتانامو: لاشرف ولاحرية

والواقع أننى تعجبت كثيرا من هذا الموقف، وفى بلد يدعى أنه بلد الحريات، لأن نقد المسرحية للمؤسسة الأمريكية شديد الرقة، يثير الأسئلة أكثر مما يوجه الاتهامات. خاصة إذا ما قورن بالنقد الجارح الذى تنطوى عليه المسرحية الانجليزية (جوانتانامو: ملتزما بالشرف دفاعا عن الحرية Guantanamo: Honor Bound to Defend Freedom) التى كتبتها فيكتوريا بريتين وجيليان سلوفو Victoria Brittain & Gillian Slovo وتعرض الآن على مسرح «الترايسكل» فى لندن، وسوف تنتقل منه إلى «الويست إند» بعد النجاح الكبير الذى لاقته. ومسرح «الترايسكل» من المسارح الانجليزية الجادة التى تخصصت فيما يمكن دعوته بالدراما السياسية الوثائقية.



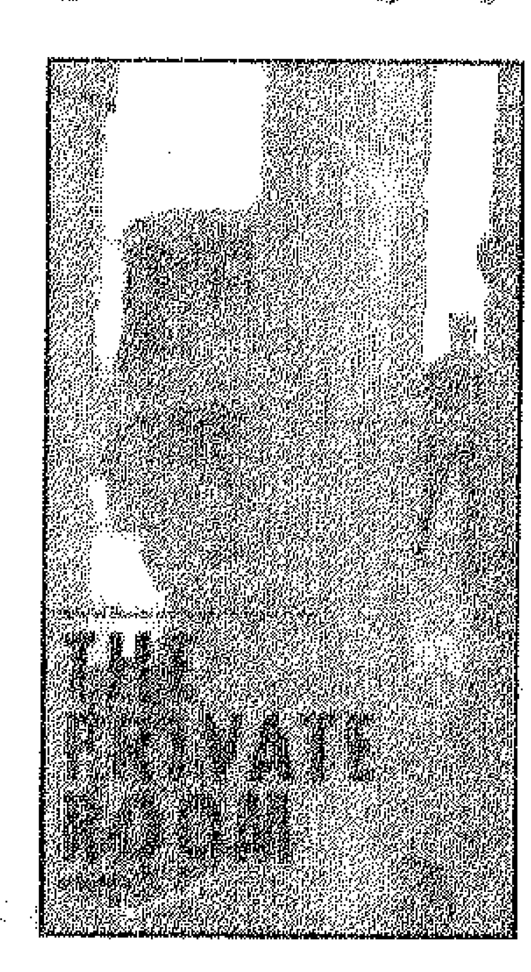
أما الكاتبتان فلكل منهما باع طويل فى العمل الصحفى والسياسى والكتابة

الأدبية والدرامية على السواء. فڤيكتوريا بريتين صحفية لامعة عملت لأكثر من عشرين عاما في جريدة (الجارديان) الانجليزية حتى أصبحت محررة الشئون الخارجية بها. وعاشت سنوات عديدة من عمرها في واشنطون وسايجون والجزائر ونيروبي قبل أن تستقر أخيرا في لندن. كما أنها راعية لجنة التضامن مع فلسطين وعضو هيئة تحرير مجلة (العرق والطبقة) وهي من المجلات الجادة. أما جيليان سلوفو فقد ولدت في جنوب أفريقيا، وهي ابنة جو سلوفو المناضل المعروف ضد نظام التفرقة العنصرية في جنوب أفريقيا، والذي سجنه النظام الأبيض فيها برغم أنه من البيض، ولما أفرج عنه انتقل إلى الحياة في لندن مع أسرته قبل تحرر جنوب أفريقيا من الحكم العنصري بزمن غير قصير.

وإذا كانت مسرحية مارك لي مسرحية ذات حبكة درامية، حاولت الربط بين ما يدور في المؤسسة الملخصة لجوهر الحضارة الأمريكية، والمسئولة عن تزعمها لنظام العولمة الراهن: مؤسسة «وول ستريت» وبين ما يدور في هذا المعتقل الجهنمي، وكشفت عن أن كلا منهما وجه للآخر، فإن مسرحية (جوانتانامو: ملتزما بالشرف دفاعا عن الحرية) تنتمي إلى المسرحية التوثيقية التي تنهض على بنية المنولوجات المتقاطعة. حيث يتخلق التوتر الدرامي المثير للقلق والتفكير من الحوار المستمر بين هذه الأصوات والمنولوجات المتقاطعة. فقد اختارت المسرحية أن تعرض علينا هذه القضية الشائكة من خلال انتقائها لعينة مختارة، أو بالأحرى ممثلة، ممن انتهى بهم حظهم التعس إلى هذا المعتقل الجهنمي، وعينة دالة أخرى من المجتمع الانجليزي تمثل استجاباته العملية لضحايا هذا المعتقل. وحصرت هذا الاختيار في الحالة الانجليزية وحدها، واعتمدت فيه على شهادات معتقلي جوانتانامو من البريطانيين الذين أفرج عنهم مؤخرا، وشهادات أسرهم، وأسر من كانوا أسوأ منهم حظا ولم يفرج عنهم حتى الآن. كما اختارت مع شهادات المعتقلين وأسرهم، عينة من شهادات الانجليز الذين وضعتهم ظروفهم المهنية في علاقة مباشرة مع هذه الحالة. لأن هذه العينة تنطوي على السياسي، والمحامي الذي يمثل أحد المعتقلين، والناشط في إحدى منظمات حقوق الإنسان، والقاضي الذي يتعامل مع شرائع القوانين. وإذا كانت المسرحية تعتمد على الشهادة الوثائقية لتخليق الدراما فيها، فإنها تعتمد كذلك على المفارقة الساخرة المرة التي يشي بها عنوانها الفرعي «ملتزما بالشرف دفاعا عن الحرية» لإذكاء حدة الدراما من ناحية، ولدفع المشاهد لتأمل ما تعرضه عليه بشكل عقلي خالص من ناحية أخرى.

وإذا كان العنوان هو عتبة النص الأساسية، فإن المسرحية قد اختارت عنوانا موفقا في هذا المجال، يجمع بين كلمة «جوانتانامو» التي أصبحت عنوانا على التحلل من أي التزام أخلاقي أو قانوني أو دولي، وبين شعار الجيش الأمريكي البراق «الالتزام بالشرف دفاعا عن الحرية» لتعمق بذلك من حدة المفارقة بين الموقع والشعار، وبين ممارسات الجيش الأمريكي المخزية وأوهام أمريكا عن الشرف والحرية أو دعاوى جيشها المغوار. وتبدأ المسرحية بمحاضرة، بالأحرى مقتطفات من محاضرة ألقاها يوهان ستاين، قاضي الاستئناف الأعلى — وهو من أعلى المناصب القضائية في بريطانيا — ثم تنتهي بمقتطفات أخرى منها في محاولة لتأطير العرض الدرامي كله بهذا الإطار القانوني الذي يدعو إلى التأمل. وهي محاضرة فعلية ألقيت في ٢٥ نوفمبر عام ٢٠٠٣ في سلسلة محاضرات «مان» القانونية الشهيرة. وتبدأ المحاضرة بالتذكير بأن بريطانيا احتجزت سبعة وعشرين ألف شخص في الفترة بين ١٩٣٩ و١٩٤٥ بسبب الحرب، واستبعدت سبعة آلاف آخرين، وأنه ثبت فيما بعد أن معظم هذه الاحتجازات تفتقر إلى التبرير القانوني. وهذا نفسه ما فعلته الولايات المتحدة بالنسبة لليابانيين الأمريكيين الذين ثبت فيما بعد أن كل ما اتخذ ضدهم من إجراءات افتقر للأساس القانوني وكان نتيجة سعار الخوف والشوفينية. ثم يذكرنا بأن هذا كله كان وراء تأسيس الأمم المتحدة، وبلورة الميثاق الدولي لحقوق الإنسان. ثم تتناول المحاضرة كيف أن عدم تطبيق القوانين في «جوانتانامو» يشكل انتهاكا للحقوق القانونية الأساسية من الحوار المستمر بينه، حيث يقوم العسكريون بدور المحقق والمحامي والنيابة والقاضي والجلاد إن لزم الأمر، وفي هذا انتهاك لكل الأعراف والقوانين الإنسانية. ولا تتوفر للمتهم أدنى حقوقه القانونية في الدفاع عن نفسه. والواقع أن المسرحية تستخدم مقتطفات من هذه المحاضرة القانونية القيمة والمقنعة لا تتجاوز الدقائق الخمس، وإن نشرت نصها الكامل في برنامجها المطبوع.

مأساة جوانتانامو



عدم تطبيق القوانين في «جوانتانامو» يشكل انتهاكا للحقوق القانونية الأساسية من الحوار المستمر بينه، حيث يقوم العسكريون بدور المحقق والمحامي والنيابة والقاضي والجلاد إن لزم الأمر



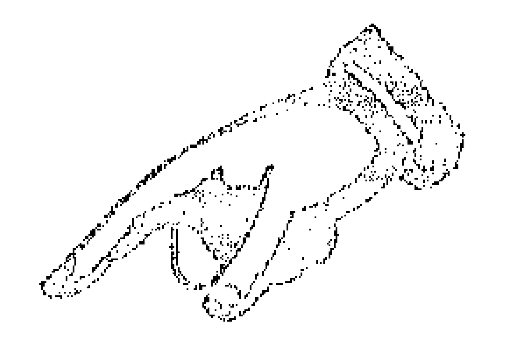


وفي داخل هذا الإطار القانوني تطرح المسرحية نماذجها الأساسية الثلاثة من المعتقلين، في الوقت الذي تحف بجانبي المسرح زنازين «جوانتانامو» الشهيرة التي تشبه أقفاص الحيوانات الخطرة، وفي كل زنزانة معتقل لا يمارس إلا بعض التمارين الرياضية المحددة بمساحة الزنزانة التي نعرف أنها متران في مترين، والصلاة. كما نكتشف، وهذا أمر وثقته المسرحية جيدا، أن المعتقل يبقى في هذه الزنزانة مرتديا إضافة إلى الزي البرتقالي الشهير، «حلة من ثلاث قطع» وهو اسم القيد الحديدي الذي يتكون من ثلاثة أجزاء، يلتف أولها حول خصره، ويقيد ثانيها يديه وثالثها رجليه بقيد مربوط إلى حلقة الخصر المركزية، تطول السلسلة التي تربط قيد الساقين أو تقصر وفقا لنوعية المعاملة التي تجبر المعتقل على البقاء في وضع انحناء دائم أثناء الحركة في الزنزانة أو خارجها، أو تسمح له بأن «يفرد طوله» حسب التعبير الدارج. هذا التأطير الواقعي الإضافي بعد التأطير القانوني يضع المشاهد أمام حقيقة أن ما تعرض عليه المسرحية قصصهم إنما هم مجرد عينة ممثلة للمئات الذين تغص بهم زنازين هذا المعتقل الكابوسي الشهير. ويوشك كل واحد من الثلاثة أن يمثل نمطا من الأنماط المتعددة التي انتهى بها حظها العاثر إلى هذا المعتقل. أولهم مسلم بريطاني من أصول هندية - حيث تنتمي لها أغلبية المسلمين في بريطانيا - يحكي لنا أبوه «عظمة بيج» قصته. وكيف أنه كان شابا مثاليا، تأثر كثيرا بما يعانيه أطفال أفغانستان إبان حكم طالبان، وعرف أنهم يعانون من نقص المياه النقية، ولأنه مسلم ومتخصص في صناعة المضخات اليدوية والفلاتر، قرر الذهاب إلى هناك لمساعدتهم في استخراج ماء صالح للشرب، وفتح مدرسة لتعليمهم، وقد قبض عليه هناك ونقل إلى هذا المعتقل، دون أن يكون قد اقترف أي ذنب.



ويخبرنا «عظمة بيج» أن ابنه «معظم بيج» قد عانى إبان طالبان التي تشككت فيه ولم تشجع مشروعه، ولاحقته. لكنه عانى أكثر من الاحتلال الأمريكي لأفغانستان الذي انتهى به إلى هذا المصير التعس. وتعتمد المسرحية على عرض الأب لقصة ابنه، بينما الابن في «جوانتانامو» يجسد لنا الحالة الكابوسية التي يعيشها فيها. ولا سبيل إليه سوى كتابة رسائل قليلة تتعرض للرقابة والحذف من السلطات العسكرية الأمريكية باستمرار. ومن هنا تكتمل تفاصيل القصة من خلال المزج الدرامي بين معاناة الأب وتخبطه بين ردهات السلطات الانجليزية التي لا تساعده حقا في الحصول على معلومات عن ابنه أو في الإفراج عنه. خاصة أنها قد نجحت في الإفراج عن خمسة من المواطنين البريطانيين العشرة الذين كانوا في «جوانتانامو». وبين التجسيد الدرامي للحالة التي يعيشها ابنه في «جوانتانامو» ولمحاولاته المخفقة لتمرير تفاصيل الوضع الذي يعيش فيه إلى أسرته، والاطمئنان على مصير زوجته وابنه اللذين تركهما وراءه في أفغانستان. ولأن الحكومة البريطانية قد أخبرت الأب بأن ابنه من الذين قد تقدمهم السلطات

كتاب الزاوية



هكذا غنى طاغور

حرية

التحرر من الخوف
هو التحرر الذى أطلبه لك
يا وطنى العزيز
الخوف، ذلك المارد الخيالى
الذى صاغته أحلامك المعوجة
التحرر من أثقال السنين
التى تحنى رأسك
وتكسر ظهرك
وتعمى عينيك
عن نداء المستقبل الساحر
التحرر من جذوع الكسل والخمول
التى تقيد بها نفسك إلى جمود الليل
مرتابًا فى نجمة الليل التى تشير
إلى طريق المغامرة فى سبيل الحقيقة
التحرر من نقيصة الإقامة فى
عالم من الدمى توجه حركاتها
خيوط بلا عقل، ومكررة بلا معنى
بحكم العادة والمألوف
حيث الشخوص تقف فى طاعة سلبية
منتظرة محرك الدمى
يوقظها برهة قصيرة
من غفوتها، لتقلد الحياة تقليدًا هزيلاً

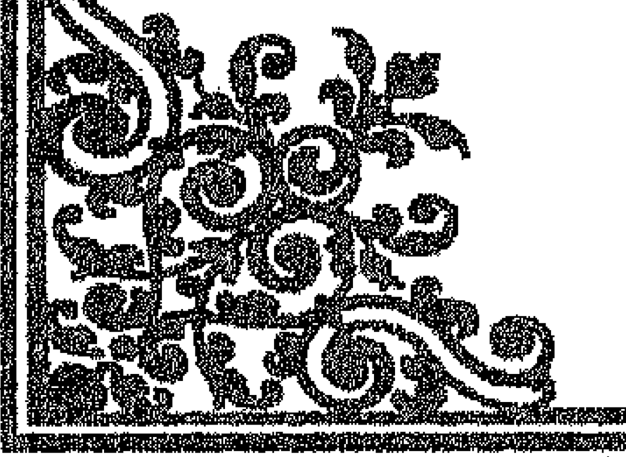
الأمريكية للمحاكمة، فإنه يطلب لابنه العدل لا الرحمة. إنه يطلب أن يحاكم أو أن يفرج عنه، لأنه ليس من حق أحد احتجازه هكذا دون محاكمة. فإن كان لدى الولايات المتحدة أى أدلة ضده، تزعم أنها سبب اعتقالها له، فعليها تقديمها للمحكمة وإتاحة فرصة محاكمة عادلة لابنه بدلا من بقائه فى «جوانتانامو» فى هذا الوضع الغريب.

وأما النموذج الثانى الذى تقدمه المسرحية فهو للعربى الذى تصور أنه قد نجا من الحياة القاسية فى العالم العربى، وهيأ لنفسه حياة مغايرة فى الغرب. إنه هنا «عبدالوهاب الراوى» الذى ينحدر من أسرة عراقية ثرية، تركت العراق منذ عشرين عاما وعاشت فى بريطانيا، وتجنس كل أفرادها بالجنسية البريطانية، إلا أصغر الأبناء «بشير» الذى ظل محتفظا بالجنسية العراقية، بالرغم من أنه عاش أغلب سنى حياته فى بريطانيا. فقد أرادت أسرته أن يبقى أحد أبنائها عراقيا، حتى يستطيع استرداد ممتلكات الأسرة التى استولى عليها حزب البعث فيما إذا سقط النظام الحاكم فى بغداد. ولأن الأخين من أسرة ثرية، ولأن أصغرهما قد تربى فى بريطانيا كلية، فإنهما قد تشبعا بالروح الانجليزية فى ارتياد الآفاق التجارية الجديدة. ولذلك قررا إقامة مشروع استثمارى فى جامبيا لاستخراج الزيت من الفول السودانى، الذى يزرع بكثرة هناك، بينما يعانى السوق المحلى من شح الزيوت. وقد شكت الإدارة البريطانية فى أن له نشاطا مشبوها بعد أحداث سبتمبر، وقبضت عليه واستجوبته، ثم أطلقت سراحه لعدم كفاية الأدلة. بل سمحت له بتصدير كل معدات المشروع إلى جامبيا، حيث اشترى فيها أرضا وأقام بها فيلا، وبدأ فى بناء مصنع استخراج الزيوت مع شقيقه «بشير» وشريك أردنى آخر هو «جميل البنا». لكن السلطات الأمريكية طلبت من جامبيا القبض عليهم من جديد. فقد اتهمتهم الولايات المتحدة بأن مشروعهم بها من مشاريع الاستثمار التى تستخدم لتمويل منظمة القاعدة. وطلبت من جامبيا ترحيلهم إليها.

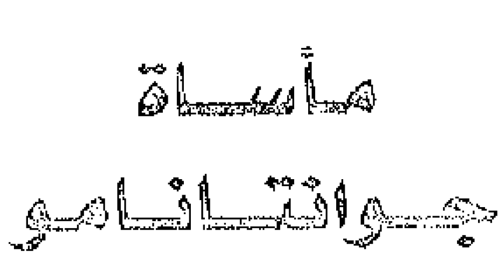


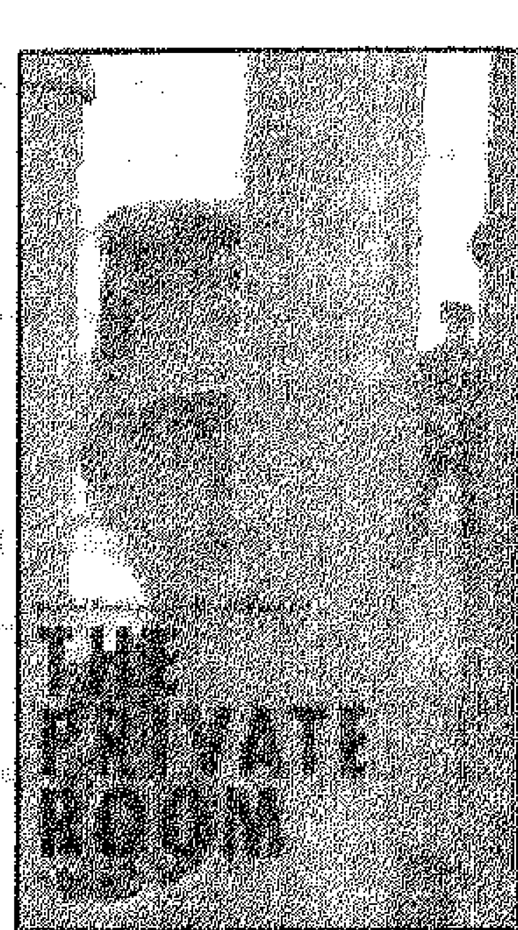


وبعد وصولهم إلى «جوانتانامو» أفرج عن «عبدالوهاب الراوى» بسبب جنسيته البريطانية، وعدم ثبوت أى دليل عليه، بينما ظل أخوه «بشير الراوى» وشريكهما فى نفس المشروع «جميل البنا» معتقلين فيها حتى الآن، لأن السلطات البريطانية تذرعت بأنه ليس من حقها التدخل قانونيا لصالح شخص ليس من رعاياها، حتى ولو عاش أكثر من عشرين عاما على أرضها كما هى الحال مع «بشير الراوى»، أو عشرة أعوام كما هى حال «جميل البنا». ولأن كل هذه الشخصيات حقيقية، يضم برنامج المسرحية صورة من خطاب مؤثر



مأساة جوانتانامو





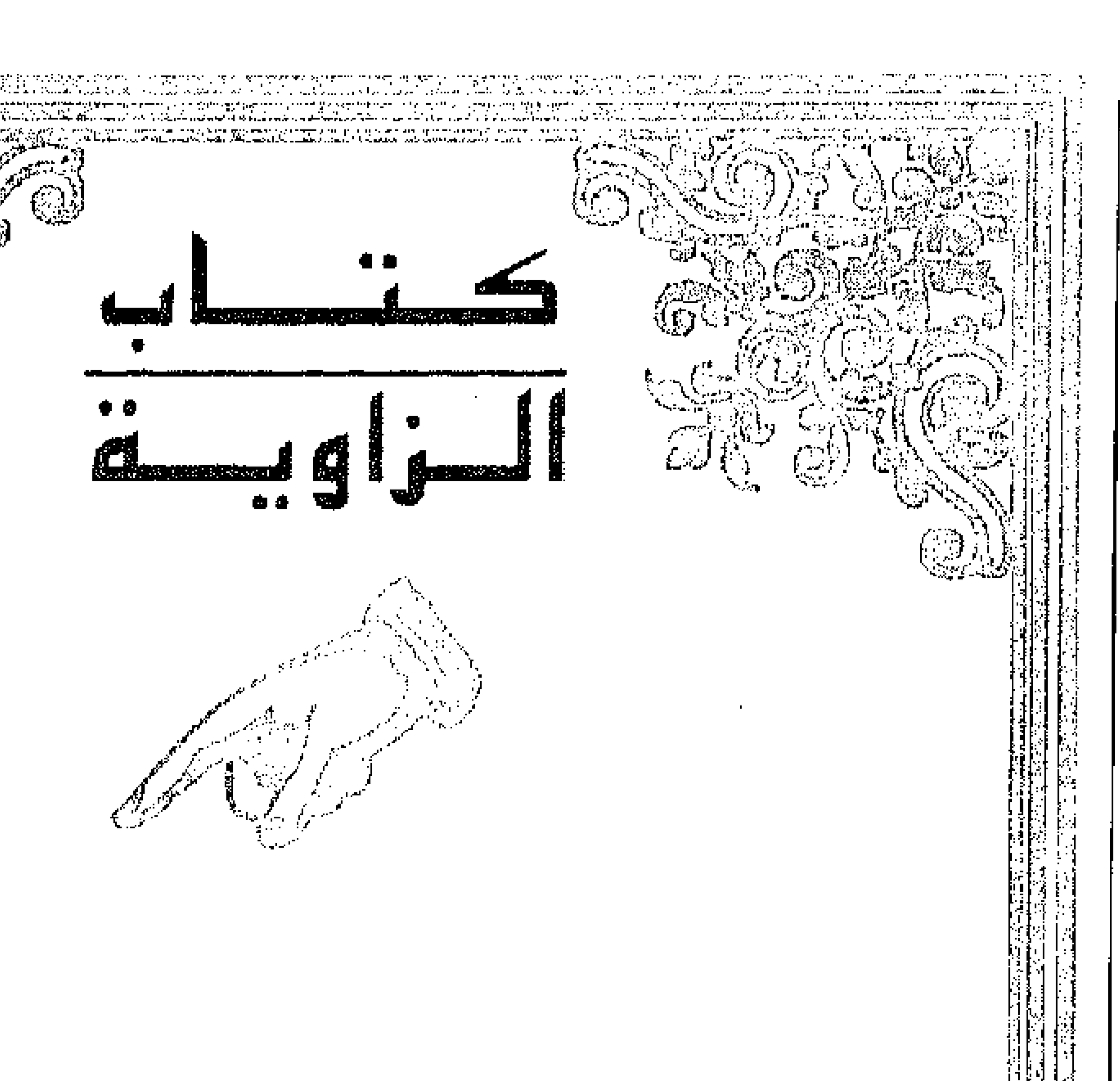
تكتمل تفاصيل القصة من خلال المزج الدرامى بين معاناة الأب وتخبطه بين ردهات السلطات الانجليزية التى لا تساعده حقا فى الحصول على معلومات عن ابنه أو فى الإفراج عنه

كتبه الطفل انس ابن جميل البنا إلى كل من تونى بلير رئيس الوزراء، والأمير تشارلز ولى العهد يرجوهما فيه العمل على الإفراج عن أبيه وإعادته. كما تضم صورة الخطاب الذى وجهته البارونة سايمونز وزيرة الدولة للشئون الخارجية لمحامى بشير وجميل البنا تخبره فيه بأن القانون الدولى لا يتيح لوزارتها التدخل لصالحهما، وأنه لو استطاع العثور على نص قانونى فى القانون الدولى يبرر ذلك فإن عليه أن يوجهها إليه وستعيد التفكير فى موقفها. لكن المثير فى الموضوع هو أثر ما جرى على مشروع الثلاثة فى جامبيا واستثماراتهم فيها. فبعد أن انتهى الأمر بثلاثتهم فى هذا المعتقل الكابوسى. استولت السلطات الفاسدة فى جامبيا على ممتلكاتهم ومعدات المشروع تحت حماية أمريكية.

أما النموذج الثالث الذى يمثل المسلمين السود فى بريطانيا، فيمثله «جمال الحارث» الذى كانت تهمته الوحيدة أنه بعدما شب عن الطوق، بدأ يتلمس الطريق نحو معرفة دينه الإسلامى، وقاده هذا الطريق إلى التعرف على الواعظ البريطانى الشهير «أبوقتادة»، وإلى السفر إلى أفغانستان. وهناك قبضت عليه حكومة طالبان وأودعته أحد سجونها. ومع أن الاحتلال الأمريكى لأفغانستان حرره من سجنه، إلا أنه انتهى به إلى سجن آخر ملأته تجربته فيه بالمرارة، وإن تم الإفراج عنه منه بعد شهور قليلة. وهو يكشف لنا عن الأثر الدامى لتجربة السجن تلك عليه، وكيف أنها دمرت ثقته فى نفسه وفى حكومته على السواء. وفى مواجهة هذه النماذج الملونة الثلاثة تقدم المسرحية عددا من النماذج البيضاء التى تتولى مهمة الدفاع عنها مثل المحامين وناشطى حقوق الإنسان، أو طرح الأسئلة الحرجة بشأن ما يدور فى هذا المعتقل مثل الصحفيين. وعدد آخر يمثل السياسيين الذين يبررون الاعتداء على حريات هذه الأنماط وحقوقها من «جاك سترو» وزير الخارجية البريطانى، إلى «دونالد رامزفيلد» وزير الدفاع الأمريكى. وتكشف المسرحية فى مشهديهما مدى ضيقهما بإلحاح الصحفيين وأسئلتهم ومدى تناقض إجاباتهم على أسئلة الصحفيين الحرجة. كما تجسد لنا غضب تلك المحامية التى تزداد ثورة عندما تعرف أن موكلها قد بعث به إلى مصر لتعذيبه فيها وانتزاع اعتراف منه بما لم يرتكبه من جرائم. وتشير المسرحية بأصابع الاتهام إلى المؤسسة البريطانية وتقاعسها فى الدفاع عن مواطنيها، وتخليها عن عدد منهم بسبب تحالفها غير المقدس مع أمريكا.

لكن المسرحية تشير كذلك إلى قضية أخطر، وتعتبر تناولها لموضوع «جوانتانامو» مجرد مدخل لها، ألا وهى مدى تآكل الحريات العامة فى ظل حكومة العمال الراهنة، ومدى تتابع التشريعات التى تتيح للسلطات حرمان الكثيرين من حرياتهم وحقوقهم تحت مجموعة من الذرائع الغريبة التى تعد أكثرها غرابة «الحرب على الإرهاب». وتربط المسرحية بين ما يدور فى «جوانتانامو» وما يدور فى سجنى «بلمارش Belmarsh» فى جنوب لندن و«وايتهيل Whitehill» بالقرب من مدينة ميلتون كينز اللذين تحتجز فيهما الحكومة البريطانية عددا من المشتبه بهم، وفق استثناء من قوانين حقوق الإنسان الأوروبية طلبته بريطانيا عقب أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بحجة أن قربها الوثيق من الولايات المتحدة يجعلها أكثر من غيرها عرضة للخطر، ولذلك عليها الحصول على هذا الاستثناء، وقد منحها إياه الاتحاد الأوروبى مما أتاح لها أن تحتجز العشرات من ذوى الأصول العربية والمسلمين فى هذين السجنين دون محاكمة، ودون أى التزام حتى بالكشف عن الأسباب التى أدت إلى اعتقالهم لمحاميهم أو لغيرهم من الهيئات القانونية أو الدولية. وتتخذ من هذا الأمر مدخلا لتناول عدد من التشريعات التى تنتقص من الحريات الفردية والتى تتابعت فى السنوات الأخيرة.

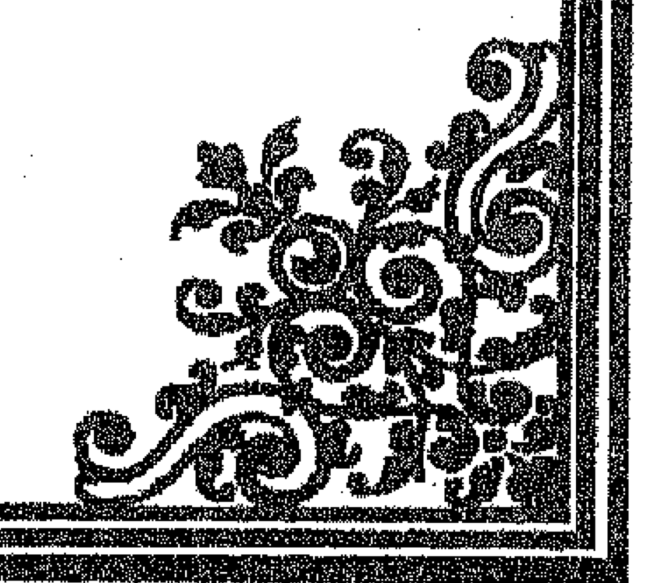
وما أن تعود المسرحية بعد هذا كله إلى المحاضرة التى افتتحت بها حتى نتعرف على مدى التناقض بين ما جسدته أمامنا المسرحية وبين ما نصت عليه اتفاقات جنيف الأربعة المتعلقة بمعاملة الجنود، والبحارة، وأسرى الحرب، والمدنيين. وحتى يكتشف المشاهدون أن حرياتهم الشخصية فى خطر، لأن كل النماذج التى عرضتها علينا قد عوملت بمقلوب القاعدة القانونية المقدسة التى تنص على أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته، فقد عوملت جميعها على أنها مذنبة حتى تثبت براءتها. وهذا ما كان الغرب الرأسمالى يأخذه فى الماضى على الدولة الشمولية، وكان يستخدم نزاهته القانونية فى احتلال الموقع الأخلاقى الأعلى. لكن بعد سقوط الدول الاشتراكية ها هو الغرب ينحدر إلى نفس المباءة التى أدت إلى انهيارها. وها هو الانحدار يبث الخوف فى نفوس مواطنيه أنفسهم وهم يرون ما جرى لمواطنين مثلهم، كان كل ذنبهم أنهم من ديانة مختلفة هى الإسلام! لكن المسرحية لاتريد للمشاهد أن يستنيم إلى دعة أنه لو لم يكن مسلما لنجا من هذا العبث القانونى، لأنها تذكره بالتشريعات الجديدة التى سنت ضد المشاغبين من مشجعى كرة القدم، والتى تمكنت من سحب جوازات سفرهم ومنعهم من السفر، باعتبار أن طريق الانحدار يبدأ دائما بخطوات صغيرة، ولكنها قد تفضى فى النهاية إلى هذا الكابوس الرهيب المسمى «جوانتانامو». ■



هكذا غنى طاغور

أورباشى

أيتها المرأة
لست من خلق الله وحده
ولكنك أيضًا من خلق الرجال
الذين يجعلونك بقلوبهم
جميلة
فالشعراء نسجوا لك شبكة
من خيوط الأخيلة الذهبية
والرسامون أعطوا دومًا
لهيئتك خلودًا جديدًا
والبحر يقدم إليك لؤلؤة
والمناجم ذهبها
وبساتين الصيف تمنحك زهورها
لكي توشيك وتكسوك
وتجعلك على الدوام
ثمينة غالية
وشوق قلوب الرجال
بسط مجده
على شبابك
فصرت نصف امرأة
ونصف حلم

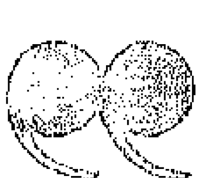


اقتفـــاء خـــطى الإمبراطــورية..

لم يكد يبدأ القرن العشرون إلا وكانت كلٌ من بريطانيا وفرنسا قد استكملتا فرض سيطرتهما المباشرة وغير المباشرة على الشرق الأوسط بكامله تقريبا، سواء بقوة السلاح أو بوسائل أخرى. كانت هيمنتهما على المنطقة تامة على كافة الأصعدة العسكرية والاقتصادية والتقنية. وبالمثل، قامت الولايات المتحدة فى بداية القرن الحادى والعشرين باجتياح العراق، أحد أهم البلدان العربية، وفرضت فيه احتلالا عسكريا لأجل غير مسمى. كان ذلك مباشرة بعد غزوها الصاعق واحتلالها لأفغانستان. وكما فعلت بريطانيا من قبل، فقد تربعت الولايات المتحدة إستراتيجيا على كل المنطقة الممتدة من المحيط الأطلنطى وحتى آسيا الوسطى، مع نشر قوات برية وبحرية وجوية ضخمة فى كثير من الدول، إلى جانب نفوذ اقتصادى وثقافى مهيمن.

وهنالك الكثير من الاختلاف بين موقف كل من القوتين، ولكن ربما ليس بالقدر الذى قد يبدو للوهلة الأولى. فرغم أن بريطانيا كانت هى القوة المهيمنة طوال قرن ونصف من الزمان حتى الحرب العالمية الثانية، فهى لم تحظ أبدا بالوضع الفريد الحالى للولايات المتحدة كقوة عظمى وحيدة وطليقة بعد انتهاء الحرب الباردة. فطوال احتفاظها بأكبر إمبراطورية عالمية ذات قاعدة أوروبية فى العصر الحديث، كان لزاما على بريطانيا دائما أن تتعامل مع عالم متعدد الأقطاب أو - على الأقل - ثنائى الأقطاب، مثلها فى ذلك مثل العثمانيين والبرتغاليين والأسبان والهولنديين والفرنسيين والنمساويين والهنغار والألمان. وعلى النقيض من ذلك تماما فقد أصبحت الولايات المتحدة أقوى بدرجة هائلة من أى دولة أخرى، وذلك منذ أن تخطت المنافسة العنيدة مع الاتحاد السوفيتى الذى كان ندا لا يستهان به، رغم أن خصومه كانوا عادة ما يبالغون فى قوته. ولم يتكرر هذا الوضع سابقا إلا فى أزمنة غابرة مثل أوج ازدهار الصين تحت حكم أسرة «تانج» ومثل المغول والإمبراطورية الرومانية. ونظرا لأن الهيمنة الأمريكية الحالية تطوق الكرة الأرضية كلها، فإن هذا الوضع - من نواح عديدة - ليس له سابقة فى التاريخ البشرى. ومع ذلك فليست تلك الهيمنة مطلقة، كما لا تعنى أن السطوة الأمريكية غير محدودة.

> «لازالت أمامنا فى الشرق الأوسط سنوات عديدة من الاضطرابات والمحن، وأصبح من الواضح تماما أن الجبروت الأمريكى هو إحدى أكبر المشاكل فى المنطقة. ومن الصعوبة بمكان بالنسبة لأمريكا أن تتوقع إصلاح ما ترفض فى الأصل أن تراه بوضوح»
>
> إدوارد سعيد ٢٠٠٣
>
> من كتاب Resurrecting the Empire



ولم يؤد القلق والارتباك والريبة لدى الكثير من الأمريكيين من رجال الدولة وواضعى السياسات والمفكرين تجاه كيفية التعامل مع التفوق العسكرى والاقتصادى الساحق لبلدهم على المستوى العالمى، خاصة بعد انتهاء الحرب الباردة، لم يؤد كل ذلك سوى إلى مزيد من طغيان الثقة بالنفس لدى أولئك - داخل و خارج إدارة بوش - المعتنقين لمبدأ التفوق الأمريكى الكامل والمطلق والذى يسميه البعض منهم بـ«الهيمنة الأمريكية الحميدة» بينما لا يخجل البعض الآخر من تسميته بـ«الإمبراطورية». ومع ذلك فليس كل من ينظر بإنصاف إلى العالم الجديد الرائع بعد انتهاء الحرب الباردة هو من دعاة الانتصار الإمبراطورى الأمريكى. وفى الأعمال التى تقدم مفاهيم ووجهات نظر متباينة، فإن أصواتا واعية مثل «جون ميرشايمر John Mearsheimer» و«جوزيف ناى Joseph Nye» و«نيل سميث Neil Smith» و«كلايد بريستويتز Clyde Prestowitz» يحذرون من ضحالة وسطحية وسذاجة هذا المنظور المتغطرس الذى لا يأبه بالتاريخ. فهم يؤكدون على وجود تنافس قوى وثيق ومستمر حتى فى هذه الحقبة الحديثة، كما ينبهون إلى حاجة الولايات المتحدة لأن تدرك أن هيمنتها ليست مطلقة، ويشيرون أيضا إلى سيناريو السلوك الإمبراطورى الأمريكى فيما بين بداية القرن العشرين وحتى بداية القرن الحادى والعشرين. وتأتى من أوروبا - وخاصة فرنسا - انتقادات أخرى مضادة للمرحلة الجديدة تناهض سطحية النظرة الانتصارية الأمريكية تجاه العالم. فمفكرون مثل «الان جوزيه Alain Joxe» و«إتيان باليبار Etienne Balibar» و«إمانويل تود Emmanuel Todd» يدللون على حتمية وجود قوى أخرى تحقق التوازن مع الولايات المتحدة.

لقد كانت هناك اختلافات جوهرية بين حال الولايات المتحدة فى بداية القرن الحادى والعشرين وبين أحوال القوى الاستعمارية الأوروبية فى أوج مجدها. فقد حظيت طموحات الاستقلال لدى العديد من الأمم الخاضعة قسرا للسيطرة الأجنبية بدعم كبير فى أعقاب الحرب العالمية الأولى عند صدور إعلان «وودرو ويلسون Woodrow Wilson» ذى النقاط الأربع عشرة، والذى كان موجها فى الأساس إلى الدول الأوروبية ولكن صداه الواسع تجاوزها إلى كل مكان آخر رغم ذلك. كما تفاءل الكثير فى المستعمرات لدى اندلاع الثورة البلشفية الواعدة لتحرير الشعوب التى عانت كثيرا تحت نير القياصرة. ونتيجة لكل تلك العوامل وغيرها، فقد اكتسب الفكر الإمبراطورى والاستعمارى بالتدريج سمعة سيئة على مستوى العالم، بل وحتى داخليا فى بعض الأوساط فى قلب الإمبراطوريات الاستعمارية الأوروبية العظمى.



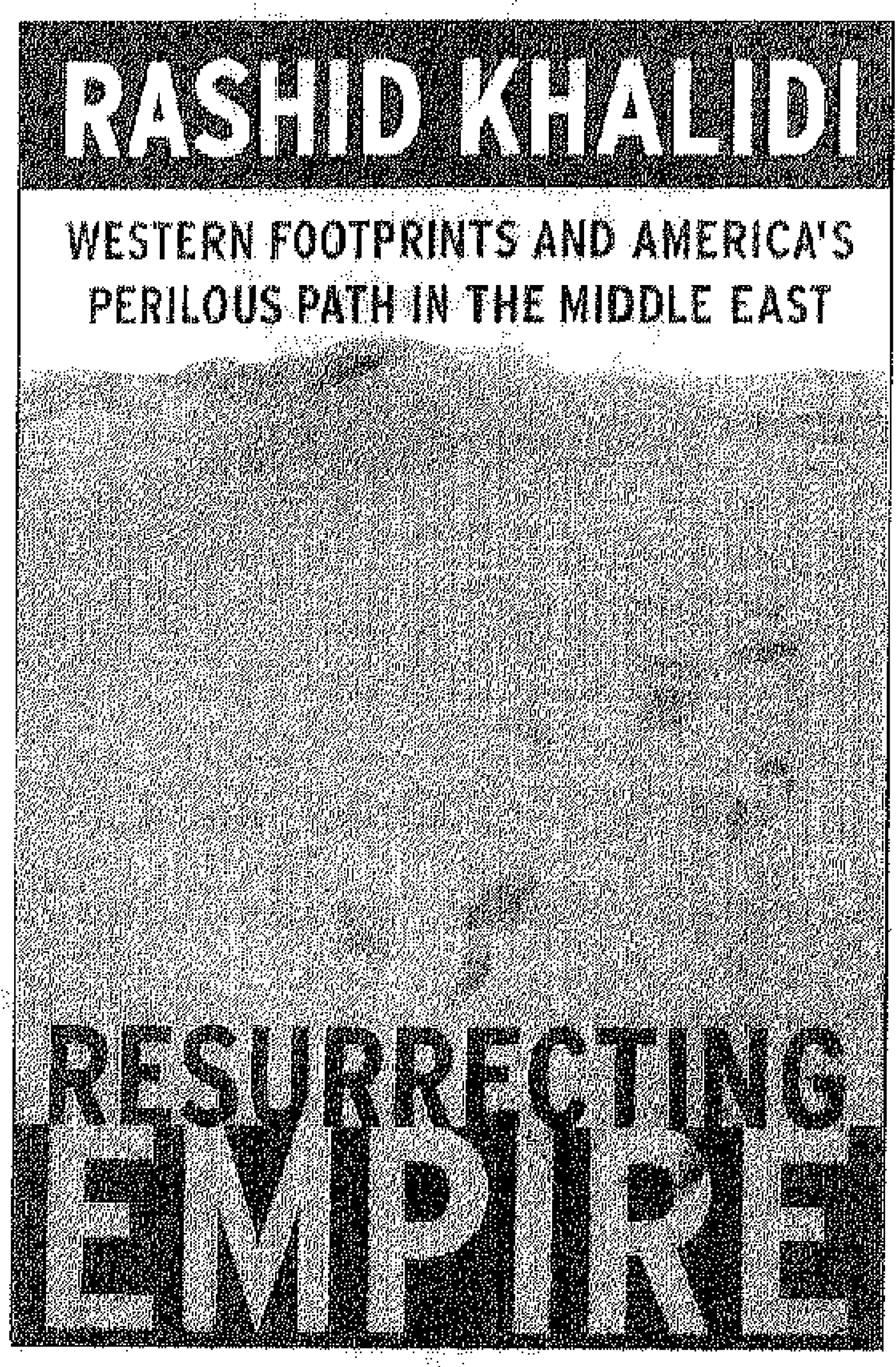
ورغم ذلك فإن رغبة النخب الأوروبية فى السيطرة على «عدد أقل من الشعوب» ظلت قوية لجيل آخر على الأقل، فبقى الاستعمار الأوروبى مهيمنا على معظم أنحاء العالم حتى الحرب العالمية الثانية. ورغم أن الأبواب الأمامية ظلت موصدة أمامه ظاهريا، فقد تمكن الاستعمار الأوروبى من التسلل خلسة من الأبواب الخلفية إلى بعض مناطق الشرق الأوسط التى ظلت منيعة على الاحتلال لوقت طويل، وذلك عن طريق الانتداب من قبل عصبة الأمم. وفى الحقيقة فقد شهدت فترة ما بين الحربين ذروة المد الاستعمارى التقليدى فى الشرق الأوسط وفى الكثير من بقاع العالم الأخرى، حيث فرضت عصبة الأمم الانتدابات الاستعمارية العصرية، كما شهدت تلك الفترة الاجتياح الإيطالى لأثيوبيا واليابانى لمنشوريا. وقد بقى الوضع على ما هو عليه حتى مع بدء عهد جديد من المقاومة للاستعمار وتزايد قوى الضغط المطالبة بالاستقلال.

وبالمقارنة، يبدو الاستعمار الآن وكأنه شىء من الماضى، على الأقل فى معظم أفرع الثقافة العامة الأمريكية وبين الساسة الأمريكيين الذين يصر الكثيرون منهم على الترديد والتكرار بأن الولايات المتحدة - بخلاف القوى العظمى الأخرى - لم تسع أبدا فى الماضى أو فى الحاضر لتكوين إمبراطورية. وتستنكر تلك الأوساط أية مزاعم بأن الولايات المتحدة تسلك نهجا استعماريا، بل عادة ما تصم مروجى تلك المزاعم بـ«معاداة أمريكا» و«الافتقار إلى الوطنية». وعلى النقيض من ذلك، تحظى فكرة الإمبراطورية اليوم ببعث جديد مساير للعصر بين قطاعات معينة من صفوة المفكرين الأمريكيين الذين أسكرهم ظهور سطوة أمريكية لا حدود لها. ورغم ذلك فقد نشأت بعض التعقيدات بسبب النفور السوى للشعب الأمريكى تجاه فكرة الإمبراطورية. فكاتب مثل «نيال فيرجسون Niall Ferguson» - وهو أحد المؤيدين المتحمسين لدور إمبراطورى أمريكى صريح - يعلق بحسرة «الأمريكيون..... لقد كانوا دوما متحفظين تجاه الدور العالمى لأمتهم» أو كما كتب مؤلف آخر فـ«هناك حياء شديد تجاه تسلم زمام قيادة العالم أصبح سمة ثابتة فى الثقافة السياسية الأمريكية. و نتيجة لذلك، فحتى أولئك العاملين داخل إدارة بوش الذين قد يضمرون أملا شخصيا فى نظام عالمى يتحلق طوعا حول «ولايات متحدة» منتصرة ومهيمنة، والذين أغوتهم [illegible]ات البراقة الكاذبة

Resurrecting Empire
(بعث الإمبراطورية)
Rashid Khalidi
Beacon Press, 2004, 192PP.

الطريق الأمريكي الخطر!

رشيد الخالدي



للمفكرين الذين يحثونهم على قبول العبء الإمبراطوري الأمريكي عن طيب خاطر، والذين يفوح من بياناتهم السياسية الرسمية عبق الخيلاء الإمبراطوري، حتى أولئك عادة ما يحرصون على تجنب الظهور بمظهر الهيمنة الصريحة.

حرص المسئولون في مواقع السلطة بواشنطن على المجاهرة دوما قبل وأثناء وبعد حرب الخليج الثالثة (باعتبار أن الحرب العراقية الإيرانية بين ١٩٨٠ و١٩٨٨ كانت الأولى، وأن حرب ١٩٩١ في أعقاب غزو العراق للكويت هي الثانية) بأن العراق ملك للعراقيين وأن نفط العراق هو ملكية خالصة للشعب العراقي. بل أنهم استنكروا على الفور استخدام تعبير «احتلال» لوصف الوجود العسكري الأمريكي في العراق بعد اجتياحه، وأصروا بدلا من ذلك على أن ما حدث هو «تحرير» وليس «احتلال»، وقد ردد المعلقون هذا الادعاء في حينه في قناة «فوكس» للأخبار وفي الكثير من وسائل الإعلام الأخرى. ولحسن الحظ انتصرت الحقيقة - في النهاية على الأقل - على الأكاذيب المستمرة لإدارة بوش حول القضية، فبعد شهور من انتهاء الحرب، بدأت تظهر للعيان الهوة السحيقة بين الحقيقة وبين مزاعم إدارة بوش المبالغ فيها أو المختلقة فيما يخص القدرات العسكرية النووية وغير التقليدية الأخرى للعراق وكذلك صلاته بتنظيم القاعدة. وفي النهاية فقد قبلت إدارة بوش على مضض بتعبير «احتلال» كمصطلح وحيد يصلح لوصف الوجود العسكري الأمريكي في بلد أجنبي.



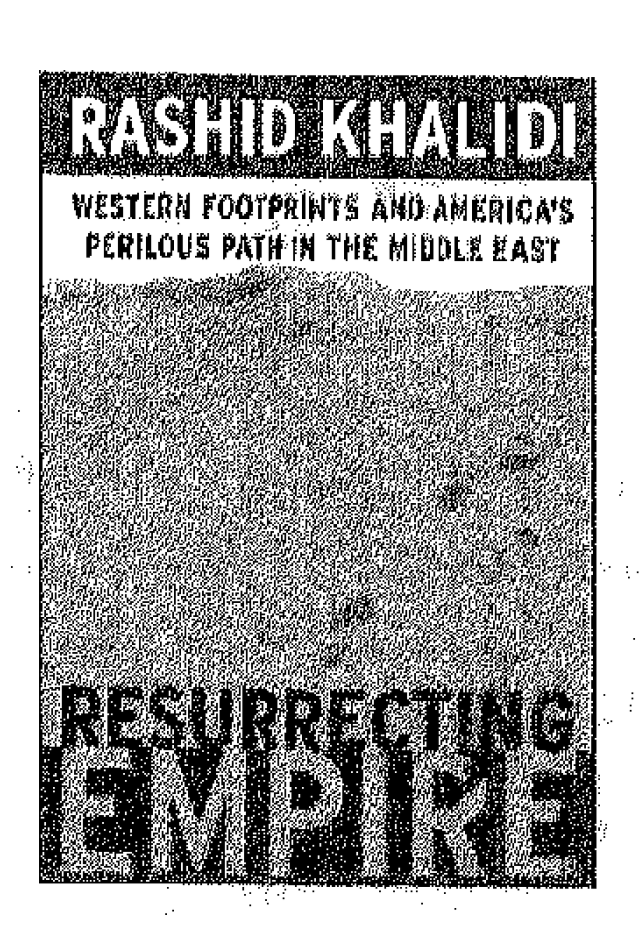
وقد كانت هناك اختلافات أخرى بين حالتي الغزو العسكري الغربي للشرق الأوسط في بدايتي قرنين متعاقبين. فعندما أنشأت بريطانيا نظام سيطرتها الجديد في الشرق الأوسط بعد الحرب العالمية الأولى استعانت بالمستكشفين والجغرافيين والعلماء واللغويين وعلماء الآثار وغيرهم من الخبراء، والذين تجمع الكثير منهم أثناء الحرب في المكتب العربي (أنشئ المكتب العربي في القاهرة عام ١٩١٦ وهو عبارة عن خلية من ضباط استخبارات بريطانيين مهمتهم تنسيق أنشطة التخابر للإمبراطورية البريطانية في الشرق الأوسط). أما الولايات المتحدة فلم يكن لها عند منعطف القرن الحادي والعشرين هيئة مماثلة من الخبراء الإقليميين المرموقين لتقديم النصح المخلص للنخبة من واضعي السياسات. كان هناك بالطبع العديد من خبراء الشرق الأوسط المهرة والمدربين تدريبا عاليا والأكفاء لغويا والذين عملوا في مختلف الأفرع في خدمة الحكومة الأمريكية، سواء في وزارة الخارجية أو وكالة المخابرات المركزية أو مجالات أخرى في مجتمع الاستخبارات أو في القوات العسكرية النظامية، ومع ذلك فطبقا لـ «روبرت باير Robert Baer» وهو ضابط عمليات سري سابق بوكالة المخابرات المركزية، فإن العديد من هؤلاء الخبراء يعانون من نواقص، فحسب كلامه فإن «قليل من المسئولين الأمريكيين بقوا على اتصال بالشارع العربي، ويتطلب ذلك معرفة باللغة وسنوات من الدراسة والترحال. فلا توجد طرق مختصرة لفهم الشرق الأوسط». ولا يمكن أن يقال الشيء نفسه بالنسبة للخبراء البريطانيين الذين وفروا النصح لحكومتهم في بداية القرن العشرين، قد نشكك في سلامة توصياتهم السياسية، ولكنهم في الواقع قضوا جزءا كبيرا من حياتهم في هذه المنطقة، وتعمقوا في سياساتها، وكان لديهم معرفة لا يستهان بها بثقافتها.

بل لقد حدث ما هو أهم من ذلك منذ بداية ولاية بوش «الابن». فقد تعلم المسئولون المتمرسون وضباط الجيش واسعو الخبرة بالشرق الأوسط، سريعا أن يخفضوا رؤوسهم في ظل المناخ السائد في واشنطن حيث تركزت السلطة في أيدي سياسيين جدد قليلي الخبرة عدوانيين ذوي كلمة مسموعة ورافضين تماما للرأي الآخر. لقد طوق هؤلاء المتطرفون بإحكام «دونالد رامسفيلد Donald Rumsfeld» وزير الدفاع و«ديك تشيني Dick Cheney» نائب الرئيس، وهما الشريكان الرئيسيان في رسم السياسات الخارجية والأمنية للإدارة، كما حظي مناصرو السياسيين الجدد بالمناصب الهامة الأخرى في الجهاز الحكومي. وتصف «كارين كويتكوسكي Karen Kwiatkowski» العقيد السابق بالسلاح الجوي الأمريكي والتي كانت حتى أبريل ٢٠٠٣ من العاملين بمكتب «دوجلاس فيث Douglas Feith» نائب وزير الدفاع للشئون السياسية، وربما كانت العقل المفكر لجماعة السياسيين الجدد، كما أنها الآن مسئولة عن إعادة إعمار العراق، تصف كيف أن أعضاء تلك الجماعة «كانوا يفضلون العمل فقط مع من يوافقهم الرأي من غير ذوي الخبرة في الدوائر الأخرى بدلا من المحللين المحنكين في نفس تلك الدوائر أو في وكالة المخابرات المركزية». وهي تضيف أيضا «ما رأيته كان عجيبا ومنافيا للمنطق والنظام. وإذا أراد المرء معرفة لماذا ترد في الخطب الرئاسية لمحات استخبارية محاطة بهالة من القدسية، أو لماذا اتسم احتلال العراق بعد سقوط صدام حسين بالفوضى والخطوات المتعثرة، فلن يحتاج إلى النظر أبعد من داخل مكتب وزير الدفاع».

ولأعضاء تلك الشبكة القوية من السياسيين الجدد المتفقين في الرأي آراء منحازة ونافذة فيما يخص الشرق الأوسط، رغم أن معظمهم ليس لديه معرفة حقيقية يعتد بها بالمنطقة. وقد اتضح ذلك على سبيل المثال في الجهل المطبق بالنسبة للهاشميين والشيعة - وهما من الركائز الأساسية للواقع الشرق أوسطي طوال القرون الاثني عشر الأخيرة على الأقل - والذي ورد في التقرير الذي شارك في كتابته «ريتشارد بيرل Richard Perle» ذو التأثير النافذ والأب الروحي لكثير من هؤلاء المحافظين الجدد صغار السن. وإذا ما كان هؤلاء على هذا القدر من الجهل تجاه تلك الأساسيات، فلا يوجد بالشرق الأوسط ما يمكن القول بأنهم خبراء به. بل إن هؤلاء المستشارين الذين أصبحوا خبراء بين ليلة وضحاها، ينظرون إلى الخبرات الواقعية الحقيقية المجسدة في خبراء الحكومة الأمريكية المتخصصين في شئون الشرق الأوسط على أنها - باستثناء قلة من الموثوق بهم - مشكوك بها من الأساس وأنها - بديهيا - مؤشر على ضلال سياسي بين.



لقد أصبحت كلمة «مستعرب» التي يوصف بها المتخصصون في شئون الشرق الأوسط من العاملين بالإدارة الأمريكية، أصبحت حقا لفظا نابيا داخل أروقة الإدارة لدرجة أفزعت المسئولين الأكفاء بوكالة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية مما دفعهم لإفساح المجال لغيرهم. وكان ذلك نتيجة لحملة مدروسة ومتفق عليها مسبقا قام بها السياسيون الجدد بالتنسيق مع المنادين بسياسة الانقضاض ضمن شبكة منيعة من المراكز العلمية التقليدية الممولة بسخاء مثل «معهد المشروعات الأمريكي American Enterprise Institute» و«معهد هدسون Hudson Institute» و«معهد واشنطن لسياسات الشرق الأدنى Washington Institute for Near East Policy» ورغم عدم تمتع معظم هؤلاء العلميين بخبرة حقيقية فيما يخص الشرق الأوسط، أو كما قال أحد الهزليين فإنهم «لم يتمكنوا من معرفة طريقهم من المطار إلى فندق هيلتون في معظم عواصم الشرق الأوسط دون الاستعانة بمرشد سياحي»، رغم ذلك فبإمكانهم بكل سهولة وبلا قيود الوصول إلى كافة موجات التليفزيون التي





تحظى فكرة الإمبراطورية اليـــوم ببعث جـديد مساير للعصـــر بين قطاعات معينة من صفوة المفكرين الأمريكيين الذين أســــكرهم ظهــــور ســـــطوة أمريكيــــة لا حــــدود لهـا



تهيمن عليها قناة فوكس للأخبار المسيطرة على سوق كوابل البث التليفزيوني، وكذلك الصحف والمجلات المملوكة لأقطاب الإعلام أمثال «روبرت ميردوخ Robert Murdoch » و«كونراد بلاك Conrad Black » وغيرهم من معتنقي الآراء نفسها. ومن خلال وسائل الإعلام تلك نجحوا فى خلق مناخ فاسد من التحيز والتضليل فيما يتعلق بالشرق الأوسط، وهو ما كان شرطا مسبقا ضروريا لضمان نجاح السياسات التى تبناها شركاؤهم فى العقيدة داخل الإدارة.



الواقع أن الخبراء فى دوائر الجهاز الحكومى الدائم فى واشنطن لم يكونوا دائما بعيدى النظر أو على صواب فيما يتعلق بالشرق الأوسط. فلقد فشل معظمهم فى توقع الثورة الإيرانية، كما أنهم - وبصورة أكثر عمومية - لم يقدروا أهمية ظهور الحركات السياسية الإسلامية المتطرفة فى الشرق الأوسط وأماكن أخرى من العالم الإسلامى منذ أواخر السبعينيات حق قدرها، وقد طالت تلك الإخفاقات أيضا العديد من الخبراء الأكاديميين. ويمكن أن نعزو أخطاء أخرى وسوء فهم إلى خبراء الشرق الأوسط بالحكومة. ورغم ذلك فأثناء خلافاتهم مع رؤسائهم من السياسيين الجدد، كان السياسيون القدامى عموما ضحايا للأخطاء أكثر من كونهم مرتكبين لها. لقد أصبح ذلك تقليدا راسخا فى واشنطن منذ فضيحة إيران - كونترا أثناء ولاية ريجان، عندما قُدم مسئول كبير بالاستخبارات كبش فداء للفشل الذى منيت به الخطط اللامعقولة التى ابتكرها العقيد «أوليفر نورثOliver North » ومجموعة الهواة المتواطئين معه. وبالمثل فقد عارض خبراء الشرق الأوسط فى الحكومة الأمريكية التأييد الأعمى الذى قدمته إدارة ريجان لإسرائيل أثناء وبعد اجتياحها لبنان عام ١٩٨٢، عندما تدخلت القوات الأمريكية لدعم صنائع إسرائيل هناك. لقد تم تخطى هؤلاء الخبراء بواسطة صناع القرار فى القمة مما أدى إلى عواقب مروعة على مشاة البحرية والدبلوماسيين الأمريكيين فى لبنان حيث دفع الكثير منهم حياته ثمنا للأخطاء الفادحة التى ارتكبها رؤساؤهم.

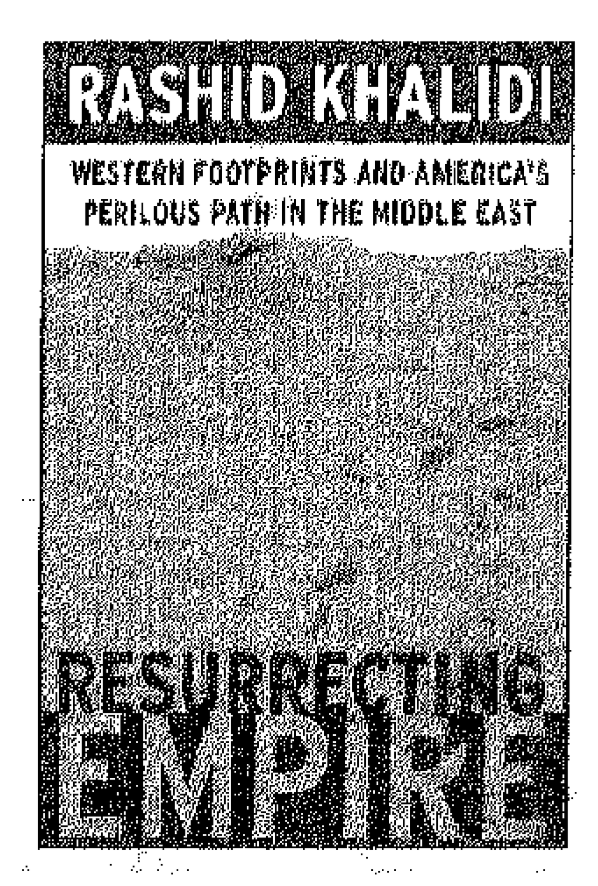
ولقد أصبح هذا النمط من الولاء الأعمى المطلق الذى لا يفى الخبرة حقها، واضحا تماما فى أسلوب إدارة بوش للحشد من أجل الحرب على العراق عام ٢٠٠٣، ويسود الآن بين المراقبين المنصفين شعور بأن فريق بوش تجاهل بكل بساطة خبراء ومحترفى الاستخبارات الذين كانت لديهم الشجاعة لتقديم بيانات تخالف الآراء المعلنة للفريق. بل إن أعضاء الفريق ومندوبيهم فى وسائل الإعلام، وكذلك أقطاب الفكر اليمينى، صبوا جام غضبهم على أولئك المحترفين الذين انشقوا عن المعتقدات الراسخة التى فرضوها. وعلى ذلك قامت إدارة بوش ببساطة باصطناع نتائج الاستخبارات عن نظام صدام حسين بما يتفق مع تصوراتها الموضوعة مسبقا، ما بين امتلاك العراق لأسلحة غير تقليدية إلى صلاته بالإرهاب. لقد خدعوا الاستخبارات مثلما نجحوا فى خداع الجميع، وكانوا من السذاجة بحيث توقعوا أن الحقائق ستكون طوع أيديهم فى النهاية بحيث تتوافق مع خيالاتهم الفكرية الملهمة، وأنه لن تكون هناك عواقب يتوجب عليهم مجابهتها لاحقا. والمحصلة حتى الآن فى العراق أكبر دليل على فداحة الخطأ الذى وقعوا فيه، بينما كان الجنود الأمريكيون وعمال الإغاثة الدوليون والمدنيون العراقيون هم من دفعوا ثمنا باهظا لتلك الحماقات.

يمكن الجدل بأن خبراء الشرق الأوسط الحكوميين فى واشنطن لم يكن عليهم سوى التعامل مع القضية بنفس الأسلوب الذى يتعامل به دائما المسئولون فى كل الديمقراطيات، ألا وهو أن يُسمعوا رؤساءهم من الساسة ما قد لا يرغبون بسماعه. ولكن تلك كانت قضية شائكة بوجه خاص فى إدارة بوش الابن فيما يختص بالسياسة الخارجية عموما، حيث إن الذين عينهم فى المناصب العليا كانوا عامة راغبين فى سماع نغمة معينة وحيدة تتفق مع آرائهم وليس لحنا طويلا يكشف الحقائق بصورة أفضل. كان من الواضح بالنسبة للشرق الأوسط على وجه الخصوص أن العديد من أكبر المسئولين فى تلك الإدارة لديهم آراء انفعالية وأهواء متأصلة قديمة جعلتهم يصمون آذانهم عن الحقائق أو الآراء التى تخالف معتقداتهم الراسخة.



وعلى العكس من ذلك، فعندما اكتمل صرح الإمبراطورية البريطانية فى الشرق الأوسط أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها، فإن كبار صناع القرار البريطانيين أمثال «أسكويثAsquith» و«لويد جورج Lloyd George» و«جراىGrey » و«كيتشنرKitchener» و«تشرشل Churchill » و«كورزونCurzon » تلقوا نصحا مخلصا من رجال من داخل حكوماتهم ذوى خبرات كبيرة بالمنطقة، وكذلك من رجال (وامرأة أو امرأتين) من داخل وخارج الجهاز الحكومى ممن أمضوا سنوات عديدة عيشا وعملا فى الشرق الأوسط. قد نلقى اللوم على أشخاص لعبوا دور كبار المستشارين مثل «ت.إ. لورانسE.T. Lawrence » و«جيرترود بيل Gertrude Bell » و«بيرسى كوكسPercy Cox» والرائد «د. إ. هوجارثE.D. Hogarth » والعقيد «جلبرت كلايتونGilbert Clayton » و«هـ. سانت جون فيلبىH. St. John Philby » بسبب أهوائهم المتحيزة وإخلاصهم للرؤية الإمبراطورية لبريطانيا ولأخطائهم العديدة. ولكن لا يمكن إنكار معرفتهم الطويلة المباشرة بالشرق الأوسط وبلهجاته وشعوبه وتاريخه. لقد أصدر بعضهم أعمالا علمية وأدبية عن الشرق الأوسط يمكن الرجوع إليها والاستفادة منها حتى اليوم.

وإذا عدنا إلى الساحة الأمريكية نجد أن الخبراء القدامى بالحكومة عادة ما يفضلون، بدلا من مشاهدة تحريف وتحوير آرائهم بواسطة مؤسسى الجهاز الحكومى كما يحدث فى واشنطن اليوم، أن يقدموا تقاريرهم ونصائحهم بصفة شخصية إلى وزراء الحكومة مباشرة الذين يتحملون المسئولية الكاملة عن قرارات السياسة الخارجية، بالإضافة إلى أنهم أنفسهم لديهم فى أحيان كثيرة خبرات شخصية واسعة بالشرق الأوسط. ومن بين وزراء الحكومة البريطانية الذين أعادوا تشكيل الشرق الأوسط أثناء وبعد الحرب العالمية الأولى، قضى عدد منهم مثل «كيتشنر» و«تشرشل» و«كورزون» جزءا كبيرا من حياتهم فى الشرق الأوسط ووسط وجنوب آسيا، كما درسوا تلك المناطق بعناية وكتبوا عنها بإسهاب. هؤلاء الثلاثة كانوا كلهم إمبراطوريين حتى النخاع، ولا يمكن القول بأنهم فضلوا مصالح الشعوب الخاضعة لسيطرتهم على مصالح بريطانيا العظمى، ولكنهم على الأقل كانت لديهم خبرات مباشرة بكثير من مناطق الإمبراطورية مترامية الأطراف. ولا يمكن أن يكون التناقض أوضح مما هو الآن مع حالة إدارة بوش، فمعظم كبار صناع القرار بها - باستثناء «كولين باول» - ليست لديهم خبرات مباشرة مؤثرة أو طويلة بالعالم خارج حدود الولايات المتحدة، وقد تم تحصينهم بعناية ضد سماع نصائح





قامت إدارة بوش ببساطة باصطناع نتائج الاستخبارات عن نظام صدام حسين بما يتفق مع تصوراتها الموضوعة مسبقا، ما بين امتلاك العراق لأسلحة غير تقليدية إلى صلاته بالإرهاب



الخبراء التى تتعارض مع معتقداتهم الفكرية المسبقة.

إن المعضلة التى تواجهها الولايات المتحدة اليوم لا تتعلق بالخبرة وحدها، رغم أنه قد اتضح تماما حتى الآن نتيجة للمشاكل التى واجهت قيادة الاحتلال الأمريكى فى بغداد أن هناك نقصا فادحا فى الخبرات الحقيقية لدى أعلى الدوائر فى الحكومة الأمريكية تجاه أحداث العراق. وهناك تعارض آخر بين إطلاق إدارة بوش العنان لحملة متهورة لاحتلال أفغانستان والعراق وربما دول أخرى بالمنطقة والسيطرة عليها، وبين الشعور الطبيعى لدى تلك الشعوب ضد أن يحكمهم غرباء حتى لو كانوا قد خلصوهم من أنظمة ممقوتة. ولا يمكن لأى قدر من معسول الكلام عن الديمقراطية - حتى لو كان صادقا أحيانا - أو اللعب على أوتار الشرور التى ارتكبتها طالبان وحزب البعث - حتى وإن كانت كلها حقيقية - والتى انتهت لحسن الحظ بعد تدخل الولايات المتحدة، أن يتوازن مع هذا التناقض الهائل. والشعوب - كقاعدة عامة - لا تقبل أن يحكمها آخرون قادمون من أقصى الأرض، حتى لو توفرت لديهم النوايا الحسنة. وعلى الأمريكيين الذين كان استقلالهم أيضا نتيجة لمشاعر مماثلة أن يكونوا قادرين على تفهم هذه الحقيقة البسيطة.

ويبدو أن أكثر ما يؤلم ذوى المعرفة الحقيقية بالمنطقة هو عدم استعداد من بيدهم مقاليد الحكم فى واشنطن للاعتراف بأن الولايات المتحدة - عامدة أو غافلة - تحل الآن فى هذه المنطقة الشاسعة من العالم محل القوى الإمبراطورية السابقة، وأن ذلك ليس بالشىء الطيب ويستحيل بالتالى تحقيقه بطريقة صائبة. وبالمثل، يبدو - فيما يخص المغامرة العراقية - أن هناك حتى الآن إعراضا كاملا من قبل معظم كبار صناع القرار فى إدارة بوش عن البدء فى قراءة متأنية لتاريخ الشرق الأوسط، أو أخذ القوى السياسية المؤثرة فى المنطقة على محمل جدى. لقد كان من الممكن تجنب الكثير من النكبات التى أصابت المنطقة والولايات المتحدة والعالم لو روعيت حقائق الشرق الأوسط بالقدر الذى تستحقه بدلا من الاستجابة لإلحاح المتطرفين ذوى النفوذ داخل وخارج الإدارة الأمريكية والذين كانوا يروجون صورة زائفة وجاهلة لتلك الحقائق. ومع ذلك فلو روعى هذا الآن لأمكن تجنب عواقب أكثر سوءا فى المستقبل.

إن الولايات المتحدة والعالم يواجهان الآن فى العراق موقفا ليس لصعوبته سابقة. فهناك استياء شديد بين العراقيين - بمن فيهم الممتنون للإطاحة بنظام حكم البعث - بسبب شهور الفوضى فى العراق منذ نهاية الحرب ولامبالاة سلطات الاحتلال الأمريكى تجاه تلك الفوضى، وبسبب بطء وتيرة التحرك تجاه تشكيل حكومة عراقية وطنية حقيقية. وكمعظم جيوش الاحتلال، وكما حدث للبريطانيين فى العراق من قبل بعد الحرب العالمية الأولى، قوبل الجنود الأمريكيون فى العراق بعداء مطرد تحول فى النهاية إلى مقاومة مسلحة واسعة النطاق. ومما زاد الطين بلة الشلل الذى أصاب السلطات الأمريكية فى بغداد والذى يعكس شلل الحكومة فى واشنطن بسبب تنازع مختلف الأطراف فى الإدارة على إصدار القرارات فى العراق، وانتهاج خط فكرى متشدد أدى عكسيا فى النهاية إلى انتشار الروح الانهزامية. وقد أدى الاعتماد فى تشكيل الحكومة العراقية على المنفيين بالخارج الذين تفضلهم وزارة الدفاع الأمريكية بينما يعافهم معظم العراقيين حيث يعتبرونهم دخلاء، أدى ذلك بالفعل إلى زعزعة مركز الولايات المتحدة فى العراق، وقد يؤدى إلى ما هو أسوأ عندما يبدأ رد الفعل الذى لامناص منه ضد الاحتلال. وكما اتضح من تقارير وسائل الإعلام غير الأمريكية عن الأوضاع على أرض العراق، فإن ما ظهر حتى الآن هو فقط قمة الجبل الجليدى الذى لم تكشف وسائل الإعلام الأمريكية بعد عن كامل كتلته، رغم أن أعداد القتلى الأمريكيين فى العراق و بقاء الجنود النظاميين والاحتياط لفترات طويلة هناك قد ألقى بظلاله فى النهاية على الرأى العام الأمريكى.



ويجب أن يتضمن أى حل للقضية العراقية التعرف إلى بعض الحقائق الأساسية. أول تلك الحقائق أنه كانت فى العراق، مثلما الوضع فى معظم بلاد العالم اليوم - دولة مصطنعة طورت - مثلهم - هوية قومية قوية وحسا وطنيا صمد فى حرب ضروس لمدة تسع سنوات ضد جارتها الكبيرة إيران. إن تجاهل الشعور الوطنى عمل غير حكيم على الإطلاق، وهو بالضبط ما فعله مجلس الحكم الانتقالى. وثانى الحقائق أن دولة العراق أنشئت طبقا لمعاهدات دولية وعلى يد عصبة الأمم وهى الهيئة الدولية الموجودة آنذاك، رغم أنه يبدو أن المجتمع الدولى قد نسى هذه الحقيقة منذ زمن طويل. ومعنى ذلك أن القضية العراقية هى مسئولية عالمية. وثالث الحقائق أن لدى العراقيين وغيرهم فى الشرق الأوسط حسًا قويًا بالتاريخ. وبالإضافة إلى أنهم لم ينسوا أبدا تجربتهم مع الاحتلال البريطانى، فهم يتذكرون بوضوح شديد تاريخ كل احتلال سابق لبغداد، بما فى ذلك احتلال عام ١٢٥٨ عندما نهبها المغول. ومن الأمثلة الواضحة على الاستخفاف بمشاعر الشعب العراقى ما فعلته الولايات المتحدة من إشراك فرقة رمزية من الجنود المغول ضمن قوات التحالف.



إن الولايات المتحدة تتمتع فى الشرق الأوسط وفى معظم بقاع العالم الأخرى بالسيطرة الاقتصادية والهيمنة الثقافية والقوة العسكرية الضارية. ورغم قدرتها على تقطيع أوصال الشرق الأوسط بسهولة فقد كشفت الولايات المتحدة مرة بعد مرة عن عجزها عن التأثير على بعض المقدرات هناك والتى تأتى على قمة سلم أولوياتها. وإذا كان ذلك يشكل درسا فهو درس فى مدى محدودية تلك القوة الضارية وفى قدرة الحقائق المحلية البسيطة والعنيدة على الإطاحة بأكثر المخططات الفكرية تعقيدا. من الواضح أنه لا يوجد فى الشرق الأوسط من هو قادر على المقاومة المباشرة للقدرة العسكرية للولايات المتحدة، وكمثال واضح على ذلك فقد لقى الجيش العراقى أمامها هزيمتين ساحقتين خلال اثنى عشر عاما. ورغم أن بريطانيا وفرنسا لم تقهرا معظم بلدان المنطقة بهذه السهولة، فقد انتصرتا فى النهاية على مقاومة القوات العسكرية التقليدية مثل المماليك، وجيش عرابى، والعثمانيين فى فلسطين وبلاد ما بين النهرين، والملك فيصل فى دمشق. ومع ذلك فلم تتمكن أى من القوتين من السيطرة المباشرة على معظم بلدان المنطقة لمدة طويلة دون أن تدفع ثمنا باهظا. ويجب علينا كأمريكيين أن نفكر كثيرا بالثمن المتوجب دفعه، والذى يشمل الأرواح والثروات والسمعة، قبل أن نستسلم لقرع طبول من يحاولون إقناعنا أن الإمبراطورية سهلة ورخيصة وأنها فى جميع الأحوال تستحق الثمن المدفوع فيها. ■

للفـــــــئران..

□□ باستثناء الهَمَسْتَر (Hamster) ذلك الحيوان القارض، الشبيه بالفأر، والذى استؤنس وسُمِح له «بعض أطفال» الغرب بمشاركتهم اللعب، مثله فى ذلك مثل الطيور والحيوانات الأليفة، يظل العداء مستمراً بين الإنسان وكل فصائل الفئران المكروهة البغيضة والمطلوب إبادتها لأنها تخيفنا وتكاد تأكل أطفالنا وتنقل إلينا الأمراض، وأخطرها الطاعون. وهذا المقال يلخص فصول كتابين جديدين، صدر أحدهما العام الجارى ويصدر الثانى العام المقبل، ويتناولان فئران المدن والعلاقة الجدلية التاريخية بينها وبين المكان والإنسان، ويجسدان نوعًا من السرد الإبداعى للأبحاث والتجارب العلمية والحقائق التاريخية للبيئة والكائنات الحية، ويحقق فى أسواق النشر العالمية أعلى المبيعات ويضع كتابه فى مصاف «الأوسع انتشار» فى عالم الإبداع.

المحـــرر

[١]

فى الأمس القريب، وأنا أعبر فناء مدرسة ابنتى، لمحت أحد طلبة الصف الرابع يداعب أنف فأر مستأنس. لحظتها تذكرت صغيرتى وهى تقول لى. قبل سنوات. إن فأراً تسلل إلى فراشها وكاد يعضها. كنا وقتها نعيش فى مدينة نيويورك؛ وكان اقتراب الفأر من سرير ابنتى من بين الأسباب التى أقنعتنى بأن الوقت قد حان كى نهجر المدينة. والحقيقة أنه لا توجد مدينة بدون فئران تسعى بدأب إلى «الازدهار» والتناسل فى أماكن تمكنها من ممارسة «هوايات» من بينها عض الصغار، ربما بسبب بقايا وآثار الطعام التى تعلق بوجوههم. فالفأر لا يكون فأراً ما لم ينتهز الفرص. وفى رائعته الكلاسيكية «فئران الواجهة المائية» Rats on the Water Front، التى نشرت لأول مرة عام ١٩٤٤ فى مجلة The New York Ker وسلطت الأضواء على «فئران المدن» أثبت جوزيف ميتشل Joseph Mitehell أن فئران مدينة نيويورك تتميز عن فئران المزارع بالذكاء وسرعة البديهة وأنها «أبعد نظراً من أى إنسان لم يقم بدراسة عاداتها».

هذا العام ٢٠٠٤ خرج علينا رويرت سوليفان Robert Sulivan بدراسة منهجية بديعة «الفئران: ملاحظات حول تاريخ وبيئة سكان مدينة غير مرغوب فيهم». وفيها يبدأ من حيث توقف جوزيف وأنهى أنشودته القديمة. ويبدو أن سوليفان يصنع تاريخه المهنى وسط النفايات متنقلاً بين القاذورات. فبعد أن وضعه كتابه الأول «أرض الأعشاب والطحالب» The Meadow Lands فى مصاف الكتاب الأوسع انتشاراً، يقول عن كتابه الثالث. ويفسر الدوافع وراء هذا المشروع. بـ«وجود قواسم مشتركة بينه وبين الفئران تتمثل فى النزوع الطبيعى إلى مناطق مائية لا تستطيع السفن الاقتراب منها. مناطق يراها بعض محبى الجمال غير جميلة، وفاسدة: المستنقعات ومستودعات النفايات عند قاع المدينة والأماكن المظلمة النتنة القريبة من مصادر المياه الراكدة كريهة الرائحة. ومثله مثل هواة التاريخ الطبيعى أمضى سوليفان سنة كاملة بين الحيوانات الثديية الأكثر إثارة للتقزز والتجاهل، التى لم يجد لها أى ذكر فى المراجع التى استعان بها. وباستثناء فئران مقاطعة «البرتا» الكندية، تعرف فئران «سوليفان» والفأر الذى تسلل إلى فراش ابنتى، وكل فئران نيويورك، بل وأمريكا الشمالية بشكل عام، بأنها نوع من الفئران يطلق عليها اسم الفئران النرويجية وهى رمادية أو بنية اللون، جسمها يمتد إلى مسافة «القدم» دون حساب لطول الذيل، ووزنها يقارب «الرطل» ونراها أحياناً مندفعة فوق قضبان مترو الأنفاق أو حول نفايات المطاعم. تشير «التسمية» إلى أنها جاءت من النرويج، والواقع أنها نشأت فى جنوب شرق آسيا وانتقلت إلى سيبيريا عبر الصين ومنها إلى روسيا حيث عبرت نهر الفولجا وبحر البلطيق. ومع مجىء القرن السادس عشر «الميلادى» استقر الفأر البنى اللون فى إنجلترا وساد اعتقاد أنه وصلها عبر النرويج داخل السفن المتقاطرة على الجزر البريطانية؛ ولهذا سمى بـ «النرويجى» وربما يكون جاء من الدانمرك مالكة النرويج فى ذلك الوقت. المهم أنه عبر المحيط الأطلنطى مع البريطانيين إبان الثورة الأمريكية. ولم يبدأ فى التوسع والانتشار إلا بعد أن خمدت بوقت طويل. ولقد نجح فى الوصول إلى كل ولاية أمريكية وأسس لفصيلته «مقراً» فى جزيرة مانهاتن. نيويورك فى العام ١٩٢٦.

أول مكان وطأته أقدام «الفأر البنى» كان ميناء نيويورك. هناك، وفى أحشاء المدينة بدأ سوليفان تتبع خطواته على



1- Rats: Observations on: History and Habitat of the City's most Unwonted inhabitants
(الفئران.. ملاحظات حول تاريخ وسكان مدينة غير مرغوب فيهم)
Robert Sulivan
Blooms bury
2 - Animals in Translation
(محاولة لفهم الحيوانات)
Temple Gradin & Catherine Johnson
تحت الطبع عام ٢٠٠٥

بترتيب مع
The New York Review of Books
ترجمة: جمال إسماعيل

تـــــاريـــــخ!!

سـوهـا الـبـيـرن

هدى خطوات جوزيف ميتشيل، كى يلقى نظرة قريبة على الفئران المتوحشة فى محيطها الطبيعى (المدينة). ولأن الفئران لا تنشط إلا فى الظلام، يتسلح سوليفان بمعدات الرؤية الليلية ويبتاع من «الأدوات» ما يساعده على إقامة نقطة مراقبة فى منطقة عقارات مهملة تعرف باسم Edens Alley (الزقاق أو الممشى الذى تكتنفه الأشجار) الذى تبدو حجارة طرقاته كالأسنان المهترئة ويبدو كالمكان المنسى فى مركز المدينة.

أخذ الزقاق اسمه عن ميدسف إيدن Medcef Eden المالك القديم للعقارات التى تقع اليوم فيما يطلق عليه Times Squar، على مقربة من مركز التجارة العالمى الذى كان لايزال شامخًا ببرجيه (قبل ١١ سبتمبر) عندما بدأ سوليفان دراسته فى المكان الذى يعد مرتعًا نموذجيًا للفئران ومصدرًا لغذاء وفير لها بفضل وجود أحد المطاعم الصينية وحانة أيرلندية، وسوبر ماركت كبير.

كان أول ما لاحظه سوليفان، فى هذه المنطقة، أن الفئران محبة للتلاصق وتحتاج دائمًا لأن تكون أفخاذها لصق الحائط الذى تتحرك حوله، وعادة ما تتجمع فى الناحية نفسها، قرب الممر المؤدى إلى مصدر الغذاء. حرص سوليفان على مراقبة مدى قدرة الفأر على الحركة السريعة فسجل سرعة تصل إلى ٦ أميال فى الساعة. حاول، مع بعض رفاقه اصطياد أحدها لمزيد من الملاحظة عن قرب. واستعان من أجل ذلك، بزبدة فول الصويا، ملفوف ورق العنب، السردين، والسيد «ديريك» أحد «رفاق» الزقاق وهو من المشردين وأصحاب الدراسات «الخاصة جدًا» حول الفئران بحكم المجاورة فى المكان. وقد راح ديريك يجهز لما بدا وكأنه هجوم مباغت وعنيف ضد مائة من الفئران التى اندفع خلفها عبر مجارى المياه الضيقة بينما وقف سوليفان ورفاقه يراقبون وقد تحولوا. ربما بفعل الخوف. إلى «أفخاذ» ملتصقة بالجدار:

«تحركت الفئران كسرب قطيع.. ثم تدافعت وراح كل فأر يحاول تجاوز الفأر الذى أمامه.. منهم من سقط وانقلب على ظهره.. ومنهم من قفز يجرى فوق ظهور الرفاق. بينما وقفت ومعى Matt ËDave، لصق الحائط ويدونا وكأننا قطع لحم التصقت حول سيخ شواء نراقب المشهد بدهشة ممزوجة بهستيريا صادمة، وقررنا . بالغريزة على ما اعتقد . أن البقاء دون حراك أفضل كثيرًا من العدو جريًا بعيدًا عن المكان.

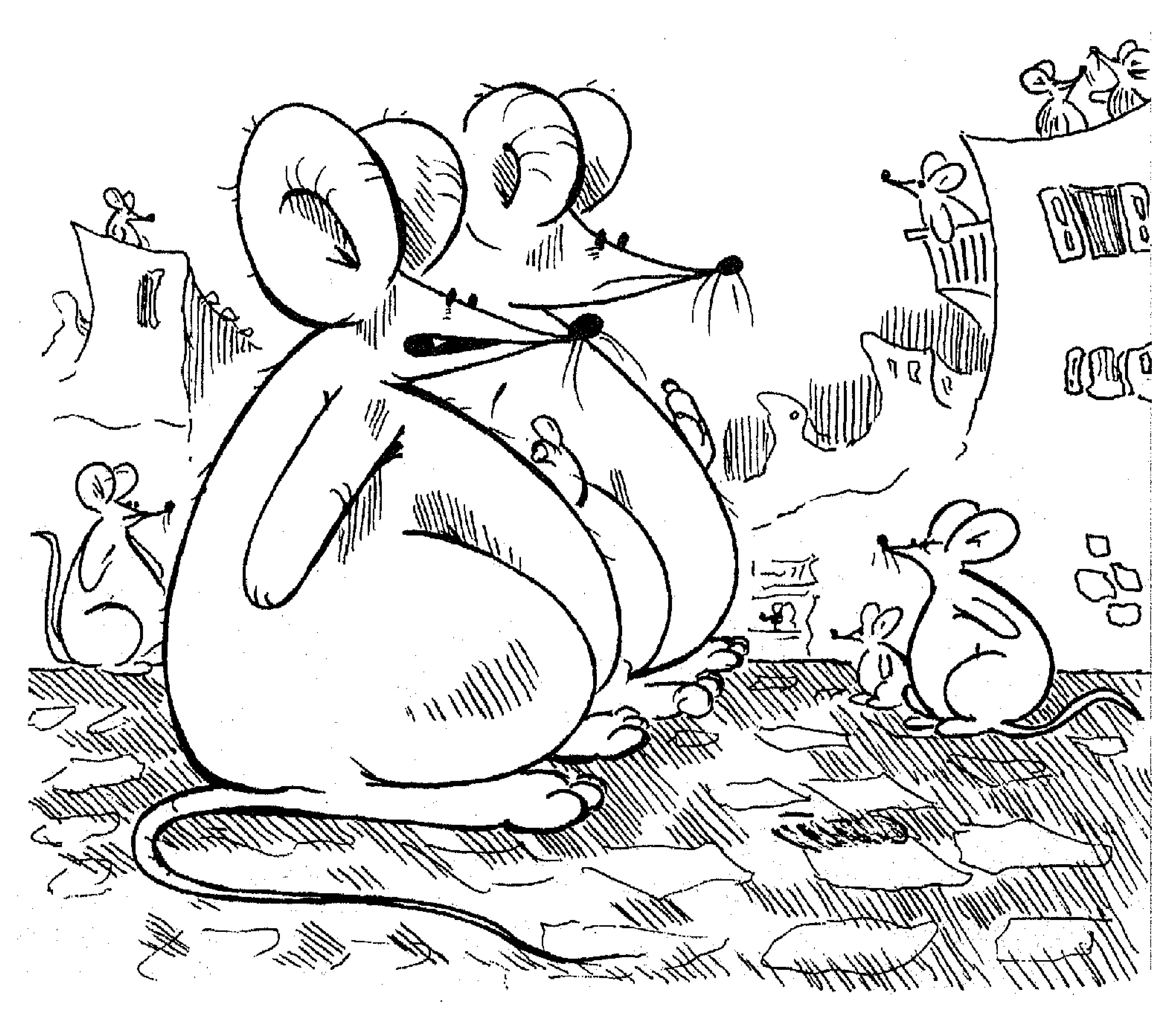


وبالإضافة إلى ديرك، استعان سوليفان برهط من الخبراء الآخرين سبق لمعظمهم العمل فى فرق إبادة الفئران التى تعد أعمالها، وخبرات رجالها، تحظى باحتفاء أو تمجيد. ويرى سوليفان أن «الصحفى المتخصص فى الفئران» يمكن أن يتعلم من العاملين فى حقل المبيدات أكثر مما يتعلمه وهو جالس فى مكمنه يسجل الملاحظات:

«الساعة الأن الخامسة و٢٤ دقيقة. احتسيت القهوة وبعد ساعات من المراقبة رأيت أول فأر يظهر هذه الليلة. دار حول البناء ثم عاد مرة أخرى عبر الممشى باتجاه موقع قمامة الحانة الأيرلندية إلى جوار المطعم الصينى. حاولت السيطرة على نفسى للحفاظ على حد من القدرة على المتابعة والتحليل. ورغم ذلك حدث ما هو حادث الآن: لقد تسمرت فى مكانى بفعل حركة تلقائية تشبه حركة الفأر نفسه فى تشبثه بالحائط واحتضانه له، وربما بسبب أن الظهور المفاجئ للفأر كان بالنسبة لى كظهور معجزة ضالة.. وشريرة.. وفى السادسة و٣ دقائق أخرجت الحانة الأيرلندية المزيد من نفاياتها داخل كيس قمامة ألقى به إلى الأرض فرقد فى وضع يغرى الفئران بالقرض».

كان مبيدو الفئران الذين استعان بهم سوليفان، يشعرون بملل كبير رغم احتمال حصولهم على مقابل أكبر لعملهم. إلا أن هذا العمل محكوم عليه بالفشل. «الفشل» كلمة تعنى «نجاح» واستمرار ازدهار أعمالهم. وإذا أنت قضيت على الفئران قضيت على حاجتك إلى صائد فئران. لكن هذا «القضاء» لن يتحقق، فى المستقبل المنظور. و«عدم التحقق» لا يتعلق هنا بنجاح الرجال أو فشلهم بقدر ما يتعلق بعمليات التناسل والحسابات الخاصة بقدرة الفئران على إنتاج المزيد من الفئران. القاعدة هى أن الفئران عندما لا تكون مشغولة بالأكل تكون مشغولة بممارسة الجنس والتناسل. ويستطيع الفأر أن يجامع ربما ٢٠ مرة فى اليوم. الفأرة تمارس الجنس مع أكبر عدد ممكن من الفئران. الذكر. ويستطيع الفأر المسيطر القوى أن يجامع ٢٠ فأرة خلال فترة لا تتجاوز ست ساعات. والفئران الضعيفة، التى تطردها فئران قوية بعيدًا عن أماكن تواجد الإناث، تلجأ إلى العيش فى مستعمرات ذكورية وتجامع، وتتناسل، فئرانًا ذكورية. زوج واحد من الفئران يستطيع إنتاج ١٥ ألف فأر. على التوالى. فى عام واحد.

هذه القدرة الفائقة، على الجماع والتناسل، لدى الفئران، روجت لاعتقاد سائد مفاده أن هناك فأرًا لكل مواطن فى مدينة نيويورك. «الأرقام» واضحة سواء فى بحث جوزيف ميتشيل المُهدى إلى هيئات الصحة العامة، أو فى تقارير ووثائق الأمم المتحدة، ومنذ تلك الدراسة التى أعدها ديفيد ديفز David Davis، الملقب بـ «الأب الروحى للفأر» وفيها قدر أن النسبة عام ١٩٤٩ كانت فأرًا واحدًا لكل ٣٦ مواطنًا. كل هذه الأرقام تجسد أن لدى الفئران قدرات لا يستطيع الإنسان العادى تخيلها وأن





تتميز فئران مدينة نيويورك، عن فئران المزارع بالذكاء وسرعة البديهة وهي أبعد نظراً من أي إنسان لم يقم بدراسة عاداتها



تلك القدرات أكثر أهمية من شفافية الأرقام ذاتها. إن الفئران تخيفنا، ترهبنا، وتتحدانا بوقاحة. إنها تعيش داخل بيوتنا وتأكل بين جدراننا وتقرض أطفالنا وتنقل إلينا الأمراض. والأمراض. بدورها. تصيبنا بالهلع.

ولأن الطاعون هو الوباء الأكثر اقتراناً بالفئران. ومعها البراغيث. فقد قدم لنا سوليفان جرعات مكثفة عن الوباء وكيف ذكر في الإنجيل، ومسبباته، بعملية جاذبة، وبغزارة الكاتب العارف. لكن اللافت هنا أن الطاعون، أو ذلك الوباء الذي أبحر كثيراً حول الكرة الأرضية، تفشى في الولايات المتحدة لأول مرة عام ١٩٠٠.. وهو العام الذي صادف أنه «عام الفأر» حسب التقويم الصيني. وتزداد الدهشة إذا علمنا أن أول حالة وفاة بالطاعون وقعت في بيت بالحي الصيني في سان فرانسسكو والغريب أن وجهاء المجتمع الصيني. الأمريكي قرروا إحاطة نبأ تفشي الوباء بطوق من السرية وعاونهم على ذلك نخبة من رجال أعمال المدينة الذين خافوا من انعكاسات المعلومات الحقيقية على رواج بضائعهم فدفعوا الأموال إلى الأطباء لكي يكذبوا، وإلى رجال الصحافة لكي يكتبوا معلومات مضللة، ونجحوا في إبعاد العناصر الفاعلة في المكافحة للعدوى إلى خارج المدينة.

وما حدث في سان فرانسسكو تكرر حدوثه في مدينة نيويورك مع عودة الوباء عام ١٩٤٣، فرضت السرية التامة نفسها وإن اختلفت الأسباب وقد تبين بعد سلسلة من التحريات أن السفينة وايمنج Wyoming، القادمة لتوها من شمال أفريقيا، حيث كان الطاعون قد تفشى، قد سمح لها بأن ترسو في ميناء نيويورك وتفريغ شحنتها. ووسط براميل النبيذ وطرود الدخان تم العثور على بقايا فئران وتبين. معملياً. أنها حاملة للبكتيريا العضوية المسببة للطاعون رغم أن السفينة تم تعقيمها بدخان مطهر قبل الدخول إلى الميناء. وقتها أعرب المسئولون عن الصحة العامة عن خشيتهم من احتمال تسلل بعض الفئران من السفينة إلى الميناء، وشنوا حملة بحث مضنية، لكنها فشلت، بين فئران الواجهة المائية لمنهاتن، ستاتن إيلاند، بروكلين، وكل مكان رست فيه السفينة. وفي العام ١٩٤٤ كشف النقاب لأول مرة عن فوضى ما حدث عندما نقل جوزيف ميتشل عن روبرت أولين Robert Olesen، من هيئة الصحة العامة، قوله: كان همنا أن نمنع الصحف من النشر حتى لا يصاب الناس بالهلع من الطاعون.

[٢]

الخوف من الطاعون هو نفسه الخوف من الفأر. ويبدو أن هذا الخوف العميق يحجب عنا ما بيننا وبين الفئران من قواسم مشتركة. من بين تلك «القواسم» أننا نحب الطعام نفسه المحبب لدى الفئران، مع ملاحظة وجود فارق وحيد يتمثل في ما لدى الفئران من قدرة فائقة في الفكين تسمح لها بضغط كميات هائلة من الحجارة والأسلاك النحاس و«خلطات» غذائية متنوعة كوجبات سريعة. وخلال دراسة بعنوان «تحليل أولي للنفايات التي تعد طعاماً للفأر» أحضر مارتن شين Martin Schein، الباحث في سلوكيات الفئران، أكياس قمامة متنوعة المحتوى، وراقب ما فعلته الفئران وما تركته خلفها. وأظهرت الدراسة أن الفئران لم تقدم على أكل الشمندر (البنجر) غير المطبوخ، لم تقترب من الكرنب والقرنبيط والجزر وغير ذلك من ثمرات نيئة، وأقبلت . كالأطفال. وبنهم واضح على السبانخ المطهية.

ومن «الأمور المشتركة»، الأكثر أهمية، بيننا وبين الفئران أنها أول الحيوانات الثديية التي استخدمت، وتستخدم. في تجارب وأبحاث تصنيع الدواء المعالج لأمراض الإنسان. وفي تقرير علمي حديث «نشرته مجلة Nature في أبريل ٢٠٠٤» تبين أن البشر والفئران لا يتفقان في عدد الجينات فحسب، بل إن معظم الجينات متماثلة من حيث وظائفها داخل كل من الإنسان والفأر. أضف إلى ذلك أن تمبل جراندين Temple Grandin، أستاذة علم الحيوان في جامعة كولورادو أثبتت في كتابها الذي يصدر العام المقبل ٢٠٠٥، بعنوان Animals Translation، أن الإنسان والحيوان يتشابهان في «الخلية العصبية»، وإن اختلفا في سبل استخدامها. ويذكر عن «بروفيسور جراندين» أنها بمثابة «الأب الروحي» والمعلم المرشد في «صناعة إدارة الحيوان» نظراً لاهتماماتها الواسعة وإسهاماتها العلمية التي جعلت من المجازر والسلخانات، داخل أمريكا، وخارجها أيضاً، أماكن «أكثر إنسانية» وقد ذاع صيتها بعد أول كتاب لها عن داء التوحد Outism، عنوانه «التفكير في صور» Thinking in Pictures وحظي باهتمام بالغ ليس فقط لأن جراندين نفسها تعيش داء التوحد Outistic ولكن لأن هذا التوحد الذي تعيشه هو العنصر الحاسم والأساسي وراء فهمها المتفرد للحيوان، وقدرتها الفائقة على التواصل معه والإحساس به إلى درجة تمكنها من أن «تضع نفسها في مكانه» وتتقمص حاله بقوة. ويروي الناقد الأدبي أوليفر ساكس Oliver Saks كيف استطاعت، في شبابها، تجهيز ماكينة تصدر عنها أصوات من شأنها تهدئة وتخفيف قلق الأبقار وآلام توترها وهي تساق إلى منطقة الانتظار قبل ذبحها.

يبدو «التوحد» وكأنه «محطة» في منتصف الطريق ما بين الحيوان والإنسان. وفي كتابها الغني الجديد، ومعها كاترين جونسون Katherine Johnson تقول جراندين بوضوح وجرأة:

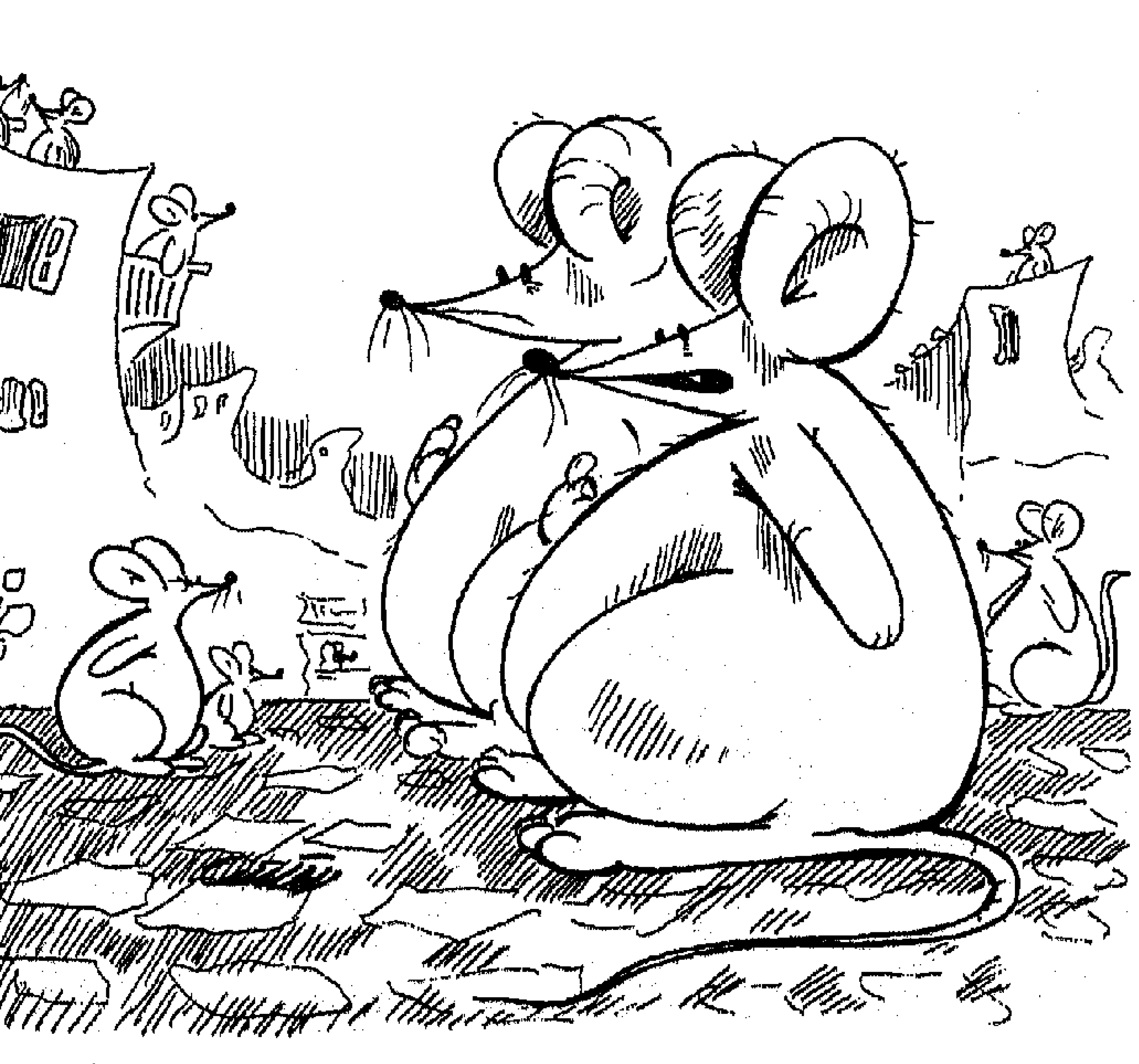
«إن التوحد هو الذي يضعني في الموقع المثالي لترجمة ما يقوله الحيوان إلى لغة إنجليزية واضحة لإبلاغ الناس لماذا يقدم الحيوان، أو لا يقدم، على القيام بفعل ما».



تستند جراندين، فيما تقوله، إلى رؤية علمية لبيئة الحيوان وما بها من سلبيات، وذلك في سياق متفرد، وتضيف:

«لن أقول لك إن البقرة قالت إنها رأت فنجاناً أبيض اللون وبه قهوة.. هناك فوق الحشائش. لكنني أدرك أن ظلاً بعينه يسقط فوق مدخل الحظيرة هو الذي أجبر البقرة على التوقف وعدم المضي في طريقها. إن الإنسان «المتوحد»، وكذلك الحيوان، لا يدرك الأفكار التي وراء الأشياء. إنه يرى الأشياء ذاتها. «المتوحدون» يرون التفاصيل التي تصنع العالم، بينما يرى الإنسان الطبيعي تلك التفاصيل كـ«كتلة ضبابية» داخل نظرته العامة للعالم».

لقد احتاج روبرت سوليفان إلى أسابيع وشهور عديدة قبل وبعد تمركزه عند «ممشى ايدنز» لكي «يركز» و«يميز» ويرى الفئران. ولقد رآهم بعقله أكثر مما رآهم بعينيه لأن عقله هو الذي سبق ومارس رؤيتهم «في مخيلته». وعلى النقيض من ذلك نرى «المتوحدون»، وكذلك الحيوانات، في غير حاجة إلى «التركيز» على الشيء لكي يرونه. وربما كان هذا هو حال «فئران الممشى» إزاء روبرت سوليفان. إن إدراك «بروفيسور جراندين» العلمي، للعالم العضوي، عبر عقلها «المتوحد» أتاح لها أن تصل إلى تفسيرات منطقية لسلوكيات الحيوان، في صياغات بسيطة تبدو كمشاعر رقيقة إلى درجة تجعل بعضنا يظن أنها بعيدة عن المنطق. إن مشاعرنا الذاتية تستغرقنا وتكبلنا إلى درجة تجعلنا نفشل في فهم حدود، ومدى محدودية هذه المشاعر، ومدى عدم قدرتنا على الفهم. ودون أن تجرفها العواطف المفرطة التي تبدت في كتاب «جيفري ماسون» الأخير «الخنزير الذي





يستطيع الفأر القوى أن يجامع ٢٠ فأرة خلال فترة لا تتجاوز ست ساعات. وبإمكان زوج واحد من الفئران إنتاج ١٥ ألف فأر فى عام واحد



غنى للقمر.. الحياة العاطفية لحيوانات المزارع» تؤكد تمبل جراندين أن مشاعر الحيوان شبيهة بمشاعر الإنسان وإن كانت أكثر وضوحاً وصلابة، وأقل تشوشاً. وهذا، على ما يبدو، من القواسم المشتركة بين «المتوحدين» والحيوان. وتقول:

«إن ما يسعدنى ك «متوحدة» هو أننى غير مضطرة إلى التعامل مع كل «الجنون العاطفى» الذى يعيشه تلاميذى، ومعه يعيشون تزايد حدة مشاعر الخوف الذى يكاد يسود كرتنا الأرضية. «المتوحد» يغلق «نظام الخوف» داخله، وهذا «الإغلاق» لا يعرفه الإنسان الطبيعى، فهو لديه قدرة أكبر على «كتم الخوف» واتخاذ القرارات لمواجهته بصورة لا يعرفها الحيوان أو الإنسان «المتوحد» والفرق الوحيد بينهما .هنا . أن الإحساس النشط بالخوف لا يكون غامراً أو محبطاً بالنسبة للمصابين بداء التوحد. لكن الخوف الزائد هو الذى يحفظ حياة الحيوان فى عالم سالب لحياته».



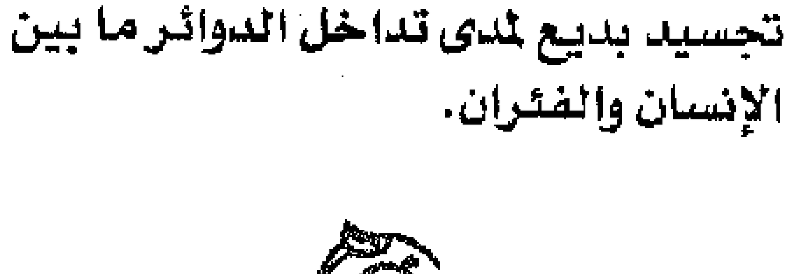
تظهر الدراسات حول الفئران إن الخوف الذى ينشط عندما يشتم الفأر رائحة قطة، هو الذى يجعله يرجح أن القطة ربما تعود إلى المكان، فيولى الأدبار منسحباً. والحق إن الإنسان، سواء فى نيويورك أو أى مدينة أخرى، هو العدو الرئيسى للفأر. ولأن الإنسان فى كل مكان فإن الفأر يعيش «الخوف الدائم». ومن المحتمل أن نظاماً جيداً، يتعلق بمكونات أملاح الكالسيوم الجيرية، هو الذى يجعل الفئران على درجة كبيرة من الذكاء. (العكس هو الصحيح عند الإنسان: فالكوليسترول إفراز كيميائى ناجم عن الضغط ويحد من القدرة على التعلم). ويتجلى ذكاء الفئران فى قدرتها على تجنب تلك الأعداد الهائلة من الشراك الخداعية بكل تصميماتها الجديدة المتعاقبة. هذا الأمر لا يثير دهشة تمبل أو كاثرين لاعتقادهما بأن أفضل صائد فئران، وكما فى الحكايات الشعبية، هو الذى يفكر كالفئران. بل إن أفضلهم على الإطلاق هو الذى يفهم، ولو بشكل عام، عقلية الفأر القارض المفترس. فى طليعة هؤلاء يأتى بوبى كوريجان Bobby Corrigan، الملقب بـ «الزعيم» وصاحب كتاب «السيطرة على القوارض» ومن الكتاب الرئيسيين فى الدورية العلمية «تكنولوجيا السيطرة على الأوبئة» ومعروف عنه عشقه لرعاية الحدائق وكتابة الشعر. ويقول روبرت سوليفان: «ينتابك الإحساس وأنت تقرأ كتاب كوريجان أنه نجم النجوم فى فنون السيطرة على القوارض لأنه يعرف كل ما يجب معرفته عن الفئران. إنه يدرسهم بصبر واضح، وبرؤية تجسد مفهومه الخاص: الفأر الضارى لم يولد بعد. الفأر ليس شريراً. وفى فن السيطرة على القوارض يظل الفأر فأراً». وفى الجزء المعنون فى كتابه بـ «فأر فى تجويف المرحاض» ينقل سوليفان عن كوريجان صورة يرسمها بالكلمات لإنسان يقف أمام المرحاض، وفى يده وعاء ملىء بالسم القاتل، وينظر إلى قاع التجويف ويلمح الفأر يبدأ فى الظهور. يحاول الإنسان أن يبقى رابط الجأش. هادئاً. عملاً بنصيحة الخبراء فى إبادة الفئران.. وفى النهاية فشل.



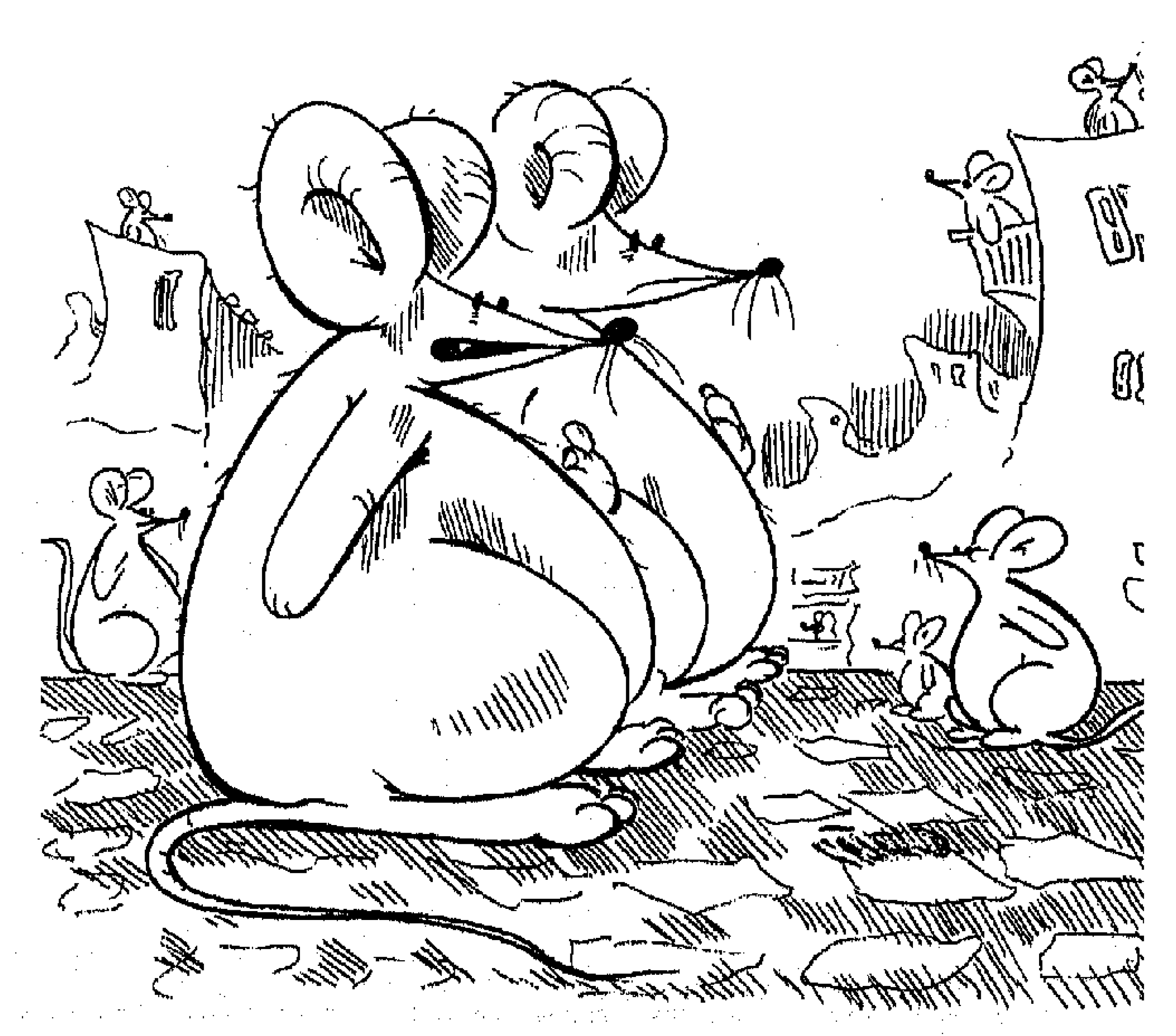
تأتى الفئران إلى منازلنا عبر دورات المياه. هناك حيوانات أخرى أكثر خطراً وتلازمنا لكنها لا تعيش بهذا القرب الشديد منا كما تفعل الفئران. فبين قصتنا وقصتها رقائق من الألومنيوم. تاريخ الفئران فى بيئاتها الطبيعية هو التاريخ الطبيعى للفئران فى بيئتنا الطبيعية. ويقدم سوليفان عبر فصول كتابه، مدينة نيويورك ومراحلها التاريخية والفئران فيها، فى نسيج سردى بعيد إلى الأذهان أدوار بطولة فعالة لعبتها الفئران فى أحداث تاريخية مثل إضراب دافعى الإيجارات وإضراب عمال الصحة العامة فى الستينيات. ففى إضراب المستأجرين، عام ١٩٦٣ فى حى هارلم، رعا «جيسى جراى» أحد منظمى الإضراب، سكان الحى إلى التوجه إلى قاعة المحكمة وفى يد كل منهم فأراً حياً أو ميتاً. استجاب سكان الحى وكان المشهد مثيراً وكان للفئران الفضل الأول فى إنهاء الإضراب. وبعد خمس سنوات، فى إضراب عمال جمع القمامة لم يلجأ أحد إلى الفئران، بل لجأوا إلى طعام الفئران. فقد حمل المتضررون من الإضراب كميات كبيرة من أكياس القمامة التى صنعت تلالاً عالية على جانبى الطريق المؤدية إلى عمدة المدينة الذى أعلن حالة الطوارئ الصحية وطالب الحاكم بإنهاء الإضراب وتحقيق مطالب عمال جمع القمامة وزيادة مرتباتهم.

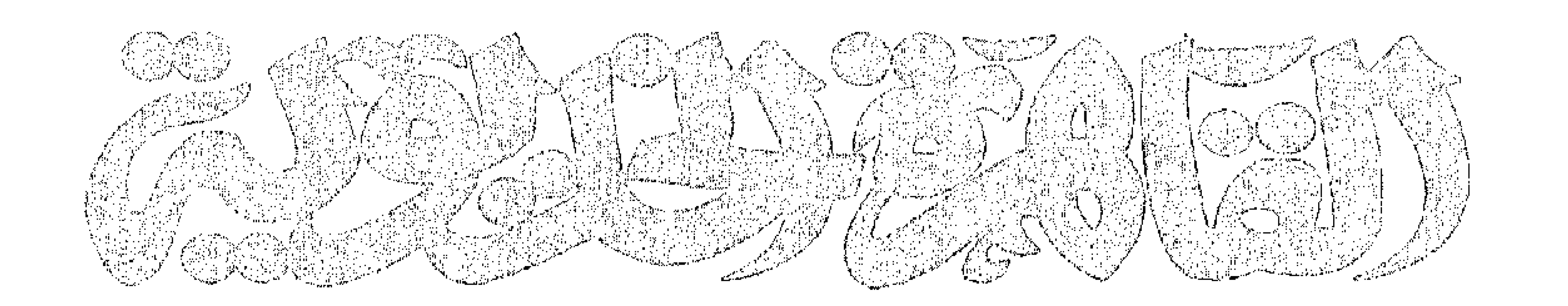
يسلط روبرت سوليفان الأضواء على طبقات من الخبرة المتراكمة تحت الأرضيات الخشبية للأبنية، وتحت حجارة الطرقات، عبر «تشريح عضوى» للمدينة. يسترجع، وهو ينقب فى الأرشيف والخرائط القديمة للمدينة، كلمات همس بها إليه أحد عمال قسم المبيدات فى نيويورك، ويدعى «لارى آدمز» ومفادها أن الناس لا تعرف كيف يبدو الحال هنا.. تحت الأرض.. الناس لا تدرك أننا نعيش فوق طبقات متراكمة تبدو كالمستعمرات، ومنها ما يصعب على الناس الوصول إليها مثل مستعمرات الفئران». يكتشف سوليفان أن شارع جولد Gold Street الواقع عند نهاية ممشى ايديز هو نفسه مكان «الورشة» التى أنشأها أول صائغ فى المدينة خلال السنوات التى تلت الثورة الأمريكية. يلاحظ سوليفان أن «شارع جولد» لم يسم هكذا نسبة إلى صائغ الذهب Gold Smiths، بل إلى الرابية التى كانت مزروعة بالحنطة وتكسوها سنابل القمح فتلمع فى لمعان الذهب، تحت أشعة الشمس، وكان الهولنديون أول من أطلقوا على المكان اسم «التل الذهبى» Golden Hill فى يناير عام ١٩٧٠.

وفى السنوات التى سبقت وصول الفأر النرويجى البنى اللون أطلق على مكان التل اسم «ممشى ايدنز» وهو نفسه المكان الذى شهد، وطبقاً لرواية سوليفان، اندلاع المناوشات بين «أبناء الحرية» وثكنات الجنود البريطانيين. وفى امتداد طبيعى وتطويع ساحر للسجلات التاريخية، يستدعى سوليفان تلك المناوشات كأول معركة فى الثورة الأمريكية، لكنه يصفها بـ «الانفجارة غير المجيدة» و«الحركة الشبيهة بحركة الحيوان» والتى قادت مباشرة إلى بداية تحقق «الصورة الأمريكية»، وكانت أيضاً «مدخل تعارف بين نيويورك والفئران النرويجية». وهذا تجسيد بديع لمدى تداخل الدوائر ما بين الإنسان والفئران.



فى بداية عامه «الخاص بالفأر» سافر سوليفان إلى صعيد منهاتن لزيارة موقع سبق وعاش فيه الفنان التشكيلى جون جيمس أودبون Audubon. كانت الزيارة بمثابة تحية لأودبون الذى له أيضاً دراسة عن الفئران. (وكان حصل من عمدة نيويورك على ترخيص بقتل الفئران على طول الواجهة المائية للمدينة). اهتم سوليفان بذكر أن أودبون ولد فى جمهورية الدومينيكان، وأن محيط جيرانه القدامى فى نيويورك كان عبارة عن مقاطعات «دومينيكانية». وقد يرى البعض أن ما قاله سوليفان عن أودبون مجرد معلومات ثانوية، لكنه أوردها فى سياق أضفى عليها من الجمال ما يجعلك تدرك أن الحقيقة الإنسانية البسيطة عند سوليفان ليست أن «كل الأمور متصلة» فحسب، بل إن كل الأمور من حولنا على صلة بالفئران. ■





ســـــــهير زكـــى حـــواس

□□ ما أكثر أن يتحرك الناس فى شوارع القاهرة.. دون تفكير مدقق فى تفاصيل ما يرونه من مبان تحيط بالفراغ من حولهم.. أو معان لأسماء شوارع وميادين

القاهرة الخديوية
رصد وتوثيق عمارة وعمران القاهرة منطقة وسط المدينة
د. سهير زكى حواس
القاهرة - مركز التصميمات المعمارية ٢٠٠٢

عريقة الأصول.. ينطلقون بها ويستدلون بواسطتها لأماكن وصولهم..

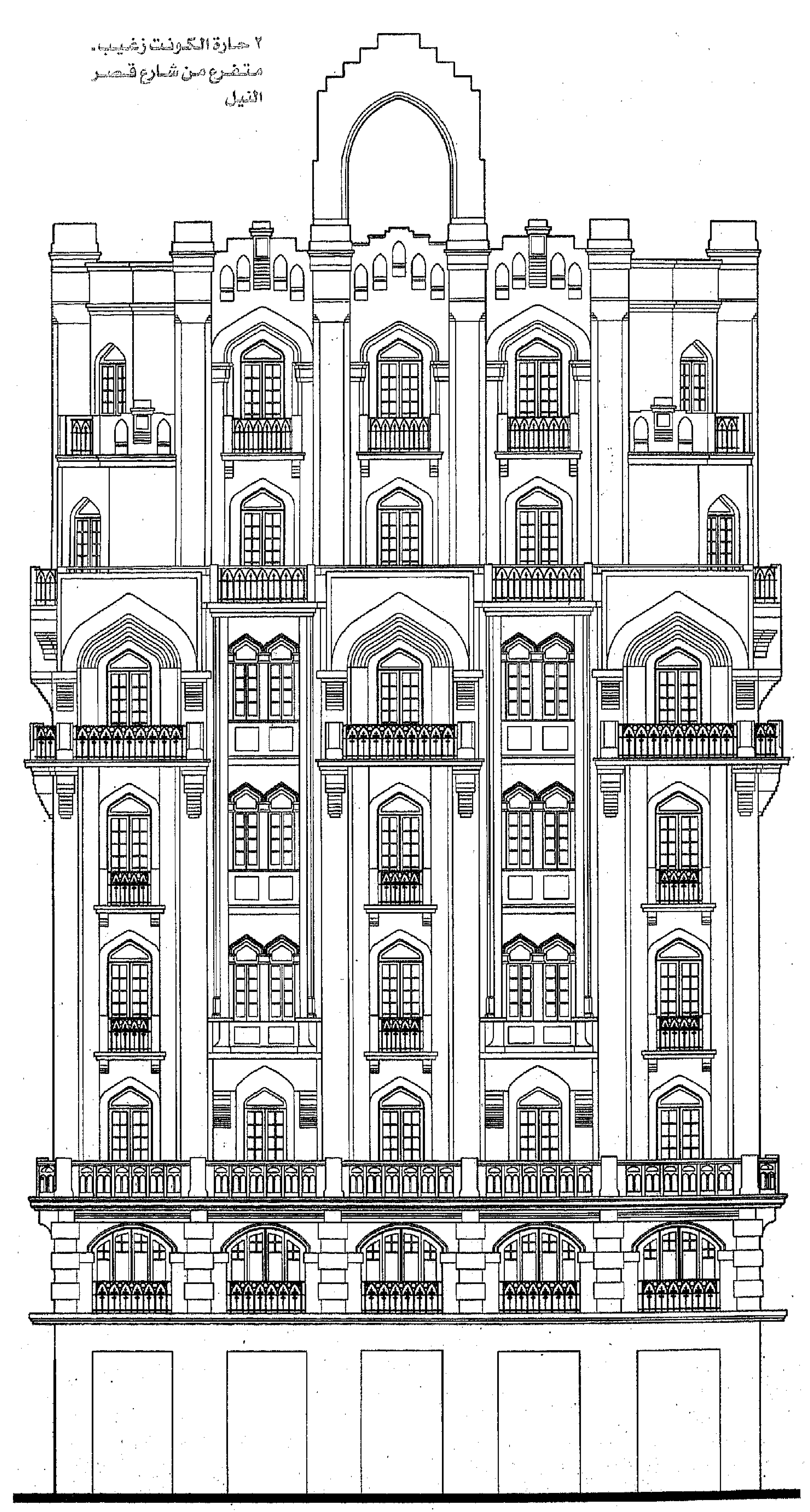
وقد شغلوا بالفعل عنها.. بمشاكلهم.. وهمومهم.. وتلاشوا داخل زحام المدينة وصخب شوارعها..

فلم تعد أعينهم ترى غير واجهات المحلات.. شديدة السيادة على المكان والرغبات.. ولافتات الإعلان الفجة فى كل مكان.. فى مبارزة إعلامية شديدة التأثير والسيطرة على عقول البشر..

صاروا لا يسمعون غير أصوات سير المركبات.. من سيارات وأتوبيسات وموتوسيكلات..

أنه عالم المصالح الذى لا وقت فيه اليوم للمشاهدة المتأنية والتأمل الواعى.. والقاهرة.. اليوم أيضاً صارت مدينة التكدس والزحام.. ولكن.. لنتذكر... ولغيرنا نذكر.. أن القاهرة هى

٤ شارع طلعت حرب باشا



٢ عمارة الكونت زغيب.. متفرع من شارع قصر النيل

المدينة العريقة.. الشاهدة على تاريخ البلاد.. تحكى بمبانيها.. وشوارعها وميادينها حدوتة المصريين على مر العصور.. إنها ملحمة عمرانية تاريخية.. عبرت آلاف السنين دون أن يضيع سحرها الخاص.

وهذا الكتاب هو مقطع فى هذه الملحمة.. يلقى الضوء على النهضة العمرانية العظيمة التى شهدتها مصر خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين.

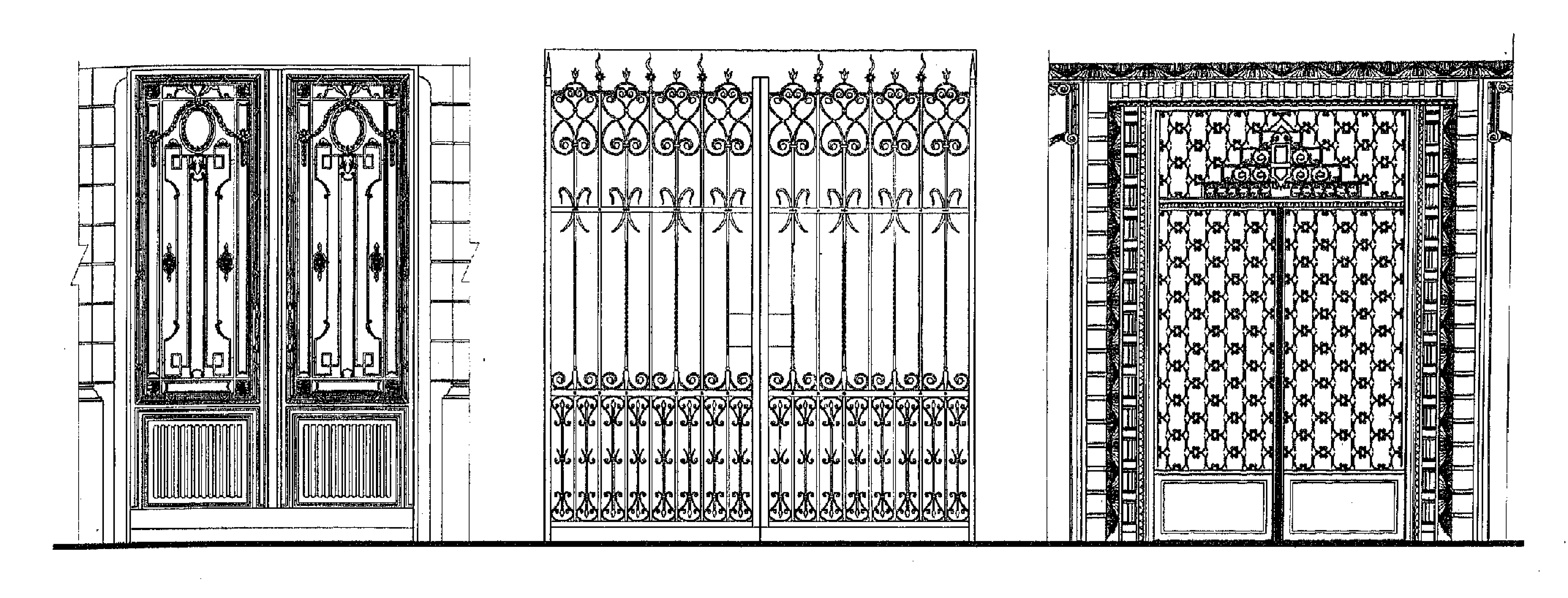
والشواهد تقول.. إن « محمد على باشا » هو واضع نواتها الأولى.. وقد أراد الارتقاء والتحديث.. للبلاد.. وتوالت الإنجازات وحركة البناء والتعمير مع ولاية أبنائه من بعده.. حتى «عصر إسماعيل».. الذى نتوقف عنده فقد جاء ومعه طموحاته العظيمة.. من أجل الارتقاء بمدينة ملكه..

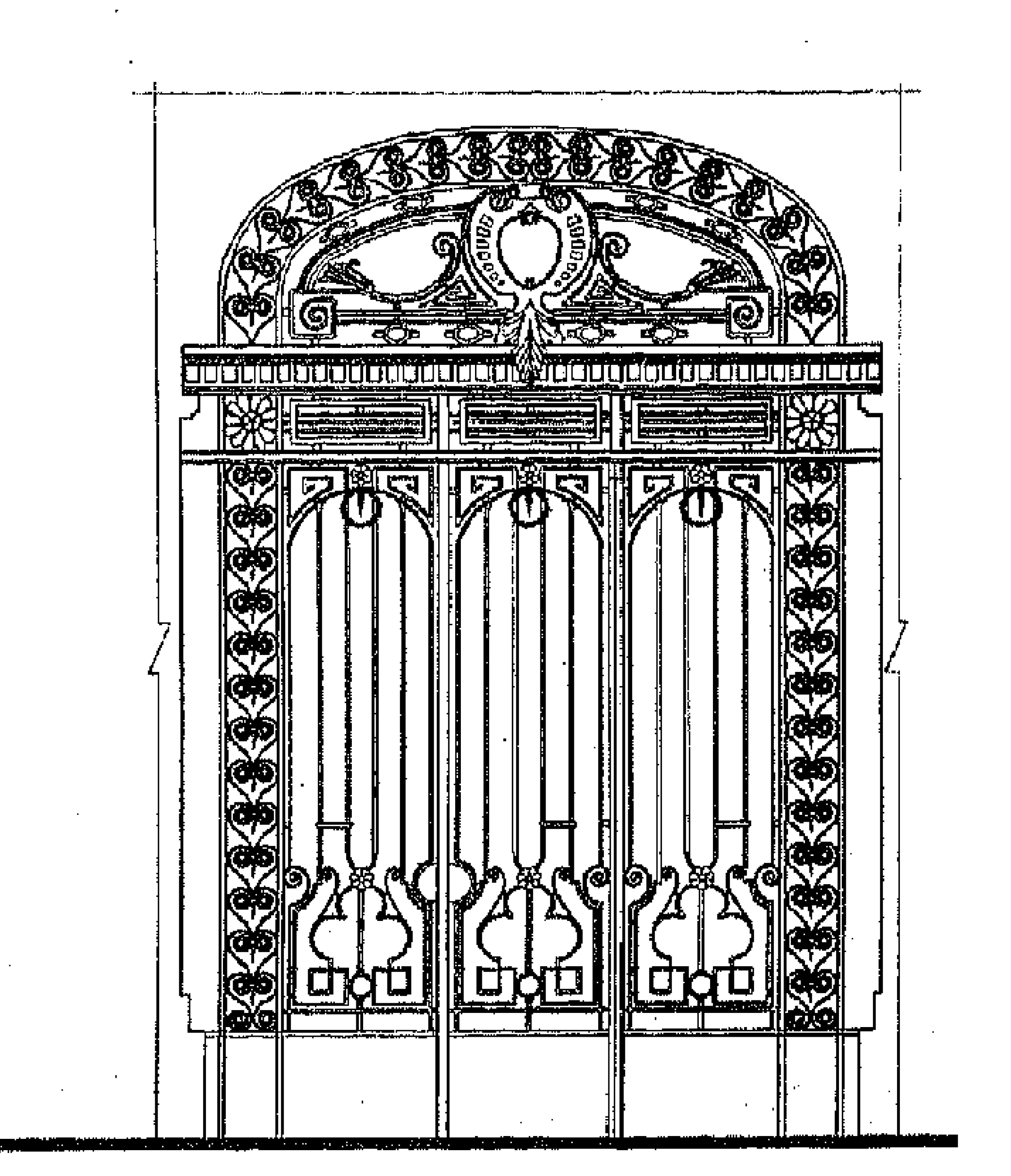
وأثرى مدينة القاهرة - القاهرة الخديوية - بكنوز من العمارة ذات الطابع الأوروبى. ونحن هنا نوالى اهتمامنا برصد وتوثيق عمارة القرنين التاسع عشر والعشرين بمنطقة وسط المدينة، حيث يتمركز عمران عصر «إسماعيل» بتخطيطه ومبانيه. كما نهتم بإلقاء الضوء على مقطع آخر من ذاكرة الأمة بتتبع المعانى وتعريف الشخصيات التى وراء أسماء شوارع وميادين القاهرة الخديوية.. من أجل التوثيق التاريخى لأحداث وطنية وسياسية واقتصادية واجتماعية وفنية.. بتخليد ذكرى رجال عظام شاركوا فى صياغة تاريخ مصر..

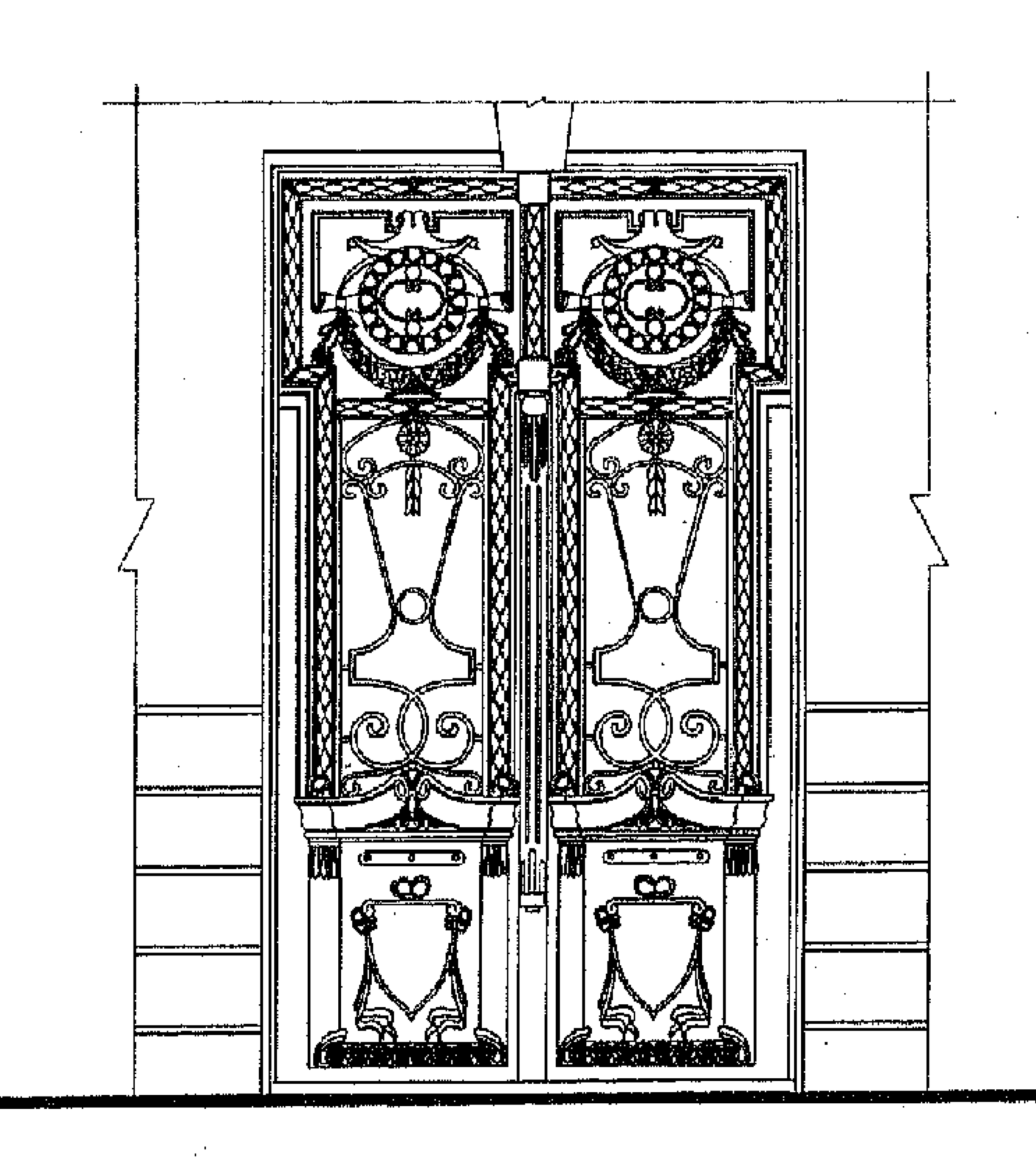
المدلول التراثى

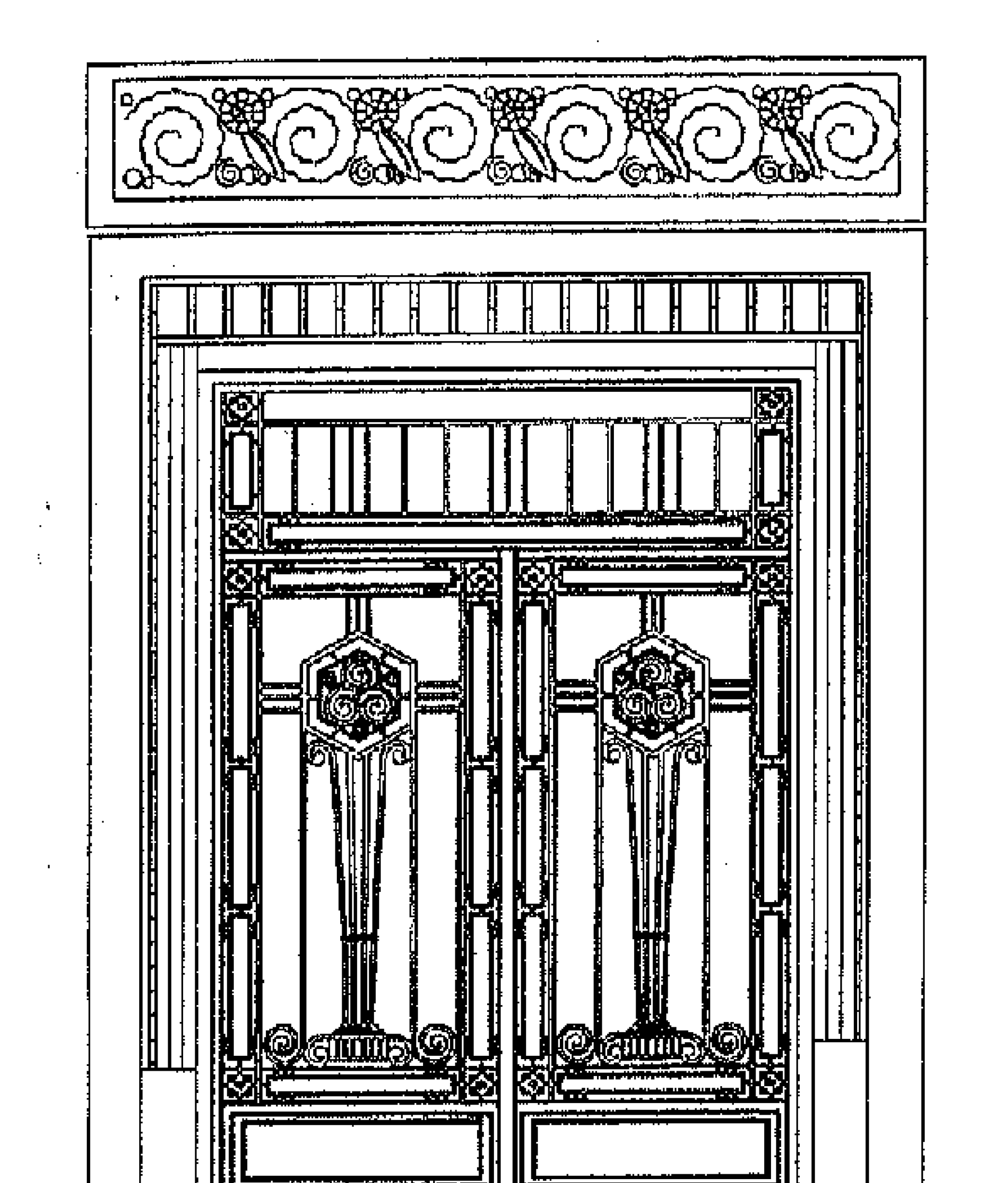
وتتميز منطقة وسط المدينة عمرانيا ومعماريا عن بقية أحياء «القاهرة». فهى ذات طابع خاص يدركه زائر المكان للوهلة الأولى ويستطيع أن يتخيل حدوده. كما تتمتع بثراء وعمق مدلولها التراثى الذى يتضح من خلال استقراء القيم التاريخية والمعمارية العمرانية والوظيفية للمنطقة.

ويعود تاريخ تخطيط المنطقة إلى ولاية عهد الخديوى «إسماعيل» الذى وضع أسس تخطيطها، فهى تمثل بداية العمران المصرى فى صورته الحديثة خلال النصف

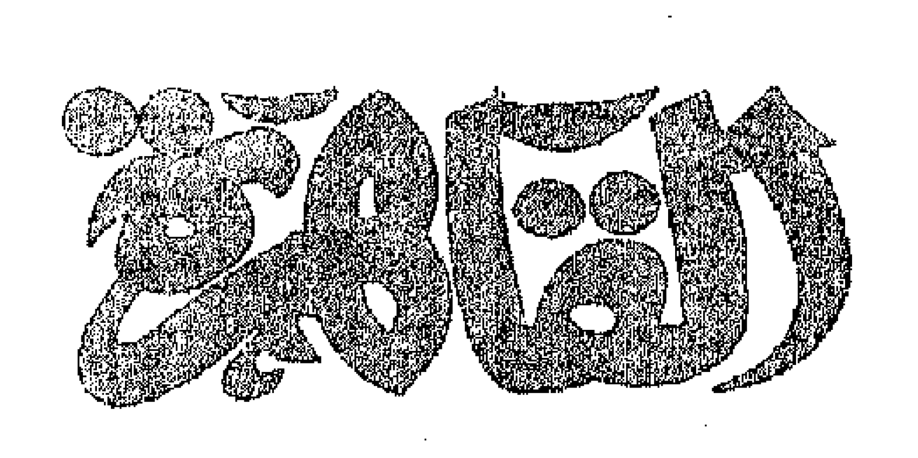


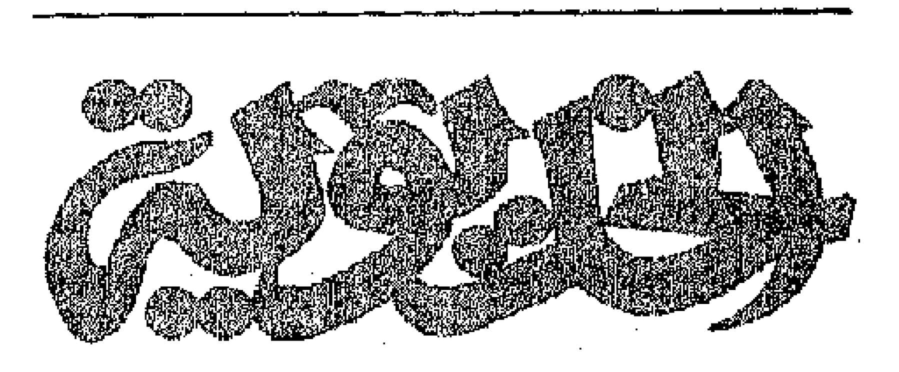






أبواب مداخل العمارات





الثانى من القرن التاسع عشر. ويقترب عمر المنطقة من المائة والأربعين عاماً..

فقد أمر الخديوى «إسماعيل» ببناء قصر عابدين فور توليه حكم مصر فى عام ١٨٦٣م لنقل مقر الحكم من القلعة إليه. وفى نفس الوقت الذى يشيد فيه القصر أمر «إسماعيل» بتخطيط القاهرة على النمط الأوروبى الذى بهره فى مدينة باريس من ميادين فسيحة، وشوارع واسعة ومستقيمة، وقصور ومبان، وجسور على النيل، وحدائق غنية بالأشجار والنباتات النادرة. فتحولت «القاهرة» إلى تحفة حضارية تنافس أجمل مدن العالم فى ذلك العصر.. وهى باقية حتى يومنا هذا.. تراها ونسير فى شوارعها ونستمتع بعبق التاريخ فيها.

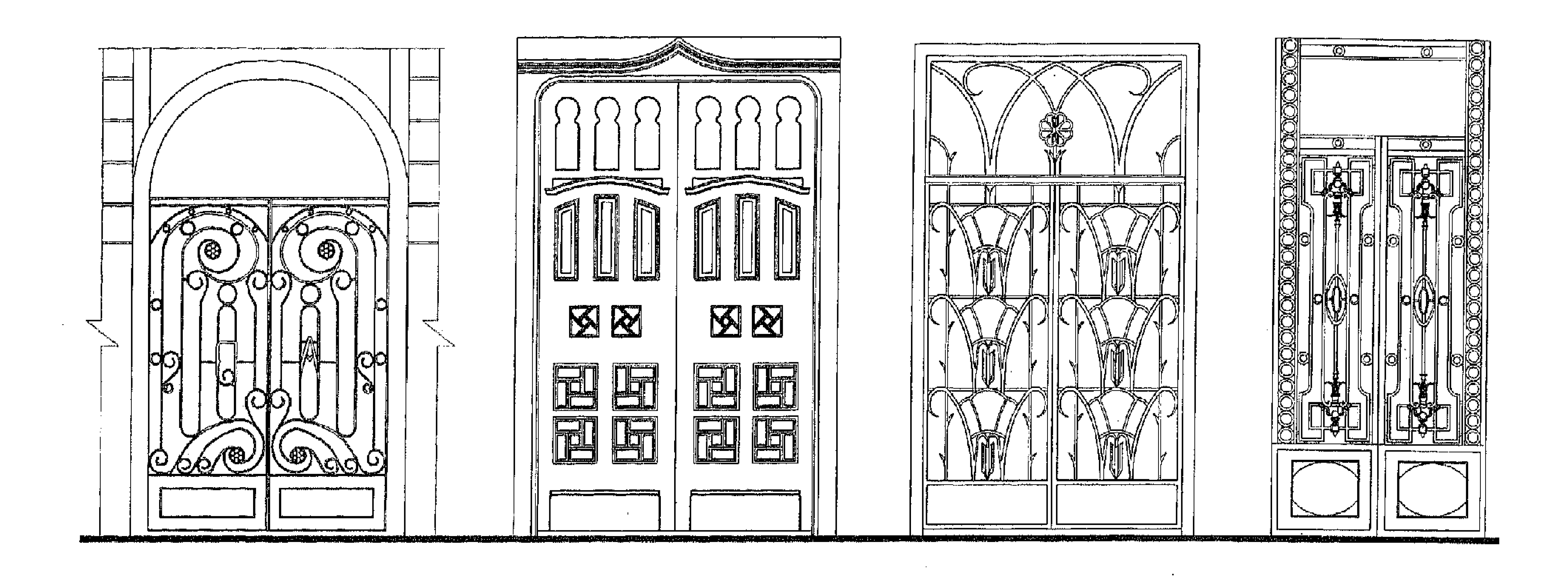
وتعد منطقة وسط المدينة بمثابة متحف حى ومفتوح لتراث إنسانى يمثل مصر منذ بدايات تحديثها وعصر نهضتها.. ويتضمن هذا المتحف رصيداً هائلاً من المبانى التراثية يتعدى الثلاثمائة مبنى داخل نطاق مساحة تقدر بحوالى ٧٠٠ فدان.

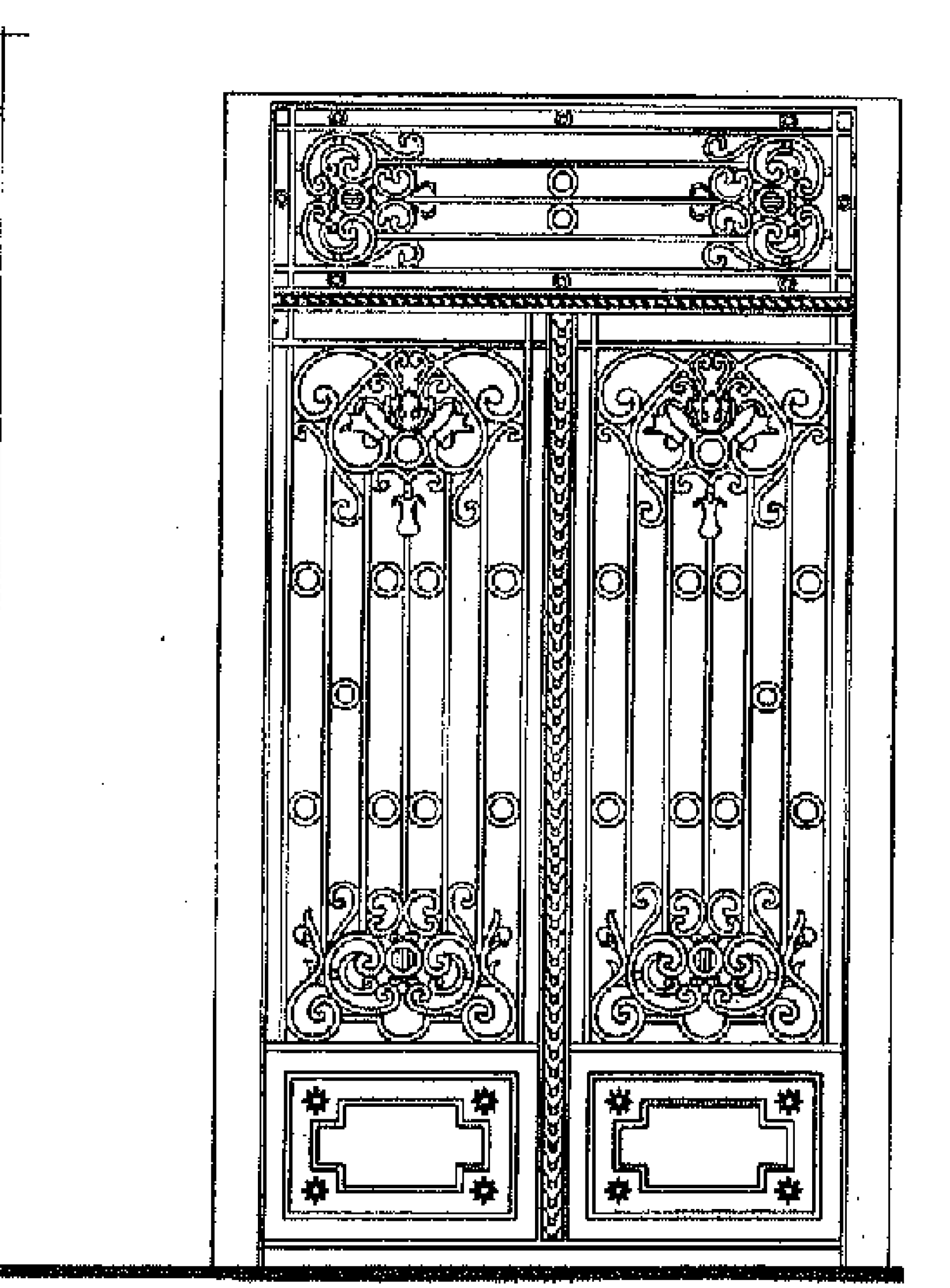
والمبانى المعنية هنا يعود تاريخ إنشائها إلى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. وهى جامعة للطرز المعمارية المختلفة.. مثل «الكلاسيكى» Classic وعصر «النهضة» Renaissance، و«الأرت ديكو» Art Deco، و«الفن الجديد» Art Nouveau وهو ما عرف فى ألمانيا بال Jugendstil، و«الباروك» Baroque بغزارة زخارفه، و«المدرسة التعبيرية» Expressionism، و«المدرسة العقلانية» Rationalism، و«الإسلامى المتطور» Neo-Islamic ...، ويلاحظ تعدد الطرز فى واجهات بعض المبانى وهو ما يميز هذه المبانى بالثراء فى تصميم وزخرفة واجهاتها.

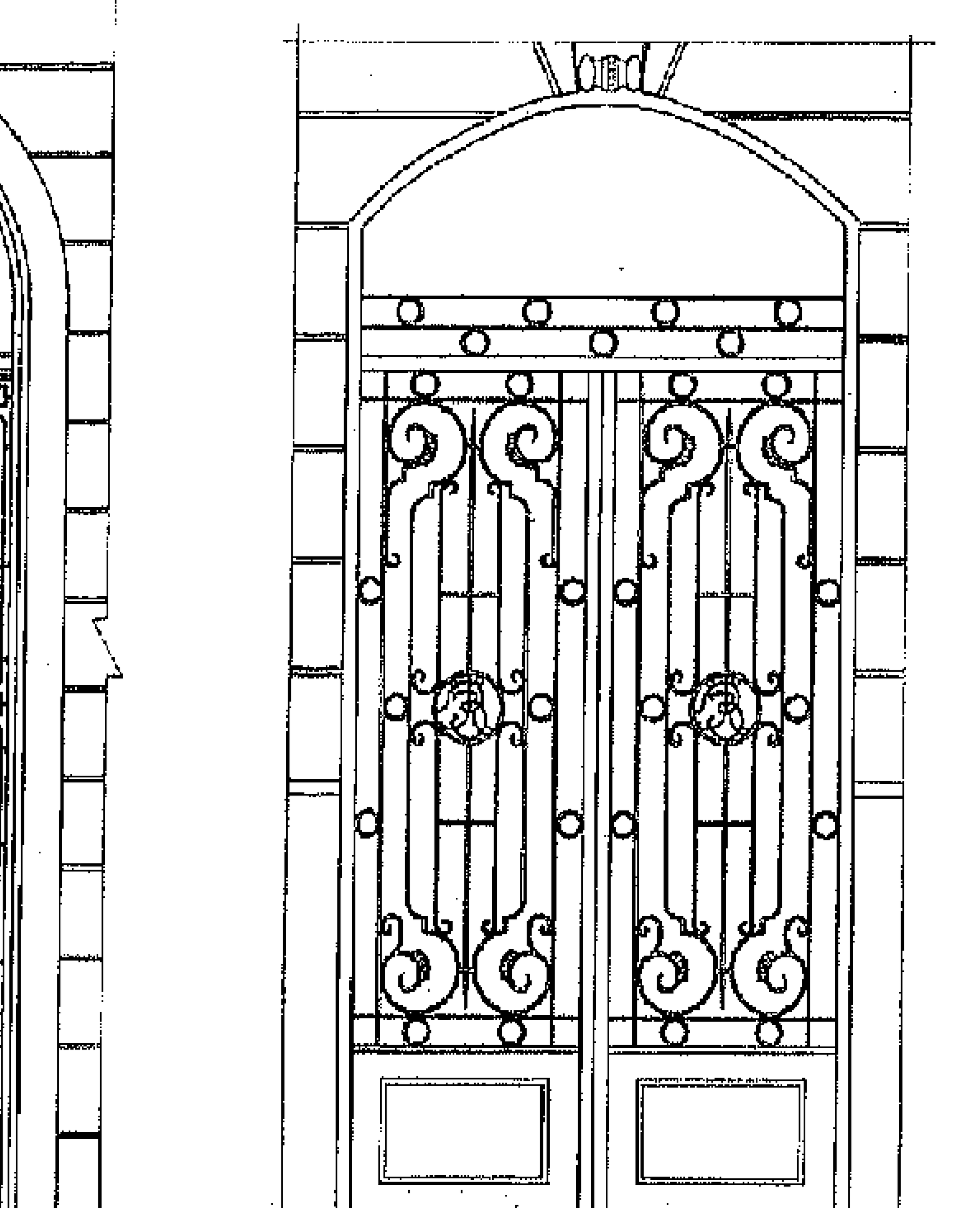
ومن الخصائص العامة لمبانى وسط المدينة أنها فى معظمها مبان ضخمة (كان يشترط ألا تقل تكلفة المبنى عن ٢٠٠٠ جنيه لضمان التميز والفخامة)، متوسط الارتفاعات يتراوح ما بين ٦-٧ أدوار قد تزيد أو تقل أحياناً. واجهاتها غنية بالزخارف تصل فى بعض المبانى إلى التكدس الشديد. وتتنوع الزخارف وأحياناً لا تتكرر الوحدة الزخرفية نفسها فى الواجهة الواحدة كما فى عمارات الشوربجى ناصية شارع عبد الخالق ثروت وشارع عماد الدين. وعمارة شركة التأمين ناصية شارع رمسيس وشارع ٢٦ يوليو على سبيل المثال.

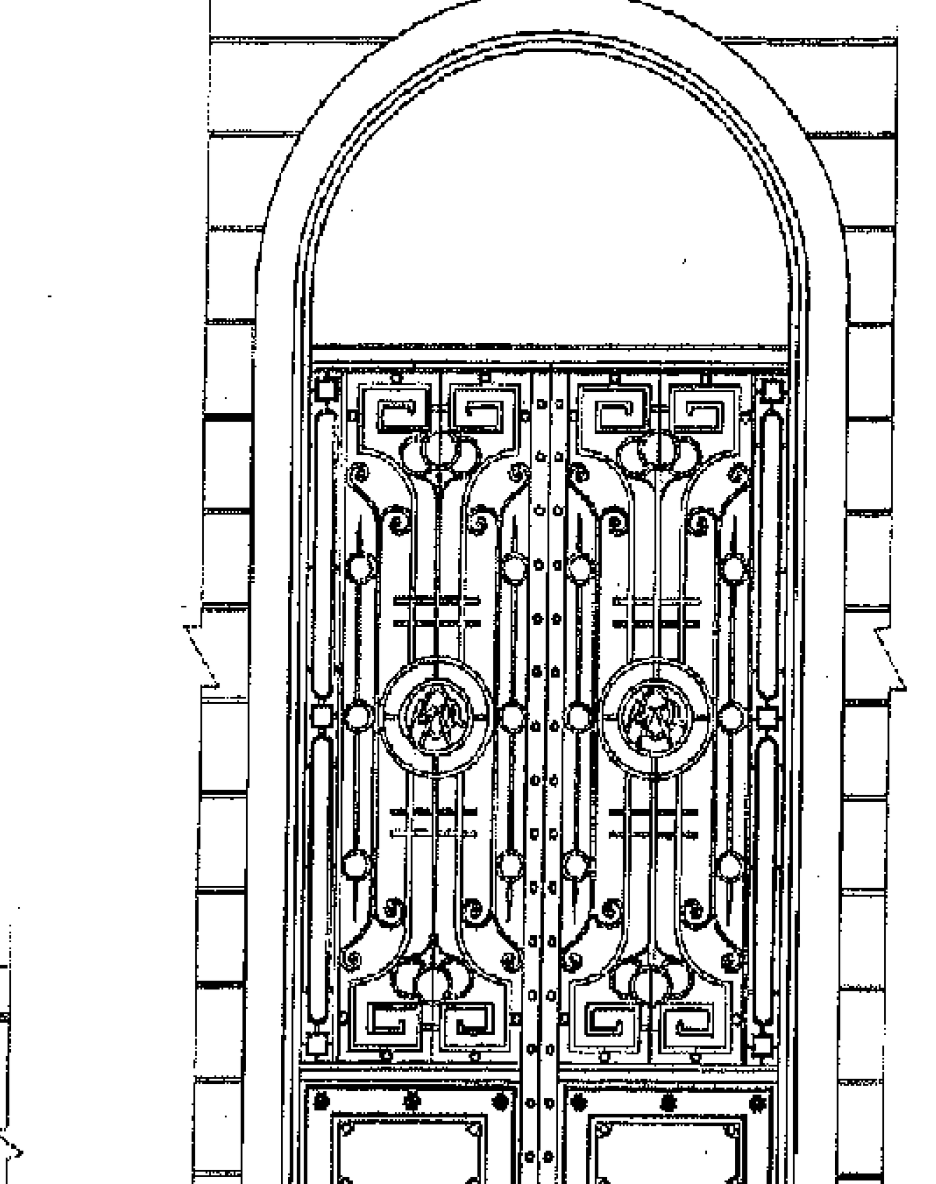
والزخارف المتنوعة تتميز بالدقة المتناهية فى التنفيذ واستخدام قوالب صب مرنة حتى تكون أكثر تجسيماً وهو أسلوب يندر استعماله حالياً لارتفاع تكلفته.

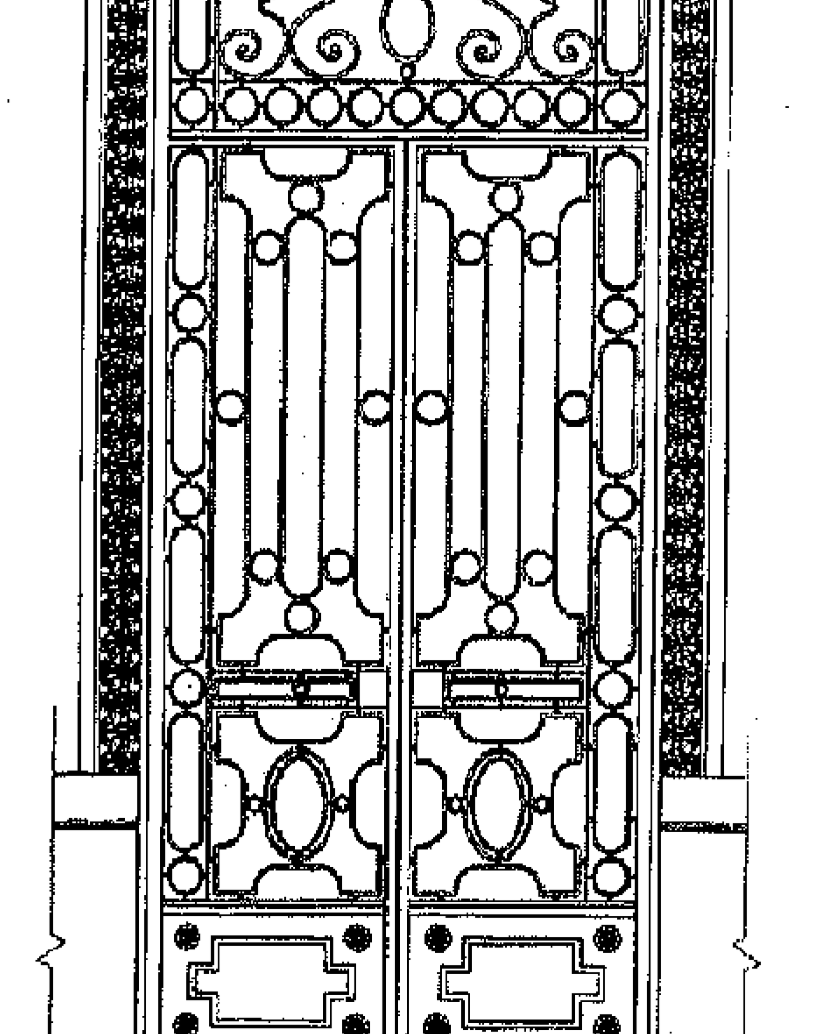
كما أن العديد من المبانى تظهر فى واجهاتها المشغولات الحديدية المختلفة وأيضاً فى البلكونات وأبواب المداخل مما











أبواب مداخل العمارات

يزيد من فخامة وجمال ورزانة المبانى. والمبانى فى مجملها فى إطار التخطيط الحديث تكون معاً طابعاً عمرانياً أوروبى الملامح والشخصية.

ويمكن القول أن منطقة وسط المدينة بوصفها متحفاً مفتوحاً وحياً للعمارة التراثية تمثل أيضاً معرضاً لأعمال المعماريين الأجانب الذين استُدعوا من فرنسا وإيطاليا والنمسا وبريطانيا كما أنها أيضاً تحتوى أعمالاً معمارية عديدة تمثل جيلاً أحدث من المعماريين والمبانى يمثلون الرواد الأوائل من المعماريين المصريين الذين ظهرت أعمالهم المعمارية خلال النصف الأول ومنتصف القرن العشرين.

القيم التراثية للعمارة والعمران:

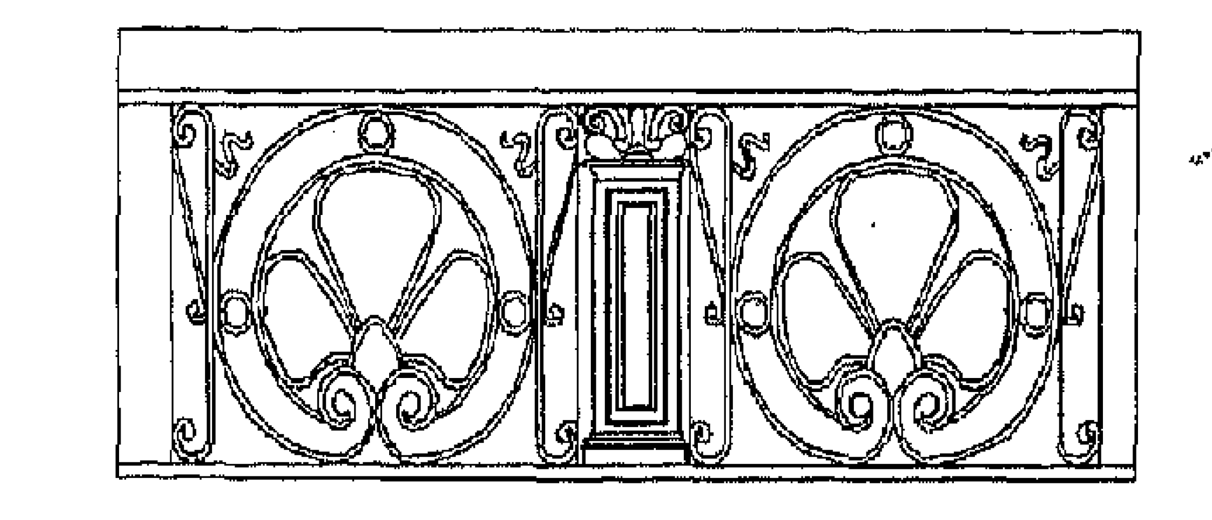
لو تخيلنا شخصاً فاقداً للذاكرة فسوف يكون إنساناً بلا هوية أو شخصية، بلا كيان أو مضمون. فإذا كانت ذاكرة المدن هى مبانيها وأحياؤها التاريخية القديمة فإن الحفاظ عليها وإطالة عمرها نابضة بالحياة يعنى الاحتفاظ بذاكرة المدن قوية منتعشة، مما يحافظ على تراثها وكيانها الحضارى متجدداً عبر الأجيال. وحتى الدول التى بلا ماض أو تراث، أى خاوية الذاكرة فإنها تصنع لنفسها ماضياً وتختلق تراثاً لتؤكد أصالتها وتنبت لنفسها جذوراً عميقة عبر الزمان.

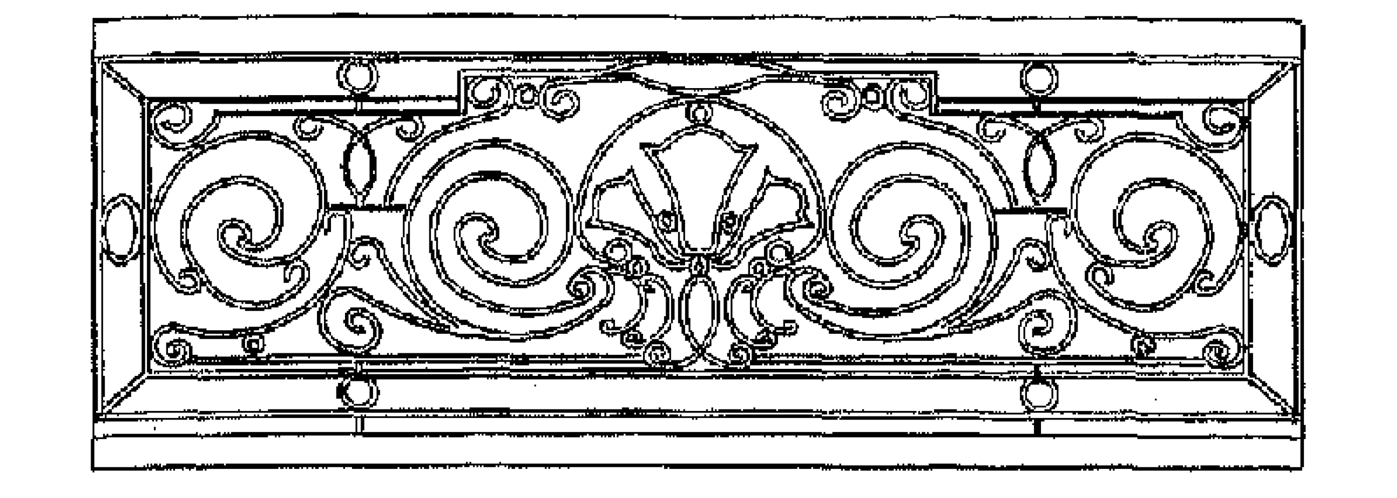
وقد بدأت الشعوب والبلاد تعى هذا المضمون منذ أواخر القرن الثامن عشر وخلال القرن التاسع عشر فأصبحت الدول تتسابق فى إحياء تراثها. وانتعشت حركة التجديد والارتقاء بالأحياء القديمة. وتعددت مفاهيم الصيانة والحفاظ وكيفية التحكم فى العمران بهدف حماية وإحياء المبانى التراثية والمناطق ذات القيمة التاريخية، حتى صار أهم ما يميز الدول المتحضرة هو الوعى بمفاهيم القيم التراثية والحفاظ عليها، فاستطاعت أن تجسد من أرصدتها التراثية بشكل عام والعمرانى منها بشكل خاص، قيماً متفردة تشهد على ماضيها العريق بتاريخه الحضارى وتسلط الضوء على فترات ازدهارها المتعاقبة. وقد كانت دول أوروبا رائدة فى هذا المجال مثل إنجلترا وإيطاليا وفرنسا وسويسرا والنمسا وهولندا وبولندا..

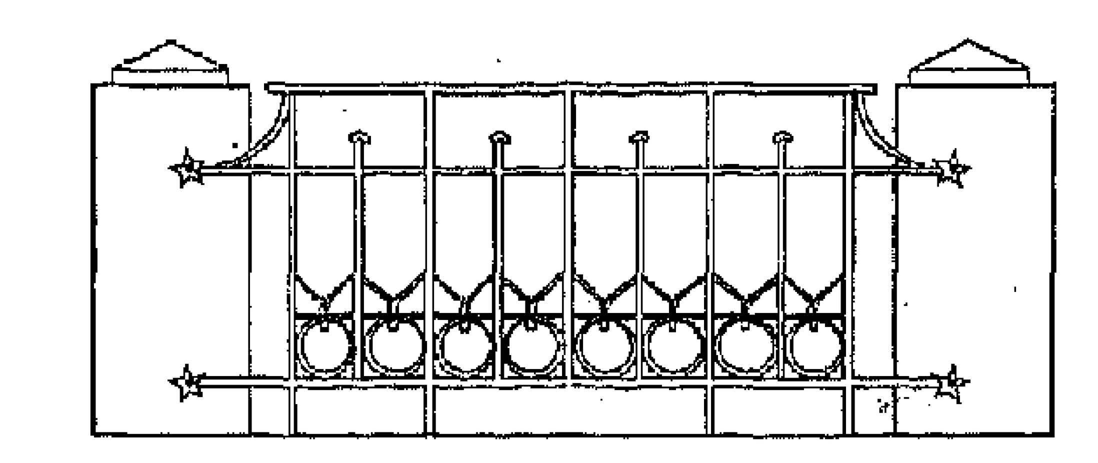
ويمكن القول أن غياب هذا الفكر الواعى بقيمة التراث فترة طويلة فى بلادنا قد أضر بعمران «القاهرة»، والذى واجه بالفعل حملة اغتيالات لمبان وقصور قديمة أُزيلت تماماً من مواقعها من أجل استثمار أراضيها حيناً، أو بغرض الرغبة فى التحديث حيناً آخر.

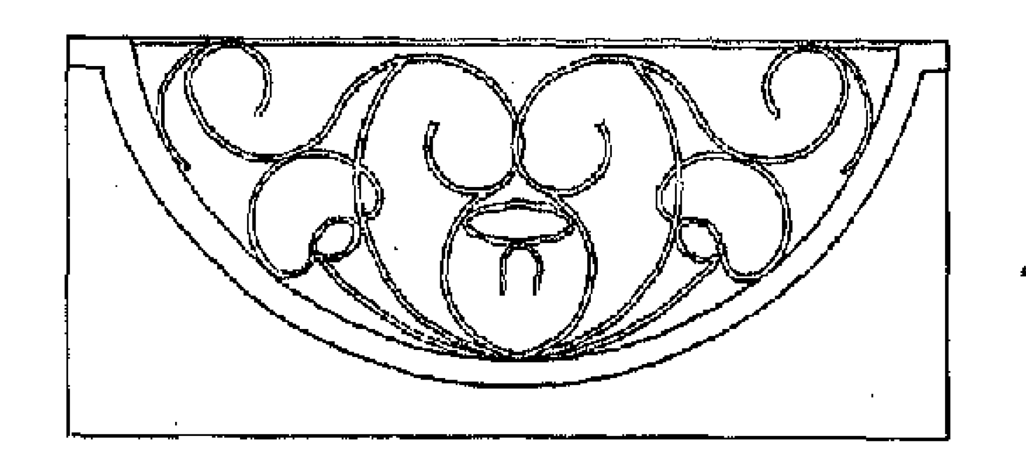
ونجد فى العديد من الأحياء ذات الجذور التاريخية مثل وسط المدينة «القاهرة الخديوية»، وجاردن سيتى، والزمالك، ومصر الجديدة، والعباسية، والمعادى.. وغيرها من الأحياء التى شهدت ثراءً معمارياً يعد حالياً رصيداً تراثياً عظيماً، أنها تعانى من تشويه ماضيها. ويمكن القول أنه لولا الوجود الدبلوماسى للعديد من السفارات الأجنبية والشركات والبنوك فى مبانى جاردن سيتى والزمالك على سبيل المثال، ولولا قلة من أولئك الذين اتخذوا من القصور والمبانى القديمة مقاراً لإقامتهم، لما دام هذا الرصيد التراثى الحالى من المبانى حتى اليوم.

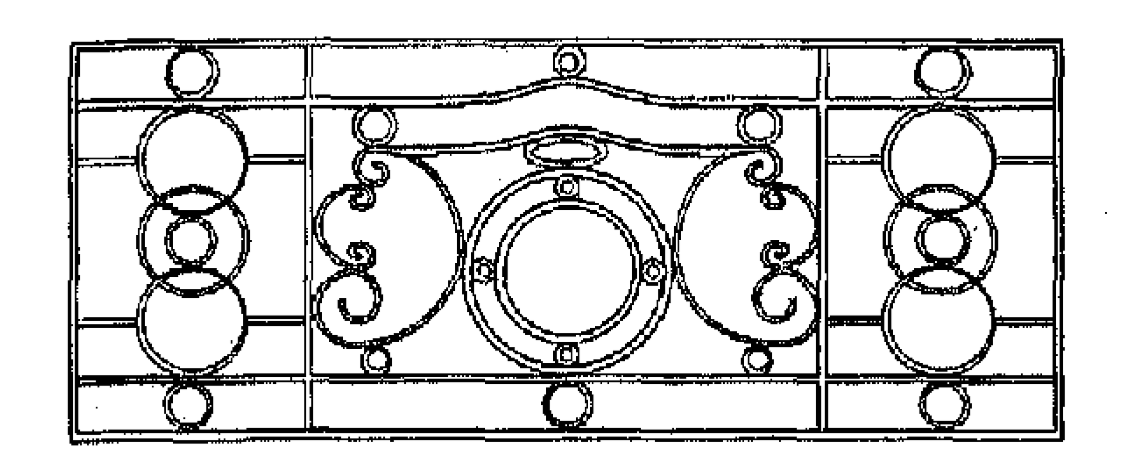
ولحسن الحظ أن الدولة بدأت بالفعل نشاطاً مكثفاً خلال السنوات القليلة الماضية من أجل حماية التراث العمرانى بوقف هدم القصور والفيلات، وأيضاً حماية مناطق بأكملها المصنفة ذات قيمة تاريخية والتى يدخل ضمنها منطقة وسط المدينة «القاهرة الخديوية» موضوع الكتاب. ■

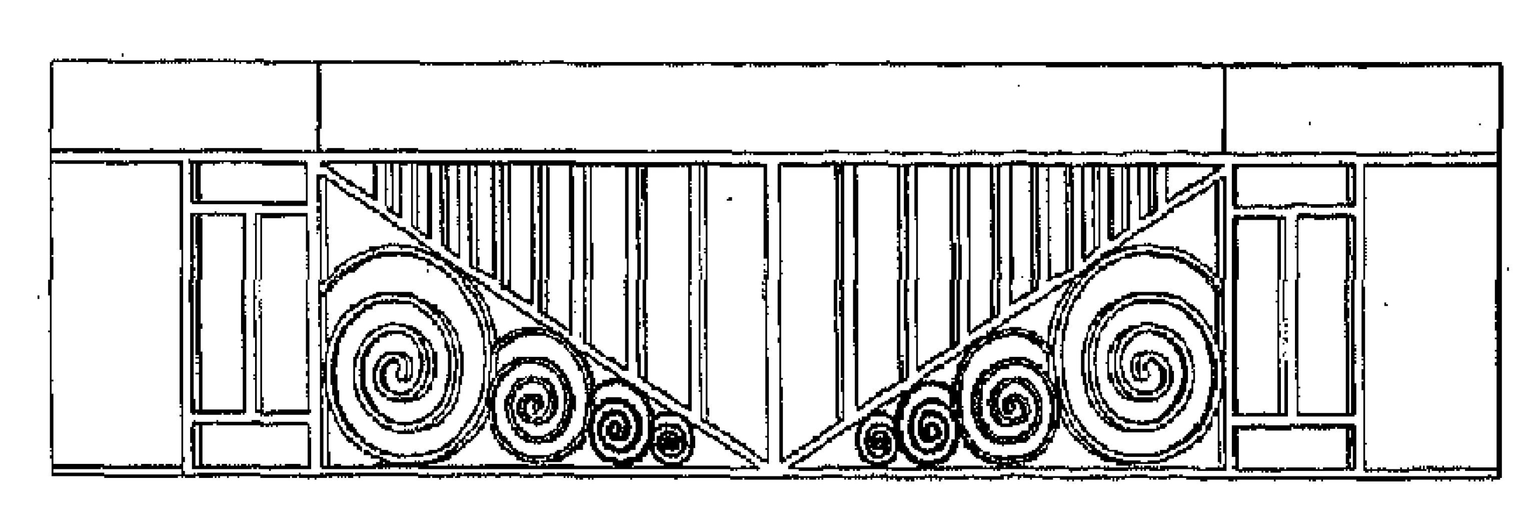


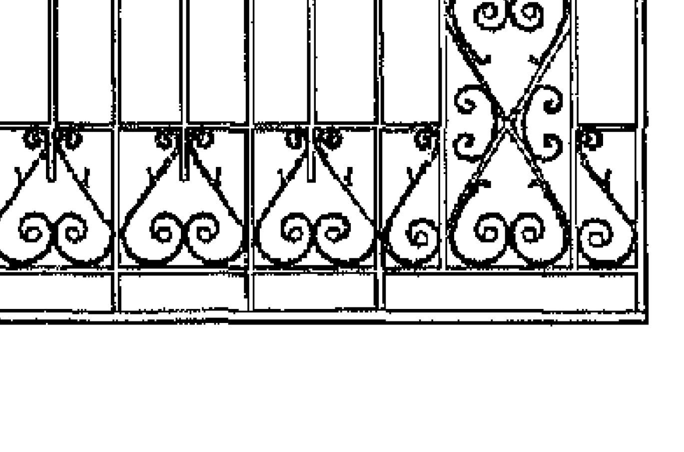


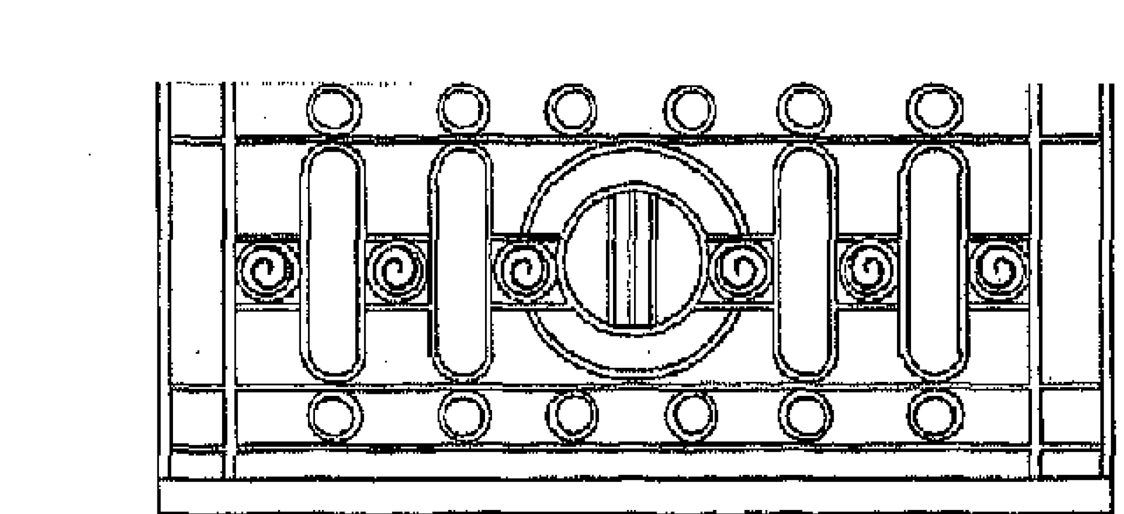


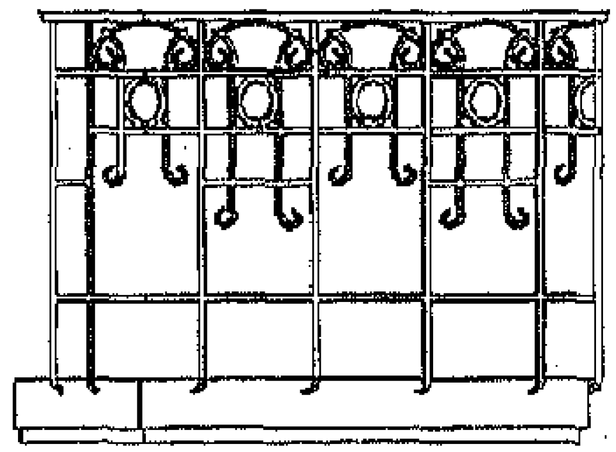


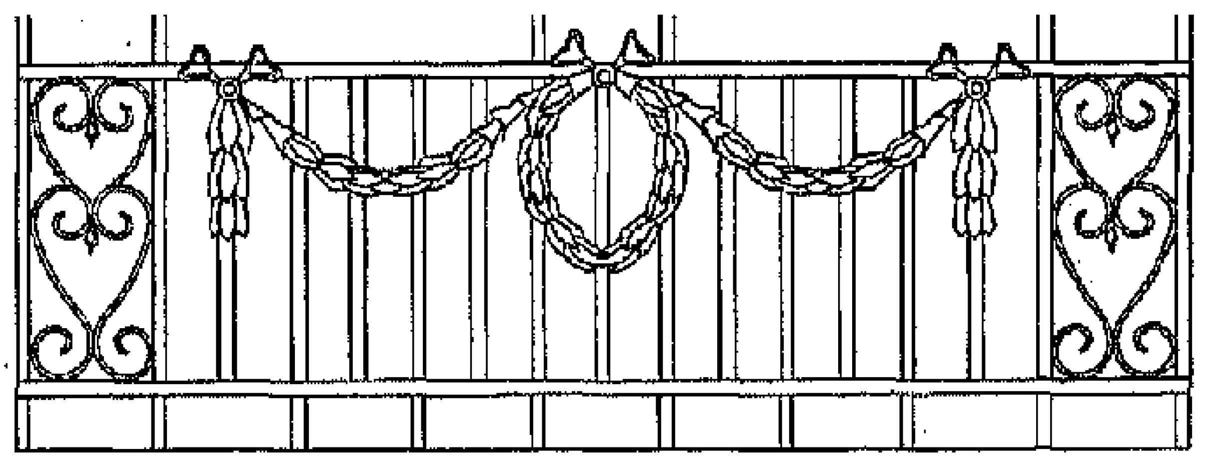


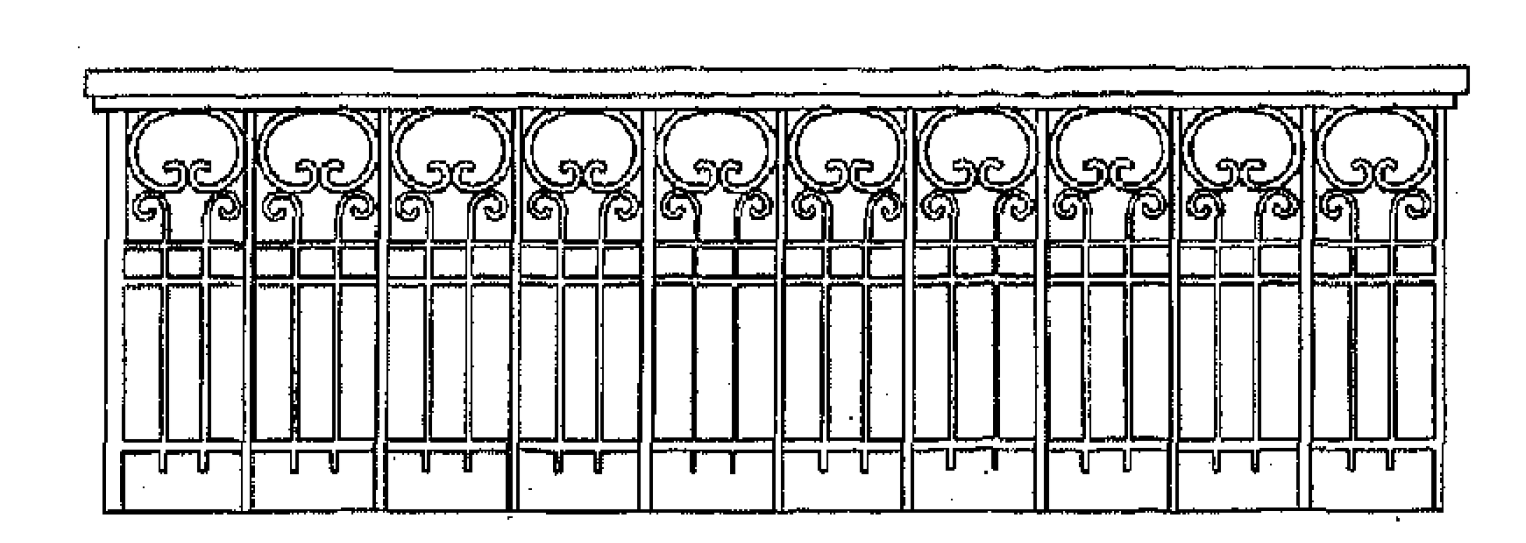


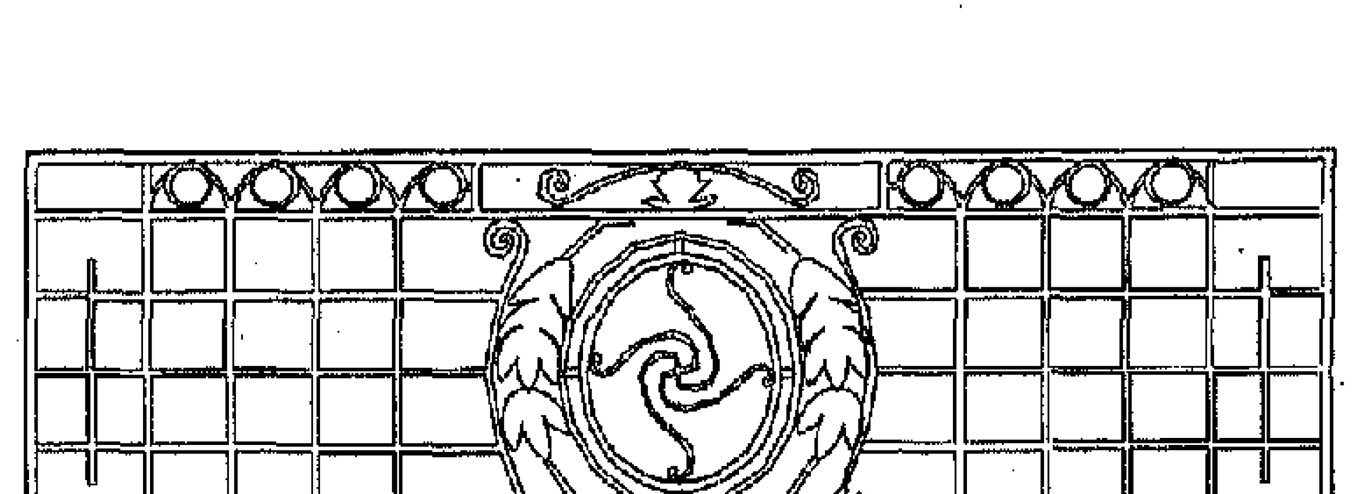




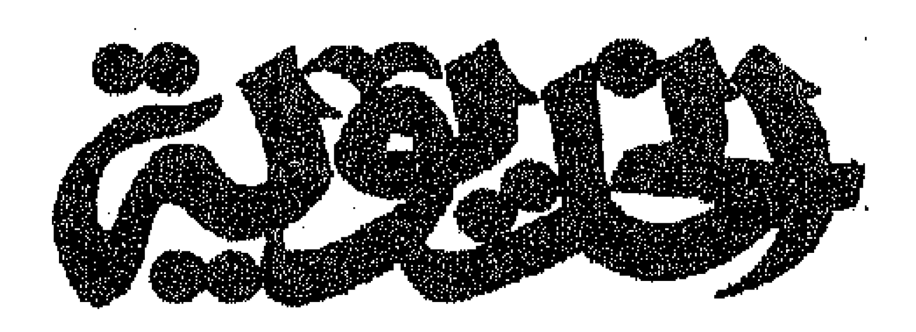








المشغولات الحديدية بالشرفات



للمهتمين بالعمارة والعمران

■ يضيف الكتاب الذى فاز بجائزة خاصة من «منظمة المدن والعواصم الإسلامية»،فائدة أخرى غير التوثيق.. تخدم العاملين فى مجال العمارة والعمران من أجل تيسير ترجمة روح الماضى إلى فكر هذا العصر.

فالرسومات والتفاصيل المعمارية مرسومة حديثاً بواسطة الكمبيوتر بناءً على رفع ميدانى حديث للمبانى. دقيقة فى تفاصيلها.. مع إضافة صفحات خاصة بعرض التفاصيل المعمارية والزخرفية للواجهات ليسهل الاستعانة بها فى تصميمات حديثة معاصرة.

أيضاً تم الارتكاز على شق كبير من المعلومات التى جاءت بمراجع أصيلة. منها على سبيل المثال لا الحصر الكتاب الألمانى «Kairo» لمحمد شرابى المصرى الجنسية.. وكتاب «القاهرة عمرها ٥٠ ألف سنة» للمعمارى الكبير د.سيد كريم.. وكتاب «شوارع لها تاريخ» لعباس الطرابيلى... و«موسوعة مدينة القاهرة فى ألف عام» للدكتور عبد الرحمن زكى..

ويرصد الكتاب ٣٥ شارع وميدان فى منطقة وسط المدينة، بالإضافة إلى الشوارع الفرعية المتصلة بها، وتتبع تاريخها فى الماضى والحاضر منذ إنشائها وحتى اليوم، وأسباب إطلاق الأسماء السابقة والحالية عليها والمدلول التاريخى لتلك الأسماء.

كما تم رصد وتوثيق المبانى التراثية بكل شارع وميدان بواسطة التصوير الفوتوغرافى، مع تحديد مواقعها على خريطة المنطقة، وإضافة البيانات الخاصة بكل مبنى بأسلوب مختصر، متضمناً العنوان وتاريخ البناء، والمعمارى، والمساحة، وعدد الأدوار، وأيضاً الطراز المعمارى له. وإن كانت الصور الفوتوغرافية الحديثة لم تأت على المستوى المطلوب وذلك لاعتماد الكتاب على هواة للتصوير لا محترفين. ولعل هذه هى نقطة الضعف الرئيسة فى هذا العمل الجيد.

ويهدف الكتاب إلى عمل قاعدة بيانات توثيقية للمبانى التراثية بمنطقة وسط المدينة بغرض حمايتها. كما يهدف إلى إعطاء صورة مرجعية للمنطقة، لتكون فى متناول المتخصصين والمصممين ومتخذى القرار الذين لهم علاقة بأى عمل يرتبط بالمجالات الخاصة بالحماية والحفاظ والارتقاء الحضرى، أو وضع تصميمات لمشروعات مستقبلية بالمنطقة.

ويذكر أن الكتاب قد نوه إلى أن مشروع رصد وتوثيق مبانى المنطقة بالرفع والرسم مستمر ولم يتوقف مع إصداره تمهيداً للعرض فى إصدار آخر بإذن الله. ■



المشغولات الحديدية بالشرفات

معمـــــــاريون

من أشهر المعماريين الذين سجلت بصماتهم من خلال أعمالهم المعمارية بالمنطقة المعنية على سبيل المثال وليس الحصر:

• «أنتنيو لاشياك» Antonio Lasciac
معماري نمساوي، من أهم أعماله: بنك مصر (١٩٢٧م) بشارع محمد بك فريد رقم ١٥١، والعمارات الخديوية (١٩١١م) بشارع عماد الدين، ومبنى «نادي ريسوتو» (١٨٢٩م) بميدان مصطفى كامل رقم ٣.

• «مارسيل دورجنون»
Marcel Dourgnon
معماري نمساوي،من أعماله في القاهرة مبنى المتحف المصري خلال ١٨٩٧-١٩٠٢م بميدان الاسماعيلية (ميدان التحرير حالياً).

• «أوسكار هوروفيتس»
Oskar Horowitz
معماري يهودي نمساوي، درس العمارة في النمسا، وجاء إلى القاهرة في الفترة ١٩١٣-١٩١٥م بنى خلالها المبنى التجاري «تيرنج» Taring بميدان العتبة الخضراء.

• «أ. كاستامان» Castaman . A
وهو المعماري الذي بنى عمارة «جروبي» ميدان سليمان باشا وعنوانها ٢١شارع محمود بسيوني، وذلك خلال الحربين العالميتين، وقد احتوت حديقة كبيرة كانت تعزف فيها الفنون الموسيقية.

• «أدوارد ماتاسك» Eduard Matasek
معماري نمساوي، من أعماله في القاهرة «المعبد اليهودي» بشارع عدلي يكن باشا رقم ١٧. والمبنى يتميز في عمارته بطراز الفن الجديد.

• «جـــــورا» Gorra
من أهم أعماله عمارة رقم ٢ بشارع الجمهورية ذات الواجهة العريضة المطلة على ميدان الأوبرا (إبراهيم باشا سابقاً)، وطرازها نيوباروك.

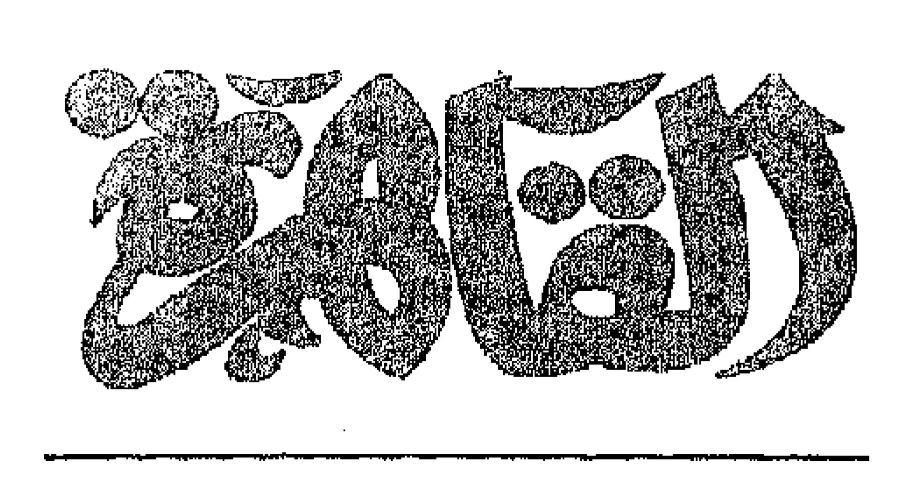
• «ماريو روسي» (١٨٩٧-١٩١٦م)
Mario Rossi
معماري إيطالي وكان كبير مهندسي وزارة الأوقاف خلال السنوات ١٩٢٠-١٩٥٠م. شارك في بناء عدد من الجوامع الشهيرة منها جامع «عمر مكرم» بميدان التحرير و«جامع صلاح الدين» عند مدخل كوبري الجامعة..

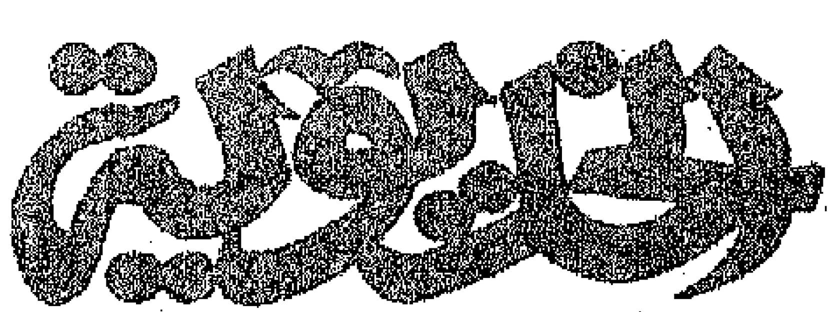
• «ج. باليان» Balian .G
من أعماله العمارة السكنية / التجارية (١٩٣٤م) بشارع طلعت حرب رقم ٣٤. وقد جمع في تصميمها أكثر من طراز: الأرت ديكو، والتعبيري.

• «أريستيد ليونوري»
Aristide Leonori
من أعماله كنيسة «القديس يوسف للإفرنج الكاثوليك» بشارع محمد بك فريد رقم ١٠٢. وعمارتها ذات الطراز التجميعي ويغلب عليه طابع العمارة المحلية الإيطالية.

• «فرانسسكو باتيجلي»
Francesco Battigelli
أشهر معماري إيطالي عمل في مصر وعاصر الملك «فؤاد الأول»، كما كان المعماري المفضل لديه. ومن أعماله الشهيرة فندق «سافوي» بميدان سليمان باشا، الذي هدم في أعقاب الحرب العالمية







الأولى. وقد كان ملكاً للأمير «محمد جمال طوسون» ثم اشتراه مستر «شارل بهلر» فى مطلع القرن ٢٠.

• «ج. مازا» G. Mazza

معمارى إيطالى، من أعماله المميزة مبنى «صيدناوى سليمان باشا» (١٩٢٥م) بشارع قصر النيل رقم ١٧ والمطل على كل من ميدان سليمان باشا (طلعت حرب باشا) وشارع محمد صبرى أبو علم. وهو مبنى غنى بالتفاصيل المعمارية والزخارف وطرازه المعمارى «أرت ديكو».

• «أ. مارسيل» A.Marcel

من أهم أعماله «النادى الدبلوماسى» (نادى محمد على، ١٩١٠م) وعند تقاطع شارع سليمان باشا (طلعت حرب باشا) مع شارع عبد السلام عارف. وقد قام مؤخراً بأعمال الترميم والتجديد للمبنى المكتب الاستشارى للأخوة عصام وهشام وطارق فتحى.

• «يوسف أربان» Joseph Urban

كان عمره ١٩ سنة عندما كلف بأعمال توسعة «قصر عابدين» بعد احتراق جزء منه فى عام ١٨٩١م.

• «جوسب تافرالى» Guiseppe Tavarelli

من أهم أعماله عمارة رقم ١ بشارع محمد مظلوم باشا (١٩٢٨م) والمطلة على ميدان باب اللوق (الفلكى).

وتتميز بالقبة التى تعلو ناصيتها كما يظهر بها تأثير عمارة حوض البحر الأبيض المتوسط.

• «سيرجنت» و«تسوليكوفر» Serjeant & M. Zollikofer. P.J

من أهم أعمالهما مبنى «البنك المركزى» فى ٢٤ شارع شريف باشا و٧ شارع علوى ويقع عند ناصية شارع شريف باشا وشارع قصر النيل.

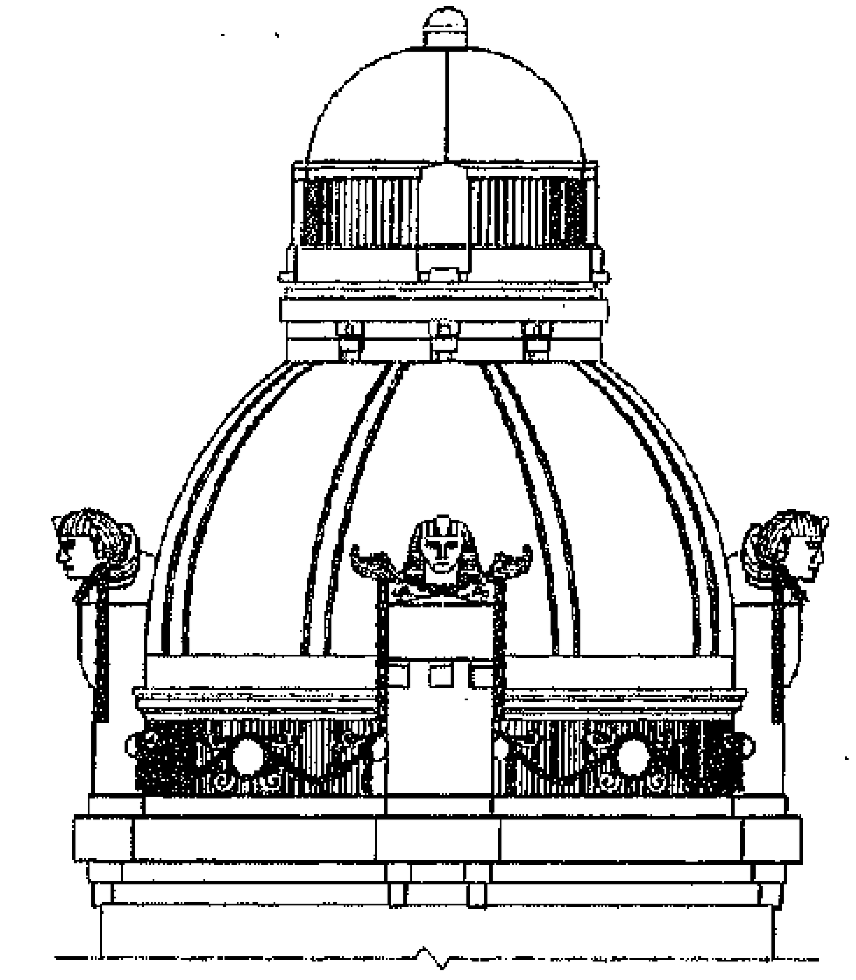
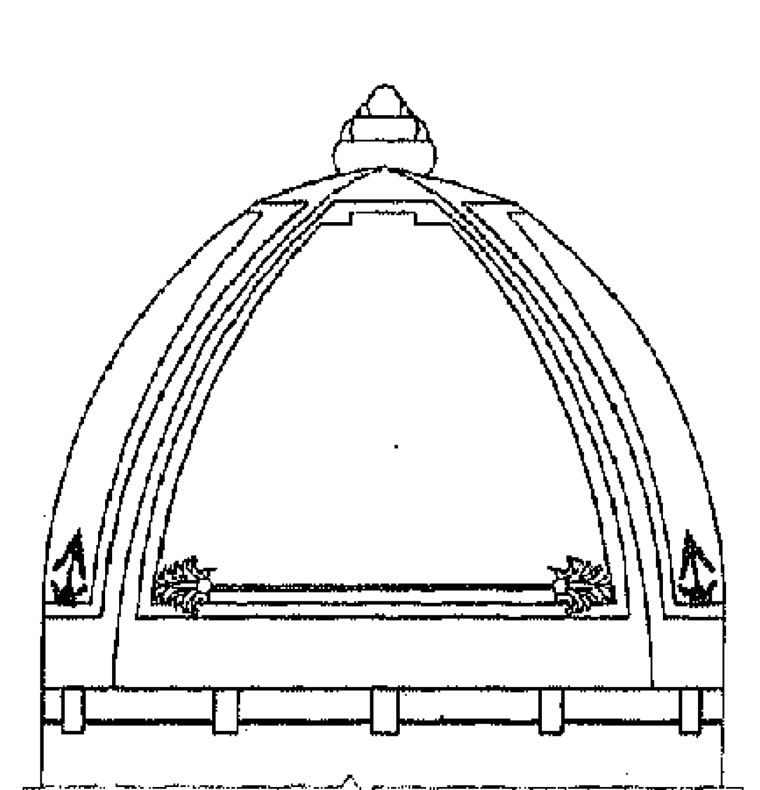
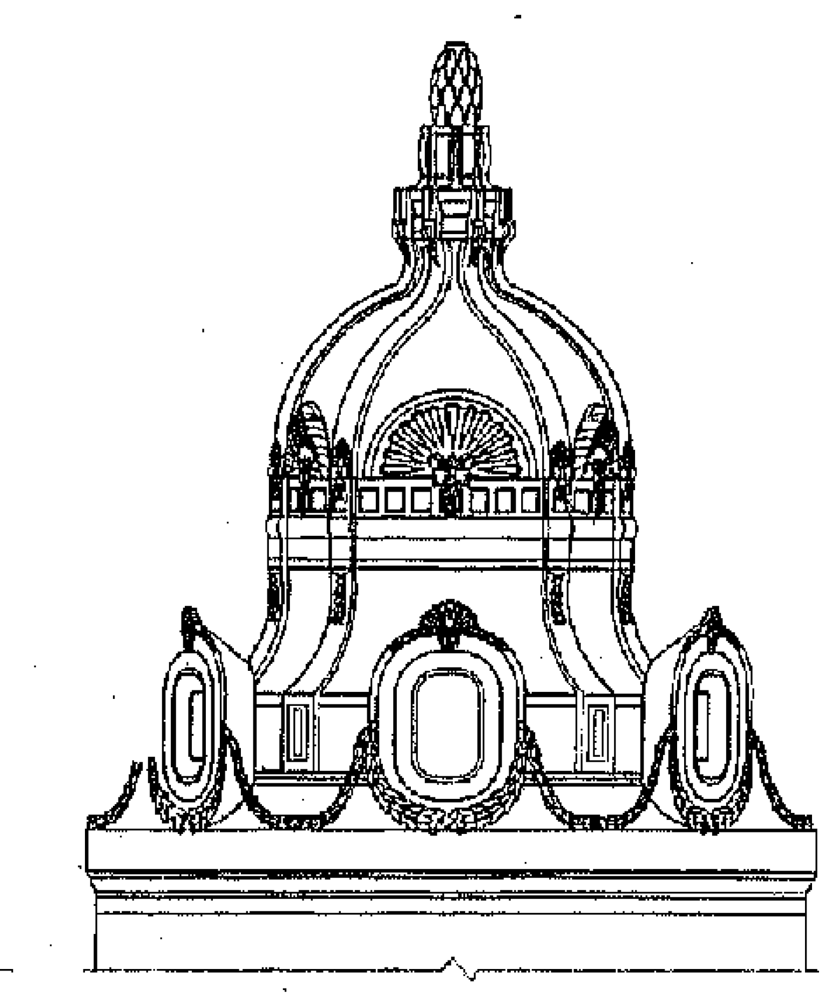
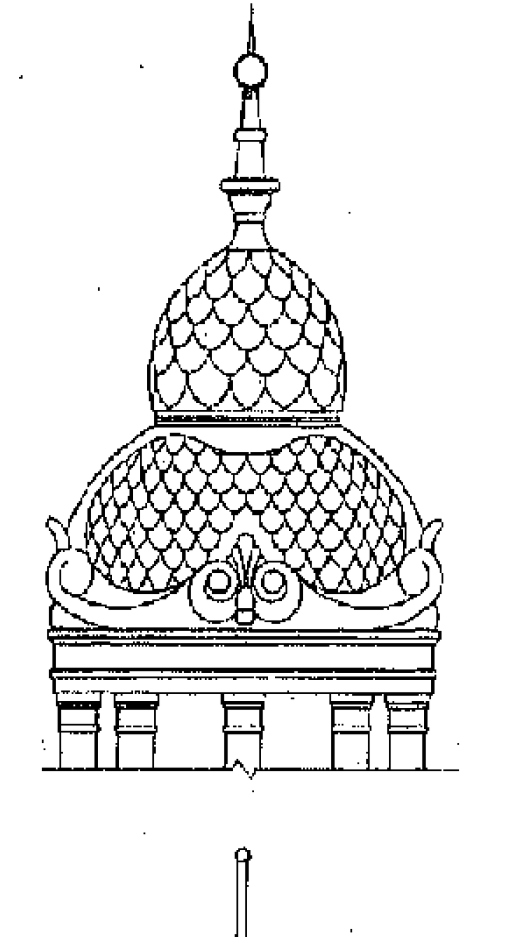
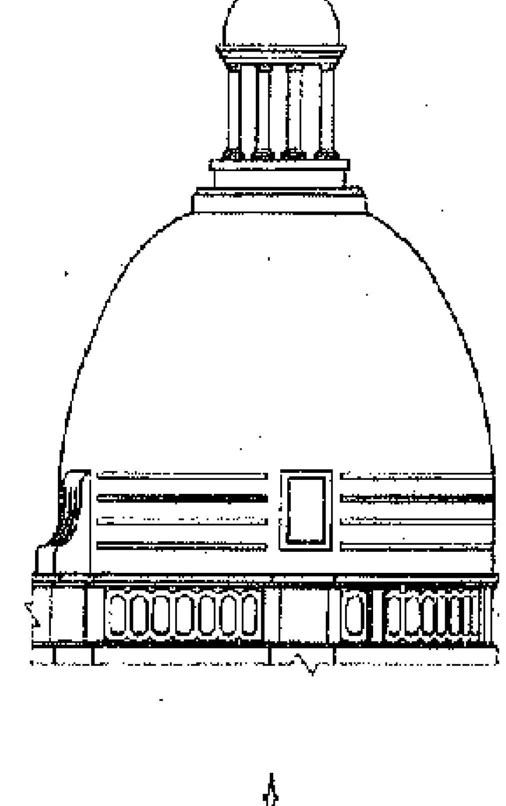
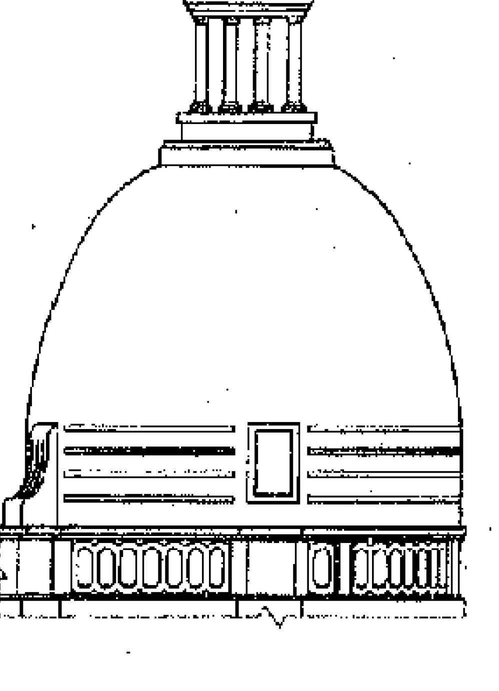
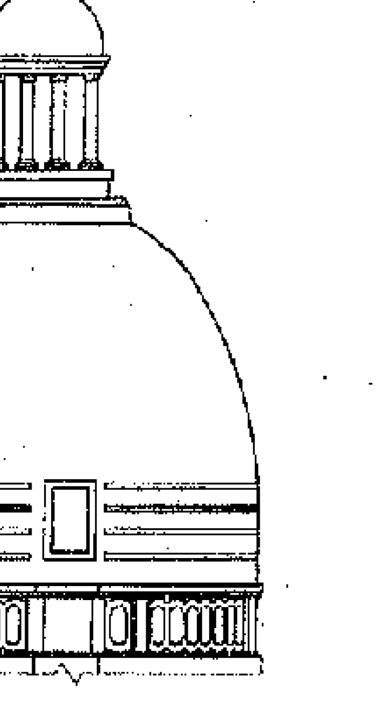
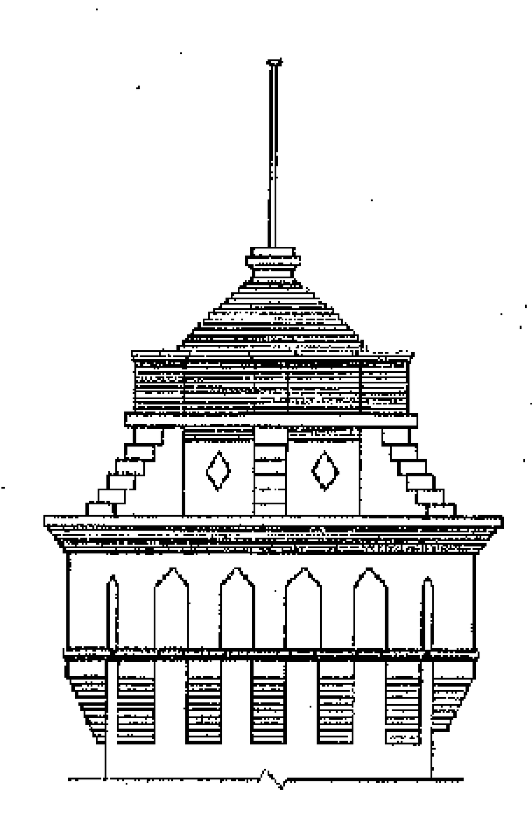
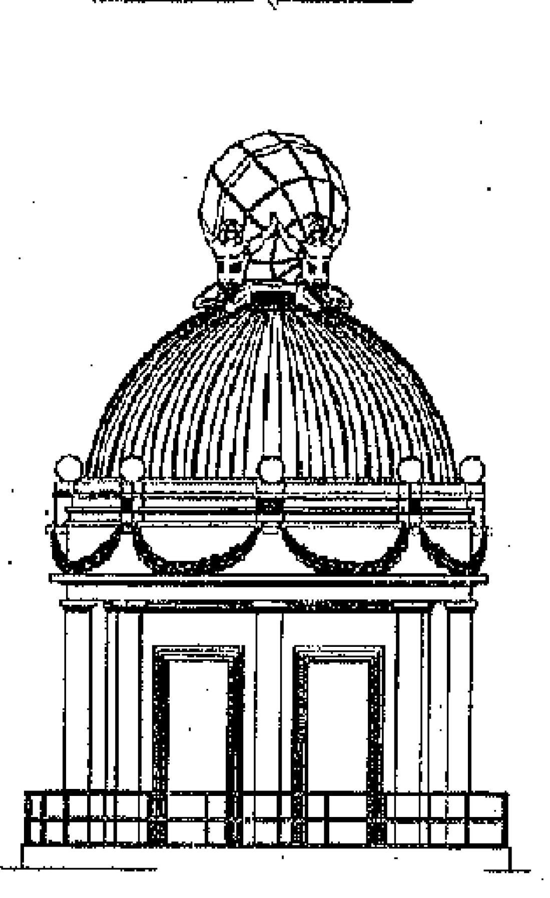
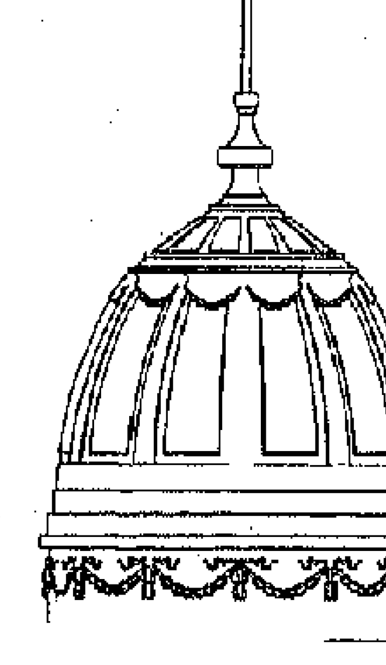
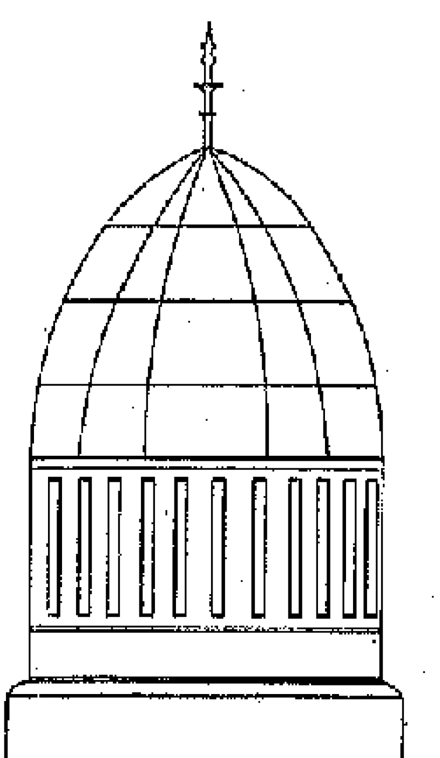
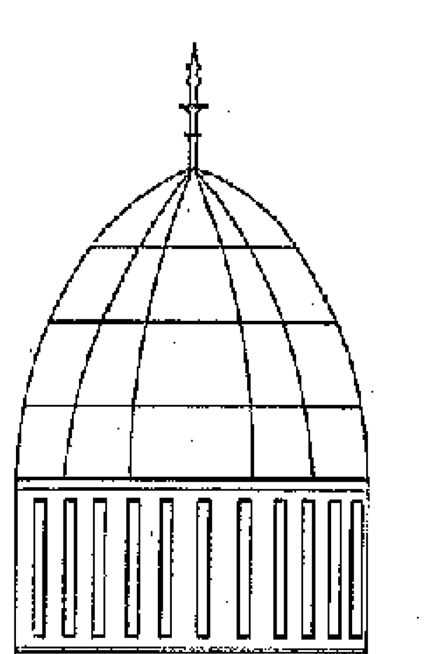
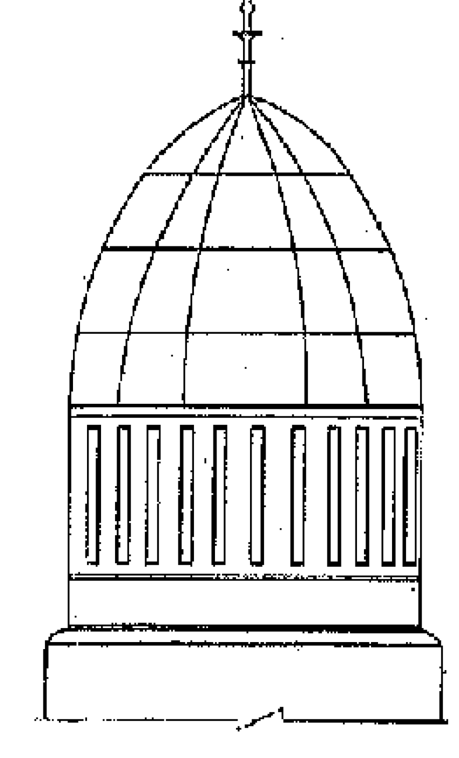
• «أ. زارب» Zarb .A

من أعماله العمارة السكنية / التجارية (١٩٣٧-١٩٣٨م) فى ٣٣ شارع عبد الخالق ثروت عند ناصية عبد الخالق ثروت مع محمد بك فريد.

وتتميز عمارتها بالاتجاه نحو الطراز الدولى فى بساطة واجهاتها، وتمثل بدايات التغير فى الفكر المعمارى الذى ساد عمارة منطقة وسط البلد.

• «ج. بارك» Park .G

من أعماله العمارة السكنية / التجارية (١٩٢٨م) بشارع سراى الأزبكية رقم ١٤.



القباب

• «ماردى» Mardy

كان شريكاً للمعمارى «ج. بارك» فى بناء عمارة «شركة التأمين» الشهيرة بعمارة «الأميريكين» (١٩٣٦م) بشارع ٢٦ يوليو رقم ٧.

• «ماكس روليكوكس»
Max Rollicoocks

من أعماله عمارة «شركة الجنفواز» بشارع ٢٦ يوليو المطلة على ميدان دار القضاء العالى وبجوارها سينما ريفولى.

• «فرانس باشا» Franz Pasha

كبير مهندسى الأوقاف الذى عهد إليه «الخديوى إسماعيل» مشروع «دار الآثار العربية».

إلا أن المشروع صادفه بعض العقبات فلم يفتتح إلا فى ديسمبر من عام ١٩٥٣م.

وبعد ثورة يوليو ١٩٥٢م أطلق عليه اسم «متحف الفن الإسلامى».

• مصطفى فهمى بك

كان وكيل مصلحة المبانى (١٩٢٣ م) عندما كان المهندس «عثمان محرم» وزيراً للأشغال. ومن أعماله مبنى جمعية المهندسين بشارع رمسيس، وعمارة بشارع عماد الدين رقم ٣١ (١٩٣٠) يعلوها قبتان وهى ذات طراز يرتكز على التزاوج بين العمارة الفرنسية فى مطلع القرن ٢٠ والإسلامى.

كما وضع تصميم ضريح «سعد زغلول باشا» على الطراز الفرعونى.

• على لبيب جبر بك (١٨٩٨ - ١٩٦٦)م

حصل على دبلوم الهندسة بقسم العمارة فى عام ١٩٢٠م. وبكالوريوس العمارة من جامعة ليفربول فى عام ١٩٢٤م، وحصل على جائزة الدولة التقديرية فى الفنون فى عام ١٩٦٢م، ووسام الجمهورية فى عام ١٩٦٣م.

• محمد شريف نعمان بك (١٩٠٤ - ١٩٨٣)م

تخرج فى جامعة القاهرة بقسم العمارة فى عام ١٩٢٦م، وحصل على درجة الماجستير من إنجلترا ليفربول فى عام ١٩٢٩م وتولى منصب عميد كلية الهندسة جامعة القاهرة ورئيس قسم العمارة خلال الفترة ١٩٥٥ - ١٩٦٤ م.

• دكتور سيد كريم (١٩١١)م


أول مصرى يحصل على شهادة الدكتوراه فى العمارة من جامعة زيورخ «H. T. E» فى عام ١٩٣٨ م. سجل أول مكتب استشارى فى مصر، وأصدر أول مجلة للعمارة والفنون فى عام ١٩٣٨م.

وهو أول مهندس مصرى يعين مستشاراً خبيراً للتخطيط المدنى فى الأمم المتحدة. حصل على جائزة الدولة التقديرية لرواد العمارة فى عام ١٩٥٨م.

• أبو بكر خيرت (١٩١٠ - ١٩٦٣)م

موسيقى ومهندس معمارى وكان أول الخريجين من مدرسة المهندسخانة (قسم العمارة). أرسل فى بعثة وحصل على الدبلوم فى عام ١٩٣٥م فى مدرسة الفنون الجميلة العليا بباريس. شغل منصب أول عميد لمعهد الكونسرفتوار، كما كان أول من ألف سيمفونية مصرية. شارك كمهندس فى تنفيذ «دار الأوبرا الجديدة» وصمم «معهد الباليه» والكونسرفتوار وصالة سيد درويش، والمعهد العالى للفنون المسرحية. حصل على جائزة الدولة التشجيعية فى الموسيقى فى عام ١٩٦٠م. ■


متواجد في مراكز



الإدمان



قراءات ومراجعات



يحيى الرخاوي

قبل المقدمة:

ظاهرة الإدمان هي ظاهرة بيولوجية، نفس. اجتماعية، مرتبطة بحركية الوعي (الفردى والجماعى)، وهى مرتبطة أيضا بالفترة التاريخية التى تظهر فيها، وبالظروف الاجتماعية والاقتصادية التى تميز تلك الفترة، كما أن لها علاقة مباشرة وغير مباشرة بالاستعداد الوراثى (ليس مقصوراً على الاستعداد للإدمان بالذات)، ولها دلالات ومعان مختلفة باختلاف الأفراد والثقافات.

أصبحت الظاهرة تمثل «ثقافة فرعية» احتجاجية فى ظاهرها، وإن كانت محصلتها سلبية، احتجاجية ربما فى مواجهة الاغتراب المتمادى فى الحياة الكمّية التى تروج لها الشركات العملاقة العابرة فوق. المركزية الأعلى، المتجاوزة للسلطات التقليدية.

الإدمان هو لعب ضار بالوعى البشرى، لعب مُقحَم مصطَنع، يحقق تغيرا نوعيا، مؤقتا، سرعان ما ينقلب إلى احتياج لحوح للتكرار، ومن ثَمّ التمادى فيه على حساب مستويات الوعى المتخلّق المُنتِج المتكامل.

ظاهرة الإدمان ليست مرادفة لتعاطى المخدرات، حيث إنها مرتبطة بتعاطى أى مادة تؤثر فى الدماغ فتغير الوعى سواء كانت مخدرة أم مثيرة.

مقدمة:

تحتاج ظاهرة الإدمان لأكثر من قراءة، وهو أمر يختلف عن تقديمها كميا أو رقميا. و قراءة ظاهرة ما ليست بالضرورة مرادفة للبحث فيها بالمناهج العلمية التقليدية الشائعة، فالظواهر حقائق قد تحضر فى الواقع كما تحضر فى وعى الناس بصفتها حقائق تاريخية أو آنية، مما تحتاج معه إلى قراءة موضوعية لها منهجها الخاص.

الممارس الإكلينيكى المتأنى، الذى يهتم بالمتابعة والمعنى مثل اهتمامه بالرصد المستعرض، وتحديد نسب التواتر، قد يصل إلى حقائق وملاحظات، من خلال قراءة إكلينيكية مباشرة تكمل (ولكنها لا تغنى عن) الحقائق الكمية المستعرضة.

هذا ولا يبدو للمتابع لظاهرة الإدمان مؤخرا، أن الأبحاث المتعددة والجادة، الكمية والوصفية، قد أعانت فى مقاومة الظاهرة، أو هدت المسئولين إلى طريق أفضل للحيلولة دون مزيد من انتشار الظاهرة.

وظاهرة الإدمان ليست إشكالا طبيا خالصا. لاينبغى أن يعامل الإدمان كما يعامل مرض طارئ مثل الملاريا أو مرض قائم مثل تليف الكبد، ولا باعتباره مخالفة للأخلاق ينبغى أن تقوم لا أكثر، أو مخالفة للقانون ينبغى أن تجرم، مثل أى جريمة.

للإدمان قراءات كثيرة منها:

أولا: قراءات مبدئية

سوف أبدأ بعرض بعض الفروض التى تكونت لدينا من خلال الممارسة الإكلينيكية (خاصة فى السنوات العشرين الأخيرة) على الوجه التالى:

١. إن ظاهرة الإدمان ظاهرة مرتبطة بحركية الوعى بقدر ارتباطها بالأوضاع الاجتماعية.

٢. وهى ظاهرة نفسية يمكن أن تصاغ باستعمال أبجدية الصحة والمرض.

٣. وهى ظاهرة فيها إشارات يمكن أن تقرأ بما يشير إلى مسار تطور الجنس البشرى (مع تطور حضارته) أو تهديدات انقراضه.

٤. وهى تعلن فى نفس الوقت طبيعة مجتمع بذاته، وإن كان الإعلان يختلف فى تفاصيله من مجتمع إلى آخر.

٥. كما أنها تشير إلى ماهية الاحتياجات غير المشبعة وبعض طرق إشباعها السلبية، مع الحاجة إلى إشباع إيجابى بديل.

٦. وهى أيضا تلزمنا بضرورة البحث عن بديل لها، بقدر حرصنا على التخلص منها.

ونحن نحاول الإنصات لما تقوله هذه الظاهرة، استطعنا أثناء العلاج الممتد، والتتبع الطويل، أن نقوم بترجمة مبدئية لبعض المعانى التى بدا لنا أن هذه الظاهرة تعلنها من خلال انتشارها بهذا التواتر، وأنها تؤكدها من خلال إظهارها لكل هذه المقاومة أثناء العلاج، ومن ذلك

١. إن الإدمان يعلن الحاجة إلى «المعنى»:

ففى الوقت الذى يبدو فيه المدمن «هاربا من....» نتبين أنه «هارب إلى...»....

(أ) هارب «من» التهميش فى الاغتراب «إلى» غموض الضياع (مثلا).

(ب) هارب «من» الإهمال والإنكار، «إلى» الكذب الكيميائى المغلف باللذة.

(جـ) هارب «من» «اللامعنى» «إلى» حذف أو إنكار الجدوى، أو نفى احتمال وجود معنى من الأساس.

(د) هارب من تشتت الوعى وتعدّد الأسياد والسلطات المتناوبة عليه، إلى أوهام التماسك من خلال تعتيمه لمستويات الوعى معا، حتى تبدو واحدا وهى لا شىء.

٢. كما يعلن الافتقار إلى الفكرة المحورية الشخصية. (المشروع الذاتى الوجودى. اللاشعورى عادة):

ومع أن هذه القضية ليست خاصة بالمدمن وحده، بل هى متضمنة فى نوع سائد من الحياة المعاصرة، المجزأة والمغتربة، إلا أن المدمن:

ا. يكاد يدرك هذا النقص ويرفضه، (تحت الشعور وليس مثل الشخص العادى فى «اللاشعور»).

ب. ثم هو: ما يكاد يهم بالبحث عنه، حتى يجهض احتمال العثور عليه أو تخليقه أصلا، فيرفضه قبل أن يبدأ تشكيله.

جـ. فهو يرتد أكثر خواء وأبعد عن الغائية المحورية الضامة، فى وجود متصلب بارد.

د. فيلجأ إلى ملء خوائه بهذه الكيمياء الطبيعية أو المصنّعة.

هـ. وفى نفس الوقت: هو يحرك جموده بهذه القلقلة الكيميائية المباشرة.

و. وهو بلجوئه إلى هذا الملء الزائف، وإلى التحريك المفتعل يحقق نوعا من التقارب بين بعضه وبعضه، وبالتالى يحقق نوعا من التقارب بين بعض ذاته، وبين ذوات من حوله الذين أسقط بعوضه عليها، فالتقارب فى الداخل له ما يقابله من شبه تقارب فى الخارج (مع ملاحظة أنه لا يقترب فعلاً من آخرين، إنه لا يقترب إلا من نفسه ومن أبعاضها، أو تعددها، فى إسقاط خفى).

ز. لكنه سرعان ما يفقد التوجه المحورى نحو ذاته المفروض أنها تتشكل بتوجهه الخلاّق، وذلك نظرا لعجزه عن المثابرة، ونتيجة لطبيعة التصنع والافتعال بالكيمياء المثيرة والمفسدة والخادعة فى آن.

المدمن يعلن الافتقار إلى الفكرة المحورية، وفى نفس الوقت يهم بتعويض ذلك، إلا أنه يقع فى اتباع أسلوب كيميائى متعجل، سرعان ما يقوضها منذ البداية.

٣. والمدمن يعلن الحاجة إلى المخاطرة بالكشف:

المدمن وهو يعيش فى وعيه الملوث بالكيمياء المقحمة ينتقل من حالة وعى إلى أخرى بما يسمح له. خصوصا فى البداية. أن يستعيد قدرته على الدهشة، واستقبال العالم، ونفسه، بطزاجة جديدة، الأمر الذى لا يجده فى حالة الوعى العادى إلا أن هذه الطزاجة سرعان ما يثبت أنها أقرب إلى لسعة النار منها إلى نور البهر، لكن يظل الاغراء يتكرر لعل وعسى.

(ثم سرعان ما يحدث التورط ويتمادى):

٤. والتعاطى (فالإدمان) يلوّح بإبداع ما:

فمن خلال الافتقار إلى المعنى، والبدايات المتجهة إلى الفكرة المحورية، يلوح له فى مساحة ما من وعى غائر أنه «باللعب الكيميائى» فى مساحات الوعى المتبادلة، يمكن أن تجرى محاولة إعادة تنظيم على مستوى أعلى (إبداع)، إلا أن هذا فى أغلب الأحيان يتكشف عن وعد كاذب. وإن كان فى قليل من الأحيان يصدر عنه إبداع حقيقى فى ظروف خاصة كما يشاع عن بعض المبدعين أحياناً، إلا أن هذا يندر. إن لم يمتنع نهائيا. فى أنواع الإبداع العلمى، والفكرى الممتد، الذى يحتاج. فى مرحلة الصياغة الختامية. إلى ترابط شديد الإحكام، ومثابرة طويلة المدى، لا يصلح معها. بل يفسدها. أى تحريك صناعى مفتعل.

٥. كما أن بعض الإدمان قد يخمد الحاجة

(الحقيقية) إلى الآخر، مع إحياء تواصل سطحى بديل:

ففى الوقت الذى لاحظنا فيه ما يبدو أنه دفء التواصل بين أفراد هذه الفئة بعضهم ببعض، وبينهم وبين غيرهم من المرضى، تبينا قصر عمر هذا الدفء ولا جدواه فى نهاية النهاية، اللهم إلا فى تسهيل التقمص والاعتماد على منطق جماعى يبرر هذا الحل (الإدمان) على مستوى ما من مستويات الشعور.

الحاجة للآخر عند المدمن تتحرك فى إلحاح (ربما أكثر من الشخص العادى)، لكنها حركة بدئية على مستوى غير ظاهر، وهى حاجة حقيقية عارية ملحة عادة، ثم إنها تعلن أهم شروطها وهى أن يكون التواصل حقيقيا منذ البداية (!!!).

ورغم ظاهر الصدق الفطرى فى هذا الإعلان الذى لمحناه وراء الظاهرة، إلا أنه مصاحَبٌ بما يشكك فى حقيقة أصالته، فالمدمن . مع ذلك . لا يتحمل دفع متطلبات هذا النوع من التواصل، وكأنه يريده من الخارج إليه، أكثر مما يسعى هو إلى ذلك، وهــو فى نفس الوقت لا يتراجع أمام الوعى بالصعوبة، فيظل الإلحــاح يتمادى، ثم يتطور الأمر:

أ . فيلجأ إلى هذا «التسهيل الكيميائى » الذى يحقق نوعا من التغافل عن شــروط التواصل، وبالتالى هو يحقق تسهيلا للاندفاعة نحو الآخر، وبذلك هو يكسر الوحدة (ظاهريا) فى نفس الوقت الذى يخفف من غلواء الحقيقة.

لكن ذلك كله أو أغلبه سرعان ما يكشف خواءَه باختبار الواقع، وتحديات المثابرة، بمعنى أن هذه العلاقات الحميمة تظل كذلك وهى تورى انتماء سهلا غير مكلف، ولكنها تتساقط بسرعة هائلة تحت اختبارات الواقع، وتصاعد المسئولية.

ب . ثم إن نوعا آخر من الحل يطرحه المخدر على من تلح عليه حاجة التواصل هذه، وهو حل الاستغناء، وتفسير ذلك المحتمل هو أنه بعد تعتعة ذوات الداخل، تتاح فرصة الرى الذاتى (كله يدلع نفسه!!!) دون حاجة إلى آخر خارجى!!!

٦ . والإدمان يلوح بتدين كيميائى، ويعد بجنة أقرب:

لاحظنا أن المدمن قد يظهر من الطقوس والولاء العقائدى لموقفه من الإدمان (وثلة الإدمان) ما أثار عندنا فكرة أن الإدمان قد يقوم بدور المكافئ لما هو تدين سلبى بشكل أو بآخر، وهذا ما أسميناه بالتدين الكيميائى، وتكملة لهذا الفرض وجدنا أن الجنة التى يعد بها هذا التدين الكيميائى . إن صح التعبير . هى جنة أقرب، تحقق له فورا وعيانيا ما تعد به، والمدمن لا يستطيع الانتظار إذ هو عاجز عن التأجيل وبعد النظر عادة، وبالتالى: فالآن الجاهز عنده حالا هو القابل للتصديق فورا.

٧ . وبعض الإدمان يبدو نوعا من العلاج الذاتى:

والعلاج هنا لا يعنى علاجا حقيقيا، ولكنه يعنى أساسا تخفيف أو إزالة الألم، بما يشمل تحوير الأعراض، أو تأكيد التدهور، والأبحاث التى أجريت لتحقيق هذا الفرض أظهرت كيف تتميز بعض العقاقير الإدمانية فى التخفيف عن مظاهر أمراض بذاتها، وإن كانت خبرتنا لا تحدد الأمر بهذه الصورة، وإنما وجدنا أن هذه المواد تعمل كعلاج (بالمعنى السابق) فى المراحل الإرهاصية المنذرة لمرض بذاته، مثل الوعى بالألم النفسى قبيل الاكتئاب، أو إدراك التهديد بالتناثر قبيل الفصام، وهذه العقاقير تؤجل ظهور المرض القادم، بل وقد تحوِّل مساره من مشكلة مواجهة مرضية صريحة إلى مشكلة سلوكية سماتية (وأحيانا مشكلة قانونية وأخلاقية)، ويثبت هذا الزعم بدراسة التاريخ الأسرى ونوع الاستهداف من ناحية، كما قد يثبت بتحديد نوع المعاناة والمرض اللذين يظهران بعد الانقطاع، من ناحية أخرى.

٨ . وأحيانا ما يكون الإدمان مكافئا للثورة وبديلا عنها:

وهو فى ذلك لا يختلف إلا قليلا عن كثير من غائية بعض الذهانات فى بداياتها، إلا أن الحال هنا يبدو أكثر دلالة، وأخطر قياسا:

ذلك لأن الثورة الزائفة جميعا، التى تتمثل فى الإدمان تتحقق المرة تلو المرة، ليُعلن فشلها المرة تلو المرة، فهى تتحقق بشمة، أو شكة، يعلن المدمن من خلالها الرفض والاحتجاج والرغبة فى التغيير والوعد بالتطوير وربما الاستيلاء على السلطة إلى آخر أبجدية أغلب الثورات الحقيقية والزائفة لكن المدمن للأسف . من واقع ما لاحظناه . لا يتعلم من فشله بعد كل شكة / شمة (ثورة!!) فهو يتصور . فى مستوى ما من شعوره أن الثورة فشلت لأسباب خارجة عنه، وأنها . فقط . تحتاج إلى جرعة أكبر، أو محاولة متكررة أكثر، وهكذا إلى غير نهاية.

يجدر بنا هنا أن نميز هذا الزيف الثورى عن ثورة . المريض النفسى (الذهانى خاصة) المحكوم بفشلها منذ البداية . المريض الذهانى إذ يهم بثورته الزائفة، يتمادى . بالأعراض . فى طريقها، ويدفع ثمنها: عزلةً وألماً وتمزقاً ونفياً، وهو إذ يتبين زيفها بعد حين يكون الظلام قد عم حتى لا يعود يميز بين ما هو ثورة وما هو انقلاب إلى أدنى، أما المدمن فهو الثائر المتكرر بلا جدوى، وبلا توقف.

٩ . وكثيرا ما يكون الإدمان توقيفا للزمن، وتعميقا للحظة، بقدر ما يكون إلغاء لها:

فبقدر ما لاحظنا موقف المدمن العدمى من الزمن كمتغير واعد، لاحظنا سهولة معايشته لـ«هنا والآن» فى العلاج الجمعى.

وقد عرفنا من هذا وذاك أن معايشة الـ «هنا والآن» عند المدمن ليست مبادرة لاختراق الاغتراب العادى (فى الماضى والمستقبل) بقدر ما هى إلغاء للخبرة السابقة من ناحية، وتهرب من رؤية العواقب من ناحية أخرى.

إن هذا يتناقض (لدرجة العكس) مع المعنى الإيجابى المؤكِّد على ضرورة مواجهة الواقع «الآنى» كما هو، وضرورة البدء فى الحركة هنا حالا، شريطة أن تكون اللحظة الراهنة هى حلقة واضحة فى التواصل التتابعى الذى يُدْخلها فى كلية المسار الزمنى دون أن تنسلخ عن نفسها (اجترارا أو تأجيلا).

وبألفاظ أخرى: فى حين أن المدمن يعمق «الهنا والآن» هربا من الوعى ببعد الزمن، فإن العلاج الجمعى الإيجابى يسعى إلى توليد الماضى والمستقبل معا فى عمق المواجهة الآنية بتعميق «هنا والآن» ثم تفعيل ما يتولد منه حالا.

١٠ . والمدمن يختصر . بإدمانه . رحلة نموّه، إذْ هو يسير خطى النمو المزعومة من أقصر السبل وبأسرع إيقاع، فإذا به يضل عنها وهو يصر أنها هى، فلا نضج ولا نمو أصلا.

ذلك أننا لاحظنا أن المدمن لا يستسلم بسهولة لتجمد النمو (كما قد يحدث حتى فى الحياة الراتبة العادية)، لكنه بدلا من أن يمضى قُدما فى «جدل الاستمرار»، يروح يختصر الطريق بتحريك زائف نحو مطلق جاهز، فيشعر . من خلال هذا التحوير الكيميائى، ومع إلغاء الزمن . أنه حقق التكامل فى اللانهائى (غاية غايات النمو) بهذه القفزة العملاقة الخادعة، وهو ساكن فى المحل.

خلاصة الملاحظات الإكلينيكية

خلصنا من الممارسة الاكلينيكية، ومحاولات القراءة فيها لمدة سنوات، ثم التتبع المثابر، للتأكد من رجاحة الفروض، خلُصنا إلى ضرورة إعادة النظر فى هذه الظاهرة برمتها، ليس من المنظور الطبى أساسا، إذ ثبت لدينا أنه يأتى فى مقام متأخر حسب ترتيب الدلالات، وإنما من منظور تطورى وحضارى أشمل . من خلال هذا المنطلق رحنا نراجع ونرتب المواقف المتصلة بالظاهرة حسب شيوع قيمتها، ومنطق دلالاتها، وحقيقة دورها، فكان الجزء التالى:

ثانيا: مراجعات ومواقف مترتبة

من البديهى أنه لا تصح هذه الانطباعات الإكلينيكية فى ذاتها، إلا إذا كانت بداية لنشاطات علمية متعددة فى

اتجاهات مختلفة، وقد تعمدت أن أورد كلا من الملاحظات والانطباعات كرؤوس مواضيع دون تفصيل حسب ما يتيح المقام، بل دون ربط مباشر بالأجزاء التالية.

وهذا هو ما أطل علينا من خلال الممارسة فيما أسميته «مواقف» أو مراجعات مواقف، أحاول أن أدرج أهمها فيما يلى:

١ . الموقف الطبى

تبدو ظاهرة الإدمان . برغم النفى المتكرر. وكأنها ظاهرة طبية فى المقام الأول، وبالتالى فهم يزعمون أنها لا تحتاج إلا إلى علاج بواسطة طبيب، فى مستشفى عادة، يا حبذا لو كان مغلقا، وبواسطة عقاقير بديلة، أو شافية.. الخ، وللأسف. فقد تبين لنا بالممارسة . أن كل ذلك يحتاج إلى وقفة مراجعة فى أكثر من اتجاه، ومن بعض ذلك:

١ . إن المدمن عادة ما يقبل على الإدمان توقيا للمرض النفسى القادم، أو المهدد، أو المنذر، بمعنى:

إن الإدمان هو إجهاض للمرض قبل أن يكون إعلانا لمرض بديل، فكأن الإدمان من هذا المنطلق هو بديل المرض النفسى، أكثر منه مرضا فى ذاته مما ينبغى معه أن يقل الحماس للمبادرة باعتباره مشكلة طبية أساسا؟

٢ . إن الاضطراب الغالب مع، وخلف، الإدمان، هو من نوع اضطراب الشخصية (دون العصاب أو الذهان)، وهذا النوع فى عمقه يعتبر مشكلة اجتماعية (وقانونية أحيانا) أكثر منه مشكلة طبية، ولا يوجد . إذن . ما يبرر غلبة التطبيب على غيره من سبل المعالجة والعلاج.

٣ . إن الإدمان قد يأخذ شكلا ما هو بديل التطبيب مما سمى «التداوى الذاتى»، وقد أشرنا حالا إلى أن ثمة عملية انتقائية يمكن رصدها بالنسبة لاختيارات المدمنين على اختلاف أمراضهم النفسية الكامنة أو الظاهرة على سبيل العلاج الذاتى الانتقائى (مثل الهيروين للإكتئاب مثلا). إذا بالغنا فى قبول هذا الاحتمال على علاته فإنه يجرنا إلى احتمال اعتبار الإدمان طبا بديلا أكثر منه مرضا بديلا.

٤ . إن اندفاعات الطب النفسى المعاصر نحو ما يسمى بالنموذج الطبى (وهو فى الحقيقة: النموذج الكيميائى الكمى) هو موقف قد يساهم فى نشر ظاهرة الإدمان، لا فى التقليل منها، ذلك لأن هذا النموذج الطبى المزعوم يؤكد . بشكل مباشر وغير مباشر. على ضرورة الإدمان الكيميائى (الطبى) بوجه خاص، وإن اختلفت المسميات، وتفاوتت المضاعفات، يفعل ذلك تحت عناوين العلاجات الطويلة المدى، أو حتى مدى الحياة.

وبألفاظ أخرى يمكن القول بأن أكبر مروجى المفاهيم المباشرة الكامنة وراء ظاهرة الإدمان هو ما يسمى الطب النفسى الدوائى الحديث، ليس فقط بما يعطى للناس (المرضى!!) من أطنان المؤثرات الكيميائية الطبية على الوعى، أو بما ينفق من مليارات العملة على التداوى الكيميائى، وإنما أساسا بإشاعة وتأكيد المفهوم الكمى الكيميائى للوجود البشرى (وليس فقط للمرض النفسى)، مفهوم التسكين والرفاهية حتى ولو سُمِّىَ بالاسم الجديد الأكثر التباسا تحسين «نوعية الحياة».

المـواجـهـة

فى مواجهتنا لظاهرة الإدمان: نحن نحتاج إلى تعديل جذرى لهذا الموقف الطبى، ومن ذلك:

١ . ينبغى تحديد وضع مشكلة الإدمان بالنسبة للممارسة الطبية، باعتبار أن الطب الدوائى يتناول بعض مضاعفات الإدمان العاجلة دون جوهرها الراسخ،

٢ . ينبغى أن نقف موقفا نقديا شاملا فى مواجهة هذه الشائعات شبه العلمية التى تقول بأن الحياة العصرية، تحتاج أول ما تحتاج إلى مهدئات كيميائية عصرية!!!!!

٣ . ومن ثَمَّ على الطبيب ألا يُستدرج إلى مهرجانات الترهيب والترغيب الإعلامية بما تشمل من دعاية ضمنية لمن لم يختبر من المواطنين، وبما تقوم به من تخويف فاشل لمن وقع فى المستنقع (الإدمان) فلم يعد يخيفه شىء أصلاً.

٤ . وأخيرا، فعلى الطبيب ألا يكتم مشاهداته الإكلينيكية منتظرا تقييمها كميا بمنهج علمى محدد، منهج قد يختزلها أو يشوهها، بل إن واجبه الأول أن يقدمها إلى الباحثين المنهجيين. فى صورة فروض عامة، كما يقدمها إلى التربويين والسياسيين فى صورة شهادة من جوف المعمعة ليس له حق كتمانها، ولو فى صورتها الفجة.

٢ . الموقف «البحث علمى»

تكاد تكون ظاهرة الإدمان . مثل الكثير من الظواهر النفسية . غير قابلة للبحث بالطرق التقليدية، ولعل هذا من أهم الأسباب التى جعلت نتائج الأبحاث عاجزة عن الإسهام الحقيقى فى مواجهة الظاهرة، لدرجة أنها تكاد تصبح سببا فى الانتشار، لا بمعنى أنها محدثة للإدمان، ولكن بمعنى أنها خدعت المهتمين بالظاهرة حين وجهت نتائج الأبحاث اهتمام «من يهمه الأمر» نحو التركيز على جوانب ثانوية، أو القياس بمقاييس ظاهرة، لم تسبر غور الظاهرة، ولا فهمت لغتها أصلا.

وأهم ما يوقعنا فيه المنهج البحثى السائد هو ما يلى:

١ . إننا نعتمد على تقييم لفظى فى أغلب الأحوال .

٢ . إننا نهتم بالنتائج العاجلة، وأحيانا ما نرضى بها طويلا.

٣ . إننا نهتم بالتغيرات والآثار الكمية (دون، أو لدرجة أقل من، النتائج الكيفية).

٤ . إننا نركز على اختفاء ظاهرة ما (أو أعراض ما) دون أن نبحث . فى نفس اللحظة . عن مواكبة هذا الاختفاء مع تحريك أعراض وسمات قد تكون أخفى وأخطر.

٥ . إننا نركز تركيزا مبالغا فيه ونحن نبحث عن أسباب الظاهرة، (السببية الحتمية) وهو أمر ليس هينا مهما بدا الترابط ظاهرا ومؤكدا بين متغير وآخر، لأنه مع التعقيد التكثيفى للظاهرة البشرية يكاد يستحيل فى مجال الشخصية واضطرابها تحديد السبب أو الأسباب التى أدت إلى هذا الانحراف أوذاك السلوك، وكل ما يمكن الإشارة إليه دون يقين فى أغلب الأحيان. هو تزامن أو تتابع أو ترابط متغيرين بدرجة ما .

وحتى يقوم نشاط البحث العلمى، فى بلدنا هذا، فى وقتنا هذا، بما نتوقع منه فى الإسهام فى توجيه مسارنا ومعالجة صعوباتنا بالنسبة لظاهرة الإدمان خاصة، لا بد أن نراعى الاختلاف الجوهرى بين ظهور هذه الظاهرة فى مجتمعاتنا، وبين ظهورها فى مجتمعات أخرى مختلفة، وأشير هنا إلى بعض التنبيهات الواجب الالتفات إليها بشكل أو بآخر فى هذا الصدد:

١) لا ينبغى أن يقتصر النشاط البحثى على نسخ المنهج الشائع والمتاح، لمجرد أنه محكم أو ممكن،

٢) كما لا ينبغى أن تقرأ النتائج قراءة تعلن ترابطا ما بين متغير ومتغير، فهذه هى أبجدية المعلومات الأساسية للظاهرة المعنية، المطلوب هو أن نحسن صياغة «جملة مفيدة » من هذه الأبجدية، وهذه الجملة المفيدة لا يمكن أن تتكون إلا من خلال وعى بشرى موضوعى أمين مبدع مهتم،

٣) البحث العلمى عامة، وفى مثل هذه الظاهرة خاصة يحتاج إلى باحثين أخلاقيين سياسيين فى المقام الأول، وهذا لا يتفق مع الإشاعة شبه المنهجية التى تؤكد على «حياد الباحث»، وانفصال ذاته وتحيزاته عن موضوع البحث، فالمطلوب من الباحث هو أن يكون صاحب موقف يرصد به تحيزاته ويخفف منها، لا ينكرها أو يتنكر لها.

٤) لا بد إذن من تنشئة باحثين على وعى سياسى (بالمعنى الأشمل للكلمة)، وبالتزام أخلاقى يجعلهم مسؤرقين شخصيا . إذ

لا ينبغى أن يعامل الإدمان كما يعامل مرض طارئ مثل الملاريا أو مرض قائم مثل تليف الكبد، ولا باعتباره مخالفة للأخلاق ينبغى أن تقوَّم لا أكثر، أو مخالفة للقانون ينبغى أن تجرم، مثل أى جريمة



يواجهون الظاهرة. تقشفا حضاريا، وبانتماء إيمانى يسمح بالإبداع ويحدد أولويات ومستويات التوافق بحركية دائبة.

٥) من خلال مثل هؤلاء الباحثين سوف تتخلق مناهج جديدة للبحث العلمى، لا تستبعد الانطباعات الذاتية (ومنها الإكلينيكية) ولكنها تضعها فى موضعها المناسب فى سياق الجهاد المعرفى الأكبر، ويتم تقييم المصداقية من خلال مصداقية الباحث والأداة، ليس فقط فى مجال البحث المحدود، وإنما فى مختلف أنواع وجودهم الإنسانى.

٦) كل ذلك يمكن أن يسمح لنا باستلهام فروض جديدة، نابعة عادة من الممارسة الإكلينيكية، ومن الظواهر الاجتماعية والسياسية والدينية على حد سواء، فروض تنبع من ظروفنا شديدة الخصوصية، فلا يقتصر البحث العلمى على مجرد محاولة إعادة تحقيق فروض واردة من مجتمع آخر له ظروف أخرى فى مرحلة مختلفة.

٧) كما ينبغى تقييم النتائج المجردة للأبحاث بفائدتها الحقيقية متى وضعت توصياتها موضع التنفيذ، مع التتبع والتعديل من واقع الممارسة، وإلا فما جدوى البحث العلمى أصلا؟

٣ - الموقف السياسى

لا تستعمل كلمة السياسة هنا بالمعنى الشائع المتعلق بنظام حكم معين أو بنوع إدارة سلطة بذاتها، وإنما تستعمل بالمعنى الأعمق والأدق الذى يؤكد على أن كل وجود إنسانى يتدرج فى نظام عام له حقوق وعليه واجبات يتم تنفيذها من خلال حركة مجاميع الناس وحوارهم، هو وجود سياسى فى المقام الأول مهما كانت تسميته الشائعة.

من هذا المنطلق، وبكل المسئولية، فإن مشكلة الإدمان هى مشكلة سياسية أساسا، ولن يكون لهذه المشكلة حل حقيقى إلا بتغيير جوهرى. على مستوى الوطن، وعلى مستوى العالم، تغيير يقع بشكل أو بآخر تحت ما هو مسئولية سياسية، تصب. إن آجلا أو عاجلا. فى مسيرة تطور الإنسان مهما اختلفت التسميات.

معنى ذلك أن مهمة التصدى لمشكلة الإدمان هى مشكلة الدولة والناس كافة، قبل وبعد أن تكون مشكلة طبية أو اجتماعية أو طبية. إن إحالتها برمتها إلى رجال الطب، أو مختصى النفس، أو متحمسى الوعظ، هو اختزال للمشكلة وتغافل عن حقيقة معناها.

بناء على ذلك فإن كفاءة نظام سياسى معين، قد تقاس ضمنا بمدى كفاءته فى القضاء على مثل هذه الظاهرة، سواء كدليل على قوته وإحكام قبضته، أو كدليل على نجاحه فى تحريك الانتماء وتنمية المسئولية الجماعية (والفردية ضمنا)، فعلا يوميا وناتجا حضاريا.

ثم أكتفى بالتنبيه على ما أوحته إلينا انطباعاتنا الإكلينيكية السالفة الذكر فى هذا الموقف الأشمل على الوجه التالى:

١ . على الموقف السياسى أن يقود فعلا، لا أن تكون مهمته مزيدا من الاغتراب، يقود مستلهما كل المواقف الأخرى (الطبية، والبحث علمية، والدينية، إلى آخره).

٢ . تتوقف تفاصيل مهمة القيادة السياسية فى هذه الحرب الحضارية والتطورية على متغيرات كثيرة، ليس هذا مجال شرحها هنا، ولكنها تأخذ فى الاعتبار سلطة الحكم، ودرجة النضج، وقبضة القانون، وهيبة الدولة، مما يختلف من بلد لبلد، ومن مرحلة إلى مرحلة.

وبصفة عامة، على من يريد أن يتحمل مسئوليته فى مواجهة هذه الظاهرة من ساسة وحكام ومسئولين مختصين، أن يعامل هذه الظاهرة. على المدى القصير. معاملة «حالة الحرب» (على المستوى الإجرائى الآنى)، من حيث الوسائل والغايات جميعا.

أما على المدى الطويل فلا بد أن تعامل معاملة مواجهة التهديد بالانقراض، انقراض النوع البشرى ككل، (الانقراض على المستوى الحضارى والتطورى معا).

٣ . ثم لا أترك هذه النقطة دون أن أذكر أن العمل السياسى. إذا كان له أن يكون مسئولية حضارية. هو ليس من اختصاص السلطة دون الناس. كل نظام له موقف خاص فى نفى أو تنظيم وسائل وأشكال تنظيم هذه الحركة بين السلطة والناس، وطبيعة التمثيل بينهما، وكل ذلك هو الذى يعطى للنظام مشروعيته، و فى نفس الوقت لا يخلى الناس من مسئوليتهم.

٤ - الموقف الدينى

لا بد أن نفرق ابتداء بين الاستخدام السطحى للدين وبين التدين الحقيقى الذى يمشى على أرجل: عبادات، و خلقا، ومعاملات، وجهادا داخليا وخارجيا فى حوار متصل، فى ظل اجتهاد لا يفتر، نحو إبداع الذات والحوار المفتوح النهاية مع الوعى الكونى بلا حدود أو تحديد، بمعنى أنه لا بد أن نفرق بين استعمال اللغة الدينية فى ألفاظها المعجمية على ناحية واتباع تعليمات السلطة الدينية، وبين حركية الإيمان الإبداعى على الناحية الأخرى، ففى الحالة الأولى تكثر الأصوات وتقل الممارسة إلا ممارسات القمع والتلقين، وفى الحالة الثانية تزيد الممارسة الإبداعية ويصبح الإيمان فعلا متجددا مغيرا للشخص والناس فى اتجاه التطور.

على أن هذه التفرقة ليست دعوة لإلغاء الشكل لحساب جوهر غامض بقدر ما هى دعوة لتتكامل الصورة السلوكية والتنظيمية العباداتية، مع الموقف الإيمانى الحياتى الأعمق فى دوره الإبداعى الخلاق.

إن أهمية هذا التوضيح هى التأكيد على الاستفادة مما هو دين وتدين وإيمان على مستويات متعددة، حرصا على النفع الحقيقى من كل ما هو دين حقيقى.

نلاحظ فى هذا الصدد كيف تشيع صورة تسكينية للمتدين، قد تأتى بنتيجة عاجلة حسنة الشكل، ولكن ينبغى النظر فى حقيقة مدى فاعليتها، وطول بقائها، إذا ما تذكرنا مستويات حاجات من يلجأ إلى الإدمان وهو يبحث عن تغيير فى الوعى وتحريك له . لا مجرد تسكين عابر، كما أنه يبحث عن المعنى، وعن الامتداد، وعن الحق بما يشبه الثورة فى البداية، لا مجرد طمأنة من الظاهر.

إن القيم الأبقى التى تستطيع أن تغنى عن الإدمان يمكن أن يحصل عليها الفرد من جهاد إيمانى حقيقى يقلب وجودنا الجاف المنقطع (كالجسم الغريب فى الكون) إلى وجود نابض إيقاعى نام ممتد فى التناسق الكونى والمعنى الحقيقى.

إن تنمية الجانب الإبداعى فيما هو إيمان، هو أمر جوهرى و أساسى، ليس فى مقاومة ظاهرة الإدمان فحسب، وإنما فى مجرى المسار الحضارى والتطورى بشكل عام.

من هنا وجب التنبيه على سطحية التوقف عند معنى سلبى لما هو «النفس المطمئنة» حين ننسى أن «أدخلى فى عبادى» جاءت بين رجوع النفس المطمئنة وبين دخولها الجنة«وادخلى جنتى».

ثالثا: المخرج
ضبط جرعة الرؤية
مع كفاءة القدرة

إذا ما استشرت ظاهرة بهذه الجسامة وتلك الخطورة، ثم تعذر حلها فى مختلف الظروف، وتحت سائر النظم، فلا بد من التوقف للنظر فيما تعنى من منطلق أكثر شمولية، وأبعد غورا، إذ لا يعود يكفى أن نقدم توصيات جزئية بعلاج هذا، أو نصح ذاك، كما قد لا يكفى أيضا أن نستمع إلى ما تقوله الظاهرة متفرقا عن بعضه البعض.

لهذا وذاك فسأحاول أن أقدم فى نهاية هذه المداخلة بعض الدلالة العامة التى قد يشير إليها تواتر الظاهرة وانتشارها عالميا ومحليا إلى هذه الدرجة، وفى نفس الوقت امتناعها. نسبيا. عن

الاستجابة الكافية لأغلب وسائل المقاومة والعلاج.

قبل ذلك لا بد من الاعتراف أن جذور المشكلة ليست جديدة تماما، كما أن فرط التعميم لا يقدم عونا عمليا فى مسألة تفصيلية كهذه، فمسألة حاجة الإنسان إلى الاستعانة بكيمياء ما: تعتم وعيه السائد من جهة، وتفجر وعيه الكامن من جهة أخرى هى قديمة قدم محاولات الإنسان للتكيف على مستويات من الوعى متبادلة، ومداخل للمعلومات محدودة.

إلا أن الجديد فى المواجهة مما سبق الإشارة إليه فى هذه المداخلة يمكن ترتيبه على الوجه التالى:

أولا: إن الظاهرة تنتشر بأسرع وأخطر من تاريخها السابق.

ثانيا: إن المواد الطبيعية والمصنعة المستعملة فى التأثير على الوعى (طبيا وعشوائيا) تتنوع وتتطور بشكل سريع ومهدد، بحيث يكاد يختفى الحد الفاصل بين الاستعمال الآمن، والاستعمال المدمر.

ثالثا: إن الطب النفسى الدوائى الأحدث، يروج لمبدأ التسكين ترويجا يتعدى الاستعمالات الطبية إلى شيوع قيمة ضرورة التخدير، وبالتالى ضرورة الاعتماد على الأدوية اعتمادا ممتدا (مدى الحياة أحيانا) مما يعد نموذجا بشعا لما يجرى فى موازاته مما أسميناه التطبيب الذاتى عن طريق الإدمان.

رابعا: إن المعالجات الجزئية لظاهرة الإدمان لا تستطيع أن تلاحق خطورة الانتشار وتمادى التدمير لكل ذلك:

علينا أن نبحث عن مدخل آخر، وتناول آخر يستطيع أن يتحمل مسئولية المواجهة، لا لشكل الظاهرة فى حدودها الطبية والقانونية فحسب، ولكن لدلالاتها العامة وما يبلغنا من خلالها من رسائل متنوعة.

وليس هذا مجال تفصيل عرض خطة شاملة لمثل ذلك، لكن علينا أن نتذكر أن المطلوب هو أن نقبل التحدى، بما فى ذلك إمكانية أن نعترف بالفشل فى مرحلة أو أخرى، وأن نقسم مهمتنا من خلال هذا وذاك إلى مستويين: الأول: محاولة التقدم أثناء الوقاية والعلاج، من خلال فهم الظاهرة وحسن الإنصات لما تعنيه وما تشير إليه، والثانى: محاولة الإلمام بالمعنى الشامل وراء التفاصيل المتعددة، بحيث يمكن أن نحاول أن نستجيب بطريقة أفضل لنفس الحاجات ولكن بسبل أخرى كما ذكرنا منذ البداية.

تعقيب

أولاً: إن ظاهرة الإدمان، بما وصلت إليه من هذا العنف التدميرى، قد تكون بمثابة إعلان نهاية مرحلة بيولوجية فى تاريخ الجنس كأحد مظاهر التمادى فى الاستغراق فى مقومات انتحار البشرية.

ثانياً: قد تكون الظاهرة نذيرا مهما ينبه إلى ضرورة احترام حاجات الإنسان غير المشبعة وبالتالى فإن هذا النذير يدعونا إلى محاولة إشباعها بوسائل أكثر إيجابية وأقدر استمرارا.

هذا الاحتمال الثانى هو الأرجح عندى، وهو ما أفصله فروضاً، على الوجه التالى:

١. إن الإنسان فى مرحلته الحالية. أكثر من أى وقت مضى. قد ملك أدوات معرفة أكثر فأكثر: معرفة نفسه وخارجه على حد سواء، فأصبح مهددا بجرعة من الوعى لم يتهيأ لها بقدرات تستطيع استيعابها فى حركة إبداعية مناسبة.

٢. يضاف إلى اتساع مساحة الرؤية ومداها، أن محتواها أصبح زاخرا بكل ماهو باهر وخطير، من حيث القدرة على التنبؤ بمصائب قادمة، وتدهورات محتملة، وعلاقات مضروبة، وحيوات مهدرة.

٣. ثم إن الميكانيزمات النفسية العادية (الحيل النفسية) قد عجزت عن إغلاق نوافذ هذا الوعى المنتشر للتخفيف من واقعية وموضوعية (وربما حتمية) تلك الأخطار الزاحفة.

الاحتمالات والمسئولية:

١) ثمة محاولة طبنفسية، تجارية استهلاكية، خطرة تروج للتمادى فى الإفراط فى التداوى بالعقاقير، معظم الوقت أو طول الوقت. (شركات الدواء)

تواكبها وتوازيها محاولة تخدير ذاتى متزايد حتى يصل إلى نهاية إدمانية مدمرة. (الإدمان)

وكلتا المحاولتين تسعى بنا إلى التقليل من حدة الوعى الملاحق بالرؤية المتزايدة: فى مداها ومحتواها جميعا.

٢) إذا نحن سلمنا بذلك، صار لزاما علينا. ابتداء. أن نسعى إلى القبول بالأمر الواقع فى محاولة الاعتراف بضرورة التخدير من حيث المبدأ، لكن لابد: من التسليم بأن هذا القبول هو مرحلى بالضرورة.

٣) إن هذا الاعتراف ينبغى ألا يكون أكثر من خطوة تكتيكية فى استراتيجية ممتدة، حيث أن التسليم بضرورة الحد من الرؤية، بما يعنى ضرورة التخدير، لا يعنى الإقرار باستعمال مواد كيميائية تنتهى إلى تعمية الوعى وتزييفه، بقدر ما يدعو إلى البحث عن وسائل تسمح «بتناسب القدرة مع الرؤية» فى مراحل النمو المختلفة.

٤) إن ذلك يستلزم إمعان النظر فى طبيعة مسار نمو الإنسان من منظور الإيقاع الحيوى، لندرك أن نمو الإنسان لا يسير فى شكل خطى مسلسل، وإنما يتم فى جدل إيقاعى متناوب تناوب الليل والنهار، وتناوب النوم واليقظة، وتناوب الحلم والنوم غير الحالم.

إن ضبط جرعة الرؤية مع كفاءة القدرة لا بد أن يسير بنفس الإيقاع. فإذا كان الإنسان فى حاجة إلى تخدير مؤقت مناسب، بالطرق الطبيعية، فى مرحلة بذاتها (مرحلة تحصيل المعلومات وترتيبها)، فهو فى حاجة فى مرحلة أخرى إلى تحريك موجه من خلال إطلاق قدرته الإبداعية لاستيعاب جرعات متزايدة من الرؤى والبحث (وهذه هى مرحلة البسط المتناوبة مع مرحلة التحصيل).

٥) بما أن التخدير الكيميائى (طبيا، أو إدمانيا) يحمل مخاطر لا يمكن ضبطها، وجب علينا من منطلق سياسى وتربوى، وإلى درجة أقل من منطلق دينى وطبى أن نتقبل و ننمى مخدرات سلوكية طبيعية بطريقة مرنة تسمح بالخلاص منها فى مرحلة لاحقة

وتعريف المخدرات السلوكية يحتاج إلى تفصيل لا يسمح به المجال هنا الآن، فأكتفى بالإشارة إلى ما أعنيه بذلك من بعض العادات الحميدة والمفيدة التى قد تصبح ملحة لدرجة الإدمان الإيجابى، كذلك بعض العبادات الراتبة المنظمة التى تؤدى نفس الوظيفة، أى أن بعض التسليم الطيب لأعمال مكررة، دون تساؤل لحوح عن معناها وجدواها، يمكن أن يقوم بدور مرحلى مطمئن ناجح، وهذا هو المقبول بهدف التسكين المرحلى، شريطة أن يكون مجرد مرحلة يليها ويتناوب معها مرحلة البسط الإبداعى

٦) يتمثل البسط الإبداعى فى تحريك الوعى فى توجه هادف مسئول، يحاول تنظيم المعلومات التى حصل عليها الوجود البشرى أثناء ما أسميناه بالتخدير الجيد الهادئ، وهذا ما يقابل تحريك الوعى الذى قد يلجأ إليه المدمن بشكل أو بآخر إقحاما وافتعالا، فإذا نحن نجحنا أن نحقق من خلال انتظام الإيقاع الحيوى، مع الاستعداد له بتنمية قدرات الإبداع حتى يمكن أن يستوعب الجرعات المتزايدة من الرؤية والمواجهة، فإن الإنسان لن يحتاج إلى تعتيم وعيه، أو تحريكه بوسائل صناعية طبية قامعة، أو عشوائية خطرة.

خلاصة القول:

إن «ظاهرة الإدمان» تصرخ فينا أن ننتبه إلى ما آلت إليه «ظاهرة الإنسان».

الظاهرة البشرية هى أرقى وأجمل ما تخلّق من الوعى الكونى، وتعميقها لتتطور أرقى، يبدأ بسبر غورها المرة تلو المرة، من منطلقات متعددة، متكاملة بالضرورة. ■



على من يريد أن يتحمل مسئوليته فى مواجهة هذه الظاهرة من ساسة وحكام ومسئولين مختصين، أن يعامل هذه الظاهرة. على المدى القصير. معاملة «حالة الحرب»



كان القرن العشرون قرنًا أمريكيًا بكل المقاييس فيما يتعلق بسياسة النفط والطاقة. فقد اكتشف الأمريكيون النفط في بلادهم وفي الخارج. كما أنهم امتلكوه، وحددوا الأسعار التي يباع بها، واستخدموا تدفق الذهب الأسود إلى داخل أمريكا في بناء ثورة صناعية غير مسبوقة. سيارات وآلات وطرق سريعة وشبكات كهرباء وصناعة أسلحة ضخمة. جعلت الولايات المتحدة أقوى دولة في العالم.

وأوضحت أمريكا أنها سوف تدخل الحرب لحماية امتيازاتها النفطية في الجزيرة العربية والخليج. كما فرضت هيمنة لا سبيل إلى تحديها على منطقة الخليج التي يقع معظم نفط العالم تحت صحاريها اللامتناهية. ودعمت هذا كذلك بتحالفات لا تتزعزع مع نظام الشاه الراحل، رجل الخليج العربي القوي في ذلك الوقت، كي تضمن بذلك السيطرة الاستراتيجية على شبه الجزيرة العربية. وأقامت واشنطن صداقة أسطورية مع العائلة المالكة السعودية، فضمنت بذلك التدفق المستمر لهذا النفط الرخيص في مقابل توفيرها حماية الرياض من الأعداء داخل المنطقة.

المثال الأكثر وضوحًا لكيفية اكتمال تلك السيطرة هو أنه حتى أوائل السبعينيات كانت أربع شركات نفط أمريكية فقط. إكسون وموبيل وشيفرون وتكساكو. تمتلك النفط السعودي الموجود تحت الأرض امتلاكًا فعليًا وتضخه وتشحنه وتحدد سعره، ثم تدفع للسعوديين مجرد ضريبة على كل برميل.

لم تكن أوبك، (منظمة الدول المصدرة للبترول) موجودة كي تقلب هذه الترتيبات اللطيفة. إذ لم تأت أوبك إلى الوجود إلا في أواخر الستينيات لتصبح «قوة» فقط في منتصف السبعينيات، وحتى ذلك الوقت كان عالم النفط بحيرة أمريكية تنعم بالسلام. فقد كان عالمًا لطيفًا يتسم بالتنظيم جديرًا بأن يعول عليه، ولا وجود فيه للمشاكل.

بعد ذلك أخذت الأمور تتغير. إذ نشأ نظام نفطي عالمي جديد كان بمثابة طائر صغير يخرج من البيضة. وجاءت مع هذا النظام المشاكل التي غيرت تلك السبعين عامًا من الترتيب القديم التي كان يسودها السلام.

في البدء تشكلت أوبك مع توجه كل دولة من الدول، ومنها المملكة العربية السعودية، نحو تأميم نفطها، والشروع في تحديد أسعار مرتفعة له كان لابد للشركات التي تقلص دورها إلى مجرد التشغيل أن تدفعها، وهذا هو الجانب الأسوأ في الموضوع.

أمريكا وشركاتها النفطية لم تعد ملوكًا في الغابة النفطية. والوصف الأكثر دقة هو أنها أصبحت مثلها مثل غيرها مستهلكة تقف مع هؤلاء الآخرين، وربما «خلف» هؤلاء الآخرين، في طابور محطة البنزين الكونية



وبعد ذلك أطيح بشاه إيران الصديق لتحل محله شخصية أسطورية ثورية، هي آية الله الخميني الذي أطلق على أمريكا اسم «الشيطان الأعظم» وخفض إنتاج إيران من النفط بمقدار النصف ليصبح ٣ ملايين برميل يوميًا، في نفس يوم وصوله إلى طهران في شهر فبراير من عام ١٩٧٩ كي يستولي على السلطة. لقد كان قرن النفط الأمريكي يتداعى. وفي الوقت الذي غزا فيه الأمريكيون العراق، كانوا قد فقدوا السيطرة على النفط في الخليج بالكامل، بما في ذلك داخل العراق نفسه.



يتجه القرن الحادي والعشرون إلى أن يكون لعبة مختلفة كل الاختلاف. ومن المؤكد أنه لن يكون قرنًا أمريكيًا. والأرجح أنه قد يكون قرنًا نفطيًا آسيويًا، أو ربما أوروبيًا كذلك. بل إنه حتى الدولار، تلك العملة الأمريكية التي كان يجري بها تسعير النفط طوال ٧٠ عامًا تتعرض للضغط لمصلحة عملة الاتحاد الأوروبي العملاقة الجديدة، اليورو. فقد أخذ كثيرون داخل الأوبك يناقشون تسعير النفط بعملة غير الدولار. ربما باليورو الذي تزيد قيمته على الدولار، أو بسلة عملات تشمل الدولار دون أن يقتصر الأمر عليه وحده بعد الآن.

فما هي أسباب انتهاء هيمنة أمريكا النفطية؟

أحد الأسباب أن أمريكا وشركاتها النفطية لم تعد ملوكًا في الغابة النفطية. والوصف الأكثر دقة هو أنها أصبحت مثلها مثل غيرها مستهلكة تقف مع هؤلاء الآخرين، وربما «خلف» هؤلاء الآخرين، في طابور محطة البنزين الكونية.

إن الشركات الفرنسية والإيطالية والبريطانية والهولندية والروسية والصينية والنرويجية والأسبانية تدفع بالأمريكيين خارج المشهد النفطي العالمي.

أما من الذي سيبقى ومن الذي سيخرج فهي المسألة التي نقترح بحثها. ولكن دعونا أولاً نطالع السيناريوهات الناشئة المختلفة، والأهم من ذلك الظروف الإستراتيجية والسياسية الناتجة عن تلك التغيرات.

سوف يضيع الإستراتيجيون في العالم العربي، الذين لا يعون الدروس المستفادة من هذه التغيرات، فرصًا ذهبية لجعل التغييرات التالية في مصلحتهم السياسية.

١. ما من شك في أن الصين والهند تعتبران أكبر مستهلكين للنفط في آسيا، وتشكلان كذلك هذا القرن باعتباره قرنهما النفطي. ومع استمرار هذين النمرين الآسيويين في النمو بمعدلات اقتصادية ضخمة، تتراوح بين ٨٪ و٩٪ سنويًا، فإن صناعتهما ومستويات المعيشة فيهما تتطلب المزيد من النفط. ومعظم الإستراتيجيين متأكدون من أنه خلال عقد أو أقل من الزمان سوف تحل الصين محل أمريكا باعتبارها أكبر مستهلك للنفط. وتحمل هذه الحقيقة وحدها في طياتها تغيرات في المجالات الإستراتيجية والاقتصادية، والأهم من ذلك السياسية، لتغير بالفعل ميزان القوة بين المستهلكين والمنتجين.

فعلى سبيل المثال، فإنه طبقًا لما ذكرته وكالة الطاقة الدولية بباريس، التي تمثل ٢٦ دولة صناعية كبرى، سوف يرتفع الطلب في الصين وحدها بمقدار ١٤ بالمائة هذا العام ليصبح ٦.٢٨ مليون برميل يوميًا. فالصين ليس بها نفط، ولابد لها من استيراده. وفي الهند قفز الطلب بنسبة ١١.٣ بالمائة في مارس ليسجل ٢.٥٧ مليون برميل يوميًا. والهند كذلك ليس بها نفط، ولابد أن تستورده. وسوف يكون هناك المزيد من الطلب على النفط مع استمرار ما يسمى بالعالم الثالث في التصنيع. إلا أن المعروض من النفط لا يزداد. فالواقع أنه بلغ ذروته.

٢. العالم به ما يكفي من النفط لتلبية هذا الطلب الجديد من آسيا وغيرها، حيث مازال الاقتصاد العالمي يتوسع. وسوف يرتفع الطلب العالمي على النفط هذا العام إلى أعلى مستوياته منذ ١٩٨٠ كما يشير أحدث تقارير وكالة الطاقة الدولية، التي يذكر القارئ أن الذي أنشأها هو وزير الخارجية الأمريكي السابق هنري كيسنجر لتكون سلاح الدول الصناعية التي تحارب به الدول المنتجة للنفط في عام ١٩٧٣. وكان المقصود بها أن تكون سلاح الغرب الأساسي في مواجهة أوبك، منظمة الدول المصدرة للبترول. غير أنها الآن تستجدي أوبك كي تنتج المزيد من النفط. ولم تفشل وكالة الطاقة الدولية في أن تفعل ذلك فحسب، بل إنها تواجه الآن موقفًا يتنافس فيه الكثير من أعضائها فيما بينهم على الواردات المتدنية من النفط، وكذلك ضد الصين. والواقع أن نصيب الصين كان ٤٠ بالمائة مما يقدر بـ ١.٢ بالمائة زيادة في الطلب على النفط هذا العام. ويستهلك العالم أجمع حوالي ٨١ مليون برميل يوميًا من النفط. ومن المتوقع أن يستمر معدل النمو حتى عام ٢٠١٥. وعليك أن تحسب.

٣. في ظل هذا النمو، سيزداد الطلب على النفط، إلا إذا عُثر على بديل له ليكون وقودًا لوسائل النقل، وسوف يكون التنافس شديدًا جدًا على هذه السلعة الإستراتيجية.

وهذا واقعي إلى أقصى حد في ضوء حقيقة أنه لم يُكتشف خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة حقل نفط واحد على قدر كبير من الأهمية في أنحاء العالم. وليست منطقة بحر قزوين التي اكتشفت فيها بعض الشركات الأمريكية النفط مستقرة سياسيًا، كما أنها غير مضمونة من الناحية الجيولوجية. وقد يثبت أنها أصغر كثيرًا مما يظنه كثيرون من ناحية ما تحمله في جوفها من نفط. وفي الولايات المتحدة، بلغ حقل النفط في الاسكا ذروته وهبط بمقدار النصف، بحيث بات ينتج مليون برميل يوميًا مقابل مليوني برميل يوميًا منذ عقد مضى. كما أن بحر الشمال في سبيله لأن يبلغ ذروته، وهو مازال ينتج، ولكنه بدأ في الانحدار.

ولكي نوضح هذا في إطار رؤية شاملة،

يوسف إبراهيم



حتى تزداد الرأسمالية تعطي استقرار الأسعار

هذه بعض الأرقام المثيرة للاهتمام: بحلول نهاية عام ٢٠١٠ سوف تنتج منطقة بحر قزوين بكاملها ٤ ملايين برميل نفط يومياً حسب أكثر السيناريوهات تفاؤلاً. وحينذاك سيكون ما يستهلكه العالم يومياً أكثر ١٠٠ مليون برميل. ومن المؤكد أن أكثر من ٦٠ بالمائة من هذه الكمية سوف يأتي من منطقة الخليج التي تشمل إيران والمملكة العربية السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة وقطر. ويوفر هذا رؤية صحيحة بشأن الوزن الحقيقي الكامن في النفط والغاز الطبيعي. والمحصلة النهائية هي أنه بينما يتزايد الطلب على النفط، فإن هناك مكاناً وحيداً للحصول عليه منه، وهو الخليج حيث يرقد ثلثا نفط العالم وغازه تحت رماله. ويحمل هذا في طياته قدراً كبيراً من النفوذ السياسي.

٤. تضاءل حجم شركات النفط الأمريكية التي كانت في يوم ما من الخمسينيات تسيطر على نفط العالم، كما تضاءلت مكانتها وقيمتها المالية.

لم تعد الأسماء الكبيرة، مثل إكسون وموبيل وشيفرون وتكساكو، تلك الشركات الأربع التي كانت تملك كل نفط المملكة العربية السعودية في الأربعينيات، تملك النفط السعودي أو تنتجه. فالنفط السعودي تملكه شركة النفط الوطنية السعودية أرامكو. وكذلك الحال بالنسبة لكل دول أوبك التي تملك شركات النفط الوطنية بها، وهي مستقلة الآن. ذلك أن شركات النفط الآن ليست سوى «مشغلين» للإيجار. وهي تواجه تنافساً من بعضها البعض ومن شركات النفط الوطنية. ولم تعد معظم شركات النفط العملاقة الآن من الولايات المتحدة الأمريكية. فعلى سبيل المثال، لا تشمل قائمة كبرى شركات النفط العالمية في الوقت الراهن سوى شركة أمريكية واحدة على القمة، هي إكسون موبيل.

يلي ذلك الأوروبيون والروس والآسيويون. ومن بين هذه الشركات بريتش بتروليوم البريطانية، ورويال دتش شل (ملكية هولندية بريطانية) وتوتال (ملكية فرنسية)، وإي إن آي (إيطالية) ولوك أويل وأوكوس (ملكية روسية)، وسينوبك (صينية) وستات أويل (نرويجية)، وغيرها. ولدى كل هذه الشركات نفس التكنولوجيا المتقدمة التي كان الأمريكيون يحتكرونها في يوم من الأيام. وجميعها لديه مليارات من الدولارات التي يستثمرها. والأهم من ذلك كله أنها تحظى بالترحيب، بينما الوضع ليس كذلك بالنسبة للأمريكان، كما هو الحال في إيران، بل وفي المملكة العربية السعودية نفسها.

٥. نصل بذلك إلى العامل الأخير في عالم النفط المتغير، أي السياسة، وهو في الواقع أكثر العوامل أهمية.

لا يرغب معظم منتجي النفط الكبار أن تحتكر شركات النفط الأمريكية صناعاتهم، لأن سياسة أمريكا باتت تتسم بالعشوائية والعدوانية وتخضع للعقوبات.

فعلى سبيل المثال، ألغت المملكة العربية السعودية، صاحب أكبر احتياطي نفطي في العالم (٥٠٠ مليار برميل من النفط)، كل عقودها للتنقيب عن الغاز التي كادت تعطى منذ ثلاث سنوات لشركات النفط الأمريكية. وقد حل الأوروبيون والصينيون والروس محل الأمريكان في الصيف الماضي.

والواقع أن العقوبات الأمريكية التي فُرضت خلال العشرين سنة الماضية على إيران، وهي من أكبر منتجي النفط والغاز في العالم، وحتى وقت قريب على ليبيا، ألحق الضرر بالأمريكان. فقد دخل الفرنسيون والإيطاليون والنرويجيون للقيام بدور الشركات الأمريكية وشغل المكان الذي كانت تحتله، ومن غير المحتمل أن يخرجوا الآن، حيث ثبّتوا أنفسهم بقوة كمشغلين وأصبحوا يحظون بثقة تلك الدول، على عكس الأمريكان الذين يبدو أن سياستهم تحكم أعمالهم التجارية.



على خلفية هذه التغيرات الأساسية، دعونا نمحص الحقائق التي تؤدي إلى النتيجة القائلة بأن العالم في سبيله لدخول حقبة من حروب النفط الجديدة، أي التنافس على الوقود بصورة لم نشهدها من قبل.

طبقاً لما جاء في تقرير وكالة الطاقة الدولية الصادر في الشهر الماضي، فإن الاستخدام اليومي للبنزين والديزل وغيرهما من أنواع الوقود في العالم أجمع يزيد بمقدار ٢.٣ مليون برميل، وهو ما يفوق التوقعات السابقة التي كانت ٣٦٠ ألف برميل يومياً على الأقل، مما يجعل إجمالي الطلب العالمي على النفط يصل إلى ٨١.١ مليون برميل هذا العام.

يفسر هذا سبب بلوغ أسعار النفط مستويات قياسية تزيد على ٤٠ دولاراً للبرميل. فقد أفاق العالم على الحقيقة. فحين كانت الصين والهند والبرازيل دولاً فقيرة ومتخلفة، كانت أمريكا تتمتع بمطلق الحرية. أما الآن، فهذه الدول العملاقة آخذة في الارتفاع، كما أن مفاتيح أسواق الطاقة وقعت في أيدي المستهلكين والمنتجين الجدد. وفي نهاية الأمر، فإن المنتجين الرئيسيين هم هؤلاء الذين في الشرق الأوسط ومنطقة الخليج. بعبارة أخرى، وكما يقول التعبير الأمريكي: العالم في سبيله للعودة إلى ماما.

ويعد ذلك هناك أثر السياسة والإرهاب على أسعار النفط، وهو الجهد الذي أسهم فيه الأمريكان وأسامة بن لادن معاً إسهاماً كبيراً.

فبالهجوم على الولايات المتحدة وبالرد على هذا الهجوم، خلق الأمريكان وبن لادن ما أسميه «عامل القلق النفطي» وأثاروا شبح الهجوم على منشآت النفط كشكل من أشكال مقاومة الولايات المتحدة. وعلى سبيل المثال، فبدلاً من أن يحسّن غزو أمريكا للعراق إنتاج النفط العراقي أدى إلى انخفاضه. ذلك أن إنتاج العراق قبل الغزو كان ٣.٥ مليون برميل يومياً. أما اليوم فلا يكاد يمر

☜



النفطية

يوم دون تفجير لخط من خطوط الأنابيب، أو إحدى محطات الضخ، أو ميناء لتصدير النفط، مما جعل إنتاج العراق من النفط يهبط إلى ١.٨ مليون برميل يومياً. وهو ما يقل عن نصف ما كان هذا البلد ينتجه قبل الاحتلال الأمريكي.

والآن يصل تخريب المنشآت النفطية إلى المملكة العربية السعودية، أهم منتج للنفط في العالم. فالهجمات التي وقعت الشهر الماضي في ينبع والخبر شديدة الخطورة، ذلك أنه ما إن ينطلق مفهوم استهداف المنشآت النفطية حتى لا ندري بحال من الأحوال متى يتوقف. وهناك هجمات على الوافدين في المملكة العربية السعودية، وقد استهدفت القاعدة عمال نفط أجانب مهمين داخل المملكة العربية السعودية. وغايتها من ذلك هي طردهم. وسوف يؤثر خروج العاملين الذين لا يمكن الاستغناء عنهم من صناعة النفط السعودية تأثيراً عميقاً على إنتاج النفط، وسوف يزداد أثر ذلك فيما بعد؛ وهو ما يعني قدراً أقل من النفط في المستقبل. ولم يعد الأمر سوى مسألة وقت قبل أن تهاجم المنشآت النفطية السعودية نفسها. وفي حال حدوث ذلك، سوف يصل سعر النفط إلى مستويات لم تخطر ببالنا قط.



لا يرغب معظم منتجي النفط الكبار أن تحتكر شركات النفط الأمريكية صناعاتهم، لأن سياسة أمريكا باتت تتسم بالعشوائية والعدوانية وتخضع للعقوبات

في المملكة العربية السعودية والعراق يطارد إرهابيو القاعدة الوافدين الأمريكيين والغربيين ويقتلونهم. وهؤلاء الأشخاص لابد منهم لإعادة الإعمار وتوسيع صناعة النفط. فإن هم رحلوا، فسوف تضار قدرة المملكة العربية السعودية والعراق على زيادة الإنتاج لتلبية الطلب العالمي. ومن المؤكد أن المقلِّدين سوف يتوالون، ذلك أنه ما إن تطرح فكرة مهاجمة المنشآت النفطية حتى لا يكون لإيقافها من سبيل. فما بالك بالذي يمكن أن يحدث في الكويت حيث يتمركز الآلاف من الجنود الأمريكيين؟ وماذا عن قطر التي بها مقر القيادة المركزية الأمريكية؟ أليس من الطبيعي أن تستهدفهما القاعدة؟ وماذا عن إيران؟ إنها قوة لا يمكن تجاهلها إن هي سمحت لدخول القتال ضد الأمريكان.

الحقيقة المجردة هي أن منطقة الخليج بكاملها، حيث يوجد ثلثا نفط العالم تحت رمالها، هي كذلك واحدة من المناطق غير المستقرة سياسياً فوق الرمال؛ ففي العراق، وفي المملكة العربية السعودية، وفي إيران، وفي أنحاء الدول الصغيرة الهشة المنتجة للنفط مثل قطر والإمارات العربية المتحدة، يتزايد السخط ويعلن الإرهاب عن نفسه بطرق لم نشهدها من قبل.

ما إن يختلط النفط بالسياسة حتى تزداد المراهنة على استقرار الأسعار بشكل كبير.

قد يكون ٤٠ دولاراً للبرميل رقماً قياسياً في الارتفاع، غير أن ذلك ليس هو آخر الجولة. فالواقع أن هناك «زيادة خوف» قدرها ٥ دولارات للبرميل مضافة إلى السعر الحالي، وهي زيادة تطال الجميع. وترتفع قيمة زيادة الخوف مع كل هجوم إرهابي.

وبما أن النفط سياسة، فهناك سعر سياسي لابد من دفعه مقابل ذلك. فبعد نقطة معينة، يُترجم سعر النفط إلى قرار سياسي في الديمقراطيات الغربية.

على سبيل المثال، إذا كانت ربة البيت الأمريكية العادية تتكلف ٨٠ دولاراً لملء السيارة الرياضية بالوقود، فإن السيارات المريحة العملاقة التي يعشقها الأمريكيون قد تكلف الرئيس جورج دابليو بوش منصبه. وما إن نصل إلى تلك الأسعار حتى يبدأ النفط في التأثير على حياة الناس، ووظائفهم، وقدرتهم على الإنفاق، ورفاهيتهم الاقتصادية، ومدخراتهم. كما ترتفع أسعار كل السلع من المنتجات البلاستيك التي على أرفف السوبر ماركت إلى السلع الغذائية التي تنقلها الشاحنات إلى تذاكر الطيران ارتفاعاً مطرداً.

هذه حقيقة سياسية أثبتها الزمن في واشنطن العاصمة. فما إن يتعدى سعر برميل النفط حاجز الثلاثين دولاراً حتى يدخل المكتب البيضاوي في البيت الأبيض باعتباره قضية سياسية.

وإذا توصل رجل الشارع الأمريكي إلى نتيجة مؤداها أن رئيسه لا يمكنه فعل الكثير بشأن تخفيض أسعار النفط، وفي ظل الاختيار بين السيارات الصغيرة والراتب الأقل، سوف يذهب الأمريكيون لشراء رئيس جديد يجعلهم يمتلكون السيارات الكبيرة ويحصلون على راتب أكبر.

وأخطر قضية في هذا كله هي أن الأمر لم يكن سهلاً طوال هذا الوقت. وليس هناك الكثير الذي يمكن لأي شخص القيام به لخفض أسعار النفط. فالوضع



الجديد جزء من تحول ملحوظ في عالم الطاقة الكونية. وطبيعي أن ترتفع الأسعار وتنخفض، ولكن الاتجاه طويل المدى يسير في اتجاه واحد فقط، وهو الارتفاع. ولا يمكن حتى لما تتمتع به القوة العظمى الوحيدة من نفوذ سياسي أن يغير ذلك.

لقد كانت الولايات المتحدة قبل غزو العراق الأسد الذي يزأر والناس تستمع إليه. ولكن الفشل التام في العراق جعل من امريكا أسداً بلا أسنان. فلم نعد نسمع الآن من واشنطن عن «تغيير الأنظمة الحاكمة» في سوريا أو إيران. وذلك لأن امريكا تحاول فحسب الخروج من العراق. كما لم نعد نسمع عن الرخاء النفطي العراقي الجديد الذي سوف يوفر للمستهلكين الأمريكيين نفطاً رخيصاً. فالواقع هو أن أمريكا نجحت في تخفيض إنتاج النفط العراقي.

تحمل تلك الحقائق في طياتها نتائج جيوبوليتيكية ضخمة.

إحدى هذه النتائج هي: من يخاف من امريكا؟ هل ستزيد المملكة العربية السعودية الإنتاج إذا طلبت منها امريكا ذلك؟ هل ستفعل إيران ذلك؟ هل ستفعل ليبيا ذلك؟

ينظر معظم دول الخليج المنتجة للنفط شرقاً في اتجاه آسيا. فالصين على أي الأحوال قوة عظمى ذات أسلحة ونفوذ سياسي. كما أنها تتطلع إلى روسيا باعتبارها قوة نفطية جديدة تنتج مقدار ما تنتجه المملكة العربية السعودية بالإضافة إلى الأسلحة. كما أن روسيا تنتعش في مجال الصناعة. الأمر الذي يعني أنها سوف تبدأ في استخدام كمية أكبر من نفطها بدلاً من تصديرها. وهذا بدوره يعني المزيد من القوة لأوبك وأية قوة عالمية أخرى لخلق توازن في مواجهة النفوذ الأمريكي.

إلا أن هناك بديلاً آخر يتمثل في الاتحاد الأوروبي، وهو وافد كبير آخر يظهّر على مسرح الطاقة. وبينما يبدأ الاتحاد الذي جرى توسيعه بدول مثل بولندا والجمهوريات السلافية وغيرها في زيادة اقتصاداته، فسوف يحتاج إلى المزيد من النفط كذلك. إنه على وجه التحديد بديل لأمريكا باعتباره سوقاً وكذلك قطباً جيوبوليتيكياً.

من هنا تنشأ فكرة حروب النفط الجديدة.

فالأمر هو أنه ليس هناك ما يكفي منه فحسب. ولن يكون هناك أي بديل للنفط باعتباره الوقود الأساسي لاقتصاد العالم طوال العقدين المقبلين على الأقل. فهل يمكن أن تكون الطاقة الشمسية وخلايا الوقود والمحركات المهجنة هي البديل؟ لا تزال كل هذه البدائل في طفولتها المبكرة. ولابد أن يصل سعر النفط إلى ٥٠ دولاراً للبرميل أو أكثر من ذلك كي يدفع الرأسماليين المغامرين إلى مزيد من بحث تلك البدائل.



إحدى طرق إدارة الأمور هي الحوار الأفضل بين المستهلكين والمنتجين، إلا أن هذا الحوار تجهضه السياسة غير الواقعية العدوانية والعسكرية التي تتبناها الإدارة الأمريكية برئاسة جورج دابليو بوش والمحافظين الجدد المحيطين به الذين حاولوا الاستيلاء على النفط بالقوة في العراق، بل وتحدثوا عن احتلال حقول النفط السعودية. ومن الواضح أن هذا لن يشجع النوايا الطيبة لدى المملكة العربية السعودية أو منظمة الدول المصدرة للبترول، أوبك.

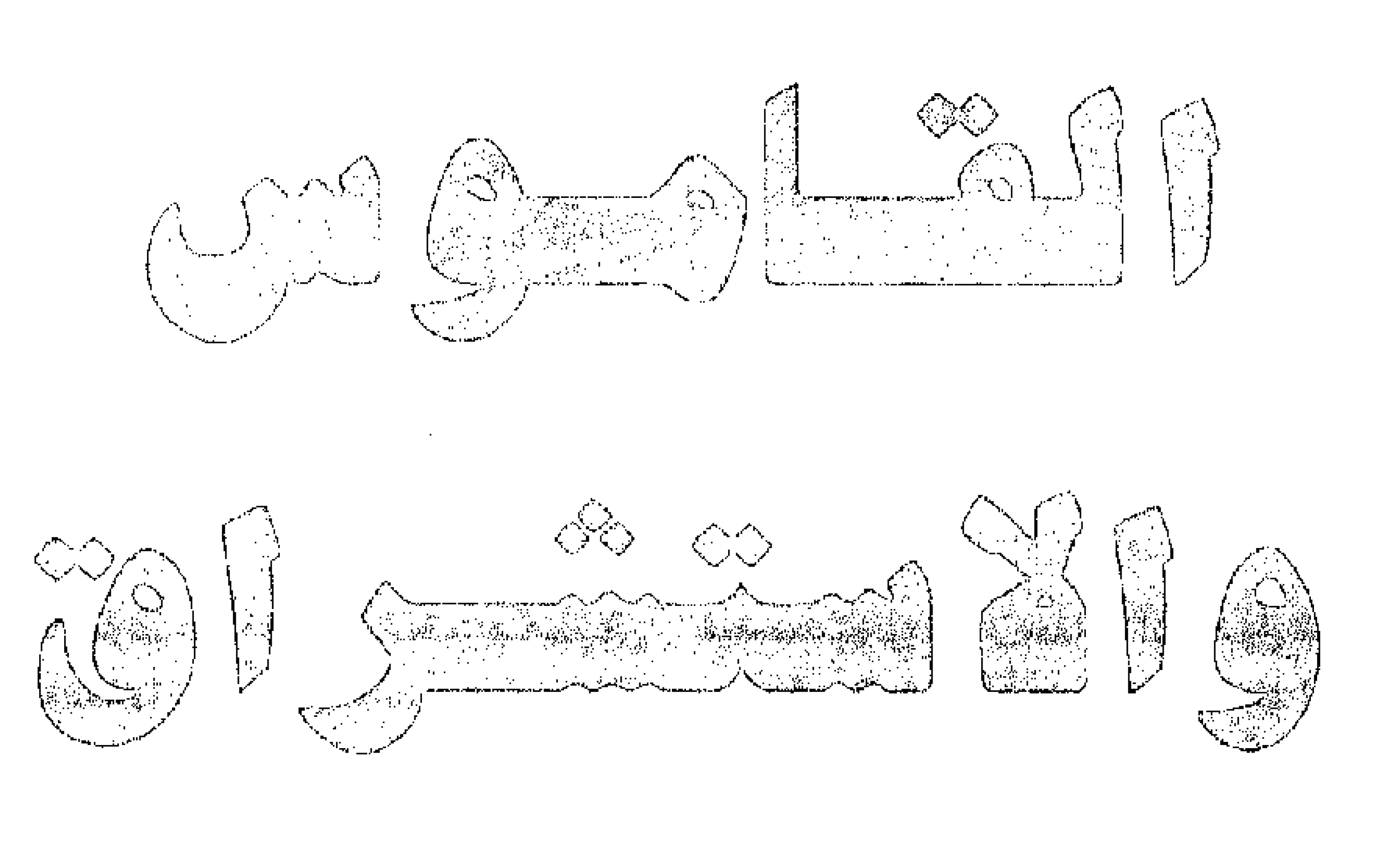
إن ما يكتشفه العالم مرة أخرى هو أن النفط ليس مجرد سلعة أخرى. كالبن أو الكاكاو أو عصير البرتقال، يستجيب للعرض والطلب. فهو يستجيب كذلك للسياسة والتخطيط الإستراتيجي وتوازن القوى.

النفط «إستراتيجي» كذلك، بمعنى أنه يمثل الدخل الرئيسي لمنتجيه. ولذلك فلابد أن تكون لهم السيطرة على سعره لتلبية احتياجاتهم الاقتصادية التي توازن بحرص شديد الأرقام لكي لا تضر الاقتصاد العالمي الذي تعتمد عليه.

إنه مزيج صعب. وهو مزيج لا يمكن أن يديره رعاة بقر من تكساس، وإنما الساسة المهرة والحوار.

ومادام جورج دابليو بوش رئيساً للولايات المتحدة، فإن الشيء الوحيد الذي يمكن أن نتنبأ به بكل تأكيد بشأن سعر النفط هو أنه كلما ازداد عدد الدول التي يغزوها ارتفع سعر النفط أكثر. ولذلك فاربطوا أحزمة مقاعدكم واستعدوا. ■

ترجمة: أحمد محمود



آلن ميخائيل

■■ على رف أى مكتبة نجد قاموسا لأن القاموس كتاب أساسى لأى كاتب أو باحث أو قارئ وعندما لا نفهم معنى كلمة فى مقالة أو كتاب أو فى أى نص لا بد أن نبحث عنها فى هذا المرجع الموضوعى. لكن الغرض من هذا المقال هو تفكيك هذه الفكرة، أى فكرة أن القاموس مصدر موضوعى، وذلك من خلال تحليل واحد من أكبر الأعمال الاستشراقية من القرن التاسع عشر وهو (القاموس العربى- الإنجليزى) للمستشرق الكبير إدوارد ويليم لين.

ولد إدوارد لين فى بريطانيا فى عام ١٨٠١ وسافر إلى مصر للمرة الأولى فى عام ١٨٢٥ وقبل وصوله إلى ميناء الإسكندرية كتب فى يومياته أنه شعر بأنه مثل العريس الشرقى الذى يكشف نقاب عروسه ويرى وجهها للمرة الأولى فى «ليلة الدخلة». فمن بداية حياته الاستشراقية فى مصر نلاحظ أنه قرن الشرق بالجنس وبغرائب الأمور والمغامرة ويشاركه فى هذا الاعتبار العديد من أقرانه المستشرقين. وألف إدوارد لين عديدا من الكتب ومن بين أشهرها (المصريون المحدثون وعاداتهم) وترجم (ألف ليلة وليلة) وأجزاء من القرآن الكريم. وعندما سكن إدوارد لين فى مصر عاش حياته محاولا تقمص الشخصية المصرية فعكف على تعلم اللغة العربية الفصحى والعامية معا والتزم بارتداء ملابس مصرية وانعزل عن الجالية الأوروبية التى عاشت فى القاهرة فى ذلك الوقت وأخذ يصلى فى الجامع كل يوم جمعة ولكن بالرغم من كل هذه الممارسات من الممكن القول إن تصرفاته كانت متكلفة لان إدوارد لين لم يتخل عن عقيدته المسيحية أو عن اعتبار ثقافته أحسن وأحدث وأفضل من الثقافة المصرية والعربية غير أنه حاول أن يعاشر المصريين بقدر الإمكان ليسهّل على نفسه إجراء وتدوين ملاحظاته عن الثقافة المصرية وعن حياة وتصرفات المصريين.

An Arabic - English Lexicon
(قاموس عربى . إنجليزى)
Edward William Lane
Williams and Norgate,
1863 - 1893, 8 Volumes, 3664 Pages
Cambridge: Islamic :طبعات أحدث)
(Texts Society, 1984
Cairo: Tradigital, 2003 (CD-ROM)

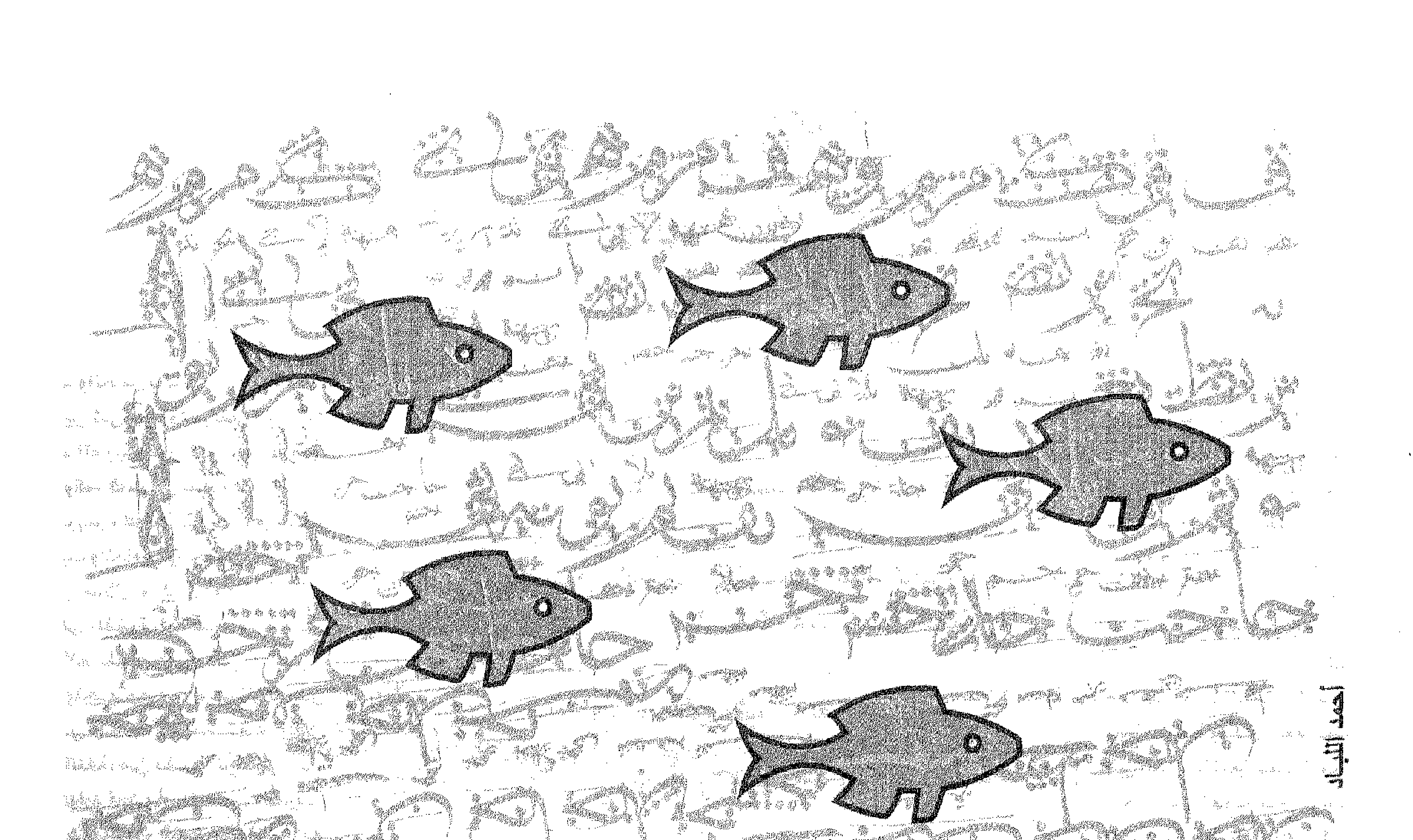


وقبل تناول قاموس إدوارد لين لا بد أن نتحدث قليلا عن مفهوم القاموس فى حد ذاته ومن وجهة نظرى فإن مشروع كتابة القاموس مثل عملية تخطيط المدينة إذا اعتبرنا هاتين العمليتين نوعا من الرسم الخيالى. فكما يستخدم السائح الذى يزور مدينة جديدة للمرة الأولى الخريطة لكى يتجول فى المكان ولكى يعرف أين هو وإلى أين سوف يذهب نحن أيضا نستعمل القاموس كخريطة لكى نتجول فى اللغة. وأحيانا يتوه السائح فى المدينة الجديدة لان ما يراه على الخريطة مختلف تماما عن المكان الذى يمشى فيه حتى لو كانت الخريطة تشير إلى أنه فى المكان الصحيح، أى المكان الذى يريده السائح. مشكلة السائح هى أنه اعتمد على الخريطة لكى تفسر حقائق المدينة ولكن العلاقة بين أسماء شوارع المدينة وعناوين المبانى وحتى وجود المدينة نفسها وبين الخريطة علاقة تمثيلية واصطناعية لأن الخريطة بالأساس شىء مصنوع بيد إنسان وهذا الإنسان اختار شكلا معينا للخريطة وقرر أن يتخلى عن بعض تفاصيل المدينة من أجل الوضوح وسهولة الفهم أو ما إلى ذلك، فمن اللازم أن ندرك انعدام أى صلة مباشرة بين حقائق المدينة والخريطة وان ندرك أيضا أن الخريطة، مثل أى عمل علمى آخر، ليست موضوعية على الإطلاق، بل هى مشوبة بالإيديولوجية والسياسة. وأعتقد أنه يمكننا أن نستخدم نفس الوصف لعلاقة كلمات أى لغة بالقاموس وإذا فكرنا قليلا فى مفهوم القاموس والخريطة سوف نلاحظ أن كلا منهما ليس صورة حقيقية أو إشارة مباشرة للغة أو للمدينة. فالقاموس يحاول أن يعطى صورة أو خريطة حقيقية لاستخدام كلمات اللغة ولكن كما نعلم أن العلاقة بين المدينة والخريطة مصنوعة ومخلوقة بواسطة الشخص الذى رسم الخريطة فيجب علينا أن نعترف أن العلاقات بين كلمات أى لغة ومعانى هذه الكلمات أيضا علاقة تمثيلية واصطناعية وغير حقيقية. وهى علاقة أكثر تعقيدا من الارتباط بين المدينة والخريطة وذلك لأن اقتران الكلمات بمعانيها جاء بعد سنوات طويلة من استخدام وممارسة اللغة وتطوره المستمر. وفكرة القاموس بالأساس هى تثبيت معانى كلمات لغة ما فى وقت ما.



وأعتقد أن الوصف الأدق والأنسب لمفهوم القاموس ليس فى أقسام الأدب أو البلاغة أو علم اللغة فى الجامعة بل فى المستشفى لان عملية كتابة القاموس تشبه التشريح أو الجراحة فى مشروع القطع. ولكى نوضح هذه الفكرة نحتاج

... ومن أنقذها!؟



أن نفتح قاموسنا نحن ونمشى قليلا فى مدينة اللغة العربية. فإذا بحثنا فى القاموس عن كلمة (تشريح) وقرأنا الكلمات حول هذه كلمة، أى من نفس الجذر، سوف نجد بجانب كلمة (تشريح) على خريطة القاموس فى مدينة اللغة كلمة (شرح). والعلاقة بين هاتين الكلمتين ليست مجرد علاقة لغوية فحسب، بل هذه العلاقة الحميمة الجذرية تدل على أن هناك ارتباطًا فكريًا وثيقًا بين التشريح باعتباره عملية قطع جسد الإنسان والشرح فى المدارس أو فى أى كتاب علمى لان الشرح فى حد ذاته نوع من التشريح أيضا لأنه عندما نشرح شيئا لطالب أو لطفل تحاول أن نبسّط الأمور لكى يفهمنا الطالب ولكن هذا التبسيط يجبرنا على تجاهل بعض المعلومات الصعبة أو الأمور التى نعتبرها هامشية ويجبرنا أيضا على قطع الأجزاء المهمة من النصوص فى هذا المجال لنقدمها للطالب. وهناك أمثال لغوية كثيرة تعكس هذه العلاقة بين التشريح والجراحة من جانب ومن جانب آخر العلم والشرح والمعرفة، مثلا نستعمل كلمة «تحليل» فى السياق الأدبى (تحليل النص) أو فى السياق الدراسى (تحليل أسباب فشل محاولة الصلح) ولكن نستخدمها أيضا فى السياق العلمى (تحليل كهربائى) أو فى السياق الطبى (تحليل الدم) وفى نفس المجال نستخدم كلمة «عملية» بمعنى عملية جراحية (يعنى اليوم عمل عملية فى المستشفى) وأيضا بمعنى عملية كتابة البحث أو القاموس أو ما إلى ذلك. والشىء المشترك بين كل هذه الكلمات التى ذكرتها هو فكرة القطع والتقسيم والتبسيط والتشريط ونعلم كما كتب المفكر الكبير الفرنسى ميشيل فوكو فى واحد من أهم كتاباته وهو المقال بعنوان «نيتشه وعلم الأنساب والتاريخ» أن: «ليست المعرفة للفهم، بل هى للقطع».

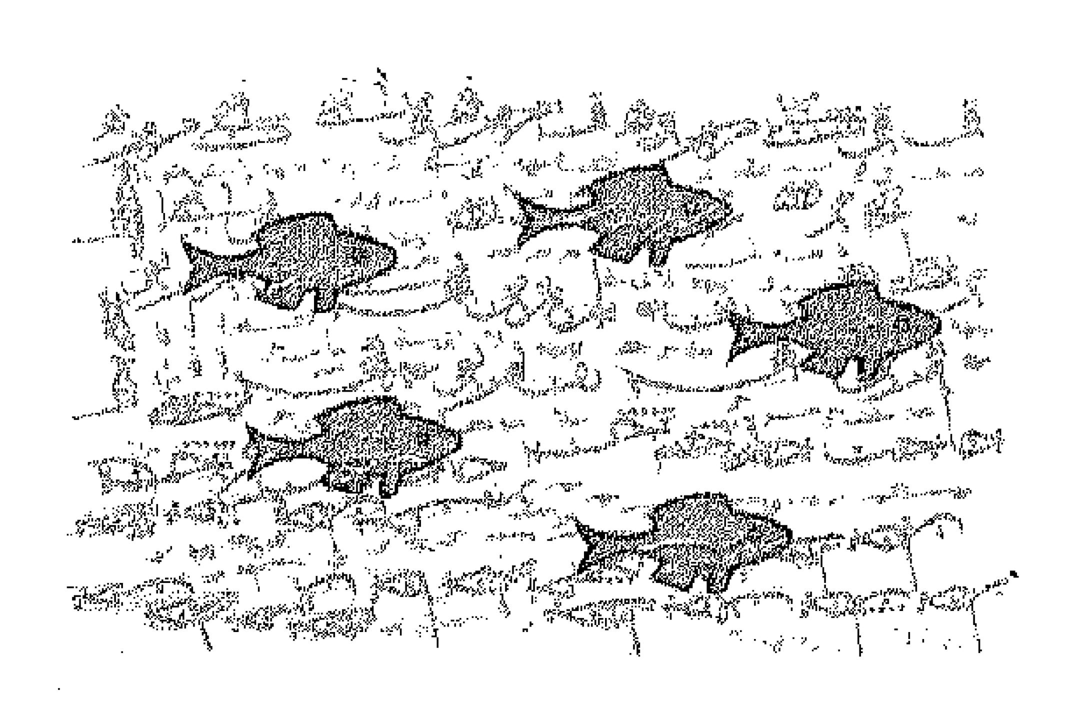
ونلاحظ هذه العلاقة بين التشريح والشرح على صعيد الفكر واللغة معا فى مشروع «القاموس العربى-الإنجليزى» لإدوارد لين. الذى بنى معظم قاموسه على معرفته بالقاموس العربى الشهير «تاج العروس» وخلال عمله على قاموسه استند إلى «تاج العروس» بشكل أساسى ولا نبالغ فى القول إن أجزاء كبيرة وكثيرة من قاموس إدوارد لين هى ترجمة من «تاج العروس» وهذه الحقيقة ليست إهانة أو انتقادا إنما هى معلومة مهمة لكى نفهم مشروع القاموس. إذن إدوارد لين، مثل الجراح فى المشرحة، قطع أجزاء كثيرة من «تاج العروس» وقواميس أخرى ليكوّن جسدا جديدا واصطناعيا بشكل قاموسى ولكن فوق ذلك كله شوّه إدوارد لين معانى بعض الكلمات العربية لقرائه. وهذه التغييرات التى قام بها إدوارد لين تعطينا الفرصة لنحلل دور الكاتب فى تكوين أى عمل علمى سواء كان خريطة أو قاموسا لأننا سوف نرى كيف وأين تدخلت إيديولوجية إدوارد لين وسياسته الاستشراقية.

فإذا بحثنا فى قاموس إدوارد لين عن مادة الجذر: ع، ر، ب نجد إنها طويلة جدا ويجرى نص المادة تقريبا لخمس صفحات كاملة وصفحات هذا القاموس كبيرة جدا. والمعنى الأول فى هذه المادة يقول إن العربية لغة ويضرب إدوارد لين مثلا لهذا المعنى «عَرُبَ لسانه» بمعنى أنه بدأ يتحدث اللغة العربية ويركز بشكل أساسى فى هذه المادة على أن أهم المشتقات من هذا الجذر تتعلق باللغة. ومن ثم يعطى إدوارد لين معانى كثيرة للكلمات المشتقة من هذا الجذر، فيكتب على سبيل المثال أنه يمكننا أن نقول الجملة «عَرِبَت معدته» ويكتب إدوارد لين أنه من الممكن أن نستخدم هذا المشتق للتعبير عن الجمل أو جرح أو انتفاخ الرئة وهناك أيضا من مشتقات هذا الجذر الفعل «عرّب» بمعنى «عرّب الفرس»، أى فتح حافر الحصان بالسكين، أو «عرّب البقرة»، أى جعل البقرة تريد أن تمارس الجنس». ويستمر إدوارد لين فى هذه المادة بسلسلة المشتقات، فيقول إن الفعل «استعرب» يُستخدم فى سياق الجمل أيضًا مثلا «استعرب جربا» ويقول إن الفعل «تعرّب» يُستخدم بمعنى «تعربت لزوجها»، أى تصرفت بشديد العاطفة لتعبر عن حبها لزوجها. وبعد أن انتهى من أكثر من نصف المادة يكتب إدوارد لين إن هذا الجذر أيضا يشير إلى العرب، أى واحدا من شعوب العالم، والمكان الذى وضع فيه إدوارد لين هذا المشتق، بل ترتيب المادة ككل، مهم جدا لأنه يعطينا ملامح الاستشراق وأعتقد أن تفسير هذا الترتيب مفتاح فهم القاموس.



أولا من الواضح أن إدوارد لين يفضل أن يعطى أمثلة لاستخدام مشتقات هذا الجذر مأخوذة من عالم الحيوانات والجنس ولذلك نلاحظ على سبيل المثال تكرار إشاراته إلى الجمل والبهائم. واستعمال تيمات





الحيوانات والجمل بالتحديد فى كتابات المستشرقين شىء معروف ولقد كتب كثير من النقاد العرب وغير العرب على هذه الظاهرة وكما قلت فى بداية هذا المقال اعتبر«العريس» إدوارد لين الشرق خلطا بين الغريب والمغامرة والجنس ورأيه هذا واضح من خلال تحليل الأمثلة التى ضربتها فى الفقرة السابقة. وبتركيزه على البهائم يلمّح إدوارد لين أن العرب وحياتهم وتجربتهم من جانب والجمل والبقر من جانب آخر مشتقة، مثل مشتقات اللغة، من نفس الجذر ويأتى اعتراف إدوارد لين بأن الشعب العربى أيضا من هذا الجذر فقط بعد إشاراته المتعددة إلى البهائم كأن الاعتراف فُرض عليه.

من خلال قراءة مادة الجذر«ع، ر، ب» ندرك أن إدوارد لين أعطى أهمية مكان وأمثال المادة للغة لأن وظيفة المستشرق فى حد ذاتها وظيفة لغوية بمعنى أن المستشرق يعيش فى عالم الكتب والنحو والكلمات وليس فى عالم التاريخ أو الواقع أو البشر ولذلك هناك مسافة شاسعة بين الدنيا الخيالية التى يعيش فيها المستشرق ويكتب عنها وبين أرض الواقع. فإذا قرأنا معانى هذا الجذر فى المصدر الأساسى لقاموس إدوارد لين وهو «تاج العروس» فسوف نجد أن أول معنى فى هذه المادة هو «جيل من الناس»، فبالمقارنة بإدوارد لين فإن مؤلف «تاج العروس» قرر أن يعطى المكان الأول والأهم فى المادة لكى يعبر عن فكرة العرب باعتبارهم شعبًا أو «جيلاً من الناس». والشىء المهم والمفيد هنا ليس السؤال التالى: هل من المفروض أن نعتبر اللغة العربية أو الشعب العربى أهم مفهوم أو معنى لبناء مشروع تناول العالم العربى وثقافته؟ هذا السؤال بسيط وتافه إلى حد كبير لأن المسألة ليست مجرد اختيار المعنى الأفضل من بين عدة معان. أعنى إن إدوارد لين لا يكذب فى كتابة قاموسه لأن كل المعانى الواردة فى قاموسه صحيحة. فالسؤال الأحسن والأنسب هو: هل ندرس وندرّس تاريخ العرب وثقافتهم وأدبهم وواقعهم وما إلى ذلك من خلال كتب قديمة أو وثائق أو مقابلات أو أفلام أو الآثار أو من خلال دراسة طقوس الناس ولغتهم وعواطفهم وتصرفاتهم؟ أو بشكل أوسع ما هى العلاقة بين الكلمات التى نقرأها على صفحات الكتب أو الوثائق وأرض الواقع التى من المفروض أنها تتناوله؟ كيف نربط الخريطة بالمدينة؟ كيف نقرأ ونفهم؟ السؤال الأخير هو من أكبر وأصعب وأهم الأسئلة فى تاريخ العلم والفكر؟

أعتقد أن الوصف الأدق والأنسب لمفهوم القاموس ليس فى أقسام الأدب أو البلاغة أو علم اللغة فى الجامعة بل فى المستشفى لأن عملية كتابة القاموس تشبه التشريح أو الجراحة فى مشروع القطع





قرر إدوارد لين أن يشرح العرب من خلال اللغة لأنه وصل فى أواخر حياته إلى الفهم أو الإدراك بأن اللغة العربية هى أساس ومفتاح وجوهر معرفة المستشرق عن الشرق ولذلك قضى آخر خمس وثلاثين سنة من حياته فى العمل على القاموس وهذا بالمقارنة بأعماله الأولى التى تشبه دراسات علم الإنسان من حيث التركيز على تصرفات المصريين وعلى كيف يعيشون حياتهم اليومية وعلى ما يلبسون وكيف يتناولون الغذاء وما إلى ذلك. ففى بداية أعماله الاستشراقية كان يهمه شكل المصريين والأماكن التى يعيشون فيها وكل الذى يتعلق بالشكل الخارجى ولكن فى عمله الأخير ركز إدوارد لين بالأساس على الباطن، أى ما اعتبر باطن الشرق العربى، وهو اللغة العربية بسبب إدراكه أن الشىء الذى يمكنه أن يفيد العلم الاستشراقى أكثر من أى عمل آخر هو القاموس لأنه سوف يورث بعد إكماله جوهر المعرفة الاستشراقية عن الشرق لأجيال المستشرقين المستقبليين.

فإذا رجعنا إلى المشرحة فيمكننا أن نشبّه مفهوم أن اللغة العربية جوهر الشرق بتشريح الجثة بعد الموت لأنه من عملية التشريح نعلم كل شىء عن الجسد والأمراض والأعضاء والأنسجة والدورة الدموية ولكن لكى نصل إلى هذا العلم عن الجسد لا بد أن نقطع ونفتح الجثة الميتة. والمقصود هنا هو أن إدوارد لين نظر إلى اللغة العربية كأنها جثة ميتة على طاولة التشريح وكأنه من خلال تشريحها يمكننا أن نصل إلى المعرفة الكاملة عن طبيعة الشرق. فإذا كانت اللغة العربية جثة ميتة فالسؤال المطلوب هو: كيف ماتت اللغة العربية؟ ويجيب إدوارد لين على هذا السؤال فى مقدمة قاموسه حيث يشبّه تاريخ اللغة العربية بحياة الإنسان، فوفقا لإدوارد لين كانت اللغة العربية فى الجاهلية فى مرحلة الطفولة ولكن مع قيادة الرسول للأمّة وقوة نزول القرآن الكريم وازدهار الإسلام أصبحت اللغة العربية مُراهقا ولكن سرعان ما وصل هذا المُراهق إلى قمته فى أواخر أيام الرسول ويكتب إدوارد لين أنه فى ذلك الوقت كانت اللغة كاملة وعفيفة ونظيفة. ومن ثم بدأت اللغة العربية تدهورها المهول إلى مكان حقير حتى ماتت أخيرا ولكن لا يحدد إدوارد لين فى نص مقدمته متى ماتت بالضبط ولكن على كل نعلم إن كانت اللغة ميتة عندما عرفها إدوارد لين فى القرن التاسع عشر. وبالإضافة إلى أن اللغة العربية جثة ميتة منذ وقت طويل يقول إدوارد لين إن اللغة التى استُخدمت بعد أيام الرسول هى ليست لغة عفيفة ولكنها لغة همجية وضمنيا من الذى يتكلم بهذه اللغة الهمجية هو واحد من الهمجيين أو حتى واحد من الحيوانات كما قلنا من قبل.

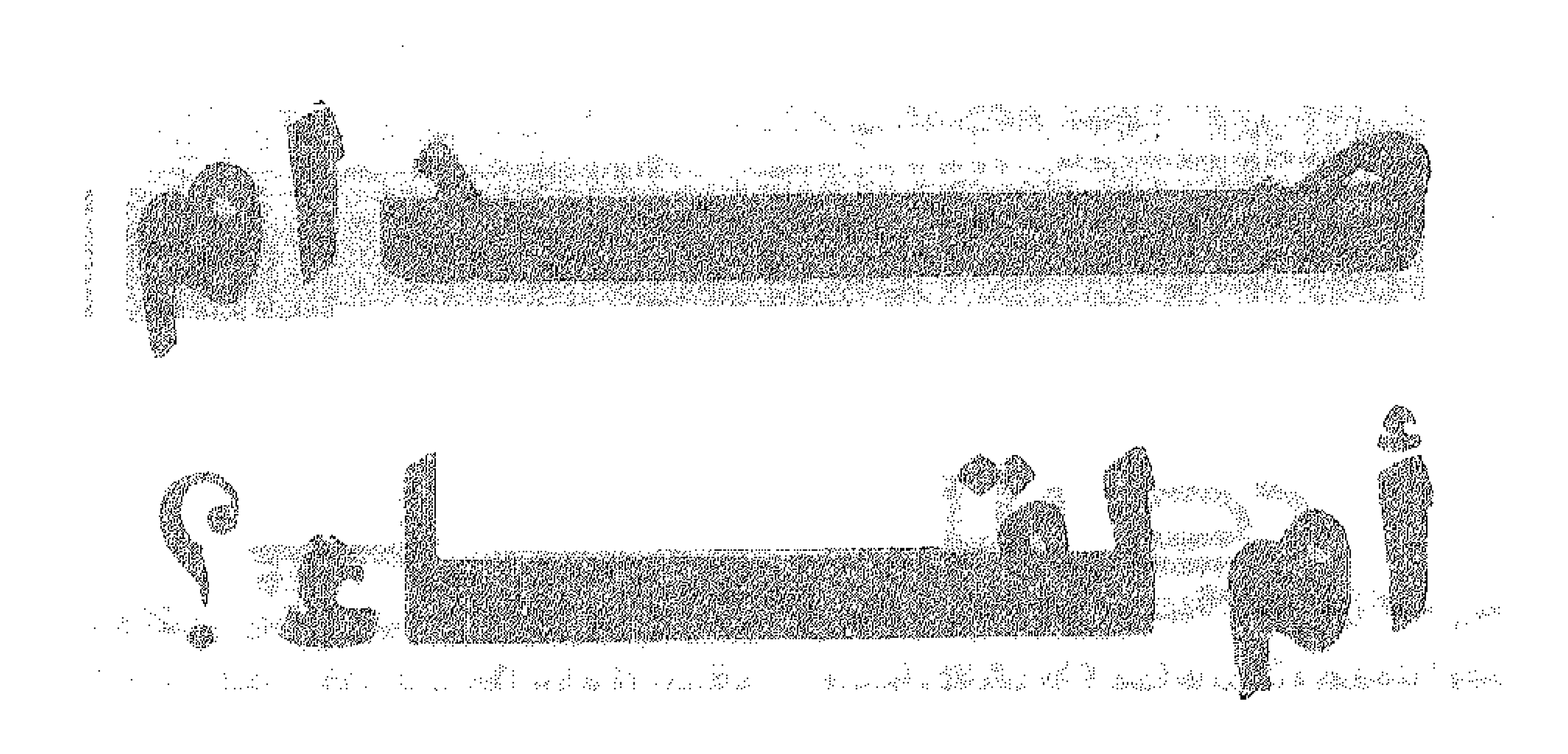
ولكن هل كانت اللغة العربية فعلا ميتة فى ذلك الوقت؟ بالتأكيد الإجابة «لا». لم تكن اللغة العربية ميتة فى القرن التاسع عشر أو فى أى وقت آخر منذ أيام الرسول ويدل على ذلك كل الأعمال الأدبية والعلمية والدينية والطبية والشعرية وما إلى ذلك من إبداعات العصر العباسى أو حتى من العصر العثمانى وكل كتب التاريخ من أيام الرسول إلى المقريزى وإلى ابن إياس وإلى الجبرتى وغيرهم. ولذا أعتقد أن السؤال المطلوب هو ليس كيف ماتت اللغة العربية، بل هو من قتل اللغة العربية؟ والإجابة هى أن إدوارد لين وكل أجداده المستشرقين شاركوا فى عملية القتل هذه لكى يحصلوا على جثة لمشارطهم وسكاكينهم. والشىء الغريب والمتناقض هو أن إدوارد لين والمستشرقين الآخرين قتلوا اللغة العربية وأنقذوها معا، بمعنى أنهم قتلوا اللغة لكى ينقذوها لأن العمليتين متلازمتان.

فإذا نجحت فى تفكيك فكرة أن القاموس مرجع موضوعى، فهذا لا يعنى أنه يجب علينا أن نترك القاموس على رف المكتبة ولا نستخدمه أبدا لأنه إذا فعلنا هذا فسوف نتخلى عن كل الأعمال العلمية فى يوم من الأيام لأنها كلها تمثيلية واصطناعية إلى حد ما. لكن المهم هو أن ندرك أن كل شىء مصنوع بيد الإنسان له تاريخ وأيديولوجية وسياسة ومن اللازم أن نفهم عملية تكوين أى عمل علمى واستخدامه عندما نتعامل معه. ■

في أجواء «الاستقطاب» و«الثنائية» التي بدا أن العالم يستدرج إليها يوماً بعد يوم، ألقى اللورد كاري الذي كان كبيراً لأساقفة الكنيسة الإنجليكانية (كانتربري) سلسلة من المحاضرات (أربع) أثارت ثالثتها (ألقاها في جامعة جريجوريان في مارس الماضي) لغطاً كبيراً وذكرت تقارير صحفية أنه وجه في محاضرته اتهامات غير مقبولة للإسلام كديانة وللمسلمين. وكالعادة في مثل هذه المواقف وفي مثل تلك الأجواء المحتقنة خرجت من الناحية الأخرى بيانات ومقالات تستنكر ما قاله الرجل، أو بالأحرى «ما نقل عنه». وتستغرب أن يأتي مثل هذا الكلام من رجل بهذه المكانة وله هذا الاسم.

والتزاماً بدقة واجبة وموضوعية لازمة، حرصت «وجهات نظر» على أن تنشر هنا ترجمة «النص الكامل» للمحاضرة/ الأزمة مع الإشارة إلى حيث يمكن للقارئ أن يعود إلى الأصل الإنجليزي لو أراد. قبل أن تطلب من عدد من كتابها مناقشة ما قاله. خاصة أن للرجل قيمته. ولكلامه بالتالي أهميته.

المحرر



المسيحية والإسلام

لورد كاري

Christianity and Islam: Collision or Convergence?

(المسيحية والإسلام: صدام أم لقاء)

Lecture by:
Lord Carey of Clifton
،Rome - Gregorian University
March 2004

للاطلاع على النص الأصلي
www.timesonline.co.uk/article / 0,,1-1052165,00.html

ترجمة: محمد يوسف عدس

موضوع البرنامج الدراسي الذي أقوم به في جامعة جريجوريان هو: «الوحدة والعمل التبشيري» ولكن ليس هذا البرنامج وحده هو الذي حفزني إلى تقديم هذه المحاضرة عن العلاقات المسيحية الإسلامية، وإنما كانت رغبة تراودني خلال السنوات العشر الماضية وذلك بحكم موقعي كقائد مسيحي.

أود هنا أن أقرر بصراحة ووضوح أنني لست بأي معنى اصطلاحي خبيراً في الإسلام ولا متخصصاً في أي علم من علومه، ولكني أزعم أنني خلال عدة سنوات قضيت وقتاً طويلاً مع بعض الأسماء المهمة في عالم الإسلام، مثل الدكتور طنطاوي ود. حسن الترابي والملك حسين والأمير حسن والملك عبد الله و«بروفيسور» أكبر أحمد، وكثير غيرهم من القادة والعلماء المسلمين، وكنت في هذا أحاول بناء جسور من التفاهم بين العقيدتين العظيمتين (يقصد الإسلام والمسيحية).

وبعد أن تقاعدت من وظيفتي في الكنيسة واصلت انخراطي في الحوار، في إطار «عملية إعلان الكسندر» (الإسكندرية في يناير ٢٠٠٢) التي تحاول جمع قادة المسلمين واليهود والمسيحيين معاً في إسرائيل وفلسطين.

أما المشروع الثاني الذي أنشط فيه فهو مبادرة ذات طابع اقتصادي نشأت في إطار «المنتدى الاقتصادي العالمي»، حيث اشتركت مع الأمير تركي (من السعودية) في رئاسة مجلس مكون من مائة قائد في مختلف التخصصات، هدفه تقوية الروابط بين الغرب والإسلام.

وقد اعتدت أنا وزوجتي زيارة الكثير من البلاد المسلمة، ونحن نقدر قوة الإسلام وعمقه.. وأعتقد أنني أستطيع أن أقول بشيء من الثقة أن لدي فكرة معقولة عن التحديات التي يمثلها الإسلام بالنسبة للمسيحية وللغرب، وكذلك التحديات التي يواجهها الإسلام اليوم.

❖ أحد الأسئلة الملحة في وقتنا الحاضر هو: ما إذا كانت الأديان والثقافات المختلفة يمكن أن تجد سبيلاً للتعايش بعضها مع بعض في توافق وسلام. وحين تقول إننا نعيش في أيام مضطربة وخطيرة ربما يكون تعبيرنا هذا جد متواضع بالنسبة لما حدث في ٢٠٠١/٩/١١م فمنذ هذا التاريخ والعنف الإرهابي لا ينم عن شيء من التراجع.

ومحاولة تدمير شبكة القاعدة ومطاردة قائدها «أسامة بن لادن» وكذا الحرب العراقية والصدام الدائر فيها، ومأساة الصراع المرير في الأراضي التي تعتبرها الأديان الثلاثة العالمية أراضي مقدسة، والبيانات التي تتردد في تصريحات قادة الدول من أن العنف على المستوى الذي انفجر في مدريد ينبغي أن تتوقعه الدول الغربية.. كل هذا وغيره يجعل موضوع المحاضرة بالغ الأهمية.

مركز اهتمامي في هذه المحاضرة هو الإسلام: عقيدة وحضارة وثقافة، وهي عقيدة يتسارع نموها في كل جزء من أجزاء العالم، وحضارة أسهمت بالكثير للأسرة الإنسانية ولاتزال لديها الكثير لتقدمه، وثقافة ذات نسيج متميز تحوز إعجاب الملايين في أنحاء العالم.

مناقشة كبير الأساقفة

ومع ذلك فحيثما قلبت النظر يبدو لك الإسلام متورطًا فى صراع مع الأديان والثقافات الأخرى. فمن الناحية العملية نجد الإسلام متنافرًا مع كل دين عالمى آخر: مع اليهودية فى الشرق الأوسط، ومع المسيحية فى الغرب ونيجيريا وفى الشرق الأوسط، ومع الهندوسية فى الهند، ومع البوذية خصوصًا منذ تدمير معابدهم فى أفغانستان.

لذلك فنحن فى حيرة كبيرة بالنسبة للإسلام: لماذا هو مقترن بالعنف فى أنحاء العالم؟ هل التطرف مرتبط ارتباطًا لا فكاك منه بعقيدته التى عرفنا خصائصها الحقيقية؟، أم أن الأمر هو أن النضال من أجل جوهر الإسلام جار ويحتاج عقيدة عظيمة أخرى كالمسيحية لمساندة وتشجيع الأغلبية الكبرى من المسلمين الذين يقاومون المطابقة بين عقيدتهم وبين الإرهاب؟

مما لا شك فيه أن اقتران الإسلام بالإرهاب يطرح تحديًا هائلاً لجميع الذين يبحثون عن عالم آمن مزدهر.

أنصت إلى صامويل هنتنجتون، وهو صاحب أحد الأصوات المهمة فى هذه القضايا، فقد نشر مقالاً مثيرًا للجدل بعنوان صدام الحضارات يذهب فيه إلى أن انهيار الشيوعية أعطى إشارة بنهاية المعارك الأيديولوجية ذات الطابع السياسى حيث أصبحت الرأسمالية الغربية هى المهيمنة، ثم يزعم أن المعركة التالية ستكون صدام حضارات فى عالم تتنازعه حضارتان: الإسلامية والمسيحية.

لقد رفض هذه الفكرة علماء وكتاب ورجال دين باعتبارها فكرة خاطئة، وكان هذا الرفض لأسباب تاريخية ودينية وفكرية مفهومة. ولكن هنتنجتون لم يأبه لهذا الرفض كثيرًا، وإنما توسع فى مقالته فجعلها كتابًا أصدره سنة ١٩٩٧. عدّل فيه قليلاً ولكنه أبقى على حجته الأساسية وهى أن الصدام بين الثقافتين الكبيرتين لا مفر منه.

وبإصرار غريب ادعى أن الحدود الإسلامية دموية وكذلك داخله، وأن مشكلة الغرب الأساسية ليست الأصولية الإسلامية وإنما الإسلام نفسه.

فالإسلام حضارة مختلفة تؤمن شعوبها بتفوق ثقافتهم من ناحية، ويستبد بهذه الشعوب شعور بالدونية تجاه قوة الغرب من ناحية أخرى.. وهذه كلمات نافذة مقلقة بل صارمة.. فهل هى صحيحة كالحقائق؟، مما لاشك فيه أن أحداث ١١ سبتمبر تعزز مقولة هنتنجتون من أننا نشهد فى أيامنا هذه صدام حضارات ونتعامل مع وجهتى نظر متناقضتين عن هذا العالم.

ولكى نغوص أكثر فى أعماق هذه القضية اسمحوا لى أن أسأل الأسئلة الأربعة الآتية:

١. ما هى الأسباب التى جعلت الإسلام مقترنًا بالإرهاب والموت؟

٢. ما هى التحديات التى يواجهها الإسلام نفسه؟

٣. أى تحد يمثله الإسلام بالنسبة للغرب فى عمومه وللمسيحية بصفة خاصة؟

٤. كيف يمكننا أن ننتقل من حالة الصدام إلى حالة التلاقى وصولاً إلى احترام وتفاهم متبادلين؟

الإسلام والإرهاب:

من المهم بادئ ذى بدء التأكيد على الجوانب الإيجابية قبل أن ننتقل إلى السلبيات: فالإسلام هو ثانى أكبر ديانة فى العالم، والاسم معناه (الاستسلام لله)، ويوجد فى العالم أكثر من بليون مسلم، غالبيتهم العظمى أناس مسالمون أخيار، يهتمون بتربية أبنائهم لكى يحيوا فى وفاق مع الآخرين. والإسلام شأنه كشأن المسيحية أبعد ما يكون عن النزعة الأحادية، وهو أيضًا يضم جماعات كثيرة وطوائف مختلفة، وبين شعوبه مسلمون علمانيون إلى جانب المسلمين المتدينين، وكذلك يوجد مسلمون بالاسم فقط، وكما لاحظ جى. إى. وليامز فى كتابه «عالم الإسلام»: «يوجد جانب علمانى فى الإسلام رغم أن الصحوة الإسلامية (منذ ١٩٧٠) كانت تحجب هذه الحقيقة».

وسواء كان المسلم متدينًا حقيقةً أو مسلمًا بالاسم فقط ينبغى أن نقرر أن غالبية المسلمين العظمى مثل المسيحيين أناس شرفاء وخيرون ويكرهون العنف، ويسوؤهم أن ينظر إليهم الآخرون كأنهم كتلة واحدة من الأشرار المضللين، كما يعتقدون أنه لا يصح إدانتهم أو إلصاق صفة الشر بعقيدتهم الدينية.

هناك إذن معركة دائرة الآن حول جوهر الإنسان.. ولكن يبقى السؤال: لماذا يقترن الإسلام بالعنف والإرهاب؟

على سبيل الإيجاز سأحاول الاقتراب من الإجابة من خلال منظور تاريخى: لقد توافق المسيحيون والمسلمون توافقًا ملحوظًا فى بلاد عاشوا فيها معًا جنبًا إلى جنب مع جيرانهم اليهود، ولكن جاءت فترات من الزمن عمدت فيها كل عقيدة إلى توسيع أراضيها، وهنا حدث تصادم مرير، وكانت الحروب الصليبية مثلاً واضحًا على هذا الصدام، حيث جرت محاولات لاستعادة الأراضى المسيحية السابقة، وترتب على ذلك نتائج مؤسفة لكل من الديانتين.

وفى القرنين السادس عشر والسابع عشر عمد الإسلام المحارب إلى غزو المجر وبولندا وأوكرانيا.. حتى وصل إلى أبواب النمسا، ومثل هذه الحقائق التاريخية تتعارض مع ما ذهب إليه محمد مهدى شمس الدين فى مؤتمر عالمى انعقد فى «جامعة جريجوريان» خلال شهر مايو ٢٠٠٠م، حيث زعم أن العدوان كان مسيحيًا كله أو معظمه وكان موقف الإسلام دفاعيًا كله أو معظمه.

ولا ينبغى لنا أن نندهش إذا لجأ كل من المسيحية والإسلام إلى مثل هذه الصدامات العسكرية، فالحقائق تؤكد أنه لا تستطيع أى من العقيدتين الادعاء بأنها كانت ملتزمة دائمًا بموقف أخلاقى واتهام العقيدة الأخرى باستخدام أسلحة الدمار.

فإذا تجاوزنا هذه الصدامات المعروفة نجد أن أتباع الديانات العالمية الثلاثة استطاعوا أن يعيشوا معًا فى سلام، مع الأخذ فى الاعتبار أن كثرة من المسيحيين واليهود دفعوا ثمن ذلك عندما اضطروا لقبول أن يعيشوا فى وضع الذميين.

لقد شهدت البلاد المسلمة تدهورًا مستمرًا ابتداء من القرن الثامن عشر وصولاً إلى القرن العشرين، فبينما كانت البلاد المسيحية تتمتع بثمرات الثورة الصناعية كان معظم الشرق الأوسط يتقهقر على طول الخط. وأذكر أننى عندما كنت شابًا أقضى فترة التجنيد العسكرى فى العراق خلال الخمسينيات كنت ألاحظ (وأفهم السبب) أن كثيرًا من شباب جيلى كانوا ينظرون إلى هذه المجتمعات نظرة سطحية، إذ اعتبروا الإسلام دينًا متخلفًا فى مجتمعات متخلفة ترزح تحت مشكلات هائلة من الأمية والفساد.

اعتبر الكثيرون سنة ١٩٦٧ نقطة تحول فى عقول الكثرة من المسلمين، ففى هذه السنة قامت البلاد العربية (سوريا ومصر والأردن) بهجوم مفاجئ ضد إسرائيل، وكانت النتيجة هزيمة موجعة (للعرب) حيث ضاعت منهم مساحات كبيرة من الأراضى فى سيناء وغزة والجولان.

منذ هذا التاريخ بدأ المسلمون فى تحليل أسباب هزيمتهم على يد الإسرائيليين.. حفرت هذه الهزيمة فى أعماق ذاكرتهم وأصبحت بحق نقطة تحول فى حياتهم، ووجد الكثيرون أن العودة إلى بساطة العقيدة الإسلامية والاتباع المخلص للقرآن ضرورة حياة، أما اتباع الغرب وتقليد أساليب حياته فهو طريق إلى التدهور والانحطاط.

وهكذا بدأت حركة تجديد وإصلاح إسلامى فى الظهور، كانت رغم ما تضمنته من تباينات ذات هدف واحد مشترك وهو إعادة مجد الإسلام.

وأمام احتقار السلبية السياسية للإسلام التقليدى المحافظ من ناحية، وشغف الحداثيين المسلمين بالعلمانية من جهة أخرى كانت الحركات الإسلامية تتشبث برغبتها فى إعادة أسلمة المجتمعات المسلمة، وخرجت تقاتل زحف العلمانية والمادية القادمة من الغرب.

ورغم أنه من المفهوم وصف هذه الجماعات بالأصولية إلا أن هذا المصطلح مستعار من العالم المسيحى وهو يعنى (التفسير الحرفى للإنجيل)، ولذلك فهو مصطلح غير مناسب فى تطبيقه على الجهات المتطرفة فى الإسلام.، وفى هذا المجال يميز جى. إيه. وليامز بين المجددين أصحاب حركة الإحياء، الذين جعلوا هدفهم مساعدة المسلمين للعودة إلى أصول العقيدة الإسلامية، وبين النشطاء المتطرفين الذين ينادون بشن حرب على الكفار، ولذلك فالأصح هو أن نطلق على النشطاء المتطرفين الذين يتجهون إلى إحداث ثورة بواسطة العنف بأنهم إرهابيون.

وفى هذا استباق للأحداث حيث يجب علينا الاستمرار فى البحث عن أسباب ظهور هذه الجماعات إلى الوجود.



إذا كانت سنة ١٩٦٧ تمثل بداية التسييس الحقيقى للإسلام فى قلوب وعقول كثير من المسلمين، فإن من واجبنا أن ننظر إلى العربية السعودية قلب الأراضى الإسلامية لتتعقب أحد المصادر الأساسية للفكر الإسلامى المتطرف.

فمنذ مائتى عام مضت اجتاحت هذه البلاد حركة إصلاحية مدفوعة بأفكار محمد بن عبد الوهاب متآزرًا مع محمد بن سعود (وكان زعيمًا قبليًا قويًا)، حيث استطاعا إخضاع القبائل الأخرى وفرض ما أطلق عليه «جون إسبوزيتو» شكلاً من أشكال الإسلام (البيوريتانى) النقى.

وهنا ينبغى أن نشير إلى أن تطبيق هذه «البيوريتانية» الوهابية اقتضى تدمير القبور المقدسة لمحمد وأصحابه فى مكة والمدينة.

وما يتم اليوم تصديره



صدام أم لقاء؟

إلى مجتمعات وبلاد العالم الإسلامى هو الشكل الوهابى للإسلام. وهو شكل ينطوى على معتقدات استبدادية متعصبة تتوافق مع عقول سهلة القولبة تبحث عن اليقين.

وقد اكتمل تسييس الشبان السعوديين فى أيامنا هذه من خلال عقد المقارنة بين عقم البلاد الإسلامية والغرب الذى يقال عنه إنه منحط بسبب ماديته. وعندما أصبح السعوديون أغنياء بيترولهم كان عليهم أن ينفقوا الأموال لهزيمة الغرب بأسلحته ووسائله الخاصة، ولم يمض وقت طويل حتى تمكن بعضهم من القيام بهذه المهمة.

وإذا كان عام ١٩٦٧ هو عام المهانة بالنسبة لكثير من المسلمين فإن عام ١٩٧٩ كانت له دلالة أخرى مهمة بالنسبة للإسلام، حيث ظهرت فيه اتجاهات المقاومة المسلحة، لتعطى مصداقية مبهمة لفكرة أن العنف أداة يجب استخدامها. وكانت المناسبة المستفزة الأولى لهذه الاتجاهات هى غزو السوفييت لأفغانستان الذى أهاج العالم الإسلامى بأسره.

وكما عبر لى أحد الأصدقاء المسلمين لم يكن الروس كفاراً فقط، بل كانوا أسوأ من هذا (كفارا ملحدين).. وهكذا تبلورت فكرتا «الكفر ودار الحرب» حقيقتين واقعتين، وتبلورت معهما دعوة إلى الجهاد وتنادى المجاهدون للقتال حتى الموت.

وفى هذا الخضم رأينا نقطة تحول فى حياة رجل غنى طويل القامة سعودى شاب هو «أسامة بن لادن»، الذى استخدم ثروته فى إقامة معسكرات تدريب فى أفغانستان لقتال السوفييت. وهكذا كان الغزو السوفيتى لأفغانستان دافعاً لتحويل نخبة من الشباب السعوديين إلى متطرفين، ومن سخرية الأقدار أن الأمريكيين هم الذين اكتشفوا خصائص القيادة فى «أسامة بن لادن»، وأهمية ذلك فى التصدى للغزو السوفيتى، ومن ثم أمدته الولايات المتحدة وأصحابه فى شبكة القاعدة بالتدريب والمال والسلاح والمؤن.

كذلك كان عام ١٩٧٩ على قدر كبير من الأهمية أيضاً بالنسبة للعالم المسلم بسبب قيام الشيعة فى إيران بتقويض النظام العلمانى، فى انقلاب مدو، أعقبه قيام الجمهورية الإسلامية الإيرانية.

وفى عام ١٩٨٩ حدث انقلاب آخر فى السودان استولى على أثره الكولونيل عمر البشير على السلطة فى البلاد، وهب لمساندته المفكر القوى حسن الترابى (الذى تخرج من السوربون فى القانون) وهو مفكر لامع يتمتع برؤية واضحة تتجه إلى فرض الإسلام على العالم كله وجعل الشريعة إلزامية وهو الهدف الذى استطاع تحقيقه بشكل أو آخر فى السودان.

وفى سنة ١٩٩٤ جاء من مكان ما جماعة من الطلاب كانوا يعيشون على الحدود الباكستانية عرفوا باسم «طالبان»، استولوا على أفغانستان وادعوا القيادة الروحية، وفرضوا شكلاً من أشكال الوهابية الأكثر تحفظاً على دولة ممزقة كانت تحتاج إلى رؤية مستنيرة لا رؤية قصيرة النظر مغلقة على نفسها مثل رؤية طالبان.



فى سنة ٢٠٠٠م. وقد أصبح أسامة بن لادن معزولاً تماماً من أمريكا والغرب. أعلن تشكيل جبهة إسلامية عالمية للجهاد ضد الأمريكيين والصليبيين (يقصد المسيحية). ربما كان السبب وراء هذا السلوك هو الشعور القوى بالخيانة الأمريكية، حيث بدا للأفغان أن الأمريكيين قد تخلوا عنهم بعد ما بذلوه من تضحيات فى قتال السوفييت، وكانت آثار هذا فى العالم بالغة الخطورة.

فبالنسبة لبن لادن» والمجاهدين أصبح للجهاد معنى واحد هو القتال حتى الموت فى سبيل الإسلام، وتوارى المعنى البديل والأساسى للجهاد، والمتمثل فى النضال من أجل أن يكون المسلم صالحاً مسالماً خلال ممارسته الأساليب الأخلاقية والدينية، هذا المعنى أصبح فى خطر الضياع.

وفى سبتمبر ٢٠٠١ ضربت الجبهة الإسلامية العالمية من خلال شبان مخلصين كانوا على استعداد للموت والقرآن بجانبهم يهتفون «الله أكبر».. قادوا طائرات ضخمة ودمروا مركز التجارة العالمى والبنتاجون، ومعهما قتل عدة مئات آخرين، كانوا يمارسون حياتهم العادية المشروعة والخيرة.

وتبع هذا انتهاكات أخرى كثيرة فى إندونيسيا حيث هجم ١٢ مسلماً من الميليشيات المسلحة على قرية يسكنها الصينيون والمسيحيون عند الفجر وهم يهتفون «الله أكبر» فقتلوا الرجال واغتصبوا النساء اللاتى وقعن فى قبضتهن.

وبعد عام من واقعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١ حدثت مقتلة أخرى لمئات من الأبرياء كانوا يمارسون متعة اللهو فى بالى بإندونيسيا ولم يكن ما حدث فى مدريد مؤخراً سوى حلقة من مسلسل دراما الإرهاب الإسلامى.

وهنا يبرز لنا السؤال بإلحاح أكبر: ألا يتلاعب بالإسلام أناس أشرار مضللون لا يشيعون الاضطراب فى عالمنا فقط بل ينزعون عن الإسلام نفسه المصداقية؟!

التحديات التى تواجه الإسلام

. فى يناير الماضى حضرت منتدى الاقتصاد العالمى وظهرت على نفس المنصة مع رئيس الوزراء الماليزى السابق د. محاضر محمد وكان على وشك التقاعد من (منصبه)، حيث قدم تقييماً متزناً عن الإسلام، مؤكداً أنه مالم يتهيأ الإسلام للتغيير فإنه سوف يتدهور أكثر مما هو الآن، وقال إنه «من الصعب على أن أكون متفائلاً بالنسبة للمسلمين فى القرن الواحد والعشرين فقليل جداً من المسلمين يستوعبون الواقع، ولا يفهم (أكثرهم) أن التوافق مع العولمة هو أكبر التحديات التى تواجههم.. وأنه لا سبيل أمامهم للهرب».

أما الرئيس الإندونيسى السابق عبد الرحمن واحد الذى ترأس مؤتمراً فى عمان فقد عبر عن مخاوف مشابهة حين قال: «العالم الإسلامى على مفترق طرق فإما أن يبقى متابعاً لإسلام تقليدى جامد أو يعيد صياغة إسلامه فى إطار نظرة عالمية أكثر فعالية وتعددية».

التحديات إذن فى نظر مثل هؤلاء المفكرين المسلمين كثيرة ومختلفة وسوف تركز على أربعة تحديات بعينها:

❖ أول هذه التحديات فى نظرى بالنسبة للمجتمعات المسلمة هو أن يدمجوا عقيدتهم وممارساتهم فى إطار مؤسسات ديمقراطية، وبالتأكيد ستصبح الديمقراطية بشكل متزايد. هى التحدى الأساسى إذا أخذنا فى الاعتبار أن مزيداً من الشباب المسلم يقبلون على التعليم ومن ثم يزيد حرصهم على أن يشاركوا فى تسيير شئون بلادهم.

ويتساءل الإنسان متعجباً: لم هذا الغياب المفجع للديمقراطية فى البلاد المسلمة خصوصاً فى الشرق الأوسط!.. من حقنا أن نتعجب لذلك.. لقد قيل إن خبرة المسلمين الحداثيين تؤكد أن الإسلام والديمقراطية لا يتوافقان، ولكنى لا أدرى سبباً جوهرياً لذلك، وتركيا تعتبر، بالتأكيد . مثالاً على أنه لا يوجد تناقض من حيث المبدأ (بين الإسلام والديمقراطية).

ومع هذا نجد فى الشرق الأوسط وفى شمال أفريقيا أنظمة تسلطية بها قيادات استبدادية متشبثة بمقاعد الحكم، وصل بعضها إلى السلطة خلال انقلابات عسكرية واحتفظوا بها عن طريق الاستخدام المكثف لقوات الأمن.. وسواء كانت هذه ديكتاتوريات عسكرية أو حكومات تقليدية، يبدو أن كل حاكم قد وطن نفسه على الاستئثار بالسلطة والامتيازات لنفسه إلى الأبد.

وحتى عندما تقدم بعض أشكال من الديمقراطية كالحال فى قطر والبحرين نراها ديمقراطية متواضعة إلى أقصى حد حيث تظل السلطة الحقيقية فى قبضة الأمراء.

❖ التحدى الثانى يكمن فى الظروف الاقتصادية المضطربة التى تنهض ضد المجتمع المدنى واستقراره، وتزعزع قيم دين عظيم وأخلاقياته، حيث تدل المؤشرات السكانية على أن الدول المسلمة ستخضع (بصفة متزايدة ومع مرور الوقت) لمصير مجهول مالم تتخذ إجراءات للتعامل مع الأمية المزمنة، وسوف تؤدى الأرقام السكانية المتصاعدة إلى اضطرابات اجتماعية مع تفاقم البطالة.

فمنح السلطة للشعب فى حكومة ديمقراطية لن يكون وحده كافياً إذا غابت عوامل الاستقرار الاقتصادى والتعليم العام وحقوق الإنسان، ذلك لأن غياب هذه العوامل من شأنه أن يعجل بالثورة أو إثارة حفيظة المسلمين تجاه الثراء والوفرة التى يتمتع بها الغرب.



❖ ملاحظتى الثالثة هى أن العلوم الدينية الإسلامية تواجه تحدياً أيضاً أن تصبح مفتوحة للفحص والنقد، وللمسيحية واليهودية تاريخ طويل فى الدراسات النقدية.. ويجب أن نعترف أن هذا لم يكن خالياً من الآلام، ولكن كانت هناك أيضاً مكاسب عظيمة.

أما بالنسبة للإسلام فرغم أن الجميع يعترفون بعظمة (محمد) الدينية إلا أنه كان رجلاً أمياً.. قيل أنه تلقى كلام الله بطريقة مباشرة كلمة كلمة من الملائكة ثم سجلها الكتّاب بعد ذلك.

ولأنها نزلت مباشرة من عند الله فقد قيل للمؤمنين بأنه لا ينبغى أن تكون محل شك أو مراجعة.

وقد واجه هذا التحدى علماء المسلمين فى القرون الأولى للإسلام (بعلم الكلام)، ولكن تراجعت الدراسات النقدية خلال القرون الخمسة الأخيرة مؤدية إلى مقاومة قوية للحداثة.

وفى هذا المجال أعتقد أن لعلماء اللاهوت والمعلمين المسيحيين دورين يقومون بهما تجاه الفكر الإسلامى.

الدور الأول هو تشجيع الحوار الدينى بين المسيحية والإسلام، وفى هذه الناحية أود أن أحيى الإسهام الكبير الذى يقدمه «مجلس الفاتيكان للعلاقات الدينية» وعلى

الأخص العمل الذي يضطلع به رئيس الأساقفة «مايكل فيتز جيرالد».

أما الدور الثاني فهو أن يقوموا (دون تدخل في دين آخر) بتشجيع دراسات دقيقة لوضع برامج تعليم للأئمة (المسلمين)، ذلك لأن مزيداً من الانفتاح في هذا المجال سيعود بالفائدة علينا جميعاً.

* أما التحدي الرابع الذي يواجه المسلمين المعتدلين فهو أن يقاوموا مقاومة جادة محاولة النشطاء المتطرفين الاستيلاء على الإسلام، وأن يعلنوا - بالنيابة عن الملايين الكثيرة من إخوانهم في الدين عن سخطهم على العنف الذي يمارسه هؤلاء المتطرفون باسم الله.

إننا نتوقع منهم إدانة للانتحاريين الذين يفجرون أنفسهم والإرهابيين الذين يستخدمون الإسلام سلاحاً لتدمير حياة الأبرياء.

ومن المؤسف حقاً أن قلة ضئيلة من قادة المسلمين هم الذين أدانوا بوضوح وبلا تحفظات ممارسة الهجمات الانتحارية التي تؤدي إلى قتل الأبرياء.

نريد أن نسمع إدانة صريحة للآراء الدينية التي تقرر أن الانتحاريين شهداء وأن جزاءهم هو جزاء الشهداء.. نريد أن نسمع مسلمين يعبرون عن غضبهم وإدانتهم لهذا الشر..

لقد عدت مؤخراً من القدس وأستطيع أن أتعاطف مع أولئك الذين يشعرون على أحسن الأحوال بيأس من أي تحسن في الموقف بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وعلى أسوأ الأحوال الذين يرون أن الاستقطاب أصبح شديد العمق وأن العنف الدائر والضحايا الذين فقدوا حياتهم ويفقدونها هو المستقبل المظلم لهذه المنطقة لسنوات قادمة.

مع كل هذا فنحن نتحدث عن شعبين عظيمين تعايشا بسلام في الماضي.. نتحدث عن وضع لا نستبعد فيه الوصول إلى حل سياسي، إذا استطعنا أن نجد طريقة لإنهاء العنف.. إننا نتحدث عن وضع يستحق فيه اليهود والعرب كلاهما السلام والعدالة.

فإذا توقف الفلسطينيون عن تكتيك الانتحار، وهو أمر أعتقد أنه ضروري وواجب أخلاقي، كما أعتقد أنه على اليهود (حينذاك) الامتناع عن استخدام قوتهم بطريقة غير مبررة لنفس السبب.

إنه من المستحيل أن تمر عبر حواجز الطرق ونقط التفتيش كما حدث لنا في إجازة الأسبوع الماضي وفي مناسبات أخرى عديدة، من المستحيل أن يمر الغريب بهذه الخبرات دون أن يتصور مدى تأثيرها في إثارة الغيظ والحنق بين الفلسطينيين الذين يرون أنفسهم سجناء في بلادهم.

إن التكتيكات التي يقوم بها جيش الدفاع الإسرائيلي والقتل الذي تمارسه الدولة ضد المشتبه في صلتهم بالإرهاب، وقتل القادة الفلسطينيين مثل الشيخ أحمد ياسين لا يليق بمجتمع متحضر، وهو عار على إسرائيل.

والجدار الهائل الذي يقام حالياً قد يمنح إسرائيل بعض التخفيف، ولكنه يزيد من نفور الفلسطينيين.. لقد رأيت كتابات على جزء من الجدار الذي يفصل القدس عن الضفة الغربية يقرأ:

«هذا هو جيتو وارسو».

فحيثما توجد قوة، سواء كانت قوة دولية أو قوة فرد، موجهة إلى فرد آخر بواسطة بندقية أو قنبلة فهي كما يقول «راينهولد نيوبور»: (السم الذي يعمي العيون عن الرؤية الأخلاقية ويعوق حركة الإرادة عن هدفها الأخلاقي).



ما هو التحدي الذي يواجه الغرب بصفة عامة ويواجه المسيحيين بصفة خاصة؟

لاشك أن في ملاحظات الرئيس الإيراني محمد خاتمي بعض الحقيقة عندما أشار إلى أن ديمقراطيات العالم اليوم تعاني من خواء أساسي هو خواء الروح.

من الصعب أن نرفع إصبع اتهام إلى ما نعتبره عوامل ضعف في الحكومات المسلمة عندما نرى (بيننا) فساداً اقتصادياً مريعاً، كالذي تكشف في شركات «إنرون» و«ورلد كوم» و«بامالات»، والذي يرفع الغطاء عن عوامل الجشع والاستغلال والفساد الذي يكمن في مجتمعاتنا المتقدمة، ويقوض مزاعمنا بأننا ندير مجتمعاتنا بأساليب أخلاقية حكيمة.

مستويات الجريمة والانحراف التي تسير جنباً إلى جنب مع تدهور في المعايير الأخلاقية وانهيار مؤسسات الزواج والأسرة.. كلها أسباب تجعل الغرب متحفظاً عندما يتشدق بأنه يملك مستوى أخلاقياً رفيعاً.. نعم ينبغي أن نعترف بعيوبنا ونقائصنا، وأن نأخذ من ثراء عقيدتنا وتقاليدنا ما تقوى به كل ما نعتز به من قيم.

والالتزام الثاني بالنسبة لنا هو أن ندعم القيم الغربية المؤسسة - بلا شك - على التقاليد الأخلاقية والثقافية المسيحية.

وبالرغم من عيوبنا (لا ينبغي أن ننسى) على الأقل أن الحضارة الأوروبية والأمريكية هي مستودع العدل والقيم الليبرالية، والديمقراطية باعتبار إحدى هذه القيم هي زهرة جميلة هشة تحتاج منا إلى الدعم والتقدير والحماية. إنها تسمح بالمعارضة وحرية التعبير وبحقوق الجميع على السواء. ولا يصح أن نستسلم لدعاوى أن البلاد الإسلامية تتفوق أخلاقياً وروحياً وثقافياً على الحضارات والثقافات الكبرى.

فإذا كان من واجبنا أن نعترف بالفضل لأصحابه فإننا ندين بالكثير للإسلام الذي منح الغرب كنوز الفكر الإغريقي ومبادئ حساب المثلثات، والفكر الأرسطي، خلال الفترة المعروفة في الغرب باسم العصور المظلمة، إلا أنه من المؤسف حقاً أننا لا نستطيع أن نتحدث عن إبداع ملحوظ ظهر في البلاد المسلمة منذ مئات السنين.

وهذه مسألة محيرة فالشعوب المسلمة لا تفتقر إلى العقول الذكية ولديهم الكثير مما يسهمون به في الأسرة الإنسانية.. ونحن نتطلع إلى التعاون الجاد الذي يجعل هذا ممكناً.

نعم إن الغرب لديه ما يفخر به ولابد أن نعلن هذا بقوة، كما يجب أيضاً أن نشجع المسلمين الذين يعيشون في الغرب أن يكونوا فخورين به، وأن يتحدثوا عن ذلك إلى إخوانهم وأخواتهم الذين يعيشون في أماكن أخرى من العالم.

وينبغي علينا أيضاً أن نبرز حقيقة استمرار الغرب في الإسهام الهائل الذي يقدمه إلى الدول المسلمة الفقيرة، وأن نجعل هذه الحقيقة معروفة لأكبر عدد من الناس، فقد ظهرت دراسة حديثة في مصر علمنا منها أن ٦٪ فقط من المصريين يعترفون بفضل أمريكا عليهم رغم أن مصر تعتبر ثاني أكبر دولة تتلقى مساعدات من الولايات المتحدة بعد إسرائيل.

وكثير من المصريين لا يعرفون أن المعونات الأمريكية والبريطانية وراء إقامة نظام الصرف الصحي بالقاهرة وكذا إمدادات المياه والكهرباء.

ومهما يكن الأمر فينبغي أن نعترف أن الغرب أمامه الكثير لكي يتعلم من الإسلام وأن يقدر التقاليد العظيمة لهذا الدين.

ماذا عن العلاقة بين الكنيسة والمسجد؟

من المهم أن تعرف ماذا يمثل الإسلام.. ما هي مواطن القوة ومواطن الضعف فيه؟، وأكثر من هذا أهمية أن تتعرف على بعض المسلمين وأن تصادقهم.. وسوف تجد أنهم يحملون نفس المخاوف من ناحيتنا مثلما نحمل مخاوف من ناحيتهم.. وسترى أن كثيراً منهم أناس خيرون يريدون ببساطة أن يكونوا مواطنين صالحين.

في الإسلام كثير مما يعجبنا: بساطة العقيدة والالتزام بالعبادة، فالإسلام ليس ديناً معقداً، وربما نحن الذين جعلنا المسيحية معقدة أكثر مما ينبغي.. ويمكننا أن نُكبر في المسلمين التزامهم بدينهم ورغبتهم في الترويج له، ونكبر فيهم ارتباطهم بقيمهم التقليدية.. قيم الأسرة والأطفال والسلام.

ولا ينبغي الخوف من الإسلام فالمسلمون يقدرون الشرف والإخلاص، ولا يحترمون المسيحيين الذين ينظرون إلى الأديان كلها كشيء واحد لأنهم يعرفون أن الأديان ليست كذلك، وإنما يحترمون الناس الذين يدافعون عن دينهم ويتحدثون عنه بطريقة طبيعية، ومن ثم على المسيحيين أن يكونوا أكثر ثقة وأن يجادلوا عن عقيدتهم في أرجاء العالم كما يجادل الآخرون عن عقيدتهم.

خلال فترة رئاستي (للكنيسة الإنجليكانية) كان هذا هو موقفي:

إن الترحيب الذي منحناه في الغرب للمسلمين وما تضمنه من حرية العبادة وبناء المساجد، يجب أن يقابل في البلاد المسلمة على نفس المنوال: إلا أننا نرى أن هذه الحرية ليست على نفس المستوى المتبادل، ففي بعض البلاد المسلمة توجد علاقات قوية وحميمة ولكن في بلاد أخرى يجد المسيحيون قليلاً من الحرية، ويتعرضون لاضطهاد أحياناً، فلا يمكنهم بناء كنائسهم إلا بشق الأنفس.

فالسعودية لا تسمح للمسيحيين بالعبادة ولا يسمح للقسس بالعمل بحرية فيها.. وكثيراً ما يقول قادة المسلمين للمسيحيين واليهود إنه «لا إكراه في الدين» وهذه للأسف نصف حقيقة، ذلك لأنه إذا كان غير المسلم ليس مجبراً على اعتناق الإسلام فإن المسلمين ليسوا أحراراً في اختيار عقيدة أخرى، وفي هذا نرى بعض الإكراه.

كيف نتحرك من الصدام إلى التلاقي في الأمور التي نشترك جميعاً في الاعتزاز بها؟

بروفيسور «أكبر أحمد» أحد علماء المسلمين البارزين وأستاذ علم الأنثروبولوجيا بالجامعة الأمريكية في واشنطن.. قال في أحدث كتبه «الإسلام تحت الحصار»: «يبدو أن أحداث سبتمبر قد دفعت العالم تجاه فكرة صراع الحضارات.. ولكنها أطلقت رسالة أخرى ملحة تتضمن دعوة إلى الحوار، فالمشاركة الخلاقة في حوار الحضارات

لإيجاد توازن داخلي بين احتياجات وتقاليد



صدام أم تلاقٍ؟

المجتمعات المحلية وبين عالم تهيمن عليه بصفة متزايدة المنظمات الدولية والهموم السياسية، والبحث الملتزم عن حلول عالمية لما تواجهه المجتمعات الإنسانية، والسعى لإيجاد نظام عادل ورحيم وآمن، سيكون هو التحدى الحقيقى الذى يواجه الحضارات الإنسانية فى القرن الواحد والعشرين.. أن تواجه هذا التحدى هو فى الحقيقة تحقيق لإرادة الله.. وأن تجمع الإنسانية كلها فى جهد مشترك كهذا هو تحقيق لرحمة الله». يالها من كلمات تمس شغاف القلوب!

لست ممن يقبلون فكرة أن المستقبل هو مستقبل عنف متواصل يعمق المرارة، وجدل مُنكر بين أديان وثقافات لا سبيل إلى أن تتلاقى.

دعنى أستعرض بعض نقاط للمناقشة والتأمل:

١. علينا بتعميق التعاون والتفاهم بين الأديان، فالدين لن يتلاشى من حياتنا، قد نستطيع الحديث عن عالم ما بعد الحداثة ولكننا بالتأكيد لن نستطيع أن نتحدث عن عالم ما بعد الدين. إلا أن الدين قد يستغل لأغراض سيئة أو لأغراض صالحة، فهو فى يد أناس أشرار يستخدم أحيانًا كسلاح للقتل والقهر كما حدث من وقت لآخر فى تاريخ المسيحية الطويل. وعلى القادة الدينيين أن يقوموا بدور مهم جنبًا إلى جنب مع القادة السياسيين، فلا يزال يوجد فى الدوائر السياسية قصور فى الفهم لقوة العقيدة الدينية، وهناك مجال لتسخير الخيال الدينى والطاقة الدينية لتحقيق السلام.

ينبغى أن نركز على الأسباب الأساسية للاضطراب الذى تتصادم فيه الأديان ونبحث عن علاج لجروح الماضى.. علينا أن نواجه الشعور العميق بالظلم الذى يعانيه المسلمون العاديون فى كثير من بلاد العالم النامى، من استبداد قادتهم ومن تفاقم الفجوة بين الفقراء والأغنياء، وما يراه الناس من دعم هائل من جانب الغرب لأنظمة الحكم المعادية للإسلام.

وإسرائيل كما ذكرت من قبل هى نقطة مشتعلة بخطر الاضطرابات، ولأمريكا دور رئيسى ينبغى أن تقوم به فى معالجة جراح هذه الأرض التى تتعلق بها قلوب أتباع ديانات العالم الثلاثة، ولا يتوقع المسلمون منها حياداً فى معاملة الفلسطينيين أو القضية الفلسطينية. وإسرائيل. بطبيعة الحال. لها الحق فى وطن وفوق كل شىء فى السلام، ولا أحد ينازع فى هذا، فالمسيحيون من جميع الشعوب ينبغى أن يحترموا الروابط الدينية الخاصة التى تربطهم بالشعب اليهودى.

ولكن هذا لا يمنعنا من الاعتراف بأن الفلسطينيين ليسوا أقل من هذا استحقاقًا، فلهم الحق فى دولة قابلة للحياة ذات حدود آمنة وحكومة مستقلة.

قوموا بحل هذه المشكلة الملحة وسوف ترون أن كثيراً من مرارة المسلمين وسخطهم يذوب بالتدريج ويسود مكانه التفاهم.. هذا الصراع الأطول عمراً فى العصر الحديث يستحق من الغرب عناية عاجلة.

٢. التفاهم والتراحم هما الأداة الوحيدة التى يمكن بها معالجة العنف والكراهية، ولن ينفع الغرب كثيراً إذا اعتقد أن العلاج يكمن فى وضع نهاية لأسامة بن لادن، بل يجب أن نضع حداً للظروف والتشويه والمعلومات الخاطئة التى صنعت أسامة بن لادن وأمثاله الكثيرين.

إنها معركة أفكار يجب أن ننتصر فيها، ولا يصح أن نتفاخر أمام المسلمين المجروحين الحزانى بأننا أقوى منهم.. فى هذه المعركة على علماء اللاهوت المسيحى والمدرسين والقسس والناس جميعا واجب لابد من أدائه.

بين المسيحية والإسلام كثير من المشتركات، والعمل من منطق المطالب الأخلاقية المشتركة: من حيث التزامنا المشترك بالحياة الأسرية والقيم الدينية، واتفاقنا فيما يتعلق بأهمية عبادة الله، وتعليم الناس أن يقيموا حياتهم على أساس من القيم الخالدة الثابتة.. كل هذا سوف يمنحنا الثقة لخلق علاقات دائمة فيما بيننا.

فإذا لم نفعل فسوف يبقى المستقبل خطراً مهدداً، وكما قال كريستوفر كوكر فى كتابه «Twilight of the West» وهو يتأمل تهديد الإرهاب فى العالم الحديث: «الذى يجعل الأصولية الإسلامية بهذه الخطورة هو جاذبية العلوم والتكنولوجيا فى الخيال الإسلامى الحديث..».

لقد تعلمنا. فى الحقيقة. الكثير من حادثة ١١ سبتمبر.. نعم إننا نعيش فى وقت عصيب، ولكننا أيضاً وبنفس القدر نعيش فى وقت يمكن للإرادة الخيرة والتفاهم والصراحة القائمة على الاحترام والتسامح. يمكن لكل هذا أن يمنحنا مستقبلاً مثيراً.

دعونا نتطلع إلى يوم لا نتحدث فيه عن ديانات متصادمة، ولكن عن إسلام ومسيحية يتلاقيان فى رغبة مشتركة لخلق عالم من التسامح والسلام، وبناء مجتمعات على هذه القيم التى تجعلنا أناساً قادرين على الأخذ والعطاء من نعمة الحب الإلهية. ■

اللورد.. ومحاضراته الأربع

□□ اسم لورد كارى رئيس أساقفة كانتربرى (الكنيسة الإنجليكانية) البريطانية، والذى تخلى عن منصبه وأصبح مهتماً بموضوع حوار الأديان، مرتبط. عندنا. بما يسمى «عملية الإسكندرية» التى جمعته مع شيخ الأزهر والحاخام الإسرائيلى، وصدر عنها بيان وُقع فى يناير سنة ٢٠٠٢م. ومحاضرته تلك التى ألقاها بجامعة جريجوريان فى روما هى الثالثة فى سلسلة محاضرات عن موضوع «الإسلام والغرب» وكانت قد لفتت الانتباه بعد أن جلبت انتقادات شديدة من أطراف عديدة، انعكست فى محاضرته الرابعة والأخيرة التى ألقاها فى جامعة ليسستر (١٢ مايو ٢٠٠٤)، وعلى هذه المحاضرة بالذات أسجل ملاحظاتى التالية:

ترد فى صدر هذه المحاضرة الرابعة عبارة غريبة يقول فيها: «قررت فى الخريف الماضى أن أقدم أربع محاضرات فى مختلف جوانب موضوع «الإسلام والغرب». والسبب كما يقرره: «أن أعمق فهمى للإسلام». وغرابة هذا الكلام أن الإنسان لا يحاضر لكى يعمق فهمه الشخصى وإنما لكى يُفهم الآخرين ويعلمهم!، وهناك ملاحظة أخرى هامشية إذ يبدو أن لورد كارى تنبه أو نُبِّه إلى أن عبارة «الإسلام والغرب» تنبو عن القسمة المنطقية الصحيحة التى تستلزم أساساً واحداً مشتركاً، فنحن نفهم أن تكون المقارنة بين الإسلام وأى دين آخر، كما نفهم أن يكون الحديث عن شرق وغرب إذا كان الأساس هو المنطقة الجغرافية مثلاً، ولأن لورد كارى تنبه متأخراً إلى خطئه قال فى تبرير ذلك كلاماً غامضاً ولا أقول فارغاً من المعنى!

أنتقل إلى بعض ملاحظات أكثر أهمية حول محاضرته الرابعة:

١. رغم الانتقادات الشديدة والعديدة لمحاضرته الثالثة جاءت محاضرته الرابعة تحمل نفس الأفكار والتوجهات السابقة دون تعديل جوهرى. فيما عدا أنه أسقط الفقرات التى تحدث فيها عن ضرورة تطوير فكر نقدى للشريعة الإسلامية، ودعوته علماء المسلمين أن يتعلموا من علماء اللاهوت المسيحيين واليهود!.. وهو كلام ينم عن عدم معرفة بالعلوم الشرعية خصوصاً أصول الفقه وعلم الحديث، والكلام فى هذا يطول.

٢. أسقط أيضاً عبارة نقدية موجهة إلى تطبيق الآية القرآنية «لا إكراه فى الدين» حيث علق قائلاً: «إنها تعبر عن نصف الحقيقة»...

٣. لا يمل لورد كارى من الإشارة إلى «ارتباط الإسلام بالإرهاب» وكلامه عن أن غالبية المسلمين ليسوا من الإرهابيين هو. عندى. من قبيل القدح فى صورة المدح، إذ كان الأولى به أن يحدد الإرهاب فى شراذم قليلة على هامش التيار العام للمجتمعات المسلمة، ونحن فى زمن يشهد إرهاب دول تمارسه أنظمة سياسية على نطاق واسع ولا أحد يصفه بأنه إرهاب مسيحى أو يهودى.

٤. كلامه فى المحاضرة الرابعة (الفقرة السادسة) عن العقيدة الإسلامية من أنها ليست شيئًا واحداً وإنما فيها اختلاف وتنوع يدل على فهم غير متعمق تؤكده الأمثلة التى ساقها عن وجود مدارس أربع فى الفقه وعن وجود الشيعة والسنة وفرق أخرى.. وهو كلام يحتاج إلى مناقشة وتحقيق.

٥. فى الفقرة التاسعة يُرجع التعصبات على كلا الجانبين إلى فترة الحروب الصليبية.. ويبرر الحروب الصليبية بأنها كانت لاستعادة أراضٍ مسيحية استولت عليها الجيوش الإسلامية من قرون سابقة ولكى تفتح أوروبا طريق الحج إلى الأراضى المقدسة، وكأن طريق الحج كان مغلقاً بفعل المسلمين، المهم أنه يسلم بهذه المزاعم على أنها حقائق تاريخية فى حين أنها لا تثبت أمام البحث التاريخى النزيه، ولو أنه تعمق قليلاً فى البحث لوجد أن الفتوحات الإسلامية كانت عملية تحرير حقيقية للشعوب المقهورة وليست تحريراً زائفاً كما يحدث الآن فى العراق وأفغانستان.

٦. الإضافة الوحيدة فى محاضرة لورد كارى الرابعة هى الإشارة إلى قضية الفضائح والتعذيب الذى يمارسه الجنود الأمريكيون فى سجن أبو غريب بالعراق، وفيما عدا هذا تبقى المحاور الأساسية فى فكر لورد كارى واحدة وثابتة فى محاضراته وعلى رأسها: كفّ العمليات الاستشهادية أو كما يصفها «الانتحارية» ضد إسرائيل.. وضرورة إدانتها من قبل القيادات الدينية المسلمة إدانة صريحة واضحة قوية ومستمرة. وأن تفتح البلاد المسلمة وعلى الأخص «السعودية» أبوابها للنشاط التبشيرى وتسمح ببناء الكنائس الأجنبية وألا يتعرض أى مسلم يعتنق المسيحية للاضطهاد.

عجبت. فى مسألة حوار الأديان. لحماس لورد كارى له، فهو الرجل نفسه الذى رفض رفضاً قاطعاً إدانة الإرهاب الوحشى والتطهير العرقى والمجازر التى ارتكبها الصرب ضد المسلمين فى البوسنة متوافقاً فى ذلك مع سياسة حكومة جون ميجور العنصرية المتحيزة، كما عجبت بنفس القدر لمن يذهبون من عندنا إلى الحوار وهم يجهلون خلفيات محاوريهم الثقافية وتعصباتهم، ولا يدركون حقيقة القوى التى تقف وراءهم وتساندهم، ولم أعجب أن تأتى نتيجة مثل هذا الحوار غير المتكافئ بالارتباك والإذعان المهين! ■

محمد يوسف عدس

للاطلاع على النص الكامل للمحاضرة الرابعة:
http://ebulletin.le.ac.uk/news/press-releases/2000-2009/2004/nparticle-gyw-zx7-fxc

سياسى لا ثقافى

ما بيننا وبينهم

طارق البشرى

[١]

□ الصراع القائم معنا الآن هو صراع سياسي، ولا يختلف أحد فيما أظن، فى أنه صراع متولد عن استعمار استيطانى فى فلسطين، وعن سيطرة عسكرية واقتصادية وسياسية فى الخليج العربى، وعن احتلال عسكرى لأفغانستان، وعن غزو للعراق الآن احتلال له، وعن سيطرة سياسية على الكثير من بلادنا العربية وغيرها، يتمثل فى استتباع أجهزة الحكم ورجاله لقوى الهيمنة الدولية، وللولايات المتحدة الأمريكية على وجه التحديد.. وإذا لم يكن كل ذلك «سياسة» فماذا تكون السياسة؟

ولكن أجهزة الفكر والإعلام السياسى الأمريكية. على وجه الخصوص. تصوغ الأمر على أساس أن الصراع الدائر هو فى مجال الثقافة، وهو صراع ثقافى، هكذا أعلنها هنتنجتون وغيره، وهكذا يجرى وصفه وتصويره الآن. والسبب فى ظنى يرد من أنه إذا وصفت طبيعة الصراع باعتباره صراعاً سياسياً، فإنه يظهر مباشرة من فيه المعتدى ومن فيه المعتدى عليه. لأن المكافحة بشأنه تدور على الأرض العربية وأراضى شعوب المسلمين وليس فى غيرها، وهى تدور بين العرب والمسلمين فى بلادهم وبين الأمريكيين ومن تحالف معهم من دول الغرب. ولأن حجم الضحايا من العرب والمسلمين فى بلادهم أضعاف حجم الضحايا من جيوش الغزو والاحتلال، ولأن موطن الثروات الطبيعية المطموع فيها هى أرض العرب والمسلمين، ولأن الحل الوحيد الحاسم لهذا الصراع هو أن يعود الغريب الأجنبى إلى بلده وأن ترتفع الأيدى عن أرض الغير وشعوبها.

إنما إذا وصفت المسألة وصفاً ثقافياً، ووصف الصراع بأنه صراع فكرى أو ثقافى أو حضارى، فإن ذلك معناه أن شعوباً وأناساً بسبب ما يدينون به من دين وما يقتنعون به من آراء وأصول فكرية، إنما يمسكون بالسلاح ويقتلون الآخرين، وأن ما يفعله الأمريكيون الآن هو ذاته ما فعله الإنجليز من قرن مضى. والعدوان المادى يحتاج إلى صياغة فكرية مواتية، والحديث عن الصراع الثقافى يخدم هذه الصياغة، يصير العدوان دفاعاً عن النفس. وفى هذا السياق علينا أن نقرأ محاضرة اللورد كيرى «المسيحية والإسلام: صدام أم لقاء»، وصحة المسألة هى «الغرب الأمريكى والعرب المسلمون: صدام أم لقاء» فبداية الحديث من عنوانه يخفى حقيقة الصراع ويزيف طبيعته.

إن المحاضرة ليست بذات مستوى ثقافى رصين. وإذا كانت المصادر الإسلامية لمعارفه عن الإسلام هى «الدكتور طنطاوى والملك حسين والأمير الحسن والملك عبد الله...» فهى فيما يبدو لى ليست مصادر يعول عليها فى الحكم على الإسلام. ومحاضرته مليئة بالتعميمات الفجة والأحكام المتحيزة، والعبارات التى ظاهرها الحيدة ومحاولة الإنصاف وباطنها الاتهام والتشنيع. وهو يتكلم عن حادث ١١ سبتمبر ٢٠٠١ وحادث مدريد دون أن يشير إلى أى من وقائع الغرب مع المسلمين على مدى مائتى سنة الأخيرة، ولا إلى ما حدث لأفغانستان والعراق وما يحدث فى فلسطين أخيراً. ويقول إن الإسلام «يبدو لك» متورطاً فى صراع مع الأديان الأخرى، ومنها اليهود فى الشرق الأوسط، ولا يشير إلى إسرائيل والصهيونية، ويتكلم عن تدمير معبد للبوذيين فى أفغانستان ولا يشير إلى هدم الهندوس لمساجد المسلمين فى الهند. ثم يتكلم عن الحملات الصليبية الأوروبية لبلاد المسلمين بحسبانها «محاولات لاستعادة الأراضى المسيحية السابقة»، أما الإسلام فهو من حاول غزو المجر وبولندا.. إلخ. ويصف مطلق المسيحيين بأنهما أناس شرفاء وخيرون ويكرهون العنف «أما هذا الوصف فيلحق «غالبية المسيحيين العظمى»، بمعنى أن ليس فى المسيحيين صنف آخر، أما المسلمون ففيهم صنف آخر، وعندما يتكلم عن فترة الاستعمار الغربى الأوروبى لبلاد المسلمين، لا يتكلم عن استعمار ولا استعباد ولا غزو ولا احتلال، ولكن يصف هذه البلاد بالتدهور» المستمر» بينما البلاد المسيحية «تتمتع بثمرات الثورة الصناعية» رغم أنه كان ضمن عساكر الاحتلال البريطانى فى الخمسينيات من القرن العشرين، ولم يدرك من حقائق الأوضاع العراقية وما يفعله جيش الاحتلال البريطانى فيه من قمع، لم يدرك إلا أن زملاءه بنظرتهم السطحية اعتبروا الإسلام دين تخلف فى مجتمع متخلف. وهو يدين الأعمال الاستشهادية فى فلسطين ويطلب من المعتدلين المسلمين أن يدينوا هذه الأعمال ويعتبر ذلك تحدياً «يواجه الإسلام» ولكنه لا يطلب ذات الطلب من معتدلين يهود بالنسبة لقتل الشيخ أحمد ياسين، ولا يعتبر ذلك تحدياً يواجه اليهودية.

والخلاصة أن المحاضرة ليست محايدة وأحكامها ليست عادلة، ووقائعها فيما ذكرت وفيما لم تذكر ليست أمينة. وهى لا تجاوز فى مستواها الثقافى كتابات الدعاية الإعلامية. وما كنت لأناقشها لولا أننى وجدتها مناسبة للحديث عن الشأن الثقافى والشأن السياسى، وعن وجوب التمييز بينهما، وعن أثر الخلط بينهما فى قلب الحقائق حول من هو المعتدى ومن هو المعتدى عليه.

[٢]

فى الستينيات من القرن العشرين، كان صدر كتاب لمفكر شاب اسمه «فرانز فانون»، وكان الكتاب بعنوان ثورة على الثورة، صدر فى ظروف انتصار الثورات الاجتماعية فى أوروبا وآسيا، وفى ظروف انتصار حركات التحرر الوطنى فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية. وكان الكتاب يتحدث عما اعترى الكثير من هذه الثورات من جمود وترهل وما أنتجت من ظهور طبقات حاكمة جديدة تخلت عن مثالياتها وتوجهاتها الشعبية. وكتب مقدمة الكتاب جان بول سارتر، الفيلسوف الفرنسى المعاصر الذى اشتهر وقتها بمواقفه شديدة التعاطف مع حركات تحرير شعوب العالم الثالث.

ومن أهم ما حفظته ذاكرتى من حديث سارتر فى هذه المقدمة، ملاحظته أن شعوب آسيا وأفريقيا ومفكريها، كانوا عندما يتكلمون يخاطبون الغرب والغربيين. وكان الغرب هو من يوجه إليهم حديث هؤلاء. وأن ثمة جديداً ظهر فى الستينيات من ذلك القرن، مع حركات التحرر والاستقلال، وهو أن شعوب هذه البلدان ومفكريها صاروا يتخاطبون مع بعضهم البعض، لم يعودوا يخاطبون الغرب ولا الغربيين، وصار الغرب وأهله يتسمعون أحاديث هؤلاء وهم يتحدثون معاً. هذه الملاحظة الذكية التى أبداها سارتر، احتفظت بها فى وجدانى، لأنها ذات دلالة مهمة على تحرر «الوعى والإدراك» لدى شعوبنا التى كانت محتلة ومستعمرة، والتى كان الاستعمار تغلغل لدى مثقفين من أهلها حتى ارتبط لديهم الوعى والإدراك برباط التبعية والإلحاق.

والتبعية والإلحاق هنا تفضى إلى أن ننظر إلى أمورنا لا كما هى عندنا، ولكن ننظر إليها كما

سياسي لا ثقافي

يراها الغربيون، وأن نرى أنفسنا بعيون غربية، وأن نصنف مشاكلنا بمثل ما يصنف به الغرب مشاكله، ونرتب أولوياتنا بالترتيب الذى يضعه هو، وأن نحكم على أنفسنا وأمورنا بميزانه، وأن نثير من الأمور ما يثيره، وأن نسمى أنفسنا بما يطلقه علينا من أسماء، وأن نضع الأمور بالطريقة التى يضعها هو، وأن تثير أمورنا وفق جدول الأعمال الذى يصفه لنا. فإذا قال أن مسألة المساواة بين الرجل والمرأة أهم من مسألة حقوق الشعوب فى تقرير مصيرها، استجبنا له، وإذا قال أن حرية الإبداع الفنى والأدبى أهم من حرية الشعوب فى سعيها للاستقلال، نسجنا على منواله.. وهكذا.

والحاصل أن ملاحظة سارتر السابقة، لا تكاد نراها اليوم بذات ظهورها القديم، وعلى وجه الخصوص فيما أسفرت عنه الأوضاع الثقافية الظاهرة فى المنابر الرسمية والحكومية وأجهزة الإعلام المدعومة من الخارج أو من الحكومات التابعة للمصالح الاستعمارية اليوم. وصرنا نسمع النفخ فى النفير يأتى من ناحية الغرب، وبخاصة الغرب الأنجلو سكسونى، وبوجه أخص من غرب المحيط الأطلسى من الولايات المتحدة الأمريكية. ونحن نتحرك بهذا النفخ ويتراقص كثيرون على نغمات النفير. ولولا ذلك لما كان هذا الاهتمام العجيب الذى لا ينتهى بمقولات هانتنجتون عن صراع الحضارات، أو مقالات فوكوياما عن نهاية التاريخ. ولولا ذلك لما كان هذا الاهتمام الأعجب والأحدث بفكرة «الشرق الأوسط الكبير» وبفكرة «تجديد الخطاب الدينى»، و«الحداثة» و«العولمة»، وكلها موضوعات وجداول أعمال صدرها لنا الغرب، فصارت هى جدول أعمال لمفكرين ومثقفين ذاهلين عن أنفسهم ومتطلبات شعوبهم فى الاستقلال وتحرر الإرادة السياسية لدولهم التابعة وكفالة أمنهم القومى من المخاطر الخارجية وتنمية الاقتصاد بما يكفل إشباع الحاجات الأساسية للشعوب.

كم أتمنى أن يعكف بعض الدارسين على إحصاء عدد الندوات والمؤتمرات وخطب المسئولين وغيرهم وأحاديث الصحف ومناقشات الإذاعة والتليفزيون والمقالات والكتب، التى جرت كلها فى بلادنا العربية فى السنوات الأخيرة بعد أن نفخت الولايات المتحدة فى النفير من تجديد الخطاب الدينى وعن صراع الحضارات وعن التعامل مع الآخر. استهلكت طاقاتنا الفكرية وما أكثرها وما أحوجنا إليها لإصلاح شئوننا، استهلكت فى موضوعات لم تكن ذات أولوية فى الأهمية لدينا وكانت مفروضة علينا من الخارج.

وهل يمكن أن نعود إلى ممارسة ما لاحظه جان بول سارتر، عندما كنا يكلم بعضنا بعضاً، ونهتم بشئوننا الذاتية وفقاً للأولويات التى نراها وحسب جدول الأعمال الذى نضعه نحن لأنفسنا.

[٣]

كان أحمد لطفى السيد، المفكر المرموق فى بداية القرن العشرين، ومن أطلق عليه أهل جيله من المحدثين المصريين وقتها «أستاذ الجيل»، كان رحمه الله أستاذ الحداثة ورائد النزعة العلمانية بين مصريى هذا الجيل، وهو من قاوم مفهوم الجماعة الإسلامية بوصفها جماعة سياسية وحبذ النظر إلى مصر فى الإطار القطرى المصرى، وسوى بين التبعية للخلافة الإسلامية العثمانية وبين التبعية للإنجليز. ومن ثم فهو لا يتهم أبداً بأنه ذو نزعة إسلامية سياسية، ولا يتهم بعصبية دينية إسلامية.

أقول ذلك قبل أن أنقل عنه عبارة كتبها فى مقال نشره فى صحيفته «الجريدة» فى ٩ أبريل ١٩٠٨ بعنوان «نحن والاستقلال»، كتب يقول «كنا نظن أن إشاعة التعصب الدينى وإيهام أوروبا أن فى مصر خطراً يجب الاستعداد له كانت من بنات أفكار اللورد كرومر يستعين بها فى الدفاع عن نفسه وتبرير أعماله أمام أعدائه وأعضاء البرلمان الإنجليزى، ولكن يظهر أن هذه مودة إنجليزية يلبسها الإنجليزى كما يلبس رداءه الواسع وحذاءيه الثقيلين، وأن تهمة التعصب يظهر أنها قاعدة سياسية يعتنقها الإنجليز ليعملوا بها فى مصر، فإنها عندهم تساوى قاعدة الباب المفتوح فى التجارة، أو قاعدة الفرار من النظريات إلى العمليات فى العلوم».

أثبت هذه العبارة لأوضح بها للقارئ أن ما يقال اليوم عن الإسلام والتعصب له وأقرانه بما يسمونه فى الغرب عنفاً أو جموداً أو تخلفاً، هو جزء من سياسات الغرب التوسعية فى بلادنا، يرد مع مبدأ الباب المفتوح فى التجارة لغزو بلادنا واستتباعها اقتصادياً، أو مبدأ حرية التجارة الآن و«الجات».. إلخ.

ولا أريد أن أستطرد بذكر ما كان فى حادث دنشواى الذى أعدم فيه الإنجليز عدداً من المصريين بغير جريرة، وبرروا ذلك بتعصب المسلمين من المصريين.

وما ينبغى أن نتنبه إليه أن التهم التى تقال علينا فى هذا الشأن إنما هى نوع من ممارسة العدوان، فإن استباحة الحدود بالعدوان المسلح يصاحبها استباحة السوق بحرية التجارة (أو الباب المفتوح أو الانفتاح)، ويصاحبها استباحة العقول بالطعن فى العقائد والقيم بغية تغييرها والإحلال محلها ولا يعقل ألا يصاحب فعل العدوان العسكرى والاقتصادى فعل عدوان فكرى، بالتشنيع على المعتدى عليهم وتصويرهم بالصور المزرية ونعتهم بالهمجية أو الجمود أو التخلف أو التعصب ولا يعقل أن يمتدح المعتدى أى شىء لدى المعتدى عليه وهو يمارس العدوان عليه. إن المتلاكمين والمتصارعين فى حلبات الضراب يتشاتمون وهم يمارسون الضرب والركل وغيرها.

أقصد بهذا الحديث أن أخطأ ما نقع فيه من خطأ، هو أن نستدرج إلى مناقشة هذه الأمور، وأن نتصور أن دفاعنا عن عقائدنا وقناعاتنا هو مما يمكن أن يقنعهم بالحق. حقنا. فيحترموه أو يسلموا به. إن هذا الاستدراج بذاته يشغلنا بأمور ليست هى ما يتعين أن تكون له الأولوية، إذا رتبنا احتياجاتنا بما يستجيب لحقيقة مشاكلنا وأوضاعنا. فهو نوع من تبديد الطاقة أو الإلهاء بالأقل أهمية، وفضلاً عن ذلك فإن الانصياع للحديث والدفاع عن الذات فيه قدر من الاعتراف بالتهمة وفيه معنى التسليم ببعض ما يثار وفيه أيضاً قبول لحاكمية الآخر والاحتكام إلى مسلماته والتوسل إلى قناعاته. مع أن الأمر كله أمر عدوان ثقافى يستر عدواناً سياسياً من ساسة ذوى أطماع وأهداف أنانية فى السيطرة والتحكم.

[٤]

وفى إطار أن يتحاور بعضنا مع بعض فى شئوننا الذاتية لنفهم وقائعنا وحقائق أوضاعنا وما نعالج به شئوننا، فأظن أننا نحتاج إلى إدراك عدد من الأمور:

أولها: أحسب أن مذهباً فكرياً أو مدرسة فكرية لا تظهر فى ظرف اجتماعى وتاريخى معين، إلا أن تكون تعبيراً عن ظاهرة حاضرة فى هذا الظرف الاجتماعى والتاريخى، قوية كانت هذه الظاهرة الحاضرة أو ضعيفة، وصائباً كان هذا التعبير أو خاطئاً. فهى تكون معبرة عن رؤية للظاهرة ووجهة نظر معينة فى تحديد ما ينشأ عنها من مشاكل، ووجهة نظر معينة فى تبين جوانب الاستجابة والحلول لهذه المشاكل.

وإن كل جماعة ثقافية وهى تتعامل مع ما جدّ فى حاضرها من مواجهات إنما تتعاطى من مخزون ثقافتها وتسحب من رصيدها الفكرى العام المتراكم عبر العصور والذى يتكون منه التشكل العقلى والنفسى لهذه الجماعة، عقائد ومواريث وخبرات تاريخية. ونحن نعرف أن حركات تحرير الشعوب المستعمرة وحركات مقاومة الغزو الأجنبى والعدوان، إنما اتخذت تعبيرات شتى مع اختلاف عقائد الشعوب وتجارب الأمم. فاتخذت حركة غاندى فى الهند تعبيراً يستمد أصوله من الهندوسية، واتخذت ذات حركة التحرير المهدية فى السودان تعبيراً مستمداً من إسلامية الشعب السودانى، وكذلك كان فكر الأفغانى والحزب الوطنى فى مصر، فلما حدث الازدواج الحضارى الثقافى فى مصر وبلاد الشام مع العشرينيات من القرن العشرين، ظهر تعبيران عن الحركات الوطنية، مثل التعبير الوفدى العلمانى فى مصر وتعبير الإخوان المسلمين فى مصر أيضاً.. وهكذا.

وفى أوروبا مثلاً، فإن بناء النموذج الديمقراطى فى فرنسا أوائل القرن التاسع عشر استدعى رصيداً تاريخياً من نظم الإغريق المسماة بالديمقراطية، وعلى خلاف ذلك فإن بناء الدولة القومية الموحدة لألمانيا وولاياتها المبعثرة فى منتصف القرن التاسع عشر استدعى رصيداً تاريخياً من نظم الإمبراطورية الرومانية القديمة، وحتى النظم الفاشية والنازية التى عرفتها أوروبا فى النصف الأول من القرن العشرين، فقد ظهرت فاشية إيطاليا فى العشرينيات من خلال بعث الأمجاد الرومانية، وظهرت

نازية ألمانيا فى الثلاثينيات من خلال الفكر الاشتراكى السائد وقتها، ويقال إنه عندما ظهرت فى الولايات المتحدة الأمريكية حركة شبيهة وقتها إنما تسربلت بالفكر الليبرالى الحر، وكذلك حدث مع مكارثى فى الولايات المتحدة الأمريكية فى الخمسينيات.

ثانياً: إن كل تيار فكرى أو سياسى إنما يحتوى على إمكانات غلو وإمكانات اعتدال. وأن الواقع المعيش أو الظرف التاريخى أو موقف جماعة معينة ورؤيتها فيما يتضمنه هذا التيار، إن أياً من ذلك هو ما يُنعش أياً من إمكانات الغلو أو الاعتدال أو يضمرها، كما أنه فى كل من الحركات السياسية تقوم إمكانات لاستخدام العنف وإمكانات لاتباع الأساليب السلمية. وإن الغلو والاعتدال يتعلقان بالأهداف المبتغاة، وهو يقاس بتقدير مدى الفروق بين أوضاع الحاضر فى رؤية تيار سياسى محدد وبين الأهداف المطالب بها، وكلما اتسعت الفجوة بين رؤية الحاضر وبين الهدف المطلوب كان التيار أجنح للغلو، وكلما ضاقت الفجوة كان أجنح للاعتدال، كما أن العنف والسلم يتعلق بالوسائل المتخذة لبلوغ الأهداف، فحيث لا يكون ثمة مناص من استخدام العنف يتخذ العنف سبيلاً، وحيث ترى أى حركة سياسة إمكان تحقيق الأهداف بالتداخلات الاجتماعية والتخلل الاجتماعى والسياسى، تتبع وسائل ذلك. واستخدام العنف يقتضى مفاصلة ومفارقة بين حركة التعبير وبين هيئات المجتمع ومؤسساته، واستخدام الوسائل السلمية يقتضى الاندماج والاشتباك والتخلل لمؤسسات المجتمع وهيئاته. وهكذا.

وكل ذلك هو «سياسة»، وكل ذلك تقوم فيه الخيارات على أساس تقدير الواقع وفق رؤية تيارات بعينها أو حركات معينة فى الزمان والمكان المعينين. والتفكير السياسى فى كل ذلك إنما يظهر من «واقع» ويستدعى «مخزوناً ثقافياً».. ومن هنا ندرك التباين الواسع بين ما اتصف به فى مصر كل من الحزب الوطنى وحزب الوفد فى بدايات القرن العشرين، ما اتصف به كلٌ منهما بين النشاط المعتدل والسلمى أحياناً وبين النشاط المغالى والعنيف فترات ليست طويلة ولكنها موجودة، وبين سلوك أى منها طريق الدعوة السياسية السلمية وبين ظهور منظمات سرية لأى منها فى فترات ما. كما ندرك التباين فى الثلث الأخير من القرن العشرين، داخل الحركات الإسلامية المصرية بين نمط الإخوان المسلمين المعتدل والسلمى الثابث، وبين نمط الجهاديين والجماعة الإسلامية المغالى والمستخدم للعنف، وكل ذلك أساسه النزوح فى النظرة السياسية والاختلاف فى رؤية الواقع المعيش.

كما نلحظ خارج مصر، حركات وطنية اعتمدت على حروب العصابات مثل الصين وفيتنام، وحركات اعتمدت على الوسائل السلمية مثل الهند، وحركات اشتراكية اعتمدت على العنف وكانت مغالية مثل شيوعيى روسيا وحركات اشتراكية اعتمدت على السلمية مثل إيطاليا وغيرها. وكذلك الشأن بالنسبة للحركات القومية. وبالنسبة للحركات الإسلامية نفهم التباين بين حركة تحرير أفغانستان الإسلامية العنيفة ثم حركة طالبان وما انعكس فى ذلك من الواقع الجبلى القبلى للبلاد، التباين بين ذلك وبين الحركات الإسلامية فى تركيا البلد الأوروبى الآسيوى والمسلم الوارث لبيزنطة منذ عهد العثمانيين، وما تتصف به هذه الحركات من مرونة وسلمية وقدرة على الالتفاف.

ثمة تنوع هائل وتعدد فى الرؤى السياسية ووجهات النظر الاجتماعية، حسب ظروف الزمان وظروف المكان، وحسب نوعية المشاكل المطروحة ونوع الصراع الذى يقوم وأطرافه الآخرون، وحسب توجه الجماعة السياسية الاجتماعية التى تتبلور على يديها حركة معينة.

وهذا النظر المركب هو ما يتعين به أن نفهم ظواهرنا وندرك أوضاعنا، بصرف النظر عما يراه اللورد كارى.. وأن الأستاذ المحاضر عندما يسقط الوصف السياسى عن الصراع الدائر، يكون أسقط كل ما يمكن به أن يكون حديثه مجال حوار معنا. لأنه يكون أدخل نفسه فى مجال آلة الدعاية الأمريكية الإنجليزية المصاحبة لحملات العدوان العسكرى علينا، أى يكون عمله هو من أعمال العدوان الإعلامى والثقافى علينا. ■

التكافؤ لا التمايز

ملاحظات على الحوار

سمير مرقص

■ (١) كان الحادى عشر من سبتمبر نقطة تحول فارقة فى منظومة العلاقة الكونية بين الحضارات. الثقافات والأديان. فما كان يطرحه على المستوى النظرى صاموئيل هانتنجتون منذ العام ١٩٩٣، وعقب انتهاء الحرب الباردة، حول صدام الحضارات وضمنا الأديان كخلفية فكرية للسلوك الذى يجب أن تأخذ به القوة المنتصرة فى هذه الحرب، بات واقعاً عملياً ملموساً. بيد أن هذا لم يمنع أن يطلق الغرب الأمر ونقيضه أى «المبادرات المكثفة إلى الحوار» و«المسارعة الشرسة إلى الصدام»، حيث وجدنا حركة نشطة ودعوية للقاءات تعقد فى الجهات الأربع للنقاش حول حوار الحضارات، ومن جهة أخرى نجد آلة حربية مستنفرة تحت غطاء فكرى وأيديولوجى تصب نيرانها فى اتجاه الصدام بين الحضارات.

(٢) والمفارقة أن هذين الأمرين المتناقضين مصدرهما الغرب، ولعل السؤال الذى يفرض نفسه كيف يستقيم كل من «الحوار» و«الصدام» فى نفس الوقت، وإذا كان هذا التناقض يمكن أن يكون مقبولاً فى الإطار الغربى الداخلى، فهل يكون مقبولاً فى العلاقة مع الآخر الحضارى. الثقافى والدينى.

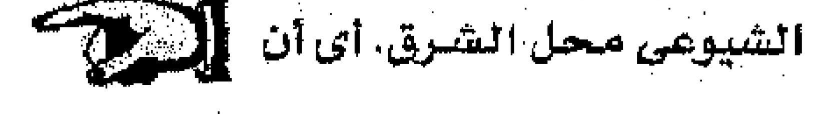
(٣) فى هذا السياق ينبغى التعامل مع كلمات. محاضرات رئيس أساقفة كانتربرى المتقاعد، حول العلاقة بين الإسلام والغرب من جهة والإسلام والمسيحية من جهة أخرى. ولكن قبل أن نعلق على بعض ما جاء فى هذه الكلمات. المحاضرات، ربما يكون من المفيد إلقاء الضوء على تاريخية الحوار من جانب، كذلك أهم الاتجاهات الحالية التى تحرك الحوار الدائر الآن، وأين تقع كلمات. محاضرات رئيس أساقفة كانتربرى منها.

الحوار: خلفية تاريخية

(١) كان الحوار، فى الأغلب الأعم، حواراً غير لين، سجالياً فى المجمل، يركز على الجوانب العقائدية، اللاهوتية. الفقهية، سرعان ما دخل فى طور صراعى إبان غزوات الفرنجة للمنطقة وذلك ما بين القرنين الحادى عشر والثالث عشر، ثم أثناء المرحلة الاستعمارية بداية من القرن التاسع عشر. ولم يظهر مفهوم الحوار بالمعنى الذى عرف بعد ذلك إلا بعد أن ظهرت الحاجة داخل المسيحية الغربية المتعددة المذاهب إلى الحوار. وفى نفس الوقت بدا أن هناك ضرورة تحت ضغط المتغيرات الدولية وتبلور مصالح عالمية. اقتصادية فى المقام الأول. إلى الانفتاح على الخارج أو الآخر غير الغربى (المسيحى والمسلم على حد سواء).

(٢) وكانت ردة الفعل المحلية تجاه دعاوى الحوار بحكمها خبرة تاريخية تعود إلى أن مبادرات الحوار بين الأديان «غربية» فى الأساس، وأنها فى البداية اتخذت أشكالاً تحمل تهديداً للعقائد (الإسلامية والمسيحية الشرقية على حد سواء)، ذلك أن الذاكرة التاريخية (الإسلامية والمسيحية الشرقية) كانت تحمل حقيقة مفادها أن الوفود الغربى جاء بداية بتمهيد ثقافى من خلال الإرساليات التبشيرية التى هدفت إلى تنفيذ عملية «تحويل» Conversion دينى للمسلمين، واقتناص Prosylitism للمسيحيين الشرقيين، وظلت هذه الخبرة نافذة فى الفكر والوجدان الشرقيين، وربما إلى الآن مع تجدد الموجات التبشيرية مرة أخرى.

(٣) ومع مرور الوقت، ومن خلال المبادرات التى تبنتها مؤسسات دولية بدأ قبول دعاوى الحوار وإن بدرجات متفاوتة، وخاصة أن بعض هذه الدعاوى جاء ليخدم مصالح الغرب الصاعد وفى إطار الهيمنة الغربية، وفى هذا الصدد يقول الجابرى: «إن العقل الأوروبى لا يتعرف على (الأنا) إلا عبر (الآخر)، والإثبات لا يقوم إلا عبر النفى،...»؛ ويضرب أمثلة على ذلك مثل: ثنائية الشرق والغرب، وحلول الآخر الشيوعى محل الشرق. أى أن



التكافؤ.. لا التمايز

الغرب يتعرف على نفسه من خلال نقيضه، الذى تارة يكون الشرق، وتارة يكون الشيوعية أو الخطر الأحمر، ثم بات الآخر. بعد الحرب الباردة. متمثلاً فى الخطر الأخضر أو الإسلام، أو بحسب هانتنجتون الحدود الدموية.

(٤) ومع عمليات التجديد الداخلى التى مارستها المؤسسات المسيحية الغربية، شقت فكرة الحوار طريقها وحاولت هذه المؤسسات أن تضع قواعد جديدة، تتجاوز القواعد التاريخية من ذلك الأخذ «بالتكافؤ الحوارى» وليس «التمايز»، والتأكيد على التعددية التى تندرج فى مقاصد الله البشرية. ومثلت هذه الجهود نقلة كيفية فى مسيرة الحوار وفتحت باباً للتواصل بالرغم مما حدث عقب الحرب الباردة والترويج لـ «الخطر الأخضر». ويلخص لنا رضوان السيد مسيرة الحوار، بقوله: إن بدايات الحوار جاءت من ضمن استراتيجية غربية.. كان النقاش من جانب المسلمين نقاشاً عقائدياً لا يجوز التنازل فيه، ومن جانب المسيحيين الغربيين باعتباره تواصلاً مفيداً فى نطاق السيطرة العالمية للغرب حيث جذب المسلمين فى مواجهة الشيوعية.. حتى إذا أطلت الثمانينيات سيطرت موضوعات حقوق الإنسان والديمقراطية على النقاش مع غلبة الطابع الرسمى المؤسسى، ثم اتسعت بيئات الحوار لتشمل أناساً مهتمين».

(٥) لقد وصل الحوار فى لحظة تاريخية معينة. منتصف التسعينيات. إلى مقام تجاوز بداياته الأولى التى كانت محل ريبة، ومراحله الوسيطة التى كانت ذات طابع مؤسسى رسمى وظف بعضها فى الصراع الأيديولوجى الكونى، حيث أصبحت أطراف الحوار ذات طابع مدنى قاعدى يتجاوز الدينى إلى الثقافى غير مستبعد للدين بل مستلهماً قيمه، وأصبحت مناطق الحوار حول ما هو نسبى مشترك بين البشر وليس حول مطلق كل طرف، وأصبح اللقاء من أجل الحوار وليس السجال.

(٦) بيد أن أحداث الحادى عشر من سبتمبر قد أعادت مرة أخرى إلى الوجود. كما قدمنا. البدايات الأولى للحوار، وجعلت من مقولات هانتنجتون أساساً فكرياً كما سنرى فى قراءتنا لكلمات. محاضرات رئيس أساقفة كانتربرى المتقاعد لاحقاً. فلقد أظهرت هذه الأحداث أن العنوان الرئيسى لمضمون التوجهات والممارسات الكونية أصبح «الغرب والإسلام» تارة و«المسيحية والإسلام» تارة أخرى، وهو ما تجلى فى ردة فعل الإدارة الأمريكية. تصريحاً وتلميحاً وفعلاً. من جهة وانتفاضة كثير من المؤسسات الأوروبية الرسمية وشبه الرسمية من أجل الحوار، ولكن بشروط تعيده إلى مراحل سابقة حيث «التمايز» وليس «التكافؤ» جوهرها. وبالرغم من أن التحرك الغربى بشكل عام والأمريكى بشكل خاص كان يحمل أهدافاً اقتصادية وسياسية، إلا أن الخطاب الذى ساد قد ركز على الحضارى. الثقافى والدينى، وهو ما لا نميل إلى الأخذ به حيث يتم اختزال الأمر فى العلاقة ذات الطبيعة الدينية أو الحضارية. الثقافية. صداماً كانت أو حواراً. وإنما إلى إدراك الأسباب الحقيقية وراء الإصرار على جعل العلاقة ذات طبيعة دينية وحضارية. ثقافية والخلط بين مفاهيم الثقافة والحضارة والدين من دون تمييز، وعدم تحرى أسباب وجذور الظواهر وإحالة التفسير إلى مقولات جاهزة يتم استدعاؤها من التاريخ، والأمر لدينا يبدو وكأنه مقصود «لتغطية المصالح» الحقيقية.

ثلاث رؤى غربية حاكمة للحوار بعد ٩/١١

من الأهمية بمكان ضرورة التمييز بين ثلاث رؤى تحكم الفكر الغربى الحالى فيما يتعلق بقضية الحوار.

هذه الرؤى هى كما يلى:

(١) الرؤية الاستشراقية/ المناطقية (القديمة/ الجديدة).

(٢) الرؤية الاستشراقية المعدلة.

(٣) الرؤية المدنية/ القاعدية.

(١) الرؤية الاستشراقية/ المناطقية (القديمة/ الجديدة):

يمكن القول إن هذه الرؤية تتأسس على أن هناك صراعاً تاريخياً بين عالم الغرب وعالم الإسلام، والضارب بجذوره إلى أكثر من ألف سنة، بحسب فريد هاليداى، بدءاً من فتح إسبانيا فى القرن السابع مروراً بالحروب الصليبية (والمعروفة بالفرنجة) ثم النزاعات العثمانية الأوروبية والصراعات العرقية فى عالم ما بعد الحرب الباردة فى القارة الأوروبية. ويحدد أنور عبد الملك أكثر هذا الأمر حيث يربط بين بداية الاستشراق وبداية الفتوحات الغربية، ويبدو أن الاستشراق يستعاد، وما مع لحظات التوسع الغربى الاقتصادى المباشر وهو أمر متكرر منذ القرن الخامس عشر وانتقال مركز الثقل الكونى إلى الغرب وتأسيس ما يعرف بالمركزية الغربية، وتقوم الفكرة الاستشراقية أو المناطقية بالتعبير الحديث Area Studies على قاعدتين هما:

(أ) التباين المطلق بين الشرق والغرب. الإسلام والغرب.

(ب) الجالية التاريخية بين الشرق والغرب. الإسلام والغرب.

لذا فليس من المستغرب أن تكون أعمال هانتنجتون مصدراً أساسياً لاستعادة الاستشراق الجديد بالإضافة إلى كتابات برنارد لويس ثقافات فى صراع Cultures In Conflicts قبل الحادى عشر من سبتمبر ثم كتابيه: What Went Wrong? ËThe Crisis of Islam.

وذلك بعد الحادى عشر من سبتمبر بالإضافة إلى كم غير قليل من الكتابات تحمل مضمون المدرسة الاستشراقية القديمة. الجديدة حيث:

❖ التركيز على العوامل الثقافية وحدها، دون غيرها باعتبارها مسئولة عن الواقع السياسى والاقتصادى.

❖ التأكيد على ثنائية «نحن» و«هم».

❖ إحالة أسباب تخلف الشرق/ الإسلام إلى العوامل الجغرافية والعرقية.

❖ التأكيد على مقولة «الغرب والآخرون» The West And the Rest.

(٢) الرؤية الاستشراقية المعدلة:

وهى مدرسة تدعو للحوار بين الثقافات والحضارات والأديان انطلاقاً من أن الصدام الحضارى ليس صداماً حول السيد المسيح، أو محمد (ص)، أو كونفوشيوس بقدر ما هو صراع سببه التوزيع غير العادل للقوة والثروة والنفوذ، والازدراء التاريخى الذى تنظر به الدولة والشعوب الكبرى إلى الصغرى. وفى نفس الوقت يعيد أبناء هذه الرؤية النظر إلى الثقافة باعتبارها وسيلة للتعبير عن المنازعات وليست سبباً فيها. بيد أنه بالرغم من محاولة التمايز عن الرؤية الاستشراقية ببعديها القديم والجديد، إلا أن هاجس وجود عدو وضرورة تحديد هويته يبقى أمراً مشتركاً بين الرؤيتين. وتضع هذه المدرسة مبادئ مرجعية للقياس عليها وتخلص إلى أن من يقف ضد هذه المبادئ سيصبح عدواً بالضرورة ويمكن إيجاز هذه المبادئ فيما يلى:

(أ) الرأسمالية والسوق الحرة.

(ب) حقوق الإنسان والديمقراطية الليبرالية العلمانية.

ولا يتردد أصحاب هذا الاتجاه فى توجيه بعض الانتقادات للنظام الغربى كما يقبلون بعض الانتقادات التى يوجهها «الآخرون» من العالم الثالث. الشرق للممارسات الغربية، وهو ما يعنى وجود مساحة حوارية بين الغرب والآخرين، ولا يمانع أيضاً أنصار هذه الرؤية من الأخذ بمفردات ومفاهيم بعض الاتجاهات النظرية لمدرسة التبعية من نوعية المركز والأطراف، أو مفاهيم الشمال والجنوب.. إلخ.

وتحاول هذه المدرسة تفهم الأوضاع الاقتصادية التى ربما من أسبابها الغرب نفسه، وإلى تفهم إشكاليات عمليات التحديث. بيد أن أنصار الرؤية المعدلة يقاومون بكل قوة الاستقلال التام عن الغرب بل وضع ذلك وضرورة اتباع النموذج الغربى الذى أثبت نجاحه وعليه تطرح هذه الرؤية مهام على الغرب أن يؤديها وذلك كما يلى:

(أ) مراجعة القيم والمفاهيم الغربية لتواكب المتغيرات.

(ب) ترك العالم الثالث يسلك طريقه نحو التحديث، كل حسب الطريقة التى يختارها، والتفاعل بصورة إيجابية مع الدول التى تحقق تقدماً اقتصادياً فى الإطار الغربى.

(ج) مساعدة الدول التى لا تستطيع تحقيق التقدم بحسب النموذج الغربى حتى لا تقوم مواجهة بين الغرب والآخرين.

إن أنصار هذه الرؤية ينتجون قدراً من الحركة والحرية للآخرين ولكنهم يؤكدون على مرجعية النموذج الغربى فى النهاية (من رموز هذه المدرسة جون إسبوزيتو وجراهام فولر..).

(٣) الرؤية المدنية. القاعدية:

هناك فى داخل المنظومة الغربية من هم متحررون من التراث الكولونيالى، ويجاوزون فكرة الحضارة. الكتلة والتى تعنى تماثل العناصر المكونة لها فى مواجهة حضارة. كتلة أخرى. وهؤلاء الذين كان لهم فضل تطوير المسيرة الحوارية وشدها إلى مناطق بعيدة عن المصالح السياسية كذلك الجوانب السجالية، كما أعطتها بعداً مدنياً. قاعدياً وليس رسمياً. قمياً، ويدخل فى هذا الإطار حركات مناهضة العولمة وحركات العولمة من أسفل وتتجاوز عن التنميط الحضارى السابق التجهيز. فهناك ولاشك من يمكن أن يتعاطف مع قضيتى فى الغرب بقدر احتمال أن يكون هناك من يتجنب من بنى حضارتى ودينى لرؤية الغرب وممارساته.

وبعد فى ضوء ما سبق أين تقع كلمات. محاضرات رئيس أساقفة كانتربرى المتقاعد؟ وما هى أهم الملاحظات التى يمكن رصدها على خطابه الفكرى؟

ملاحظات منهجية على محاضرتين

يمكن القول إن خطاب «لورد كارى» ينتمى إلى المدرسة «الاستشراقية المعدلة»، حيث يحاول فى محاضرتيه (نعتمد على محاضرة ألقيت فى ٢٠٠٤/٣/٢٥ بعنوان: المسيحية والإسلام: صدام أم لقاء؟ وأخرى ألقيت فى ٢٠٠٤/٥/١٢ بعنوان: الإسلام والغرب) أن يتفهم الإسلام وحالة المسلمين ولكن بأسس

ومعايير غربية.. كيف؟ سوف تحمل الإجابة عن هذا السؤال الملاحظات التالية:

ملاحظة أولى: الإسلام ليس شأنًا واحدًا بسيطًا:

لعل أول ما نطالعه عند قراءة النصين هو التعامل مع الإسلام كأنه «شأن واحد بسيط» ولكنه في الحقيقة وبحسب إدوارد سعيد في كتابه القيم تغطية الإسلام، «وهم في بعضه أو تعميم أيديولوجي في بعضه، وهو تحديد بسيط جداً للإسلام في بعضه الآخر وذلك كما هو مستخدم اليوم في الغرب». ويضيف سعيد عبارة مهمة منصفة أنه «لا تقوم أي مقابلة مباشرة على أي درجة من الأهمية الحقة، بين الإسلام بسكانه وحدوده الشاسعة وبالعشرات من مجتمعاته ودوله وتواريخه وجغرافيته وثقافاته». إن الإسلام كعقيدة من جانب والمسلمين الذين ينتمون إليه من جانب آخر أكثر تعقيداً من اختزالهم في رؤية واحدة قد تكون مستعادة عن التاريخ. فالجامع الديني الموحد للمسلمين لا ينفي التنوع الداخلي الذي يحمل مركبات ثقافية وحضارية وتاريخية متعددة.

ملاحظة ثانية: التمييز الوجودي والمعرفي معوق للحوار

القارئ للمنهج الاستشراقي الكلاسيكي في تناول القضايا يجد أنه أسلوب من الفكر قائم على تمييز وجودي ومعرفي بين الغرب والشرق وبين الغرب والإسلام؛ فمن الناحية التاريخية نجد جمهوراً كبيراً جداً من الكتاب وبينهم شعراء، وروائيون، وفلاسفة، ومنظرون سياسيون، واقتصاديون، ورجال دين..، وقد تقبل هذا التمييز بوصفه نقطة انطلاق لسلسلة محكمة الصياغة من النظريات، والملاحم، والروايات، والأوصاف الاجتماعية، والمسارد السياسية التي تتعلق بالشرق/ الإسلام وسكانه، وعاداته وعقله، وقدره وما إلى ذلك. وهذا التمييز نجده في ثنايا النصين اللذين نحن بصددهما بداية من صياغة العناوين وما جاء في المحتوى.

ملاحظة ثالثة: هل الحضارات أو الأديان تتصارع أم الناس؟

إن المقاربات الموضوعية التي تناولت العلاقة بين الحضارات والأديان، تشير إلى أن الحضارات والأديان لا تتصارع أو تتحاور، بل «الناس» هم الذين يتصارعون ويتحاورون لأسباب تتعلق بالمصالح في المقام الأول. وأن مواقفهم لا تنبع من معطياتهم الحضارية والدينية بقدر ما تنبع من مواقعهم في البناء الاجتماعي القومي أو العابر للقوميات. فالحضارات والأديان ليست «كتلاً» تعمل كل منها وكأنها آلية منتظمة في ذاتها، صماء في طبيعتها. وتأتي أهمية ما سبق لدحض فكرة أن التوسع في جوهره يقوم على أساس ديني وهو ما جاء في النص ودلل على ذلك بالحروب الصليبية، من دون الأخذ في الاعتبار الأسباب الاقتصادية والسياسية لأي توسع والذي قد يتستر وراء الدين أو يوظفه. ولا يفسر لنا لماذا انحازت المسيحية الشرقية إلى الإسلام في موقفها من هذه الحملات بالرغم من التوافق الديني الذي كان يفترض عكس ذلك. التأسيس الفكري على الطبيعة الدينية للصراع أمر غاية في الخطورة. حتى التدليل التاريخي على التعايش بين المسلمين والمسيحيين واليهود يحيله ضمنًا إلى البعد القيمي من دون النظر إلى أن التعايش ربما يكون قد فرضته المعاناة المشتركة بين جماهير المسلمين والمسيحيين واليهود أو التحدي الخارجي، معاناة من قبل حاكم ظالم أو تحديات وافدة استعمارية وتبشيرية مثلاً.

ملاحظة رابعة: استبعاد السياق التاريخي

جاء في سياق النص الأول مقولتان، الأولى حول التزامن بين تدهور البلاد المسلمة وتمتع البلاد المسيحية بثمرات الثورة الصناعية بداية من القرن الثامن عشر. ها هو مرة أخرى. ربما من دون أن يدري. يقسم العالم إلى معسكرين إسلامي ومسيحي من جهة وفي نفس الوقت لا يفسر لنا كيف نهضت أوروبا.. هل بفضل عوامل داخلية تخص أوروبا فقط، أم بفضل الموجات الكشفية التي نزحت ثروات لا حصر لها. نقول ذلك ونحن نعي مدى الوهن الداخلي الذي طال الدولة العثمانية آنذاك لاعتبارات تخص البنية الداخلية لهذه الدولة.

أما المقولة الثانية فهي حرصه على عدم نسيان أن الحضارة الأوروبية والأمريكية هي مستودع العدل والقيم الليبرالية، والديمقراطية.. والخروج باستنتاج عدم الاستسلام لدعاوى تفوق البلاد الإسلامية أخلاقياً وروحياً.. مرة أخرى لا نفهم كيف وصلت أوروبا وأمريكا لما هما عليه الآن وهل كان ذلك لاعتبارات عرقية أو جنسية مثلاً أو دينية. وهل وصلت إلى ذلك بقرار سيادي أم بحركة على أرض الواقع وهو ما ينبغي إدراكه عند الحديث عن ضرورة الأخذ بالديمقراطية في واقعنا حيث يقترب لورد كيري من الأخذ بالمنطق السياسي الذي يتم الترويج له من خلال الوثائق الخاصة بالإصلاح الأمريكية والأوروبية حتى أنه أخذ بالتقسيم الوارد في هذه الوثائق ألا وهو الشرق الأوسط وشمال أفريقيا.

وجدير بالذكر أن مفهوم الشرق الأوسط هو مفهوم سياسي وليس جغرافيًا، يتم استخدامه باعتباره منظومة سياسية مفتوحة تضم دولاً قابلة للحذف وقابلة لاستيعاب دول داخلها وهكذا قمنا بتأجيل هذا الأمر في كتابنا: الحماية والعقاب.. الغرب والمسألة الدينية في الشرق الأوسط.

بالعودة إلى الديمقراطية فإنه يضعها كأنها «قرار يتخذ» وليست وليدة حركة المواطنين، وأنها «منحة» تستكمل بالاستقرار الاقتصادي والتعليم وحقوق الإنسان لأنه بغير ذلك تحدث الثورة وإثارة حفيظة المسلمين تجاه ثروة ووفرة الغرب. إنه منطق الديمقراطية النموذجي Model ؛ المحددة ملامحها سلفًا وهو منهج يتفق مع ما يطرحه الأمريكيون ولعل ما جاء في كتاب فريد زكريا مستقبل الحرية أو ما أسماه بالديمقراطية الليبرالية المرتبطة بالسوق الحرة والمقيدة سياسياً، وفي كل الأحوال يبدو الأمر وكأنه ضرورة لحماية الغرب بالأساس وليس حقًا طبيعياً لشعوبنا.

ملاحظة خامسة: أين موقع المسيحية الشرقية في طرح لورد كاري؟ مسيحيو الشرق ليسوا أهل ذمة أو أقلية.

يثني لورد كاري على هانتنجتون بالرغم من تحفظ البعض على مقولاته ويجعلها منطلقًا لحديثه فهو يقبلها ضمنًا من دون نقد وأن أحداث ١١ سبتمبر قد عززتها وهو ما يستقيم مع ما قدمنا له. بيد أن ما يهمنا هنا هو الإشارة إلى أن النصين أهملا أن هانتنجتون قد وضع المسيحية الأرثوذكسية (الشرقية) في نفس الخندق مع الإسلام ويقول ما نصه:

«أخذت خطوط الانقسام بين الحضارات تحل محل الحدود السياسية والأيديولوجية للحرب الباردة باعتبارها نقاطًا تفجر الأزمات والمذابح. فقد بدأت الحرب الباردة عندما قسم الستار الحديدي أوروبا سياسياً وأيديولوجياً. وانتهت الحرب الباردة مع انتهاء هذا الستار. ومع اختفاء الانقسام الأيديولوجي لأوروبا، فإن الانقسام الثقافي لأوروبا بين المسيحية الغربية من ناحية، والمسيحية الأرثوذكسية والإسلام، من ناحية أخرى، قد عاود الظهور».

ويلاحظ أنه في النص الإنجليزي يميز بين المسيحية الغربية وبين الأرثوذكسية بشكل واضح، حيث لم تتضمن الترجمة العربية للكتاب هذه الأسطر، حيث قال هانتنجتون نصًا: «Several Scholars distinguish a separate orthodox Civilization centered in Russia and «Separate from western Christendom

«العديد من الباحثين يميزون حضارة أرثوذكسية منفصلة، مركزها روسيا، عن العالم المسيحي».

وهنا العالم المسيحي هو العالم الغربي، بالنسبة له، فالغرب يعني العالم المسيحي الغربي، ويضيف أن الحضارة الغربية هي حضارة أوروبية تاريخية، وفي الوقت الحالي هي حضارة أوروبية أمريكية أو شمال أطلنطية، وهو ما يأخذ به لورد كيري في نصيه. إذن فإن المسيحية الشرقية مستبعدة من ذهن لورد كيري وفي نفس الوقت وبالرغم من رجوعه إلى هانتنجتون لم يشر إلى تقسيمه الذي يضعها مع الإسلام. يضاف إلى ما سبق هو تركيزه في نصيه على قبول المسيحيين أن يعيشوا كأهل ذمة (النص الأول) ونظرته إليهم إجمالاً كأقليات (النص الثاني)، وهو ما يحتاج إلى مراجعة حقيقية حيث إن. على الأقل في الحالة المصرية. كانت العلاقة بين المسلمين والأقباط خاضعة للحركة المجتمعية حيث النهوض كان يعني التماسك والاندماج وتراجع الدولة كان يعني حدوث التوتر، كما أن المعاناة المشتركة والحركة الوطنية في مواجهة الوافد حاكماً ومستعمراً ومبشراً قد ساهمت في تجاوز مفهوم الذمة ما جعل كثيراً من الفقهاء المحدثين يقولون بأن عقد الذمة ليس مؤبداً وأن الحركة الوطنية الجامعة قد أنهت وضع الذمة. وربما يكون من المفيد عند تناول هذا الأمر أخذ كل حالة على حدة بغير تعميم كذلك الحرص في عدم تقسيم المجتمعات على أساس ديني بين أغلبية تدين بدين وأقلية تدين بدين آخر.

ملاحظة سادسة: منهج «التقابل»:

النصان يحكمهما إلى حد كبير منهج «التقابل»، حيث الثنائيات تسود على مدى النصين، وهو منهج استشراقي بامتياز حيث يمكن رصد سمات أربع أساسية لهذا المنهج وذلك كما يلي:

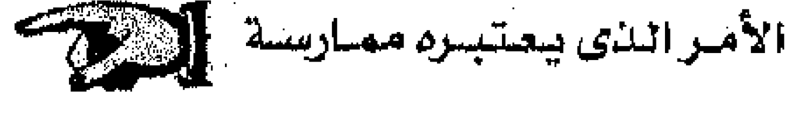
(١) رسم صورة تبدو دقيقة للواقع زاخرة بالتفاصيل وعامرة بالمعلومات.

(٢) بناء بنية من التقابلات بين الشرق/ الغرب، الإسلام/ المسيحية، الإسلام/ الغرب، في ضوء التفاصيل والمعلومات التي تنتقى بعناية وربما تكون في غير سياق ولكنها تبرز الأفكار الأساسية المطلوب تبريرها.

(٣) تمرير مجموعة من الأفكار المعدة سلفًا والتي تصب في توجهات أو استراتيجيات محددة.

(٤) الخروج بعدد من الصيغ العلمية المكتوبة برصانة وحسم.

لذا فليس من الغريب أن يعود إلى برنارد لويس مطولاً في النص الثاني خاصة في قضايا حساسة، وهو ما نقده إدوارد سعيد يومًا ورصد المنهجية الاستشراقية خاصة في استخدامها لمنهج التقابل، وقال: «إن جهد لويس هو جزء من البيئة السياسية أكثر من البيئة الفكرية الصرفة». ويدلل على ذلك بالمثال التالي: «خذ كمثال نموذجي التناظر الذي يقيمه بين نقدي للاستشراق وبين هجوم مفترض على دراسات العصور الكلاسيكية القديمة، وهو الأمر الذي يعتبره ممارسة



التكافؤ.. لا التمايز

حمقاء. الشق الأخير سيكون صحيحًا بطبيعة الحال، لولا أن الاستشراق والهيللينية لا يقبلان. وعلى نحو جذري، أية مقارنة. فالأول محاولة لوصف منطقة بأسرها من العالم كملحق ملازم للفتح الاستعماري لتلك المنطقة، أما الثانية فلا تدور إطلاقًا حول الفتح الاستعماري المباشر لليونان في القرنين التاسع والعشرين. أضف إلى ذلك أن الاستشراق يعبر عن كره غريزي للإسلام، والهيللينية تعبر عن التعاطف مع اليونان».

أتصور أن ما قدمه إدوارد سعيد من جهد أكاديمي في هذا المقام جدير بأن يستعاد في سياق تعاملنا مع نص لورد كاري خاصة أنه في تقديرنا يستخدم ذات المنهج ولعل استشهاداته بنوعية معينة من الأكاديميين تؤكد ذلك.

ملاحظة سابعة: غلبة الرؤية المؤسسية:

أتصور أن الخبرة الحوارية التي لدى لورد كاري هي خبرة مؤسسية وضعت من الخبرات التي سردها والأسماء التي ذكرها وهذه النوعية من الخبرة تفرض رؤى وتوجهات معينة، حيث يؤكد تاريخ الخبرة الحوارية أن كلما اتجه الحوار بعيداً عن المؤسسية وعن القمية أو ما أسميته «بالمدنية. القاعدية»، تحرر من الحسابات والتوازنات الضيقة أثمر وأنجز. ودائمًا كانت الحوارات ذات الطابع المؤسسي محل قلق كما أسلفنا في المقدمة، ويمكن هنا الإحالة إلى مقال الأستاذ محمد حسنين هيكل المعنون «الفرانكوفونية»، حيث إشارته المهمة حول بدايات الحوار والسياقات التي تحرك فيها.

ملاحظة ثامنة: المقاومة كيف لا تكون مشروعة؟

كرر اللورد كاري في نصيه موقفه من المقاومة الفلسطينية حيث صنفها إجمالاً بأنها إرهابية وهو أمر لا يستقيم مع مواقف كثير من رجال الدين المسيحي في الشرق والغرب الذين يدركون مدى بشاعة الاحتلال ويعطون مشروعية للمقاومة، ولعل ما يتعرض له رجال الدين المسيحي في القدس حتى الذين يمثلون كنائس غربية من عنت يكون كفيلاً بتغيير ما جاء في هذين النصين. فالوضع على أرض الواقع جد خطير ولابد من تفهمه وعدم الحكم بمعايير وجدانية برفض العنف أو المساواة بين الغاصب والمغتصب.

نحو حوار متحرر من السياسة:

موضوعي وممتاز من البشر

(١) وفي النهاية وبعد أن حاولنا أن نقدم خلفية تاريخية لمسيرة الحوار وللرؤى الغربية الحاكمة له بعد ٩/١١ ثم رصدنا عدداً من الملاحظات حول محاضرتي رئيس الأساقفة المتقاعد جورج كاري، فإننا ندعو لحوار حقيقي يتجاوز آثار ٩/١١ مدني. قاعدي حول قضايا الناس بدون الوقوع في فخ الحوار ذي الطابع السجالي أو التقابلي خاصة إذا ما ارتبط بالمطلق حيث يؤدي هذا إلى أن ينتهي الحوار لحظة بدايته ويمتنع التواصل الذي يهدف إلى البناء المشترك ولعل من المفيد تذكر ما طرحه يوماً أستاذنا وليم سليمان قلادة حول قواعد الحوار هو ضرورة فهم الآخر كما يريد أن يكون مفهوماً، هذه قاعدة أولى، والثانية أن الحوار دعوة لأن يزداد الشخص تفهماً لدينه كي يستطيع عرضه للآخر بأسلوب مقنع. أما القاعدة الثالثة أن التميز لا يظهر في الجدال العقائدي أو في من هو أفضل بل في العمل لصالح الإنسان. وأخيراً الحوار الناجح هو الذي يؤدي إلى اتخاذ الأطراف المتحاورة موقفاً عملياً مشتركاً يضاف إلى ما سبق أن السياق التاريخي والأخذ بالأسباب من شأنه أن يلقي الضوء على الحاضر وأن ما نراه الآن ليس قدراً أو نتاجاً فجائياً بل هو نتاج لمسيرة تاريخية تفاعلت وتداخلت فيها كثير من الظروف والأطراف كما أن تغييراً لا يمكن فرضه أو قسره أو هندسته بشكل ميكانيكي وبمنطلق «الاستزراع» بل ينبغي أن يكون وليد الواقع وثمرة جهد الناس، وهذه هي الخبرة الغربية.

(٢) إن التقدم والنهوض لا يمكن فرضهما بالمنطق الاستشراقي القديم. الجديد، أو المعدل، حيث إنه تاريخياً تم إجهاض كل منهما بالتوسع الذي تم منذ القرن السادس عشر بحسب بيتر جران ووالرشتاين وآخرين. إن الانتصار الغربي في الحرب الباردة، والنزوع الإمبراطوري الأمريكي قد دعم فكرة الأخذ بالنموذج المنتصر وإن تم ذلك قسراً، وهو أمر يحمل تناقضاً ذاتياً بين حرية اكتساب حقوق المواطنة وبلوغ الديمقراطية وتحقيق المجتمع العادل وبين فرض ذلك جبراً بحسب نموذج معتمد، والإصرار على أن التحديث يعني التغريب بالرغم من المراجعات الغربية في هذا المقام.

(٣) في هذا السياق تأتي أهمية الرؤية المدنية القاعدية حيث إمكانية أن تأخذ كل تجربة سياسية مداها في ضوء واقعها كذلك إمكانية قبول وجود مركزيات أخرى غير غربية وعليه يستقيم الحوار، وهذا يتطلب منا أن نمد جسور الحوار مع القوى المدنية القاعدية في الغرب والتي تتبنى رؤية في الواقع تتفق مع مصالحنا، والتي تمس أوضاع الناس بشكل مباشر وعدم الوقوع في فخ تحويل النظر عن هذا الأمر تحت مظلة الحوار/ الصدام الحضاري أو الديني. ■

هذه عيوبنا

الديمقراطية هي الرد

محمد سليم العوا

□□ عرفت الدكتور جورج كاري رئيس أساقفة كانتربري السابق (اللورد كيري الآن) في نوفمبر سنة ٢٠٠١ عندما تلقيت منه دعوة للمشاركة في حوار إسلامي. مسيحي عقد في المقر الرئيسي للكنيسة الإنجليزية Lambeth Palace يومي ١٧ و١٨ يناير سنة ٢٠٠٢.

شارك في هذا اللقاء رجال دين وعلماء ومفكرون وأساتذة جامعيون من أهل الدينين. وكان عنوانه «بناء الجسور» Building Bridges. وكان هدفه. كما حدده رئيس الأساقفة في خطاب الدعوة التي وجهت إلى المشاركين فيه هو «النظر بسعة أفق إلى الأمل في أن يشترك الحاضرون في الوصول إلى فهم وشعور متبادلين حول تاريخ ديننا العظيمين وتطورهما، ومكانتهما في العالم الحديث».

وكان اللقاء علمياً، جاداً، صريحاً. ورحّب اللورد كاري بالمشاركين في جلسة افتتاحية تحدث فيها أيضاً رئيس الوزراء البريطاني توني بلير الذي كان مشاركاً في استضافة هذا اللقاء.

وحضر اللورد كاري جلسات اللقاء كافة على امتداد يوميه، وتناول الغداء وتبادل في أثنائه الحديث مع المشاركين جميعاً تقريباً. ولم أجد في كلمته الافتتاحية، ولا في مداخلاته في أثناء الجلسات، أو في المحاورات الجانبية التي شاركت فيها أو استمعت إليها أي تعليق يمكن أن يعتبر سلبياً من وجهة نظر إسلامية.

لذلك كان مثيراً للعجب أن أطالع في عدد من الصحف العربية تعليقات ناقدة. بحدة أحياناً. لمحاضرة ألقاها اللورد كاري في ٢٥ مارس ٢٠٠٤ في جامعة جريجوريان في روما تحت عنوان: المسيحية والإسلام: صدام أم لقاء؟

ولم يتح لي نص المحاضرة إلا عندما تفضل الأخوة في «وجهات نظر» بإرسالها إليّ. ومعها نص محاضرة أخرى ألقاها اللورد كاري نفسه في جامعة ليستر في بريطانيا في ١٢ مايو ٢٠٠٤ بعنوان: الإسلام والغرب: تحدي الإنسانية (!) (علامة التعجب من عندي).



في هذه المحاضرة الأخيرة يفتتح اللورد كاري حديثه بقوله إنه أراد أن «يعمق فهمه الشخصي للإسلام فقرر أن يُعِدّ . ويلقي. أربع محاضرات عن جوانب مختلفة من علاقة الإسلام بالغرب». ولم تثر المحاضرتان الأوليان أي انتباه(!) بينما نالت المحاضرة الثالثة، التي ألقيت في جامعة جريجوريان، اهتماماً كبيراً بسبب تقارير صحفية ذكرت أنه كان فيها معادياً بصورة خاصة للعالم الإسلامي».

والقراءة المتأنية للمحاضرتين معاً. محاضرة مارس في روما ومحاضرة مايو في ليستر. تكشف أن المحاضر، كما يقرر هو نفسه في محاضرة روما، ليس بأي معنى فني خبيراً في الإسلام أو متخصصاً في فرع من فروع المعرفة الإسلامية. ولكنه. لسنين عديدة . أمضى أوقاتاً غير قصيرة مع بعض الأسماء المهمة في العالم الإسلامي. وضرب أمثلة لهذه الأسماء: الدكتور طنطاوي (أظنه يقصد فضيلة الإمام الأكبر محمد سيد طنطاوي)، والدكتور حسن الترابي، والملك حسين، والأمير حسن، والملك عبد الله والأستاذ أكبر أحمد وآخرين من القادة والعلماء. الإسلاميين. في محاولة لبناء جسور التفاهم بين الدينين العظيمين.

ولا شك أن هذه الأوقات، مع تلك الشخصيات تتيح للورد كاري أن يتعرف إلى بعضهم. أو كلهم. عن قرب. وهي معرفة تعتمد على نوع الحوارات التي جرت بينه

وبينهم، وعلى قدر ما اتسمت به من صراحة وصدق، وعلى مقدار ما تحلى به كل من الطرفين من شجاعة فى عرض ما عنده، أو انتقاد ما يَعْرِضُهُ شريكه فى ذلك الحوار. وهى معرفة، مهما بلغ عمقها، لا تتيح لمن حصل عليها أن يكون كلامه فى الشأن الإسلامى حجة؛ أو أن يقرر فى نصف سطر طبيعة العلاقة بين المسلمين وبين غير المسلمين فيما كان يطلق عليه «عقد الذمة»؛ أو أن يقول بلا تردد «إن النضال من أجل جوهر الإسلام جار ويحتاج عقيدة عظيمة أخرى كالمسيحية لمساندة وتشجيع الأغلبية الكبرى من المسلمين الذين يقاومون المطابقة بين عقيدتهم وبين الإرهاب»؛ أو أن يقترح ضرورة أن يعاد النظر فى العقيدة الإسلامية بطريقة فاحصة وانتقادية على نحو ما جرى فى اليهودية والمسيحية (!) أو أن ينتقد الاعتقاد الإسلامى بأن القرآن الكريم غير قابل للمراجعة أو النقد مقرراً أن الإعراض عن هذه المراجعة وذلك النقد هو الذى أدى منذ خمسمائة عام حتى الآن إلى مقاومة الحداثة (!!) وأن يرى أن السبيل إلى تحقيق ما يريد يمر عبر قيام رجال الدين والمعلمين - الدينيين - المسيحيين بتشجيع الحوار المتبادل مع علماء المسلمين؛ ومن خلال تطوير برامج جريئة ومناهج مطورة لإعداد الأئمة(!).



هذه الملاحظات، وغيرها، تثير بغير شك اعتراض كل مسلم عالم بخصائص دينه مؤمن به. وهى، وإن لم ترد فى سياق عدائى فى محاضرة روما، فإنها بذاتها لا يمكن أن تفهم على أنها ملاحظات ودية أو محايدة. ولذلك عبّر بعض منتقدى اللورد كارى عن موقفه بقولهم «إن الرجل يمثل خط الاعتدال فى العالم الغربى، ولذلك كان الاهتمام بكلامه واجباً...» و أنه «بدا متجاوباً مع فكرة ارتباط الإسلام بالإرهاب...» و«...لنا عتاب عليه...» ونحو هذه العبارات التى تدل على عناية بالكلام وقائله، وعلى حرص على الجدال بالحكمة اللائقة بحديث يدار مع زعيم دينى مسيحى له تقديره ومكانته (راجع فهمى هويدى: المجلة، عدد ٦/١٩/ ٢٠٠٤ ص ٣٢).

وفى محاضرته الرابعة التى ألقاها لورد كارى فى جامعة ليستر حاول تعقب بعض الانتقادات التى وجهت إليه وخصص لذلك أكثر من نصف محاضرته الرابعة، الأمر الذى يدل على اهتمامه الحقيقى برأى ناقديه المسلمين فيما تضمنته محاضرة روما. وهو اهتمام يجب أن يحمد لصاحبه، لأن الحوار، وتكراره، وتبادله هو الذى يؤدى إلى الوقوف على الحقائق وتصويب الأخطاء والتقريب بين العقلاء الذين يستطيعون منع الحمقى من تدمير الحياة الإنسانية بالكراهية التى ينسبونها إلى الدين بدلاً من بنائها بالاستفادة من التعددية الدينية وما تصنعه من تنوع فكرى.



وأبدأ بمسألة الحوار. لأن عرض اللورد كارى لها يخالف ما ندافع عنه ونمارسه نحن فى عالمنا العربى، حيث عاشت المسيحية إلى جوار الإسلام، وعاشت اليهودية معهما، قروناً طويلة فى وئام خلاّق هو الذى صنع على مدى ألف سنة تقريباً ما يعرفه العالم بالحضارة العربية الإسلامية. وهى حضارة ساهم فى صنعها أهل الشرق كافة، ولم يقعد بأحد اختلاف إيمانه الدينى عن العطاء المستمر فى مختلف جوانبها.

الحوار عندنا يجرى بين أهل الأديان، لا بين الأديان نفسها. فعندما نَصِفُ حواراً بأنه إسلامى - مسيحى فإننا نعنى أنه حوار بين مسلمين ومسيحيين لا بين الإسلام والمسيحية. فالإسلام والمسيحية، بل الأديان كافة، والمذاهب داخل كل دين، هى فى نظر المؤمنين بها مسلّمات مطلقة تمثل الحقيقة كاملة، ولا تحتمل جدلاً لإثبات خطأ بعض جوانبها. ولو قبل بعض المؤمنين أن فى عقيدتهم خطأ أو نقصاً لما بقوا على الإيمان بها أصلاً. والدعوة إلى الحوار الذى يؤدى إلى مراجعة نصوص الدين وانتقادها وتعديلها هى دعوة إلى ترك الدين جملة. ولا يوجد مسلم يقبل هذه الدعوة، ولا يوجد ذو دين - أياً كان - يسلّم بأن نصوص دينه، التى هى مصدر عقيدته وأساسها، قابلة للمراجعة والنقد والتعديل.

ومعجزة محمد صلى الله عليه وسلم أحد جوانبها أنه أمىٌّ لا يقرأ ولا يكتب نُزِّل عليه النص الوحيد فى الدنيا الذى حفظه التاريخ دون زيادة حرف فما فوقه أو نقص حرف فما فوقه. والقرآن نفسه ينطق بهذه الحقيقة «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك، إذا لارتاب المبطلون» (العنكبوت: ٤٨).

والدراسات القرآنية الحديثة تثبت، بمناهج البحث الغربية أو الأوروبية، صحة نسبة كل حرف من القرآن الكريم إلى الله تبارك وتعالى، بإثبات صدق محمد - صلى الله عليه وسلم، وتواتر النص القرآنى عنه إلى يوم الناس هذا. أحدث ما كتب فى هذا الموضوع هو: Al-Azami, The History of The Qur'anic Text, A Comparative Study with the Old and New Testaments, U.K. Islamic Academy, Leicester, 2003.

والهدف الذى يرمى إليه الحوار بين المسلمين والمسيحيين فى بلادنا هو أن يتحقق مفهوم «العيش الواحد» الذى يعنى، فيما يعنيه، أن الصديق صديق لأهل الوطن كافة، مسلميهم وغير المسلمين، وأن العدو عدو لهم أجمعين. وأن الخيرات فى الوطن حق للجميع مثلما تشمل المعاناة أهله بلا استثناء.

والهدف الذى يرمى إليه الحوار بين المسلمين وغير المسلمين من أبناء حضارات شتى وبلاد تنتمى إلى ثقافات متنوعة، كالحوار بيننا وبين المسيحيين الغربيين، هو إنشاء مفهوم «العيش المشترك» الذى يعنى، فيما يعنيه، قبول الطرفين بفكرة اتساع الدنيا، وفضل الله ونعمه، لخلق الله كافة. وأن التعاون على استثمارها وإعمارها هو الغاية الجامعة للناس أجمعين دون تمييز بينهم فى ذلك بسبب الدين، أو المذهب أو الطائفة داخل الدين.

وليس وراء هاتين الغايتين للحوار بين المسلمين والمسيحيين شىء آخر. فلا نحن نحاول، ولا نقبل أن يحاول أحد، دفع المسيحيين إلى مراجعة عقائدهم أو فحصها، أو إعداد وعاظهم ودعاتهم على نحو معين. ولا نحن نقبل، أو نرضى من أحد أن يحاول، إقناعنا بإعادة النظر فى القرآن الكريم أو العقيدة النابعة منه. ودستورنا فى ذلك مستمد من القرآن الكريم نفسه: «ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون» (العنكبوت: ٤٦).



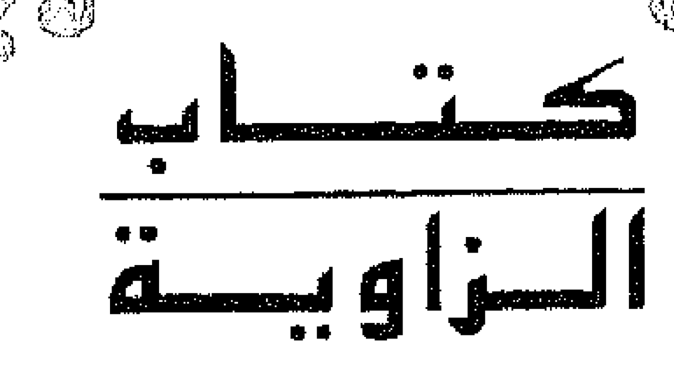
ويقترن بمسألة الحوار، على النحو الذى يدعو إليه لورد كارى، ولا نقبله نحن المسلمين، مسألة «احتياج المسلمين إلى عقيدة عظيمة أخرى كالمسيحية لمساندة وتشجيع الأغلبية الكبرى من المسلمين الذين يقاومون المطابقة بين عقيدتهم وبين الإرهاب».

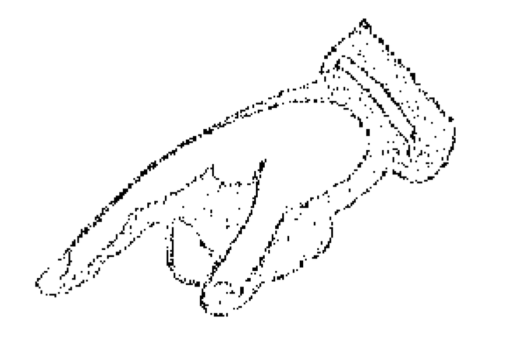
هذا الكلام نفسه غير مفهوم. فما وجه الحاجة إلى العقيدة المسيحية لتبرئة الإسلام من تهمة الإرهاب؟! ومن الذى يطابق بين الإسلام والإرهاب سوى بعض الساسة الغربيين والقادة الصهاينة فى إسرائيل وخارجها، ووجهة نظرهم عرضها اللورد كارى بصورة توحى بقبوله لها: إن لم يكن من حيث الأصل المقرر ديناً فى الإسلام، فمن حيث الأمثلة التى ضربها ولم يفرّق فيها بين المقاومة المشروعة للمحتل وجيوش الاحتلال، كما يحدث فى فلسطين والعراق وأفغانستان، وبين الجرائم التى يسميها الغربيون «إرهاباً»، واسمها فى حضارتنا وفقهنا الإسلاميين «حرابة»، وعقوبتها هى أشد العقوبات فى النظام القانونى الإسلامى: «إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فساداً أن يقتَّلوا أو يُصلَّبوا أو تقطَّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنْفَوا من الأرض، ذلك لهم خزى فى الدنيا ولهم فى الآخرة عذاب عظيم» (المائدة: ٣٣).

واللورد كارى يطالب العلماء والمفكرين المسلمين بإدانة الجرائم التى تصيب المدنيين، ويُدخل فيها أعمال المقاومة الفلسطينية للاحتلال الصهيونى. ولو كلف اللورد كيرى نفسه بقراءة ما ينشر فى مواقع الإنترنت وفى الصحافة الصادرة فى بريطانيا، وسائر أنحاء أوروبا، من فتاوى العلماء وآراء المفكرين المسلمين فى هذه المسألة لراجع ما قاله فيها مراجعة جادة تليق بجديته فى محاولة التعرف على الإسلام تعرفاً عميقاً.

إن المقاومة الفلسطينية - فى نظر المسلمين والمسيحيين من أهل بلادنا - عمل مشروع ضد محتل لا سند لاحتلاله، وكثير من هؤلاء العلماء والمفكرين المسلمين والمسيحيين يلحقون بذلك المقاومة فى العراق، مادامت موجهة ضد قوات الاحتلال، والمقاومة فى أفغانستان.. وفى كل أرض محتلة أخرى.

وهذا كله لا يدخل عندنا تحت مسمى الحرابة، ولا نقبل أن يصفه أحد بأنه إرهاب. وإسرائيل بالذات مجتمع عسكرى كله ليس فيه مدنى واحد، وإذا أصيب طفل يهودى فإنه يصاب تبعاً لاستهداف مكان عسكرى أو مستعمرة مما يسميه الصهاينة (مستوطنات). أما الأطفال الرضع والنساء والشيوخ

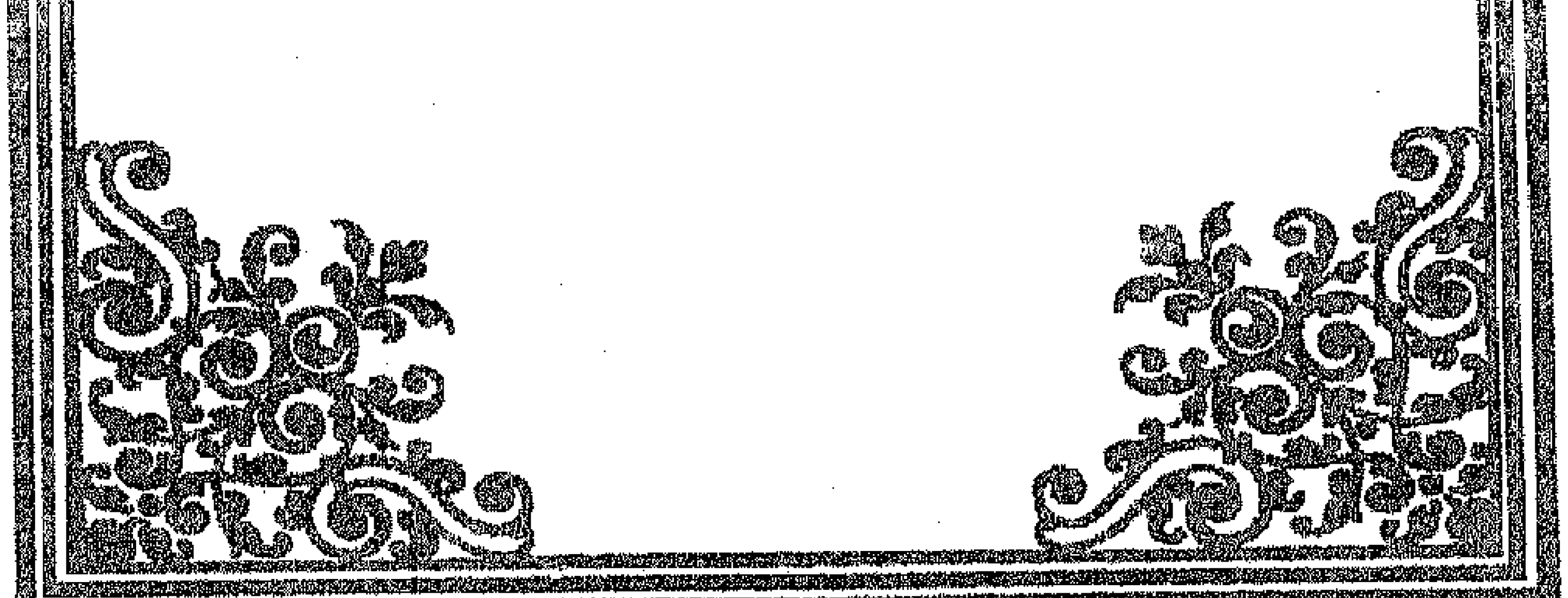




هكذا غنى طاغور

متى؟ ولماذا؟

حين أحمل إليك، يا طفلى الصغير
دُمى متعددة الألوان
فإنى أفهم سر وجود العديد من الألوان
فى الغيوم والماء
وأفهم لماذا كانت الزهور ملونة
وحين أغنى لترقيصك
أفهم حقًا لماذا توجد موسيقى
فى أوراق الشجر
والأمواج ترسل أناشيد
أصواتها المائية حتى تبلغ قلب الأرض المصغية إليها
حين أقدم الحلوى إلى يديك الشرهتين
أفهم لماذا يوجد العسل
فى أكمام الزهر
ولماذا كانت الفواكه مليئة
بالعصير اللذيذ
وحين أقبلك من أجل أن تبتسم
يا حبيبى، أفهم يقينًا
تلك البهجة التى تنثال من السماء
فى ضوء الفجر، وأى متعة
يمنحها نسيم الصيف إلى كيانى الجسدى
حين أقبلك من أجل أن تبتسم



الفلسطينيون، والمساجد والورش والأسواق الفلسطينية، فإنها تقصف عمداً ومع سبق الإصرار والترصد. ولا أتحدث عن الشهداء من أمثال الشيخ أحمد ياسين والدكتور عبد العزيز الرنتيسى والمهندس يحيى عياش؛ أو محاولة اغتيال خالد مشعل، فهذه جرائم عرفها الكافة، ولا يجوز لمن يريد أن يبقى على مصداقيته أن يتجاهلها، أو يكتفى بإدانة العنف الذى يصيب «المدنيين» بعبارة موهمة يستوى فى الدخول تحتها المعتدى الظالم والمعتدى عليه المظلوم.

وإشارة اللورد كارى إلى أن كثرة المسيحيين واليهود دفعوا ثمن العيش فى سلام مع المسلمين «عندما اضطروا لقبول العيش فى وضع الذميين» إشارة تنقصها الدقة التاريخية، ويعوزها المتابعة للتطور الفقهى الإسلامى المعاصر.

تنقصها الدقة التاريخية لأن الذمة كانت «عقداً» بين المسلمين وبين غير المسلمين، ولم تكن «وضعاً» لغير المسلمين فى المجتمع الإسلامى. بمقتضى هذا العقد كان المسلمون يتولون الدفاع عن الوطن المشترك، وكان غير المسلمين يدفعون مبلغاً من المال (لم يزد على دينارين فى أعلى حالاته، ونزل إلى دراهم معدودة فى معظم الأحيان) مقابل إعفائهم من الانضواء تحت لواء جيش إسلامى. ولذلك كان الذين يعملون فى خدمة الجيش، ولو فى أعمال غير عسكرية، يعفون من هذه الجزية. ولذلك، أيضاً، عرف التاريخ عقوداً تبادلية بين المسلمين وغيرهم لم تستعمل فيها كلمة الجزية ولا كلمة الذمة.

وتعوزها المتابعة للتطور الفقهى المعاصر الذى يقرر أن الذمة من حيث هى عقد قد انتهى بزوال المتعاقدين اللذين أبرماه، وحلت محل هذا العقد فكرة دستورية عصرية هى فكرة المواطنة التى نشأت نتيجة التحام المسلمين وغير المسلمين فى مقاومة الاحتلال الأجنبى والحصول على الاستقلال الوطنى. راجع كتابنا: فى النظام السياسى للدولة الإسلامية، دار الشروق ١٩٨٩. والغريب فى عدم تنبه اللورد كارى إلى هذا التطور الفقهى المعاصر الذى يتفق عليه الفقهاء والمفكرون المسلمون المحدثون بلا استثناء يذكر، أنه قد طرح على بساط البحث فى اللقاء الذى دعا هو إليه عام ٢٠٠٢، ولما تبين أحد الأساقفة المرموقين فى الكنيسة الإنجليزية (الأسقف نظير على) هذا الاجتهاد قال إنه لا حاجة إلى مناقشة قضية الذمة والجزية مجدداً، مادام هذا هو الموقف الفقهى المعاصر منها، بل يجب على المسيحيين تجاوز هذا المفهوم وأن ينظروا إلى أنفسهم كمواطنين كاملى المواطنة لهم حرية وحقٌ فى التعبير والاعتقاد والعبادة كسائر المواطنين. راجع الكتاب الذى صدر عن هذا اللقاء الإسلامى المسيحى بعنوان: Road Ahead a Christian-Muslim Dialogue, Edited by Michael Ipgrave, Church House Publishing, London 2002.

ويذهب كارى إلى أن بداية التسييس الحقيقى للإسلام كانت بهزيمة ١٩٦٧، وقد ردَّ فهمى هويدى، فى مقاله سالف الذكر، على هذا القول رداً كافياً، لكن اللورد كارى، فى السياق نفسه يشير إلى أن الحركة الوهابية «دمرت القبور المقدسة لمحمد (صلى الله عليه وسلم) وأصحابه فى مكة والمدينة». وهنا أمران غير صحيحين. فلا الوهابية دمرت قبر الرسول صلى الله عليه وسلم ولا قبور أصحابه، وهى باقية إلى اليوم فى المسجد النبوى، وفى البقيع، وفى مقابر مكة المكرمة. ولا المسلمون يقدسون أى قبر أصلاً، إنما تزار القبور للعبرة بمصير من سبقنا إلى لقاء الله، ولتذكر الآخرة التى إليها مصيرنا جميعاً. ووصف اللورد كارى لهذا الأمر دليل على صدقه فى وصف نفسه بأنه ليس مختصاً فى الإسلام ولا خبيراً فيه بأى معنى فنىٍّ.



وفى محاضرتيه معاً يسلِّم اللورد كارى بأن «الإسلاميين» هم الذين قادوا الطائرات التى ارتكبت جرائم ٩/١١ فى الولايات المتحدة؛ ويضيف. من عنده. أنهم كانوا يضعون القرآن بجانبهم ويهتفون «الله أكبر».

ولا تَسَلْ كيف عرف أن القرآن كان بجانبهم، ولا كيف سمع هتافهم؟! لكن الأهم من ذلك أنه ليس تحت يد أحد. كائناً من كان. دليل من أى نوع على أن الذين ارتكبوا هذه الجرائم هم المتهمون بارتكابها. وتكشف الحقائق كل يوم أن المعلومات التى قدمت للعالم فى هذا الشأن كانت فى أحسن أحوالها ظنوناً، وفى بعض أحوالها اختراعات محضة. وآخر ما نشر من ذلك، على لسان الأمريكيين أنفسهم أنه، خلافاً لادعاءات الرئيس جورج بوش، ليس فى المعتقلين فى قاعدة جوانتانامو معتقل واحد يمكن تصنيفه قائداً فى «القاعدة» أو من كبار ناشطيها الميدانيين. وأن الأدلة ضد هؤلاء المتهمين ضعيفة لدرجة أن (١٥) منهم فقط عرضوا على المحكمة العسكرية! «الحياة ٢٢/٦/٢٠٠٤» نقلاً عن شهادات لعدد من كبار

هذه عيوبنا

المسئولين في الجيش الأمريكي والاستخبارات نشرتها صحيفة نيويورك تايمز.

وقس بالمعيار نفسه حديث اللورد كاري عما فعله مرتكبو حادثة «بالي» في أندونيسيا وغيرها من الحوادث التي ذكرها في محاضرتيه؛ فكله منقول بلا تدقيق ولا تحرٍ عن الإعلام الغربي الذي لا يعنى بنشر تصحيح أو تكذيب إلا في النادر القليل، وبعدما تكون التهمة قد تقررت في أذهان آلاف القراء وكأنها حقيقة لا تقبل جدلاً.

يتحدث اللورد كاري عن المعونات التي تقدمها الولايات المتحدة وبريطانيا، لمصر بوجه خاص، باعتبارها يجب أن تكون سبب امتنان واعتراف بالجميل من جانب المصريين. وهو في هذا ينسى ما قاله قبل قليل في المحاضرة نفسها من أن الحكومات في الشرق الأوسط تفتقر إلى الديمقراطية وتمثل الاستبداد، بل إنه يقول: «يتساءل الإنسان متعجباً: لم هذا الغياب المفجع للديمقراطية في البلاد المسلمة خصوصاً في الشرق الأوسط». فالمعونات. إذن. تقدم إلى هذه الحكومات غير الديمقراطية لتمكن لها في الأرض، وتعينها على استمرار السيطرة وإحكامها على شعوبها، فلماذا تعترف الشعوب بالجميل؟ وكيف تكون ممتنة لمن يقوي الحكومات التي غياب الديمقراطية فيها مفجع؟؟



ويدافع اللورد كاري عن الهدف من الحروب الصليبية، أو الدافع من ورائها. مع إقراره بأنه يدينها. في محاضرته الرابعة التي ألقاها في ١٢ مايو ٢٠٠٤ بجامعة ليستر بقوله إن هذه الحروب قامت لتستعيد الجيوش المسيحية المدن التي احتلها المسلمون ولفتح الطرق أمام الحجاج المسيحيين لزيارة الأماكن المقدسة المسيحية. وهذا القول عارٍ كله من الصحة. فإن الأراضي التي يسميها لورد كيري (مسيحية) لم تفتحها الجيوش الإسلامية عنوة ولم تخرج منها مسيحياً واحداً. وإنما فتحت هذه البلاد (أي بلاد فلسطين) صلحاً بعقد بين عمر بن الخطاب وأسقف بيت المقدس. ولا يستطيع أحد أن يجد حادثة تاريخية واحدة منع فيها المسلمون مسيحياً أو يهودياً من زيارة بيت المقدس أو بيت لحم أو الناصرة أو أي مكان آخر يقدسه أهل الديانتين الكتابيتين. وما قاله آية الله محمد مهدي شمس الدين في جامعة جرجوريان سنة ٢٠٠٠ من أن الحروب الإسلامية كانت في معظمها دفاعية والحروب الصليبية (نسميها نحن حروب الفرنجة) كانت في معظمها هجومية هو الصحيح، لا ما حاول لورد كاري أن يرد به عليه في محاضرتيه معاً.



الأمر الذي يجب أن أقرر اتفاقنا فيه. جملة وتفصيلاً. مع اللورد كاري هو ما كرره في محاضرتيه مما يمكن أن نسميه «الديمقراطية هي الحل»!

إن هناك كثيراً من المعاني الصحيحة والإيجابية في المحاضرتين. واللورد كاري صادق مع نفسه: فهو مسيحي مخلص، يرى الارتباط الوثيق بين المسيحية واليهودية، ويرى في الوقت نفسه المظالم التي يتعرض لها أهل فلسطين ويُدينها. بل إنه يختم محاضرته الرابعة. في جامعة ليستر. بقوله: «على الرغم من أن هذه المحاضرة يمولها يهودي مرموق (يقصد السير سيجموند سترنبرج) فإني يجب أن أقول، بحزن، إن السياسة التي تتبعها الحكومة الحالية في إسرائيل نحو الفلسطينيين لا يمكن الدفاع عنها. والانحياز الأمريكي إلى جانب إسرائيل يستثير ملايين الناس في العالم كله... لقد أصبح الفلسطيني مهاناً ومحتقراً (في فلسطين)... ومن معاناة خمسين سنة انفجر غضب غير قابل للتحكم فيه وهو محور مشكلتنا الحاضرة».

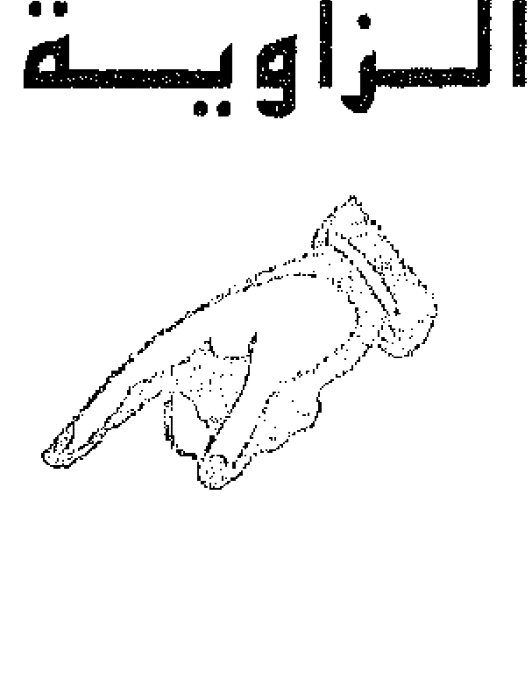
ومع ذلك تبقى ملاحظته الجوهرية. بالنسبة إلينا. هي غياب الديمقراطية وفقدان الحرية. وهما قيمتان، ونظامان للحياة والتفكير، ما لم تستعدهما فإن مشاكلنا كلها مرشحة للبقاء حيث هي أو للتفاقم المدمر.

نستطيع أن نوجه نظر لورد كاري، وغيره، من أهل المسيحية المخلصين لها إلى ما لم يقفوا عليه من مصادر الإسلام التي تعبر عنه التعبير الصحيح.

ونستطيع أن ننتقد بحق وصدق أخطاءهم في الواقع والتاريخ والفقه على السواء.

ولكننا لا يجوز لنا أن نخفي رؤوسنا في الرمال، ونغض الطرف عن عيوبنا ونكف الأيدي القادرة عن إصلاحها. وهذا هو أهم ما تقدمه لنا تعجبات اللورد كاري المتكررة عن فقدان الديمقراطية في بلاد الشرق الأوسط المسلمة. ■

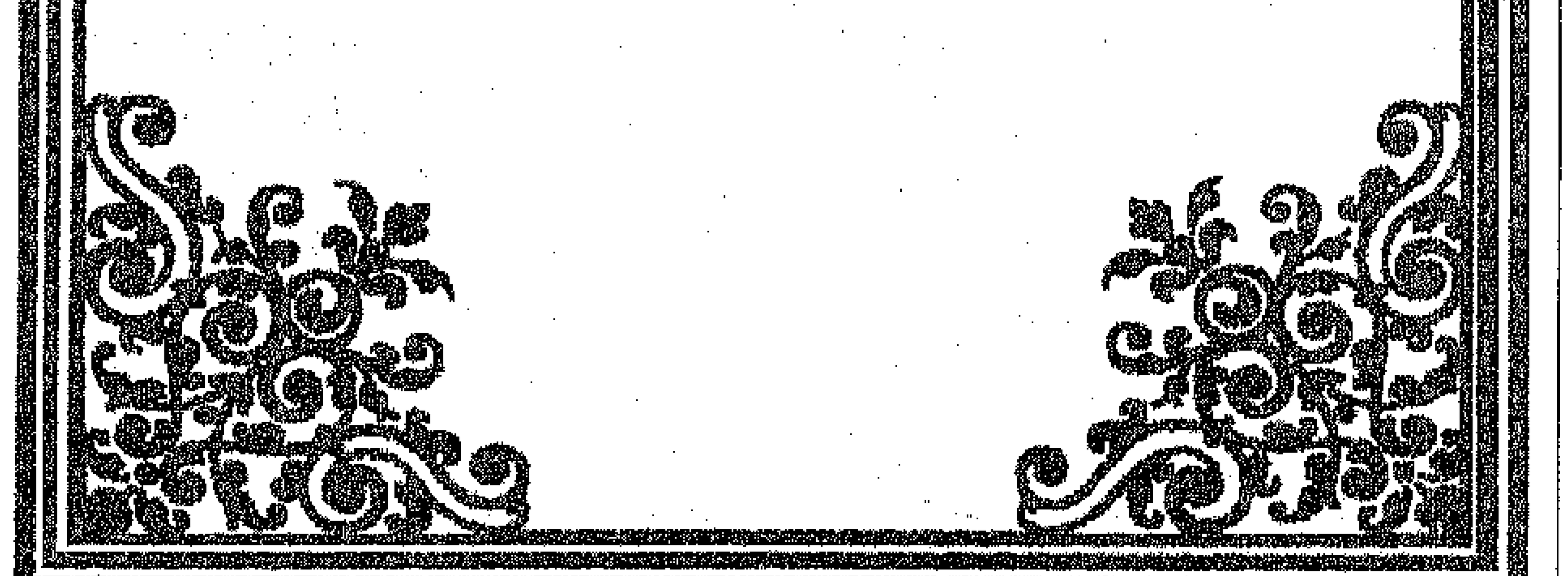
كتاب الزاوية



هكذا غنى طاغور

جنى الثمار

هذه السلسلة المرصعة بالجواهر
إنها تزينني
لتسخر مني
وحين تطوق عنقي
تؤلمني
وتخنقني حين أحاول نزعها
إنها تقبض على حلقي
وتخنق غنائي
لو كان في وسعي أن أهبها لك
يا مولاي
حينئذ فقط سأكون حرًا
فانزعها عني
وعوضًا عنها شدني إليك
بإكليل من أكاليلك
لأني أشعر بالخجل
لأن أقف أمام سدتك
بهذه السلسلة المرصعة بالجواهر
التي تطوق عنقي

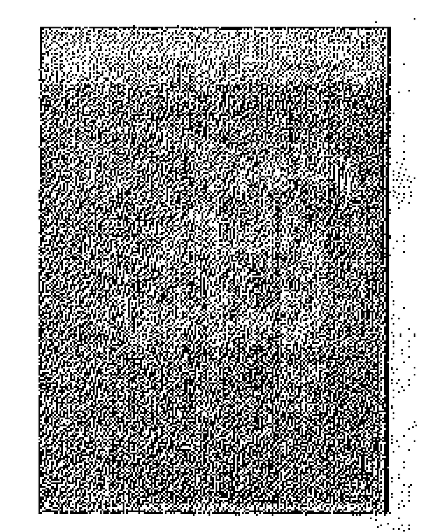


تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الغرب والعالم الإسلامى.. نظرة إسلامية

ستة مؤلفين من العالم الإسلامى

ألمانيا: معهد العلاقات الخارجية فى شتوتجارت، ٢٠٠٤، ٧٣ صفحة



يحاول هذا الكتاب أن يقدم لوحة بانورامية لعلاقة العالم الإسلامى مع الغرب، من خلال رؤية ستة مؤلفين ينتمون إلى ست دول إسلامية.

تنطلق هذه الرؤية من فرضية أساسية وهى: أن النظر إلى العالمين الإسلامى والغربى بوصفهما قطبين متعارضين ومتناقضين، أمر خاطئ لأنه يتجاهل الاختلافات الداخلية فى كلا العالمين، كما يهمل حقيقة أن الثقافات والمجتمعات فى حالة تغير دائم وليست كيانات ثابتة، وعلاوة على ذلك لا يضع فى حساباته التداخل الدائم بين الثقافات. وبناء على هذه الفرضية، فإن تاريخ العلاقات بين الطرفين اتسم بقدر كبير من العداء من ناحية، وبثراء الارتباط السلمى من ناحية أخرى. فهو تاريخ حافل بالأحداث الدرامية المثيرة، يبدو فى أن أحد المستويات ملىء بالدماء المراقة حيث قتل الآلاف على الجانبين باسم الدين، بينما يمتلئ على المستوى الآخر بأمثلة التعاون المشترك فى مجالات الفلسفة والفنون والتكنولوجيا.

ويراهن الكتاب على أن الاستشراق لعب دوراً كبيراً فى انتشار التصورات الخاطئة عن الإسلام فى الإعلام والثقافة والسياسة فى دول الغرب، وإضفاء طابع شيطانى على المسلمين وتبرير غزو أراضيهم، وتقديم الإسلام كعدو للحداثة الغربية باعتباره ديناً غير أصيل وكاذب وزائف.. وفى نفس الوقت فقد لعبت الأصولية دوراً سلبياً فى تنحية تراث التسامح والإيمان بالتنوع فى العالم الإسلامى.

وقد أدت هجمات ١١ سبتمبر وعواقبها إلى توسيع فجوة سوء الفهم والصراع، وقلصت من إمكانيات الارتباط السلمى بين الغرب والعالم الإسلامى، ورغم أن الهجمات الإرهابية الإجرامية تعد من الأسباب الجوهرية للإحساس بالقلق الشديد الذى ينتاب الغرب، لكنها لا ينبغى أن تؤدى إلى البارانويا المستمرة فى الخطاب الغربى، حيث وقعت الولايات المتحدة بصفة خاصة فى هذا الشرك، كما أصبحت هجمة «الحرب على الإرهاب» أداة لتبرير الأفعال الغاشمة ضد سيادة الدول الوطنية دون أى اعتبار أو احترام للقانون الدولى أو الأمم المتحدة.

وأدى سوء الحكم وتعثر التنمية فى كثير من بقاع العالم الإسلامى إلى تعقيد العلاقات مع الغرب، حيث ولد ذلك خللاً هائلاً فى موازين القوى، مما سهل على الغرب الأقوى خاصة أمريكا اتباع سياسة التلاعب والهيمنة والظلم ضد العالم الإسلامى الأضعف، وإلى اتباع الغرب المعايير المزدوجة التى يستخدمها بوضوح فى تعاملاته مع قضايا المسلمين الكبرى.

وينتهى الواقعية يعترف مؤلفو الكتاب أن العلاقات بين الغرب والعالم الإسلامى قضية مركبة ومعقدة ولا يمكن إيجاد حل سريع لها، فعبء التاريخ ثقيل، وافتقاد الإرادة السياسية على الجانبين شديد الوضوح، إلا أن التحرك نحو الأمام هو الطريق الوحيد من أجل بناء مستقبل أكثر إيجابية وهو ما يفرض على الجانبين النظر إلى التاريخ باعتباره مصدراً للحكمة وليس سبباً لإثارة النزاعات، وإشعال الخلافات حول الحملات الصليبية على القدس أو حصار العثمانيين لفيينا.

■

بلقيس لغز ملكة سبأ

زياد منى

سوريا: دار قدمس للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤، ٣٣٤ صفحة



ما يقرب من ثلثى صفحات هذا الكتاب، خصصها المؤلف لتتبع شخصية بلقيس، وكيفية تجليها فى التراث العربى فى العصور الأولى، ثم فى طبيعة شخصيتها فى التراث العربى الإسلامى والمسيحى، والحبشى المسيحى، وفى التراث الدينى اليهودى.

كانت الكثير من الكتابات التى رجع إليها المؤلف تضم أساطير وخرافات، اعتبرها دليلاً على حيوية ذهنية وخيال شعبى هائل.

وما يزيد من لغز بلقيس اشتعالاً، هو أن روايات العرب حفلت بالكثير من التناقضات حول شخصيتها بما يفتح الباب أمام إمكانية دمج الروايات التى تناولت شخصيات العديد من الملكات أو الحاكمات اليمانيات فى شخصية واحدة.. هى شخصية بلقيس.

كانت بعض هذه الروايات تتحدث عن أن ساقها كانت حافر حمار، بينما اكتفى بعض الرواة الآخرين بالقول بوجود شعر كثيف أو خفيف على ساقها، وهى روايات تشير إلى وجود دور يهودى فى رسم تلك الصورة القبيحة للملكة العربية بلقيس التى اقتحمت تراث معظم شعوب العالم بصفتها مثال الجمال والحكمة والسلطان والثروة. كما أن العرب عرفت قديماً قصصاً وأساطير عن ملكات حكمن سبأ، واكتسبت إحداهن وهى بلقيس شهرة واسعة بسبب حكمتها وقوة ومنعة حكمها وثروة بلادها، وهو ما سهل لها أن تتفوق شخصيتها على الملكات الأخريات، وعندما جاء الإسلام كرم تلك الملكة أعظم تكريم بالقول إنها أسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

وفى مرحلة لاحقة من تطور المجتمع الإسلامى حديث التشكل تم طرح العديد من الأسئلة الاجتماعية والسياسية منها مسألة دور المرأة فى المجتمع أو بالأحرى الدور الذى أريد للمرأة أن تلعبه.. فبلقيس وقصتها تمثل برأى المؤلف إشارة إلى مجتمع تسنمت فيه المرأة أعلى المواقع القيادية عن جدارة واستحقاق والذى يقال فيه أن بلقيس خلصت شعبها من «الرجس الجائر» لكن هذا لم يرق للبعض الذى زعم أن أصولها تنتمى إلى عالم الجن أى إلى أصول شيطانية، وهو الموقف التوراتى المعادى للمرأة، حيث كانت بلقيس فى التراث الدينى اليهودى ممثلة للشيطان بل هى الشيطان نفسه.

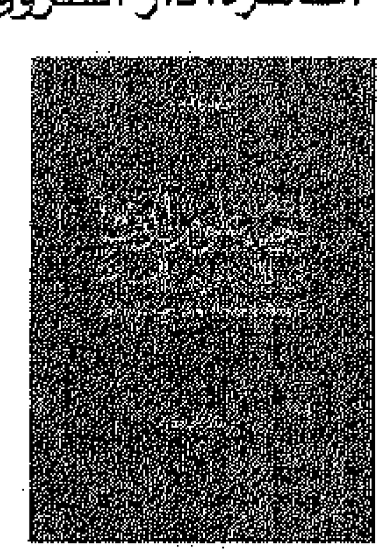
ويقول المؤلف إن تغيير الموقف من المرأة العربية يستدعى قلب وتثوير المجتمع نفسه، مشيراً إلى أن بعض المجتمعات العربية تمارس عادات همجية فعلاً بحق المرأة لا علاقة لها بالقرآن من قريب أو من بعيد. ويعود السبب فى ذلك إلى الأسس الاقتصادية التى استندت إليها التأويلات التى تنتقص من المرأة وحقوقها فى الجذور الأولى لتشكل المجتمع العربى الإسلامى، أى فى طبيعته الاقتصادية القائمة على التجارة دون المشاركة فى تقديم إنتاج حقيقى، وهو نفس المجتمع الذى شهد بعد ذلك حروباً أهلية ضارية أنهكتها روحياً وهذا ما أدى إلى تهميش المرأة التى لا تمارس دوراً فى ذلك المجتمع المعسكر إلا بكونها مصدراً لإنتاج الجند. وعندما ساد الهدوء أخيراً فى المجتمع الجديد بعد فترة طويلة من الفتوحات والمعارك والحروب، كانت القيم التى اتبعتها المرحلة السابقة قد تثبتت فى وعى الجماهير وأضحت من البديهيات غير القابلة للنقاش.

■

إحياء علوم الدين فى القرن الواحد والعشرين كتابة معاصرة لموسوعة الغزالى

سعاد الحكيم

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٦٩٥ صفحة



ترى الكاتبة أنه لا ازدواجية بين «الأنا» الزمانية المتجددة وبين «الأنا» المؤمنة المناضلة.. كما أنه لا تعارض أيضاً بين فعل الإيمان اللازمنى وممارساته، وبين المعاصرة والحداثة وممارساتهما، وتؤمن بأن أحدهما يولد الآخر دون انقطاع.

وتأسيساً على هذا الجدل المتواصل بين الزمنى واللازمنى فى الإسلام ترى الكاتبة أن «إحياء علوم الدين» للإمام الغزالى يمكن تصنيفه فى لائحة «الكتب التى لا تموت» أو بالأحرى. كما تقول. فى لائحة الكتب «التى يجب أن نحرص على ألا تموت»، ففى «الإحياء» استطاع الغزالى بمهارة علمية عالية أن يلملم علوم الفقهاء، وعلوم الصوفية، وعلوم المتكلمين والمحدثين والفلاسفة فى كتاب واحد.

وكما تقول المؤلفة استطاع الغزالى فى مرحلة عمرية قصيرة نسبياً وفى شروط معرفية صعبة أن يقدم عشرات الكتب المهمة فى فروع العلوم الإسلامية.

وفى الثامنة والعشرين من عمره ترك الغزالى مقاعد التعلم ليتقدم إلى منابر الأستاذية، وقبيل الأربعينيات من عمره دخل مرحلة الشك ونقد التجربة فترك بغداد وخرج إلى الحج، ثم قصد إلى دمشق حيث أتم هناك كتابة الإحياء بعد أن مكث فترة فى بيت المقدس. واطلع الغزالى على أمهات الكتب الصوفية فى زمنه، ثم أعاد إنتاج التراث الصوفى فى مشروعه الإسلامى. حيث قسم علوم الصوفية إلى قسمين: علم المعاملة وعلم المكاشفة.. والفقيه عنده اهتم بصحة المعاملة، فى حين أن الصوفى اهتم بآدابها وأسرارها لتكون هذه المعاملة مقبولة من الله عز وجل، لا صحيحة الشروط والأركان فقط.. والمسلم يسعى لأن تكون معاملته صحيحة ومقبولة معاً.. فأى قيمة لصلاة صحيحة الأركان والشروط، والعابد فيها لاه عن صلاته مشغول بأفكار وخواطر دنيوية؟! كما أن علوم المعاملة سواء أكانت فى نصوص الفقهاء أم فى نصوص الصوفية فإن مرجعيتها مثبتة بالأدلة الشرعية: القرآن والسنة.

أما علم المكاشفة فيراه الغزالى رزقًا إلهيًا لإنسان بعينه وهو بالتالى ليس فرض عين على كل مسلم، والإنسان فى المكاشفات رهن بما يرد عليه، فقد يقضى عمره متعبدًا مجاهدًا مرتاضًا دون أن يكاشف بشىء من العلوم.

وتؤكد الكاتبة على أن العلم هو حاجة إنسانية ملحة، فالإنسان لا يطيق صبرًا على عدم معرفته بأمر من الأمور، ومن هذا المنطلق تظهر قيمة العلم فى الإسلام، هذا العلم الذى به ينتقل الإنسان من حال إلى حال.. من الجهل إلى المعرفة من ظلمة الشرك إلى نور التوحيد، فالعلم ليس فقط عبادة فى طلبه وتعلمه وتعليمه، بل هو الأساس الذى تبنى عليه كل عبادة.. وهذا هو ما دفع بالإمام الغزالى لأن يستهل كتابه «الإحياء» بباب عن العلم، وخصه بكونه أول الأبواب المخصصة للعبادات.

وبهذه العقلية التى اجتمعت فى كتابات الإمام الغزالى، يستعرض الكتاب آراءه فى كل قضايا المسلم الدنيوية والأخروية.. فى الصلاة والصوم والزكاة والحج، وفى الصمت وفضائله، وفى الجوع والحسد والغضب وغيرها من أمور الدنيا حتى الموت وآدابه وكيفية التحضير له.

تزييف الوعى
أسلحة التضليل الشامل

صلاح الدين حافظ

القاهرة: إصدارات سطور، ٢٠٠٤، ٤٦٥ صفحة



يلعب الإعلام فى كثير من الأحيان دورًا خطيرًا فى تضليل الرأى العام وتزييف وعيه حتى فى الدول الغربية الكبرى وعلى رأسها أمريكا.

ويستشهد المؤلف بما قاله الكاتب الأمريكى هربرت شيللر فى أحد كتبه «إن قادة الإعلام الأمريكى مضللون لعقول المواطنين، وهم يعمدون إلى الترويج لأفكار واتجاهات لا تعبر عن الحقائق الاجتماعية السائدة، ذلك أن تضليل عقول الناس هو أداة أساسية للقهر الاجتماعى، وأداة فى يد النخبة الحاكمة للسيطرة الاقتصادية على المجتمع».

ويستعرض المؤلف عددًا من وقائع التضليل التى مارستها الآلة الإعلامية الأمريكية الجبارة، سواء فى تعاملها مع حرب الخليج الثانية، أو فى انتخابات الرئاسة بين آل جور والرئيس جورج بوش، وكيف تحولت هذه الانتخابات إلى ساحة للمعارك بين الحيتان الكبيرة فى المجتمع الأمريكى.

وفى مصر، يقول الكتاب فى أحد فصوله أنه فيما بين صحافة الحزب الوطنى بزعامة مصطفى كامل ومحمد فريد، وصحافة الحزب الوطنى الديمقراطى مائة عام من التحولات، ورغم ذلك كان التشابه قائمًا فى الكثير من القضايا التى طرحتها صحافة المرحلتين.

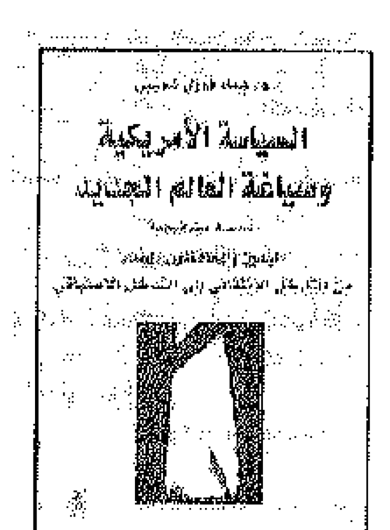
فقبل مائة عام كانت الصحافة تطرح قضايا الاحتلال وحرية المرأة وحرية الشعب فى حكم نفسه بنفسه، وحرية الصحافة فى وجه القوانين المغلظة للعقوبات وانتشار الفقر والفساد بالإضافة إلى ظاهرة تزويغ النواب من البرلمان «مجلس شورى النواب».. وهى نفس القضايا التى تطرحها صحافتنا الآن.

ويتساءل الكاتب: هل معنى ذلك أن مصـــر لم تتغير وتتطـــور؟ ويجيب بالنفى مؤكدًا أنها تقدمت فى نواح شتى، لكن العالم من حولنا تغير بمعدلات أسرع.

السياسة الأمريكية وصياغة العالم الجديد

د. عماد فوزى شعيبى

دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٣، ١٤٣ صفحة



يغوص هذا الكتاب بمهارة شديدة فى ثنايا المشهد السياسى والأيديولوجى الذى يحكم أمريكا تحت إدارة الرئيس جورج بوش.. ليخرج فى نهاية المطاف بأن هدف هذه الإدارة أو بالأحرى التيارات التى تحركها، هو إعادة صياغة العالم كله طبقًا للمفهوم الأمريكى سياسيًا واقتصاديًا.

وهذا الهدف تتبناه ثلاثة تيارات يمينية متمايزة عن بعضها البعض وهى تيار المسيحيين الأصوليين (ومنهم جون أشكروفت وزير العدل) وتيار «التمامية» البروتستانتية الآتى من الولايات الجنوبية والتى يتفرع منها ما يسمى بالحزام التوراتى وهو الأكثر دعمًا لإسرائيل انسجامًا مع أوهام حول عدم إمكانية عودة المسيح إلا بتواجد اليهود فى فلسطين.

أما التيار الثالث فهو ما يسمى باليمين الجديد، والذى يتزعمه فلسفيًا العلمانى اليهودى «ليوشتراوس»، والذى يرى أن العالم كله لابد أن يكون ليبراليًا ديمقراطيًا فى كل المؤسسات والنظم السياسية، أما فى القيم الاجتماعية فإن الهدف هو ضبط المجتمعات عبر منظومة من القيم الدينية!! وأصحاب هذا التيار يبررون هذه البراجماتية باعتبار أن الدين هو الوسيلة الوحيدة لملء الفراغ لدى الجمهور الواسع بما يساعد على فرض النظام.

وقد جاءت أحداث ١١ سبتمبر لتقدم الفرصة لهذا التيار لكى يزعم بصحة نظريته المطالبة بالقضاء على الأنظمة المحافظة والإسلامية التى يحكمها طغاة لأنها تشكل خطرًا على مصالح وأمن الولايات المتحدة.

وقد جاءت الحرب على العراق كتجسيد لرؤية اليمين الجديد، من أجل نشر الديمقراطية فى العراق بالقوة، وللتأكيد على أن الولايات المتحدة التى أصبحت تتمتع بوضع لم يسبق له مثيل فى التاريخ عسكريًا واقتصاديًا وسياسيًا، تجد نفسها أمام ضرورة تصفية كل تركة الحرب العالمية الثانية التى تقاسم فيها المنتصرون من الحلفاء مناطق النفوذ فى العالم.

فهذا العالم لابد أن لا يكون تابعًا لقيادتها فحسب، بل عليه أن يكون جزءًا لا يتجزأ منها!

وبالتالى، فإن الولايات المتحدة لا تتعامل مع الموضوع العراقى منفردًا، ولكن باعتباره «ساحة عمليات» تستعرض من خلالها قوتها أمام العالم الذى ينبغى أن يعترف بأن أمريكا هى القطب الأوحد والتى تمتلك وحدها أيضًا شرعية استخدام القوة فى أى مكان على الأرض.

وقد جاء اختيار العراق «الأضعف» فى المعادلة الإقليمية، ليذكرنا باختيار الولايات المتحدة لليابان لحظة كانت تطلب شروط الاستسلام فى الحرب العالمية الثانية، لكى تضربها أمريكا بأول قنبلتين نوويتين فى العالم، كى تقول للدول التى خرجت لتوها من الحرب بأن صياغة العالم يجب أن تخضع لنتائج هذا العمل العسكرى الذى يتمتع بقدرة فائقة.

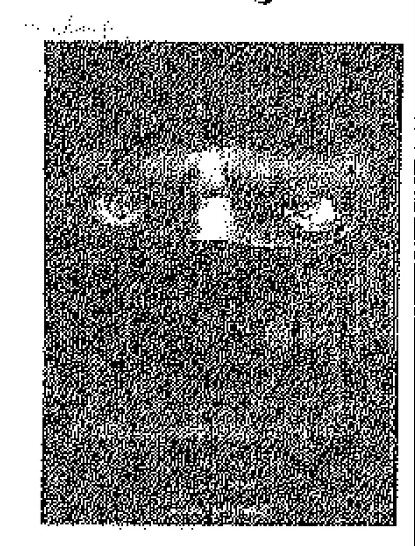
فأمريكا لا توجه ضرباتها الوقائية إلا فى الأماكن الأضعف وبصورة براقة وصادمة، لتحقق أهدافها السياسية بأقل تكاليف، تحت وقع الذهول الذى مارسته هذه القوة الفائقة فى أضعف مكان!

ويؤكد المؤلف أن هذه النزعة الإمبريالية الأمريكية سوف تصطدم مع ميراث السياسة المؤسساتية فى أمريكا نفسها ومع الديمقراطية الداخلية ومع عداء عالمى لها رسميًا وشعبيًا فى كل دول الأرض، فالكاتب يرفض هذه التصورات اليمينية الأمريكية لشكل العالم الجديد، فإذا كان مشهد العولمة والشركات متعددة الجنسية تعدديًا يسود العالم اليوم، فإنه من الصعب أن يكون النظام السياسى الدولى أحاديًا، فهو بالضرورة سيكون متعددًا.

الإرهاب.. والاغتيالات السياسية عبر التاريخ

لواء دكتور: السيد أبو مسلم

القاهرة: ٢٠٠٤، ٣٧٠ صفحة



بين دفتى هذا الكتاب، تقع عشرات من محاولات الاغتيال بدءًا من يوليوس قيصر عام ٤٤ ق.م وحتى السادات عام ١٩٨١.

لم يقتصر جهد الكاتب فقط على حشد هذه الاغتيالات التى راح ضحيتها قياصرة وملوك وزعماء سياسيون فى كتاب واحد، ولكنه سرد أيضًا الكثير من التفاصيل التى أحاطت بكل عملية اغتيال والتى ربما تكون غير معروفة للقارئ العادى..

كما تناول فى كتابه أيضًا المفاهيم والتعاريف المتناقضة للإرهاب، بالإضافة إلى أشهر المنظمات الإرهابية فى العالم منها بادرماينهوف والألوية الحمراء وجيش التحرير الأيرلندى ونمور التاميل والقاعدة وغيرها.

يتناول الكتاب فى أحد فصوله المحاولات الفاشلة التى استهدفت اغتيال الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، والتى كان وراءها أفراد من جماعة الإخوان المسلمين المتأثرين بالمفكر الإسلامى سيد قطب.

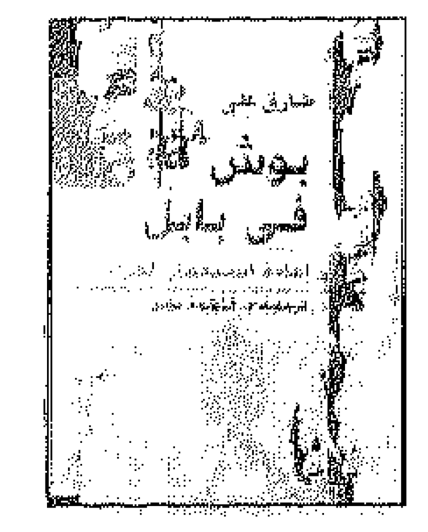
ويشير الكتاب إلى الإرهاب فى أمريكا، الذى يتمثل فى التنظيمات المسلحة السرية والتى تتكون من خلايا عنصرية مسلحة بأخطر أنواع الأسلحة والمتفجرات وتتمركز فى معسكرات يتم فيها تدريب عناصر هذه التنظيمات فى انتظار اليوم الذى يشنون فيه الحرب على الحكومة الفيدرالية فى واشنطن، التى يرون أنها خانت أسلوب الحياة الأمريكية ويتعين القضاء عليها.

ويؤكد الكاتب أن المؤرخين يكادون يجمعون على أن أقدم نماذج النشاط الإرهابى كانت من صنع اليهود الذين ناهضوا الحكم الرومانى فى القدس خلال الثلث الأول من القرن السابق على ميلاد المسيح عليه السلام، عندما ظهرت حركة دينية أطلق عليها «سيكارى»، ضمت عددًا من المتطرفين اليهود، وكانوا يستخدمون سيوفًا قصيرة يقتلون بها أعداءهم من الرومان أو حتى اليهود وسط الزحام.

وكانت هذه الجماعة تؤمن بأن الله وحده هو الحاكم وأنه لا ولاء لأى سلطة دنيوية كما كانوا يرفضون الكهنة والحاخامات.

بوش فى بابل
إعادة استعمار العراق

طارق على
ترجمة: د. فاطمة نصر
القاهرة: إصدارات سطور، ٢٠٠٣، ٢٧٥ صفحة



كانت هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ هدية السماء لإدارة بوش التى تؤمن بالحفاظ على هيمنة الولايات المتحدة على العالم واستخدام القوة فيما وأينما كانت ضرورية حتى لو اعترضت أوروبا على ذلك.. فبعد يوم واحد من هذه الهجمات عقد اجتماع لمجلس الأمن القومى ليبحث ما إذا كان الهجوم سيشن على العراق أم أفغانستان، واختيرت الأخيرة بعد جدل طويل. وفى عام ٢٠٠٢ كان قد تم الانتهاء من وضع اللمسات الأخيرة على الحملة على العراق كأول تجربة لتفعيل هذه الخطة الجديدة التى استهدفت تدمير نظام البعث والإطاحة بصدام حسين، ليكون هذا هو أفضل برهان على التحول الأمريكى إلى تلك الاستراتيجية الإمبريالية الهجومية.

ورغم فشل صقور إدارة بوش فى تقديم أى تفسير واضح لاستهداف العراق، فليس ثمة غموض حول الحسابات التى دفعت بوش للقيام بهذا الهجوم.. فاقتصادياً، يمتلك العراق ثانى أكبر احتياطى من النفط الرخيص، بالإضافة إلى قرار العراق عام ٢٠٠٠ بتسجيل فواتير صادراته باليورو بدلاً من الدولار كان يوجه ضربة للاقتصاد الأمريكى خاصة إذا حذت فنزويلا شافيز وإيران الملالى حذوه. كما أنه رؤى أن خصخصة آبار البترول العراقية تحت سيطرة الولايات المتحدة ستعمل على إضعاف الأوبك.

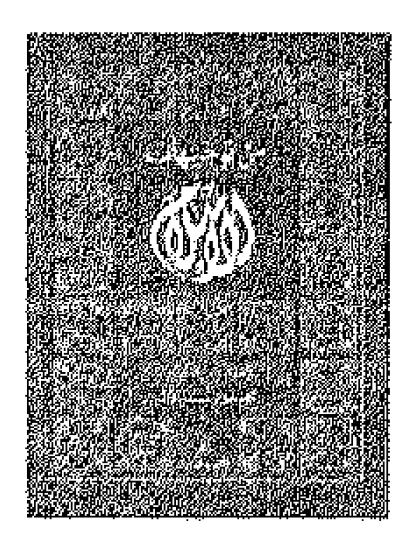
واستراتيجياً، كان وجود نظام عروبى مستقل فى بغداد مصدر ضيق للجيش الإسرائيلى، ومن ناحية أخرى كان هذا الهجوم يوجه رسالة إلى العالم أجمع وعلى وجه الخصوص دول الشرق الأقصى: الصين، كوريا الشمالية وحتى اليابان، أن الولايات المتحدة لديها الإمكانات لفرض إرادتها بالقوة.

وكما يؤكد الكتاب، فإن الأجندة العدوانية الأمريكية سوف تستمر، مالم يتم تطوير مقاومة سياسية مناسبة للتصدى لسطوتها الجامحة، ولن تكون الحركة المطلوبة مؤثرة إلا إذا كانت كوكبية، وإلا إذا أدركت هذه الحركة أن السيقان النيوليبرالية التى يسير عليها العملاق الإمبريالى ليست بالقوة التى يوحى بها العرافون الرأسماليون.

■

من توجيهات الإسلام
الإمام الأكبر محمود شلتوت

القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، ٤٧١صفحة



القصد من الدين هو تزكية النفس، وتطهير القلب، وظهور روح الامتثال والطاعة واستشعار عظمة الله، وإقرار الخير والصلاح فى الأرض على أساس قوى متين من ربط الإنسان بخالقه الذى يعلم سره ونجواه.. وكل ذلك يظهر فى تشريعات الإسلام، الذى أطلق بعد ذلك للعقل حريته، فلم يلزم الناس بتشريعاته الجزئية فى كل شىء، بل ترك لهم كثيراً من الشئون، يشرعون فيها بما يرونه محققاً للمصلحة تبعاً لما يجود به الزمن، ولم يكلفهم بشىء سوى الشورى وتبادل الرأى.

هذا المنهج الذى يعلى من قيمة العقل فى الفكر الإسلامى، هو الذى اتبعه الإمام الأكبر محمود شلتوت ـ رحمه الله ـ فى كتابه الذى استعرض من خلاله عشرات القضايا الإسلامية التى لا تزال تشتبك مع واقعنا الراهن، وتفرض نفسها ـ بالضرورة ـ على خيارات الأمة المستقبلية.

فقضايا الكتاب لا تزال تحتفظ بسخونتها وطزاجتها، ويأتى على رأسها الدين والدولة والنظرية السياسية فى الإسلام، وهو يؤكد أنه إذا كانت الشورى هى أساس الحكم، فإن الإسلام ترك شكل هذه الشورى ومداها للأمة حسب مصلحتها فى كل زمان ومكان. كما أنه إذا كان الحاكم وكيل الأمة، فإن من حق الأمة أن تختاره وأن تعزله، فخليفة المسلمين عند الفقهاء فرد عادى لا يمتاز عن أى فرد آخر إلا بثقل المسئولية التى يتحملها كوكيل عن الأمة، فيؤخذ بالقصاص إذا قتل عمداً، ويحتمل المغارم التى يلحقها بالناس، والأمة صاحبة الولاية عليه، تقيم عليه الحدود وتنفذ عليه الأحكام.

كما أن الدولة لا تملك حق تقييد حريات الأفراد إلا فى شروط محددة يسىء من خلالها هذا الفرد إلى دينه أو وطنه أو يعتدى على الآخرين.. إلخ، فإذا قيدت حرية شخص ما بلا موجب، فلا طاعة لها عليه.

كما يقدم الكتاب صورة مضيئة لدور المرأة الحقيقى فى الإسلام، فهى ليست مخلوقة من أجل مهمة خاصة للرجل، فأحكام الشريعة الإسلامية تقدمها فى إطار واحد، فهى مطالبة مثل الرجل بالقيام بالأعمال الجادة النافعة وتقديم الآراء الصائبة الحكيمة، لا أن تتخذ باسم الحرية وباسم الأنوثة خطوات تبعدها عن جوهرها الإنسانى الحقيقى.

■

عشر سنوات غيرت العالم

د. محمود سليمان
القاهرة: دار الهلال، ٢٠٠٤، ٢٩٨صفحة



أدى انهيار التوازن الدولى فى العقد الأخير من القرن الماضى، إلى تداعيات خطيرة عبرت عن نفسها بتهميش التنظيم الدولى وتنحيته عن مباشرة مهامه، وفى مقدمتها حفظ السلام والأمن الدوليين، وتواكب مع ذلك هيمنة نظام القطب الأوحد، حيث أصبحت أمريكا هى القوة العظمى الوحيدة فى العالم إثر انهيار الاتحاد السوفيتى وانفراط عقده وتفكك إمبراطوريته.

يسرد الكتاب طبيعة البعد الإسرائيلى فى المشهد العراقى، ويبين أن إسرائيل هى المستفيد الأول من اجتياح العراق واحتلاله، سواء على الصعيد الإستراتيجى بالإجهاز على قوة العراق وتهديد وحدة أراضيه، أو على الصعيد الاقتصادى، بإبرام إسرائيل عقوداً تجارية عديدة مع سلطات الاحتلال.

أما على الصعيد الفلسطينى، فيؤكد الكتاب أن حكم اليمين المتطرف فى إسرائيل يندفع فى تنفيذ مخططه لاغتصاب نحو ٦٠٪ من أراضى الضفة الغربية فى نفس الوقت الذى يحلق فيه الإرهاب وشبحه فوق رؤوس الجميع، والذى تم توظيفه كذريعة لتحقيق أهداف التحالف الأمريكى الصهيونى.

■

حوارات المنفيين

برتولد بريخت
ترجمة: يحيى علوان
دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٢، ١٥٨ صفحة



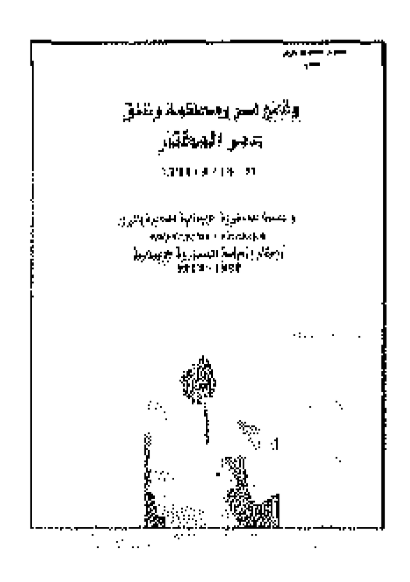
فى هذا الكتاب خاض بريخت معاركه ضد النازية بأسلحة مختلفة، استخدم خلالها أساليب التهكم والفكاهة. فهذا النص ليس مسرحية أو قصيدة أو مقالة فى علم الجمال كما يقول مترجمه. لكنه نص جديد لم يألفه القارئ العربى المتابع لأعمال بريخت، فهو نص نثرى فريد من نوعه، يجسد معاناة فنان أمضى القسم الأكبر من حياته الفنية ـ الإبداعية فى المهجر منفياً بعيداً عن وطنه وجمهوره وتعذر عليه البقاء فى ألمانيا بعد أن جاء النازيون إلى السلطة فى مطلع ١٩٣٣.

وفى نص «حوارات المنفيين» الذى كتبه فى فنلندا عام ١٩٤١ ونشر بعد وفاته، واصل بريخت تعرية الفاشية والسخرية منها والحط من شأنها، من خلال شخصين غريبين لاجئين من ألمانيا النازية يلتقيان فى مطعم بمحطة القطار فى هلسنكى.

■

وقائع أسر ومحاكمة وشنق عمر المختار

عمران محمد بورويس
بنغازى ـ ليبيا: ٢٠٠٣، ٢٩٥ صفحة



عام ١٨٦٢، ولد عمر بن المختار بن فرحات من عائلة غيث التى تنتمى لقبيلة بريدان إحدى بطون قبيلة المنفه. امتاز بذكاء متوقد وبحضور البديهة، وكان مثقفاً واسع الاطلاع، عاش فقيراً طيلة أيام حياته. ومنذ عام ١٩٢٢ إلى أن تم القبض عليه أسيراً فى ١٩٣١/٩/١١.

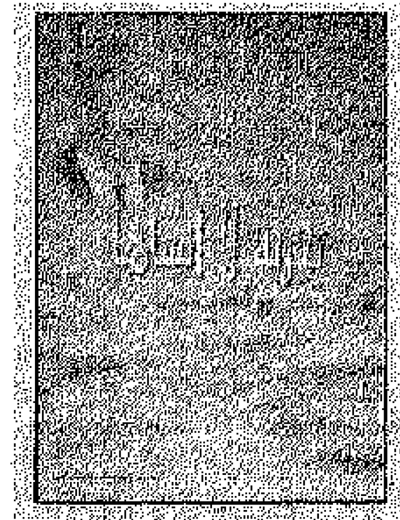
يستعرض الكتاب مدعوماً بالوثائق والصور الفوتوغرافية، تفاصيل المسرح السياسى الإقليمى والدولى الذى أحاط بالمشهد الليبى، إبان الاحتلال الإيطالى.

ويستعرض الكتاب وقائع معركة «عين لافو» بالجبل الأخضر حيث وقع عمر مختار فى الأسر صباح يوم الجمعة ١١/ ١٩٣١/٩، وتآمر قادة الاحتلال الإيطالى لإجراء محاكمة سريعة له والحكم عليه بالإعدام وتنفيذه فى مشهد عام، وهو ما تم فعلاً فى صباح يوم الأربعاء ١٩٣١/٩/١٦ بحضور ٢٠ ألف مواطن ليبى.

■

تجربة لا أنساها
مواقف وأسرار

فريق/ يوسف عفيفى
القاهرة: دار الصفوة، ٢٧١ صفحة



عندما تولى الفريق يوسف عفيفى موقعه كمحافظ للبحر الأحمر فى يناير ١٩٨١، لم يكن بتلك المحافظة النائية أى مشروع يذكر، وكانت تشكو الإهمال

والغياب الكامل للمرافق والخدمات، إلا أنه بروح المقاتل العنيد بدأ معركة التنمية فى المحافظة كامتداد لمعاركه العسكرية فى خط النار ضد العدو الإسرائيلى.

وفى خلال عدة سنوات تغير وجه الحياة فى البحر الأحمر، بعد أن فرضت نفسها على خريطة السياحة العالمية، محققة أعلى معدل تنمية واستثمار فى نموذج فريد يجمع بين روح الكفاح والتصميم والإبداع.

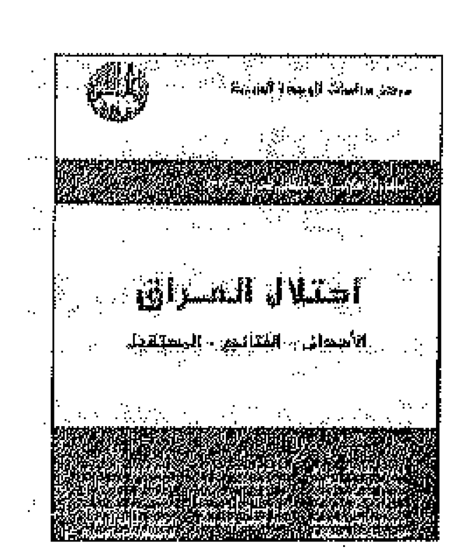
يلقى الكتاب الضوء على البحر الأحمر أو «بحر مور» عبر التاريخ منذ عهود الفراعنة والعصر الرومانى والفتح الإسلامى، كما يستعرض المشروعات التى قام بها الفريق عفيفى منذ توليه المنصب حتى تركه عام ١٩٩١ كمحافظ للجيزة.

ويضم الكتاب أيضاً عشرات المقالات التى كتبها كبار الكتاب والصحفيين عن الإنجازات التى تحققت خلال هذه السنوات العشر.

احتلال العراق: الأهداف.. النتائج.. المستقبل

مجموعة من الباحثين

بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية
سلسلة كتب المستقبل العربى (٣٢)، ٣٥٨ صفحة، ١٠ دولارات أو ما يعادلها



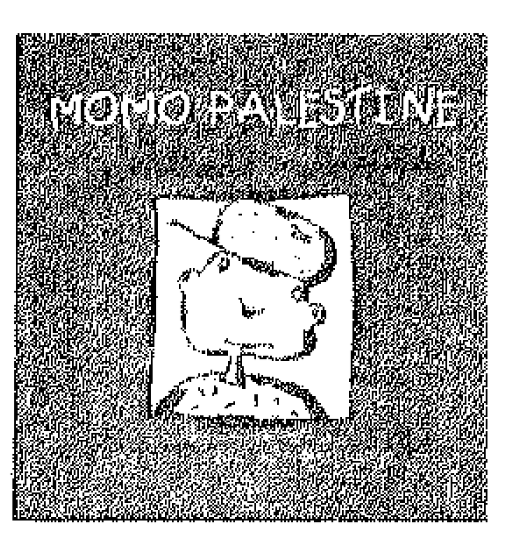
يشكل غزو العراق واحتلاله من قبل القوات الأمريكية ـ البريطانية منعطفاً حاسماً وخطيراً فى التطور السياسى للعراق ولمجمل المنطقة العربية والعلاقات الدولية، فهو يمثل مقدمة دراماتيكية لهجمة استراتيجية شاملة على مجمل الوطن العربى آذن بها اليوم مشروع «الشرق الأوسط الكبير» الذى تطرحه الإدارة الأمريكية إطاراً إقليمياً جديداً لإعادة صوغ كيان المنظومة العربية بعد توسعتها لتضم بعض دول الجوار الإسلامى فضلاً عن الكيان الصهيونى.

واليوم، وبعد عام على الاحتلال، إذ يحاول الشعب العراقى أن يدافع عن وجوده واستقلاله ووحدته ببسالة وطنية نادرة، فإن الأمة العربية وأمم العالم أجمع مطالبة بالبناء على هذه الصحوة الوطنية العراقية من خلال تقديم ردود سياسية فعالة تكف الاندفاعة العدوانية الأمريكية المنفلتة من كل عقال، وتفرض عليها قيد القانون الدولى.

تنصرف مادة هذا الكتاب إلى تناول تلك القضايا جميعاً التى أثارها الاحتلال، ومجمل الذيول والتداعيات التى أطلقها على أكثر من صعيد فى الداخل العراقى وفى الوطن العربى، وفى المحيطين الإقليمى والدولى.

محمد فلسطين

مصر: دار بردى

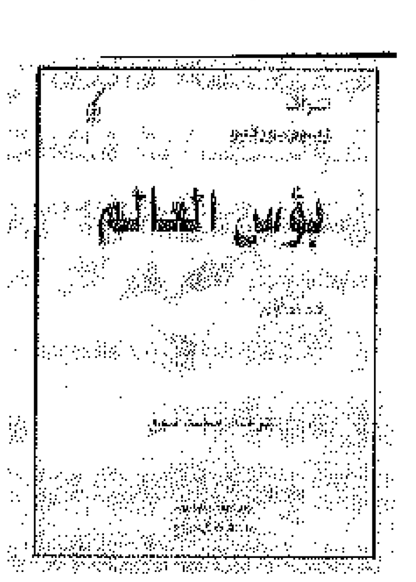


قصة احتلال الصهاينة لفلسطين، يحكيها هذا الكتاب عبر لوحات تشكيلية للفنان محمد فلسطين التى يرفض من خلالها هذا الظلم الذى تعرض له هو وأهله، ويؤكد ـ من خلالها أيضاً ـ رفضه القاطع والمستمر لأن يصبح ـ وهو فى وطنه ـ بلا وطن وبلا جنسية!

تشى لوحات الكتاب بطقس إنسانى ـ نضالى نبيل، يواجه من خلاله الأطفال ببراءتهم، جبروت قوة غاشمة اغتصبت أرضهم ولكنها فشلت فى أن تخمد داخل نفوسهم عشق وطنهم ورغبتهم الجامحة فى العودة إليه.

بؤس العالم (٣ أجزاء)

إشراف: بيير بورديو
ترجمة: محمد صبح ـ سلمان حرفوش ـ رندا بعث
مراجعة: د. فيصل دراج
دمشق: دار كنعان، ١١٤٦ صفحة



رحلة كابوسية فى أرجاء عوالم الرأسمالية، هذا هو قوام «بؤس العالم» الكتاب الضخم الذى أنجزه بيير بورديو ومعاونوه من الباحثين الاجتماعيين.. وحسب ما يقول د. فيصل دراج الذى قام بمراجعة ترجمة الكتاب وتقديمه، فإن بورديو يوظف المعرفة من أجل خدمة البشر المضطهدين، ويعطى درساً نموذجياً فى إنتاج المعرفة الصحيحة، من خلال حوار البشر وقراءة الشروط الموضوعية التى يعيشون فيها.. لأن المعرفة تتراءى فى أرجاء الحياة اليومية ولا تستولد من صفحات الكتب الجاهزة.

يبحث الكتاب فى مكنونات العنف الاجتماعى، الصادر عن أرواح مكبوتة ومحرومة أو عن حرمان يراكم الكبت قبل أن يطلقه عنيفاً وقاسياً ـ يقر بورديو فى كتابه أيضاً أن بؤس العالم يتبدى فى وعى مغترب وفقير يردد ما لقنته «شروط حياة» تفتقر إلى الحياة، وتستند إلى «رأسمالية جديدة» أو «ليبرالية جديدة» تضع الدولة فى مكان ملغز، ترى منه البشر ولا تراهم أيضاً: تراهم وهى تضع سياسات اقتصادية وثقافية وإعلامية مجحفة.. ولا تراهم وهم يتفككون فى حاضر لا أفق له..

ولأن «اقتصاد السوق» لدى الليبرالية الجديدة أصبح المسيطر عملياً ونظرياً على المستوى الكونى، فمن الطبيعى ـ كما تزعم ـ أن تخضع كل الظواهر الاجتماعية المختلفة له، سواء الثقافة أو الفن، فى حين ينبغى أن تمارس السياسة دورها بما يحفظ استقلال السوق وعقلانيته.

إلا أن هذه الأفكار/ الوقائع التى تروج لها الليبرالية الجديدة تتصادم مع واقع مرير، فبعد أن كان التفاوت فى توزيع الثروة بين ٨٠٪ من سكان الأرض لا يتجاوز حدود نسبة الواحد إلى اثنين قبل الثورة الصناعية، أضحت هذه النسبة بعد قرنين من التوسع الرأسمالى على المستوى العالمى تساوى واحداً إلى ستين، فى الوقت الذى أصبح فيه سكان المراكز الرأسمالية العالمية يمثلون ٢٠٪ فقط من سكان العالم.

ويشير الكتاب إلى أن النظر النقدى والمدقق على الحديث المتواتر عن ثورة الاتصالات، يؤدى إلى دلالة واحدة وهى: تأمين حركة رؤوس الأموال ومراقبة فعالة للأسواق المالية من أجل تصحيح كل ما يعوق الربح أو يبطئ مساره. كأن التقنية المتطورة، وهى إبداع إنسانى عام، قد كرست لأهداف نخبة عالمية تقف فوق البشر وعليهم فى آن، ولهذا فإن «زمن الاتصالات» هو بالمعنى الإنسانى العام زمن «غياب الاتصالات»، ذلك أن الفضائيات والإنترنت تدفع بالإنسان إلى عزلة متزايدة، وتنتج جمهوراً جديداً ينظر صامتاً إلى ما تبثه الأجهزة السمعية ـ البصرية المتطورة. وفى هذه الحدود يتطاير تماماً معنى الديمقراطية، ولا يبقى أمام الجماهير إلا عملية الانتخابات التى تحولت إلى طقس شكلانى يوهم الفرد بين فترة وأخرى أنه قادر على اختيار السياسيين الذين يمثلونه.

ورغم سوداوية الرحلة الكابوسية التى رصدها الكتاب، فإن ما يدعو إلى الأمل فى المستقبل، هو أن الكتاب نفسه بيع منه أكثر من ١٠٠ ألف نسخة فى فرنسا وحدها وترجم إلى لغات عدة، وتحولت أجزاء منه إلى عمل مسرحى، كما أعيد طبعه فى فرنسا فى طبعة شعبية.. وكل هذا فى حد ذاته يؤكد أن مقولات الليبرالية الجديدة تواجه مقاومة حقيقية، وأن الانتصارات النهائية التى تقول إنها حققتها على المستوى الكونى محل شك، إن لم تكن سلسلة من الأكاذيب.

فلسفة التكامل والتعدد.. رحلة استكشاف فى التاريخ المعاصر

د. طارق على حسن
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤، ٣٩٠ صفحة



من الصعب تصنيف كتابات د. طارق.. فهى تنتقل بين الفلسفة والدراما والتأملات، إلى الدراسات الاجتماعية والإنسانية والعلمية، إلى مجالات الفن والموسيقى والأدب.

وهذا الكتاب «فلسفة التكامل والتعدد» لا يشذ عن هذه القاعدة، فهو يصول ويجول فى العديد من فروع الفن والأدب والمعرفة فى تاريخنا المعاصر.

فالكتاب يرفض التاريخ الذى يكتبه ويسجل أحداثه المنتصر، فهذا عين التزوير، الذى يؤدى إلى غياب القدرة على التعلم من أخطاء الماضى، كما أن الحضارة الغربية الراهنة بامتلاكها أجهزة الإعلام وتفوقها فى ثورة العلوم والتكنولوجيا أقنعت شعوبها وشعوب العالم، أنها المرجع الذى ينبغى أن يقاس عليه أى تقدم فى كل بلاد الأرض الأخرى. فهذه الحضارة بهذا المفهوم تحطم الآخر.

طلال بن عبد العزيز آل سعود ـ الرؤية والمنهج

صابر عبد الرحمن طعيمة
بيروت: دار النهار للنشر، ٢٠٠٣، ٢٣٢ صفحة



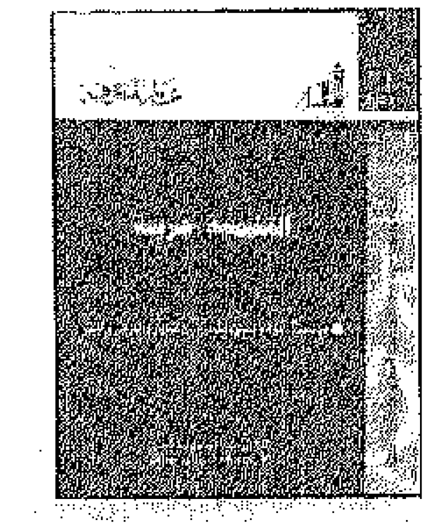
تبوأ الأمير طلال بن عبد العزيز العديد من المناصب والمهام داخل المملكة العربية السعودية. وفى هذا الكتاب يلقى المؤلف الضوء على علاقة الأمير طلال بجمال عبد الناصر وكيف أنه أيد دعوته فى الكفاح ضد الاستعمار وآمن بدعوته للقومية العربية، وإن كانت له تحفظات على الحريات والتأميم فى التجربة الناصرية. كما يستعرض الكتاب آراء الأمير طلال فى الكثير من القضايا منها: السلام مع إسرائيل، والإسلام السياسى، والقومية والإسلام، والعولمة

وعلاقـة الإسـلام بالغـرب، ومشكلات المرأة فى الوطن العربى ودورها السياسى والاجتماعى.

التنمية حرية

أمارتيا صن

الكويت: سلسلة عالم المعرفة، ٢٠٠٤



صدر العدد ٣٠٣ من سلسلة عالم المعرفة تحت عنـوان «التنمية حرية: مؤسسات حرة وإنسان متحرر من الجهل والمرض والفقر». والكتاب هو الأول لأمارتيا صن بعد فوزه بجائزة نوبل للاقتصاد عام ١٩٩٨. يتضمن الكتاب اثنى عشر فصلاً يقدم من خلالها المؤلف رؤيته للعلاقة بين التنمية والحرية معتبراً أن الحريات الإنسانية هى أساس تقييم التنمية والتطوير.

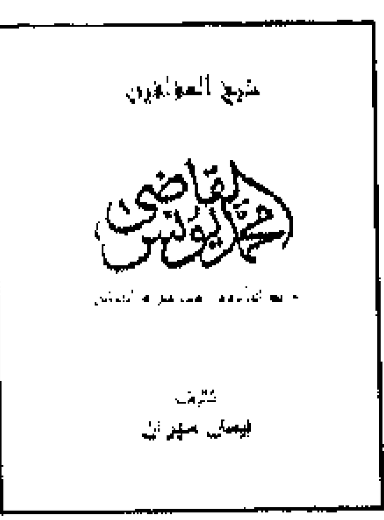
ويلتقى علم الاقتصاد بالفلسفة فى هذا الكتاب الثرى الذى يعرف الحرية بكونها عاملاً للتنمية وهدفاً أساسياً لها. الجديد الذى يحمله الكتاب هو البعد الإنسانى الذى غالباً ما تفتقر إليه الدراسات الاقتصادية الأخرى، حيث يقدم «أمارتيا صن» رؤيته الاقتصادية من منظور أخلاقى، وهو أمر غير معهود بالنسبة للدراسات التى تبحث فى التنمية الاقتصادية.

إن تفاؤل أمارتيا صن واقتراحاته الجادة تجعلنا متطلعين إلى حلول محتملة لمشكلة العالم الأولى: اللامساواة.

شيخ المؤلفين محمد يونس القاضى رائد التأليف المسرحى والغنائى

إيمان مهران

القاهرة: ٢٠٠٤، ٢٨١ صفحة



جهد كبير بذلته الفنانة والناقدة إيمان مهران فى جمع مادة هذا الكتاب الذى يدور حول شخصية مجهولة الاسم لدى أبناء الجيل الحالى، رغم أن إبداعاتها تجرى على كل لسان..

فالقاضى هو صاحب كلمات النشيد الوطنى «بلادى.. بلادى» وكلمات أغانى «زورونى كل سنة مرة» و«أنا هويت وانتهيت» و«أهو دا اللى صار» و«خفيف الروح بيتعاجب» وأيضاً أغانى «إرخى الستارة إلى فريحنا» و«بلح زغلول» و«أبوها راضى وأنا راضى» و«تعالى يا شاطر نروح القناطر».

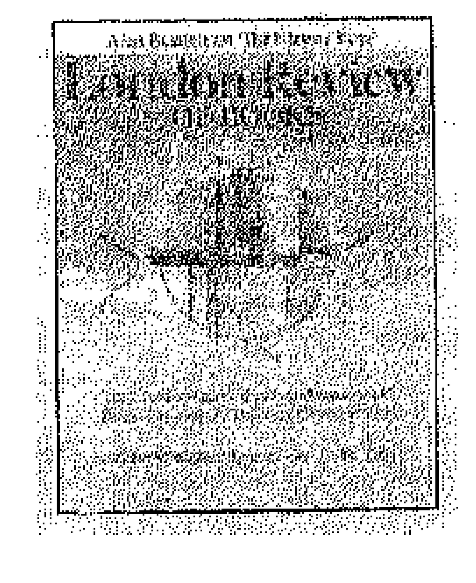
ولد القاضى عام ١٨٨٨ وتوفى عام ١٩٦٩، وحسب رصد المؤلفة فقد تعدت أعماله المسرحية ٥٨ عملاً اجتماعياً وفكاهياً ذات محتوى سياسى، مما أدى بقوات الاحتلال الإنجليزى إلى اعتقاله ١٩ مرة، كما أمر الاحتلال بوقف عرض بعض مسرحياته.

وكان المسرح الغنائى فى مفهومه «جريدة سياسية» يضع خلالها المعانى والأغانى التى تلهب حماس المتفرجين لتخرج المظاهرات بعد العرض تطالب برحيل الاحتلال والحصول على الاستقلال ومنها مسرحية «كلها يومين» التى منعها الرقيب الإنجليزى بعد أن أثارت حماس المتفرجين الذى هتفوا بسقوط بريطانيا بمجرد إسدال ستارة نهاية العرض، فى مظاهرة حاشدة جابت شارع عماد الدين ووسط القاهرة.

دوريات

London Review of Books (مجلة لندن لعروض الكتب)

Volume 26, Number 11 - 3 June 2004



فى هذا العدد من مجلة عروض الكتب الإنجليزية، التى يصدر منها عددان كل شهر، اهتمام واضح بالمذكرات والسير. فنجد عرضاً لمذكرات الروائى الكولومبى جابريل جارسيا ماركيز «أن نعيش لنحكى» كتبه الناقد الإنجليزى مايكل وود، ومقال طويل حول حياة وأعمال السينمائى الشهير أورسون ويلز من خلال كتاب حديث يتناول أعماله التى كتبها أو أخرجها أو مثّل فيها. ومن أروع ما يحتويه العدد فى هذا المجال قطعة من السيرة الذاتية كتبها خصيصاً للمجلة آلان بنيت، الكاتب المسرحى الشهير التى تعرض له فى لندن حالياً مسرحية (History Boys) فيأتى فى مقالته بسرد لذكرياته الشخصية عندما كان يدرس التاريخ فى أوكسفورد، وكيف أثرت خبرته الحياتية فى كتابته لهذه المسرحية. الأمر الذى لا يخلو من نقد لأوضاع التعليم الحالية فى بريطانيا.

ومن ناحية أخرى، وفى مجال التعليق على الشئون السياسية يكتب إسحق لاور الروائى الإسرائيلى المقيم فى تل أبيب، مقالا قصيرا عن وحشية سلطات الاحتلال الإسرائيلية فى التعامل مع الفلسطينيين فى مدينة رفح، محذراً من تحول المدن الفلسطينية إلى مجموعة من «الجيتو» المنفصلة عن بعضها والمعزولة عن باقى العالم.

وأخيراً، يختتم العدد بمقال طريق يحتوى على تحليل ونقد اجتماعى لثقافة الرجال المعاصرة فى بريطانيا من خلال مراجعة قام بها الروائى والناقد أندرو او هايجن لعدد من المجلات الرجالية (٩ مجلات). المتخصصة.

أدب ونقد

القاهرة: حزب التجمع، يونيو ٢٠٠٤



حفل عدد شهر يونيو من المجلة بالعديد من الموضوعات المتميزة منها قراءة فى كتاب مجهول للشيخ على عبد الرازق بعنوان «الإجماع فى الشريعة»، ومقال للدكتور محمود إسماعيل «فقهاء الرب وفقهاء السلطان» وآخر للدكتور حسين مروة بعنوان «صفحات من كتاب النزعة المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية». اشتمل العدد أيضاً على موضوعين عن الفنانة التشكيلية الشابة الراحلة مها طلعت الشايب، ودراسة عن الفنان الراحل محمود مرسى.

جريدة الفنون

القاهرة، العدد ٤١، مايو ٢٠٠٤



يتضمن هذا العدد من جريدة الفنون، عدداً من القضايا الفنية التى ترتبط بالواقع الآنى، من أبرز هذه القضايا ما ذخرت به القنوات الفضائية من برامج اتفق على تسميتها بتليفزيون الواقع، مثل «ستار أكاديمى»، «على الهوا سوا»، «الرئيس».. وغيرها، وهى البرامج التى تناولها بالتحليل د. مدحت أبو بكر، كما تضمن العدد أيضاً موضوعات عن المسرح فى رومانيا وفى العراق بالإضافة إلى الأبواب الثابتة.

الثقافة العالمية

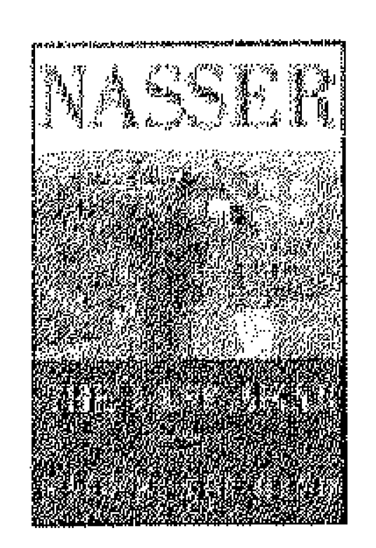
الكويت: مايو - يونيو ٢٠٠٤



صدر العدد ١٢٤ من مجلة الثقافة العالمية، وهو يحفل بعدة مواضيع متميزة أهمها، ملف العدد «من القطب العالمى الثانى؟» الذى يثير تساؤلات عدة حول الدولة التى تستحق الحصول على لقب القطب العالمى بعد الولايات المتحدة.

يتضمن العدد أيضاً سبعة مقالات أخرى مهمة منها «تطور الأغذية المعدلة وراثياً» و«الأهداف الجديدة للجغرافيا الفضائية».

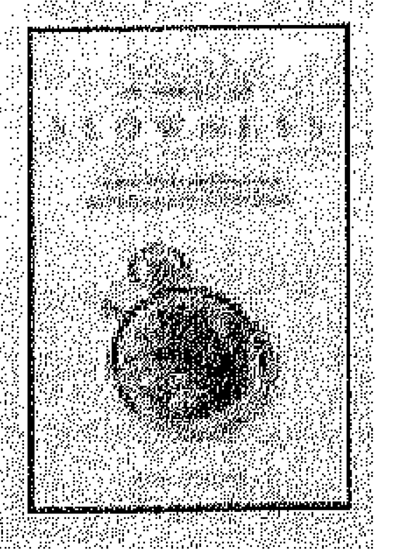
Nasser: The Last Arab
(ناصر: العربى الأخير)
Said Aburish
St. Martin's Press, 2004, 432PP., $ 29.95



يقول الصحفى الفلسطينى المقيم فى لندن سعيد أبو الريش أن كتابه هو الثامن والعشرون من بين الكتب التى تناولت سيرة حياة الرئيس جمال عبد الناصر. الأمر الذى يدلل على استمرار جاذبية الزعيم المصرى الذى أخرج الملك فاروق من البلاد وأخرج البريطانيين من قناة السويس، وتزعم حركة الوحدة القومية العربية، بل ويعتبر المؤلف أن جمال عبد الناصر أهم زعيم ظهر فى المنطقة العربية بعد محمد رسول الله والناصر صلاح الدين.

تتركز مقولة المؤلف الرئيسية التى يوجهها للغرب فى هذا الكتاب، أن محاربة الغرب لمشروع عبد الناصر القائم على كيان سياسى عربى موحد ودولة علمانية حديثة باعتباره تهديداً للمصالح الغربية كان خطأ كبيراً. وهذا الخطأ هو الذى جعل القوى الغربية تدعم الإسلام السياسى كبديل عن المشروع العربى مما أفرز الجماعات الإرهابية المسلحة التى تهدد أمن المنطقة والعالم كله الآن.

In Praise of Slowness
(فى مدح التمهل والتأنى)
Carl Honore
Orion, 310PP., £ 16.99



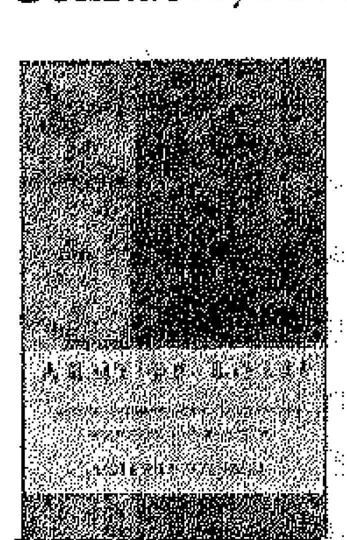
فى عالم يقول العلماء عنه أنه شديد التغير بشكل لم يحدث من قبل ويلهث فيه الإنسان من أجل اللحاق بعمله وتعليم أولاده والحصول على رزقه، هل النصيحة بأن يتأنى الإنسان فى خطواته وأن يهدئ من روعه وأن يبطئ (بالمعنى الحرفى) من مشيه، تكون فى غير محلها؟ إن مؤلف هذا الكتاب، وهو صحفى كندى يجادل بأن العكس هو الصحيح وأن الحل فى المعاناة التى يواجهها الإنسان فى عالم اليوم هو أن يتأنى فى كل شىء ويتمهل.

لقد أصبحت لدينا عادات فرضها التطور غير المسبوق فى شتى المجالات. ولذلك تجاوز الإنسان حتى أحلامه فى القرون السابقة وأصبح لديه شعور وثقة بأنه يستطيع أن يحقق ليس فقط ما يريد ولكن أيضاً بسرعة فائقة.

ويقول المؤلف إن إنسان العصر الحديث أقل سعادة وصحة بل وإحباطاً وأكثر توتراً بسبب هذا الاندفاع واللهث نحو تحقيق الرغبات.

ويشير المؤلف إلى أن الإنسان الحالى أصبح لديه هوس بالسرعة. ويلاحظ أن الأب يضغط على أولاده لكى يقوموا بأعمالهم بشكل سريع دون أن يدركوا عواقب ذلك. ولذلك فإنه، أى المؤلف، يطالب بأن يعاد النظر فى أساليب التعليم بحيث يكون الإنجاز هو الأساس وليس السرعة فى الإنجاز.

Army of Roses: Inside the World of Palestinian Women Suicide Bombers
(جيش الورود.. داخل عالم الفدائيات الفلسطينيات)
Barbara Victor
Constable, 307PP., £ 8.99



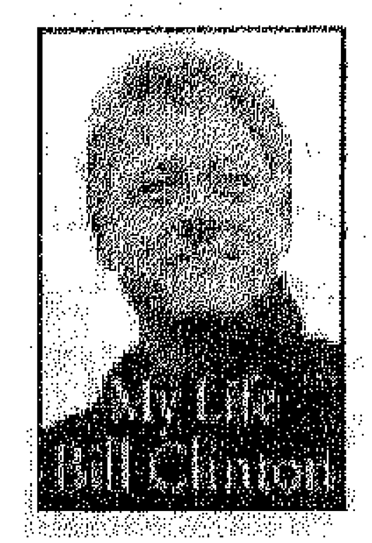
يجد الغربيون صعوبة كبيرة فى فهم دوافع أن يقوم فلسطينى ما بتفجير نفسه فى موقع إسرائيلى سواء كان ذلك الموقع مدنياً أم عسكرياً. وهم يجدون صعوبة أكبر لو كان هذا المفجر أو الفدائى أو الانتحارى «حسب الوصف الغربى فتاة أو سيدة».

ومؤلفة هذا الكتاب صحفية أمريكية قامت بتغطية الأحداث فى فلسطين وأعدت برنامجاً تليفزيونياً وثائقياً عن المرأة الفلسطينية والعمليات الانتحارية. وكتابها هذا يدور حول نفس الموضوع. وهى من البداية ترفض هذا الدور للمرأة الفلسطينية وتتهم الرجال بجعل الفتيات والسيدات الفلسطينيات يقمن به. وتنقل المؤلفة عن فدائية فلسطينية قولها: «أنتم السيدات الأمريكيات تتحدثن دائماً عن المساواة. حسناً يمكنكن أن تأخذن درساً عملياً عن المساواة من المرأة الفلسطينية. إننا نموت بأعداد متساوية مع الرجال فى المعركة ضد المحتلين».

وقد أخذت المؤلفة عنوان كتابها من كلام الرئيس الفلسطينى ياسر عرفات فى يناير ٢٠٠٢ عندما خاطب مجموعة من الفتيات الفلسطينيات قائلاً أنتن جيش من الورود ستقهرن الدبابات الإسرائيلية.

وتتحدث المؤلفة عن مجموعة من العمليات الفدائية التى قامت بها فتيات فلسطينيات ودوافعهن وراء ذلك والخلفيات الاجتماعية السياسية لهذه الأعمال، كما تتحدث عن ردود فعل الجنود الإسرائيليين وكيف أنه حسب زعمه يمكن اكتشاف الشخص الذى سيقوم بالعمل الفدائى. ويقول أحد جنود الاحتلال: إن الشخص الذى يوشك على تفجير نفسه لا يبدو مثل الشخص العادى، ولذلك فإن رجالنا وفتياتنا تدربوا على اكتشاف أى تغيير ولو طفيف يمكن من خلاله اكتشاف هؤلاء الأشخاص أو الفتيات ورغم هذا الادعاء فإن عمليات كثيرة تمت وقام بها شباب وفتيات دون أن يستطيع الجيش الإسرائيلى كشفهم.

My Life
(حيــــاتى)
Bill Clinton
Alfred A. Knopf, June 22, 2004, 900Pages, $ 35.00



انتظر العالم بفارغ الصبر مذكرات بيل كلينتون من كثرة الدعاية التى قامت بها الصحف والإذاعات منذ أن تم الاتفاق بين الناشر والرئيس الأمريكى الأسبق على هذا الكتاب. وفى أحاديثه التى سبقت نزول الكتاب إلى الأسواق، أغرى بيل كلينتون القراء بأن عدة أمور سيتم الكشف عنها لأول مرة فى كتابه الذى يحتوى على أكثر من تسعمائة صفحة. وبالفعل فإن ظروف إصدار هذا الكتاب تمثل ظاهرة جديدة فى عالم النشر، فبالرغم من أن تاريخ نزول الكتاب للأسواق كان ٢٢ يونيو، إلا أنه قد تم طلب كميات هائلة منه قبل هذا التاريخ بأسابيع عن طريق مكتبة أمازون الإلكترونية على الإنترنت، فتصدر قوائم الأكثر مبيعاً حتى قبل أن يقرأه أحد!

إن الكثيرين يعترفون بأن كلينتون ليس رئيساً أمريكياً عادياً، فهو أول رئيس ديمقراطى يفوز بفترتين رئاسيتين منذ فرانكلين دوايت روزفيلت. وعندما ترك الرئاسة وهو مازال فى الثالثة والخمسين من عمره، ظل فى دائرة الضوء من خلال تأسيسه لمنظمة دولية تحارب مرض الإيدز. ثم يأتى هذا الكتاب الذى هو فرصة لكلينتون للحديث عن فلسفته السياسية ونظرته للأحداث التى مضت.

تبدأ مذكرات كلينتون بطفولة ونشأة ملحمية، حتى أنه لا يصل إلى الرئاسة إلا فى صفحة ٤٧٦، وقد انصب هجومه على كينث ستار ومدير مكتب التحقيقات الفيدرالى (FBI) لويس فديه الذى قال عنه أنه «دمر عمليات السياسة الخارجية الأمريكية».

ويروى كلينتون تفاصيل لقاء جمعه بالرئيس الأمريكى الحالى بوش قبل مغادرة كلينتون فى مكتبه بالبيت الأبيض بقليل، فقد نصحه فى هذا اللقاء بزيارة كوريا الشمالية والاتفاق معهم ولكن بوش غير الموضوع بسرعة، كما حذر كلينتون بوش فى هذا اللقاء من خطر بن لادن والقاعدة باعتبارها المشكلة الأمنية الأولى التى تواجه أمريكا بينما قال له أن العراق تأتى فى المرتبة الخامسة.

ويعترف كلينتون بأخطائه الأخلاقية التى افتضحت أثناء قضية مونيكا لونسكى ويروى كيف أثر ذلك على زواجه، فقد اضطر للنوم على أريكة لمدة شهرين، كما خضع مع هيلارى لعملية من الاستشارات النفسية لإنقاذ زواجهما لمدة عام كامل.

ومن بين ما يكشف عنه الكتاب السبب الذى جعل كلينتون يعفو عن مارك ريتش قبل أن تنتهى مدة رئاسته بأيام قليلة، حيث يذكر كلينتون أن هذا كان تلبية لطلب من إيهود باراك رئيس وزراء إسرائيل آنذاك.

Elections in the Middle East.. What do they Mean?
(الانتخابات فى الشرق الأوسط.. ماذا تعنى؟)
Edited by Iman Hamdy
AUC Press, 2004,



هذه الأوراق البحثية تغطى موضوعاً مهماً للغاية، وهو الانتخابات البرلمانية والرئاسية فى مصر والسودان والأردن وتركيا ولبنان وإسرائيل والجزائر. وتتناول الأوراق هذه الانتخابات فى سياق التحديات الكبرى التى تواجه المنطقة كالديمقراطية والاستقرار السياسى والمشاركة السياسية.

وتبدو أهمية هذه الأوراق فى وقت تطالب الولايات المتحدة والدول الغربية بإصلاح سياسى وديمقراطى حقيقى فى دول الشرق الأوسط وشمال أفريقيا من خلال المشروع الأمريكى الذى أصبح يعرف بالشرق الأوسط الأوسع. وإذا كانت الانتخابات هى العنصر الأهم فى العملية الديمقراطية إلا أنها تبقى جزءاً فى إطار

منظومة شاملة لابد من اتباعها لكى يمكن القول إن هناك ديمقراطية حقيقية.

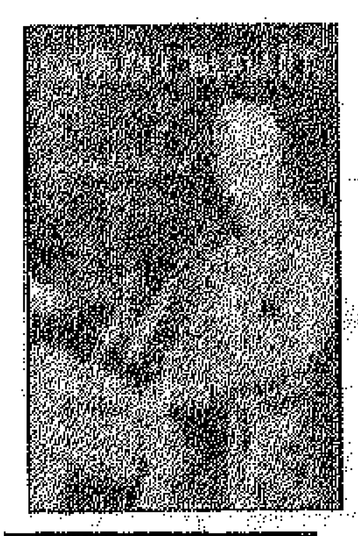
وتبدو التجارب التى شملتها الأوراق متنوعة بدرجة كبيرة لكنها تبقى فى إطار حالة لم تصل بعد إلى مرحلة الديمقراطية التى تتطلع إليها دول المنطقة.

Lord Cromer: Victorian Imperialist, Edwardian Proconsul

(لورد كرومر: الإمبريالى الفيكتورى والقنصل الإدوارى)

Roger Owen

Oxford University Press, 2004, 436PP



كان إيفلنج بارنج، الذى أصبح لورد كرومر عام ١٨٩٢، حاكم مصر الفعلى لمدة تصل إلى ربع قرن، من ١٨٨٣ إلى ١٩٠٧، وفى تلك السنوات التى كانت فيها القاهرة وكلكتا تمثلان قطبى النفوذ البريطانى فى آسيا وأفريقيا، عبّر الحضور الطاغى لكل من لورد كرومر ولورد كرزون عن روح الحكم الإمبريالى فى أوج الإمبراطورية البريطانية.

يقول روجر أوين، أستاذ تاريخ الشرق الأوسط بجامعة هارفارد، عن الأسباب التى دفعته للكتابة عن اللورد كرومر، أن منها تشابه الظروف العالمية فى تلك الفترة التى سبقت الحرب العالمية الأولى بموجة العولمة التى تمر بعالمنا الآن، ففى ذلك الوقت سيطرت الأفكار الاقتصادية الليبرالية والاتجاه نحو الانفتاح على التجارة الدولية، وخفض الجمارك والضرائب، وإدارة الديون الوطنية إدارة مالية دولية. كذلك أراد المؤلف أن يجرب أدواته فى الاقتراب بشكل إنسانى من سيرة حياة ذلك الرجل الذى كرهه المصريون وأن يقترب من الأفكار التى كانت سائدة حول التفوق العنصرى، وشعور المحتل الأوروبى بواجب تطوير الشعوب المحتلة ماديًا وحضاريًا.

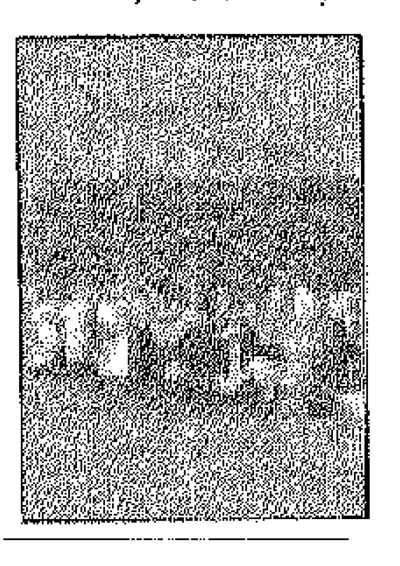
يتناول الكتاب نشأة إيفلنج بارنج، وتعليمه، وبداية حياته المهنية، سنواته فى الهند وزواجه الأول ثم الثانى (يكشف الكتاب لأول مرة عن وجود ابنة غير شرعية للورد كرومر). وفى سنوات كرومر الطويلة فى مصر، يبين الكتاب من خلال منزل اللورد، كيف كان أسلوب الحياة والعمل، والمعارك السياسية والأزمات التى دخل فيها كرومر وأسلوبه فى بسط سيطرته ونفوذه، سواء على الخديوى ورجال الحركة الوطنية والوزراء، أو على غرمائه من الساسة البريطانيين.

The Infidel Within: Muslims in Britain Since 1800

(غير المسيحيين.. المسلمون فى بريطانيا منذ ١٨٠٠)

Humayun Ansari

Hurst, 438PP., £ 14.95



حتى نهاية القرن التاسع عشر، كانت الطبقة أهم من العرق فى بريطانيا، ولذلك كان المسلمون الأرستقراط موضع ترحيب كبير فى هذه البلاد بينما كان المسلمون الفقراء يعانون من شظف العيش بل والموت جوعًا فى الموانئ البريطانية.

ويسرد هذا الكتاب تاريخ المسلمين فى بريطانيا منذ عام ١٨٠٠ حيث بدا التواجد الإسلامى محسوسًا هناك لكن ذروة التواجد كانت عقب الحرب العالمية الأولى عندما هاجر عشرات الآلاف من المسلمين إلى بريطانيا للعمل فى صناعة الغزل والنسيج وكان معظمهم قادمًا من الدول التى كانت تحتلها بريطانيا، وظلت الهجرة مفتوحة أمام المسلمين من هذه البلدان إلى أن بدأت لندن تفرض القيود فى الستينيات من القرن العشرين.

وقد جاء معظم هؤلاء المهاجرين من مناطق ريفية ولم يكن لديهم خلفية تعليمية جيدة وكان أكثر ما يشغلهم بالإضافة إلى المال وتحسين أحوالهم المعيشية، أن يقوموا ببناء مؤسساتهم الإسلامية كالمساجد حتى يمكن أن يؤدوا فرائضهم فيها يوميًا.

ويشير المؤلف إلى أن هؤلاء المسلمين ظلوا دون أى تأثير سياسى فى بريطانيا حتى منتصف السبعينيات عندما بدأت الصورة تتغير قليلاً، فقد بدأت عناصر من الجالية الإسلامية (غالبيتهم من الهنود والباكستانيين) فى المطالبة بالاعتراف بالهوية الثقافية والدينية لهم. على المستوى الاقتصادى ظلت الجالية الإسلامية عمومًا تعانى من نسبة عالية من البطالة خلال الثمانينيات والتسعينيات وحتى الآن.

لكن العامل الجديد الذى طرأ على هذه الجالية هو ظهور الإسلام السياسى الذى أدى إلى بروز احتجاجات الشوارع والمظاهرات المناهضة للحرب فى العراق ولأى كتاب يناهض الإسلام كما حدث مع كتاب سلمان رشدى «آيات شيطانية».

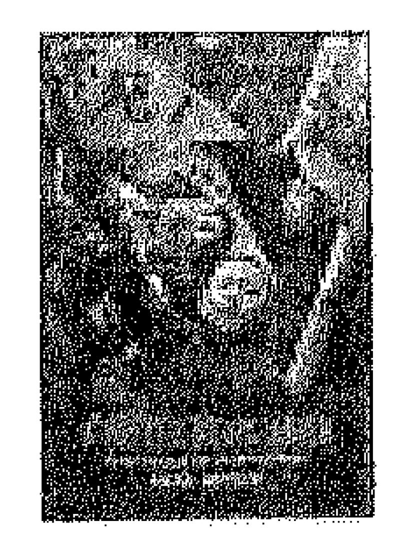
ويقول المؤلف أنه فى الوقت الذى تتيح فيه الديمقراطية البريطانية حرية التعبير والتظاهر لهؤلاء النشطاء الإسلاميين إلا أنه للأسف لم يؤد ذلك إلى تجدد الفكر الليبرالى داخل الجالية الإسلامية فى بريطانيا بل زاد التشدد والتطرف لدى فئة كبيرة من أبنائها.

Bitter Revolution: China's A Struggle With the Modern World

(ثورة مريرة: صراع الصين مع العالم الحديث)

Rana Mitter

OUP, 357PP., £ 18.99



بالنسبة لكثير من الصينيين فإن العصر الحديث يبدأ فى ٤ مايو ١٩١٩ عندما تظاهر الطلاب الوطنيون احتجاجًا على التنازل الصينى لصالح اليابان فى اتفاقية فرساى، وساروا عبر شوارع بكين القديمة وهاجموا منزل أحد الوزراء الذى اتهموه بالخيانة وحطموا كثيرًا من العقارات.

وعقب ذلك، كما يقول المؤلف وهو محاضر فى جامعة اكسفورد، اندلعت تحركات كثيرة للطلاب أشهرها ما حدث بعد حوالى ٧٠ عامًا أى فى ٤ يونيو ١٩٨٩ فى ساحة ميدان السلام السماوى فى قلب بكين عندما خرج الطلاب من أجل الحرية وارتكب البوليس ضدهم مذبحة بشعة.

وما بين هاتين التظاهرتين وما بعدهما، لعب الطلاب والمثقفون دورًا كبيرًا فى حياة الصين وفى نظرتها إلى العالم الحديث. يجرى المؤلف مقارنة بين الصين واليابان ولماذا نجحت الثانية وظلت الأولى تعانى من المشاكل والتخلف حتى سنوات قليلة مضت. ويشير إلى أن الانغلاق الصينى وعدم رغبة الحكام فى الانفتاح، كما أنه كانت هناك ثقافة سائدة باسم النهر الأصفر تدعو إلى الانغلاق والتقوقع وحاول كثيرون تغييرها من أجل ثقافة المحيط الأزرق العميق أى بدلاً من النظر إلى النهر فى داخل الصين لابد من النظر أعمق إلى العالم من خلال المحيط.

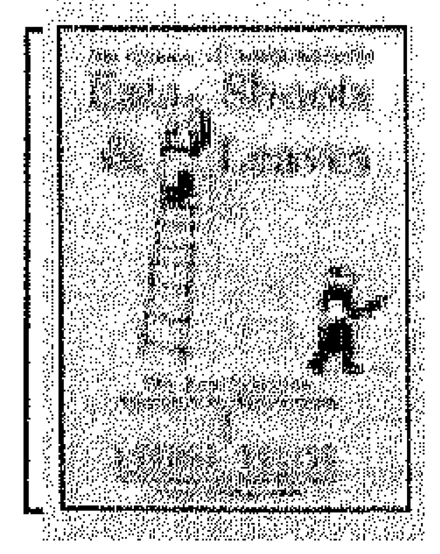
وفى كل الأحوال فإن الطلاب لعبوا دورًا كبيرًا فى هذه التغيرات ودفعوا ثمنًا باهظًا من أجل رفاهية وحرية الصين.

The Paradox of Choice: Why More is less

(معضلة الاختيار: لماذا يصبح الأكثر أقل؟)

Barry Schwartz

Ecco, 2004, 288PP.



يبين أستاذ علم النفس بارى شوارتز فى هذا الكتاب كيف أن الحياة الحديثة خاصة فى البلدان التى تنتشر بها السلع الاستهلاكية توهم الفرد بأن أمامه اختيارات متعددة بينما فى الواقع هى لا تقدم سوى خيارات محدودة فى تنوعها واختلافها. كما أن وجود هذا الكم من البدائل فى كل صغيرة وكبيرة يجهد ذهن الإنسان ويرهقه بدلاً من إسعاده بوجود المنتج الذى يناسب احتياجاته تمامًا. وبينما يرى البعض أن الإنسان الفرد يجد حريته فى تعددية الاختيارات إلا أن شوارتز يرى أن كل هذه الاختيارات تؤثر سلبيًا على الصحة النفسية للإنسان وتقيده، فعملية اتخاذ قرار الشراء من بين عدد من المنتجات لنفس السلعة تتطلب وقتًا وجهدًا وشكًا وخوفًا، مما يشل الإنسان عن الفعل. لذلك يقدم المؤلف للقارئ فى نهاية الكتاب مجموعة من الخطوات العملية فى كيفية تقليل التوتر الناجم عن عملية اتخاذ القرارات.

Eats, Shoots & Leaves: The Zero Tolerance Approach to Punctuation

(لا تسامح مع الخطأ فى علامات الترقيم!)

Lynne Truss

Gotham Books, 2004, 240PP.

لم يتوقع أحد أن كتابًا حول علامات الترقيم يمكن أن يحقق كل هذا النجاح الذى ناله كتاب المؤلفة الإنجليزية لين تروس.

فقد فزعت المؤلفة من الانحطاط النحوى الذى أصاب مستخدمى اللغة الإنجليزية فى بريطانيا، خاصة فى تجاهل علامات الترقيم أو استخدامها استخدامًا خاطئًا، الأمر الذى يستحيل

معه توصيل المعاني. الكتاب يمتلئ بالفضائح النحوية في علامات الترقيم التي تمتلئ بها صحف وكتب ولافتات المطاعم والإعلانات في بريطانيا، إلى جانب إرشادات وقواعد لكيفية استخدام علامات الترقيم بصورة صحيحة. وتؤرخ لين تروس أيضاً لعلامات الترقيم، فتذكر أن الفاصلة دخلت اللغة الإنجليزية في القرن السادس عشر، بينما ظهرت أول فاصلة منقوطة عام ١٤٩٤.

ويرى الكثيرون أن عنوان الكتاب اللافت كان عامل جذب رئيسياً للكتاب، فهو نموذج لعبارة تبدل معناها تماماً لمجرد وضع علامات الترقيم في غير موضعها الصحيح. العبارة جاءت من موسوعة عن الحيوانات، تذكر عن حيوان الباندا أنه يأكل الأعشاب وأوراق الشجر (eats shoots and leaves) ولكن لأن المحرر أساء استخدام علامات الترقيم فجاء المعنى أن الباندا: يأكل، ثم يطلق الرصاص، ثم يرحل!

The Player: Autobiography
(اللاعب.. سيرة ذاتية)
By: Boris Becker With Robert Lubenoff and Helmut Sarge
Bantam Press, 2004, 306PP., £17.99

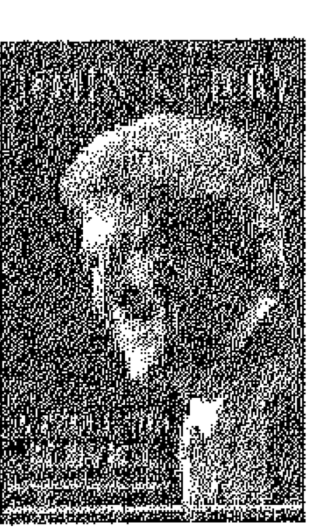


يعد اللاعب الألماني بوريس بيكر أحد أهم نجوم التنس في العالم ورغم أنه اعتزل اللعب منذ فترة إلا أنه مازال حاضراً على الساحة الرياضية وأصبح حالياً من مشاهير العالم في الرياضة. وقد بدأت شهرته عقب الإبهار الذي قدمه في بطولة ويمبلدون الشهيرة للتنس عام ١٩٨٤.

ومؤخراً أصدر بيكر كتاباً عن سيرة حياته بمساعدة اثنين من الصحفيين الألمان، وهو في هذا الكتاب يروي سيرة حياته وولعه بالتنس والمشاكل التي تعرض لها خاصة الإصابات التي جعلته يقلع عن التنس في عمر صغير نسبياً.

الكتاب يتحدث عن التنس ليس كمجرد لعبة يهواها أشخاص ذوو قدرات خاصة وخلفيات اجتماعية معينة ولكن كرياضة تدخلت فيها عوامل عديدة بما في ذلك الكمبيوتر بحيث لم يعد الأمر يتعلق بلاعب ومضرب وكرة تنس وملعب فقط، بل صناعة عالمية تدر الملايين على أصحابها. وبالفعل فإن بيكر الذي يعد من أصحاب الملايين سواء من حصيلة الجوائز التي فاز بها أو الإعلانات أو الأنشطة الأخيرة يعد خير ممثل لرياضة التنس في عهدها الجديد.

A Call To Service: My Vision For A Better America
(نداء الواجب: رؤيتي لأمريكا أفضل)
John Kerry
Viking, 2003, 202PP, $ 24.95



أصدر جون كيري هذا الكتاب عندما قرر خوض الانتخابات الرئاسية الأمريكية لعام ٢٠٠٤ و ذلك لتعريف الناخبين بالأهداف التي يسعى لتحقيقها و القيم التي يؤمن بها والتي شكلت رؤيته لأهم التحديات التي تواجه المجتمع الأمريكي وكيفيه تصديه لها.

وفي مجال حديثه عن التحدي الأول وهو توفير الأمن للمواطن الأمريكي يؤكد كيري أن إستخدام القوة العسكرية يجب أن يلازمه إستخدام الوسائل الدبلوماسية وإحترام القانون الدولي ولذلك فهو يرى أن الإدارة الأمريكية الحالية قد إرتكبت خطأ جسيما عندما اختزلت السياسة الخارجية للولايات المتحدة في إستخدام قوة الجيش الأمريكي فقط، و فيما يتعلق بالمسألة العراقية يؤكد كيري أن التصرفات الأحادية الجانب للرئيس بوش وتجاهل إرادة المجتمع الدولي أدى إلى عزل أمريكا عن العالم وضعف نفوذها ولذلك فإنه يدعو إلى بناء التحالفات مع الدول الصديقة و إعطاء دور أكبر للأمم المتحدة في عملية إعادة الإعمار.

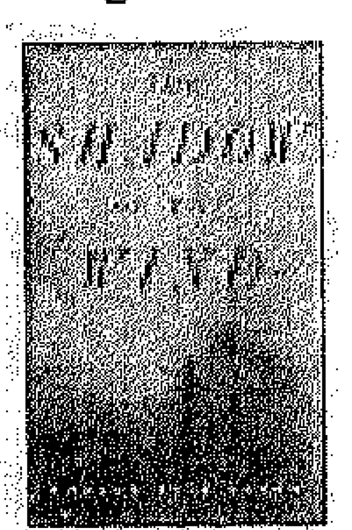
ومن النقاط القليلة التي يتفق فيها كيري مع بوش هي ضرورة توفير الدعم الكامل لإسرائيل بإعتبارها الحليف الأول لأمريكا في الشرق الأوسط وهو إن كان يرى أن الضمان الوحيد لأمن إسرائيل هو تحقيق السلام الشامل في المنطقة إلا إنه مثل بوش يهاجم عرفات ويدعو الفلسطينيين إلى إختيار قيادة سياسية جديدة ملتزمة بالسلام.

ويرى كيري أن دول الشرق الأوسط تعاني من عدة مشكلات تجعلها أرضا خصبة للإرهاب لذلك فهو سيستمر في محاربة الشبكات الإرهابية مع الإصرار على التعاون المطلق في ذلك المجال من كل الأنظمة العربية بالإضافة إلى البدء في عملية الإصلاح والتحديث في المنطقة من خلال إستراتيجية شاملة تتضمن أن تعرض أمريكا على الدول العربية إبرام إتفاقية للتجارة الحرة في مقابل التخلي عن سياسة المقاطعة الإقتصادية تجاه إسرائيل والتوقف عن دعم الإرهاب وإحترام حقوق الإنسان.

ويخصص كيري معظم الفصول في كتابه للحديث عن أهدافه وخططه بالنسبة للسياسة الداخلية ففي المجال الاقتصادي يتعهد كيري بإلغاء التخفيضات الضريبية التي منحها بوش لأكثر شرائح المجتمع الأمريكي دخلا بالإضافة إلى العمل على خفض العجز في الموازنة العامة إلى النصف في السنوات الأربع القادمة.

وفيمايختص بالطاقة والبيئة فهو يريد لأمريكا أن تتحرر من الإعتماد الزائد على البترول والذي يتركز ٦٥٪ من احتياطه في الشرق الأوسط وهو ما يمثل بالنسبة لكيري خطر يهدد إقتصاد أمريكا وأمنها القومي كما أنه ذو آثار مدمرة للبيئة لذلك فهو يدعو إلى مشروع قومي لتشجيع الإستثمار في مجال الطاقات النظيفة والمتجددة.

The Shadow of the Wind
(ظل الريح)
Carlos Ruiz Zafon
Translated by: Lucia Graves
Penguin Press, 2004, 480P

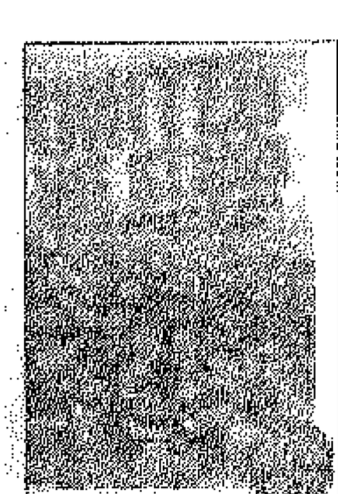


«ظاهرة روائية إسبانية جديدة» هكذا قال أحد النقاد عن هذه الرواية التي تصدرت قائمة الروايات الأفضل مبيعاً في إسبانيا طوال العام الماضي وترجمت حتى الآن إلى عشرين لغة حول العالم.

تدور الرواية في مدينة بارشلونة الإسبانية في الخمسينيات من القرن العشرين أثناء حكم فرانكو، عندما يأخذ بائع كتب عجوز ابنه الشاب الصغير إلى «مقبرة الكتب» ليختار منها كتاباً، فيسحر الشاب برواية اسمها «ظل الريح» ويقرأها ليكتشف مدى خطورتها، حيث يوجد شخص مخيف يقوم بإحراق أي نسخة يجدها من ذلك الكتاب. وهذا الشخص يحمل اسم أحد الأبطال الشياطين في الكتاب.

تتشابك في الرواية العديد من الشخصيات التاريخية والخيالية والواهية، حيث تتلامس حياة شخوص الأحداث مع حياة المؤلف الميت الغامض وأبطال روايته الغامضة في جو من الغموض والجريمة والرومانسية.

United We Stand: A History of Britain's Trade Unions
(تاريخ نقابات العمال البريطانية)
Alastair J Reid
Allen Lane, 2004, £ 25.00



تواجه نقابات العمال البريطانية في الوقت الحاضر تراجعاً غير مسبوق في نفوذها وقدراتها. والبعض ينسب هذا التراجع إلى أخطاء ارتكبتها النقابات في كيفية تعاملها مع الحكومات البريطانية والتطور التكنولوجي والصناعي الحديثين.

لكن البعض الآخر يعتقد أن هذا التراجع هو دليل على تراجع مكانة بريطانيا ذاتها في العالم.

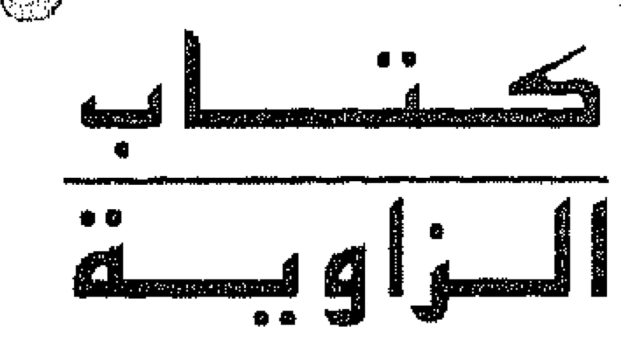
وقد تعرضت النقابات العمالية خلال ربع القرن الأخير إلى ضربتين شديدتين، الأولى من حكومة المحافظين بزعامة مارجريت تاتشر في الثمانينيات عندما أنهت بالقوة إضراب عمال الفحم وقلصت من النفوذ الكبير الذي كانت تتمتع به النقابات في المجتمع البريطاني، ثم جاء حزب العمال الجديد بزعامة توني بلير رئيس الوزراء الحالي ليفصم عرى العلاقة الوطيدة بين الحزب والنقابات وليقلل إلى حد كبير من «التقاسم» في السلطة الذي كان للنقابات داخل الحزب.

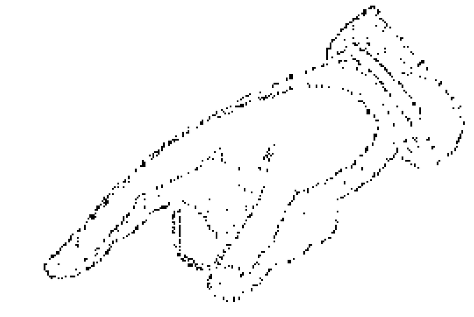
إلا أن المؤلف يعود للوراء في كتابه ليتحدث عن تاريخ النقابات وهو يتوقف عند فترات معينة صعد فيها نجم النقابات وأخرى خبا فيها هذا النجم.

نموذج الصعود يتمثل في الفترة من ١٨٩٠ حتى ١٩١٨، عندما دخلت معظم فئات المجتمع البريطاني في عضوية النقابات وأصبح العمال قوة مؤثرة في الحياة السياسية في البلاد وترافق ذلك مع ظهور حزب العمال البريطاني كدليل حاسم على أن العمال أن لهم أن يقوموا بدورهم في شتى شئون المجتمع.

عقب تلك الفترة الذهبية مرت نقابات العمال بفترات هبوط وصعود خاصة عقب الحرب العالمية الثانية مع تغير نمط علاقات العمل الصناعية والخلافات بين النقابات والحكومات وداخل النقابات نفسها.

تمر النقابات حالياً بأزمة، ففي عام ١٩٧٩ كان عدد أعضائها ١٣ مليون شخص، أما الآن فوصل العدد إلى النصف تقريباً ولم تظهر في الأفق أي محاولة لمواجهة هذه الأزمة.







ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقاً على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

هكذا غنى طاغور

شكر

أولئك الذين يسلكون طريق الكبرياء

ساحقين تحت أقدامهم المخلوقات المتواضعة

مغطين خضرة الأرض الغضة

بآثارهم الدموية

يبتهجون ويرفعون الشكر إليك

يا إلهى

لأن هذا اليوم يومهم

ولكنى أشكرك لأنك جعلت

نصيبى مع الفقراء المتواضعين

الذين يتعذبون

ويتحملون عبء التسلط

موارين وجوههم

خانقين خفقات قلوبهم فى الظلام

ذلك أن كل خفقة من خفقات آلامهم

قد نبضت فى الهاوية الخفية من ليلك

وكل إهانة قد حواها صمتك الكبير

إن الغد لهم

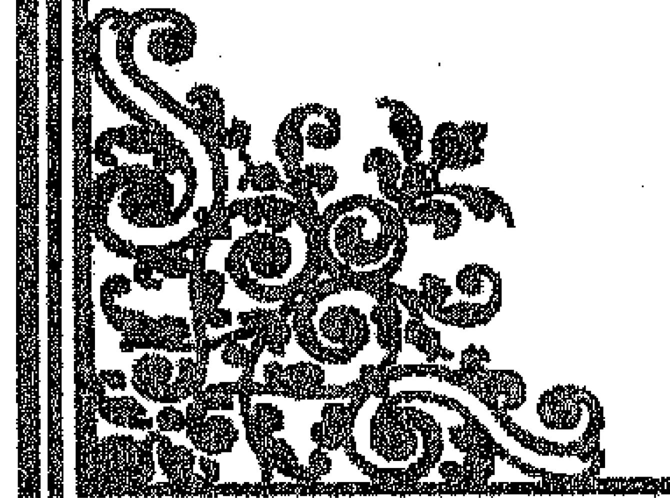
أيتها الشمس

لتشرقى فوق القلوب الدامية

التى تتفتح فى أزهار الصباح

وفوق فجور الكبرياء الليلى

الذى تحول إلى رماد



ظاهرة مادونا

تعليقاً على المقالة المنشورة بمجلة الكتب.. وجهات نظر عدد شهر أبريل والمعنونة «مادونا من إباحية الجنس إلى أدب الطفل».

أود إبداء الدهشة لأن المقالة بدأت بذكر أن مادونا تمثل ظاهرة ثقافية تجسد تطورات مهمة لحقت بالعالم فى نهاية القرن العشرين ثم صورت هذه التطورات على أنها عملية إعادة تسويق وليس تطور ونضج، وكذلك تزداد الدهشة مع اعتراف المقالة بأن إنتاجها الأدبى للأطفال «قد» يحتوى على معان وقيم جميلة كما أن رسومها بديعة مع النهى الضمنى عنها لأن مؤلفتها مغنية عالمية لها شهرتها كرمز للإثارة والجنس والإباحية منذ عقد الثمانينيات وهو ما قد يمنع عرض مؤلفات وأفلام معظم المبدعين على المستوى العالمى وربما يمنع عرض سيرة معظم مشاهير العالم وربما بعض رموزه الدينية أيضاً. كما تزداد الدهشة من حساسية المقالة الواضحة لاستخدامها قصصاً من التراث اليهودى القديم رغم الإقرار باحتوائها على قيم نبيلة ومن ذكر تصوير أغنيتها مثل الصلاة (والتى مر عليها أكثر من عشر سنوات) ضمن تحليل كتابها الثانى المنشور عام ٢٠٠٣، وتأتى الدهشة مرة أخرى عند ذكر أغنيتها الأخيرة الحياة الأمريكية وتحللها المقالة باعتبارها تبجحاً من رمز رأسمالية صناعة الترفيه وسرقة الشعارات اليسارية! رغم النص على الظاهرة المسايرة للتطورات فى بداية المقالة وتنتهى المقالة بصورة كاريكاتورية عما وصفته بآخر ضحايا مادونا وهو مرشح للسباق الرئاسى فى أمريكا بتبرير هزيمته فى السباق الانتخابى بإعلان مادونا تأييدها له وهو استكمال للمعالجة التى تبنتها المقالة وهى أقرب ما يكون للاستخفاف بمادونا عن تحليل تاريخها والتطورات المهمة التى لحقت بها.

إن إعجابى بمادونا كان محدوداً منذ الثمانينيات إلا أن التطورات الأخيرة التى طرأت على شخصيتها والتى انعكست على صورتها وإنتاجها استثارت اهتمامى ونالت تقديرى الشديد وليس هناك ما هو أكثر من اعترافها «وهى رمز الرأسمالية» بأنها كانت حمقاء وأنها أضاعت عمرها على حلم وهمى مدعاة لتناول الأمر بجدية أكثر مما جاء بمقالتكم.

ونهاية أتمنى ألا يضيق صدركم بهذا التعليق الذى أرجو ألا يكون حاداً وأن يدعوكم لإعادة قراءة المقالة برؤية مختلفة. مع التأكيد على احترام وجهات النظر المختلفة ومتعة قراءة مجلتكم المميزة.

أحمد زهران



ملاحظتان

قرأت عدد شهر إبريل الماضى من (وجهات نظر)، ولاحظت فى مقال حسن أبو طالب، استخدامه العبارة الإنجليزية (الأجندة) التى شاعت وذاعت وأصبحت على طرف لسان كل متحدث فى هذه القنوات التى تملأ الفضاء من حولنا. وهذا لا يصح فى مقال ينشر فى مجلة راقية.

ثم لاحظت فى مذكرات محمد عبده التى نشرتم أجزاء منها، ورود الاصطلاح القديم (مديرية البحيرة)، والصحيح أن يقال (محافظة)، لأن المديرية اصطلاح كان سائداً فى العهد السابق على انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢. ولم يرد ذلك فى متن

المذكرات حتى تبقى كما هى دون تغيير، وإنما ورد فى التقديم الذى كتبه المحرر.

عبد القادر الإدريسى
مسئول الإعلام بالإيسيسكو



أسباب العجز العربى

علينا الاعتراف المبدئى بأن هناك عادات فى التراث العربى تعودنا أن نتقبلها ونتعايش معها مع العلم الأكيد بأن الكثير منها تقف عقبة صلبة فى طريق التفكير العقلانى الحر وتمنعه من النمو البشرى والتطور.

أولاً: عدم القدرة على الدخول طواعية فى حوار ذاتى صادق مع النفس، الهدف منه التقييم الموضوعى للأفعال سواء الفردية أم الجماعية بدون الهرب من الإجابة أو التزييف فيها، وبالتالى الاعتراف بالنواقص أو بالذنب كأننا نحن منزهون عن أى عيب أو خطأ.

ثانياً: المبالغة والتضخيم فى كل ما يتصل بحياتنا وبموروثاتنا وقيمنا فهى الأفضل والأجمل، هذا إلى جانب ما نضيفه من أمجاد لا شىء يضاهيها وتبلغ حد الكمال.

ثالثاً: الخلط ما بين التقاليد والدين بحيث أضفينا القدسية الدينية لنتقبل الكثير من العادات السيئة والقبيحة التى تسىء إلى الدين وإلينا كبشر مثل عادة قتل الشرف الموجودة فى الكثير من الأقطار الإسلامية.

رابعاً: الولاءات العائلية والعشيرية التى تقف فى طريق التعامل الحر القائم على المصلحة المتبادلة مع الغريب.. أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً.

خامساً: نتقبل الطبقية ونرضى بالفوارق كأننا قسمنا مجتمعاتنا طواعية إلى أسياد وعامة.

سادساً: الخوف من الخروج عن المألوف.. أو الخروج عن التفكير الجماعى.. حتى وإن كان تفكير هذه المجموعة وأسلوبها الخاطئ يضر بالمصلحة العامة.

سابعاً: الخوف من تعارض أية فكرة جديدة عن المفهوم الدينى أو الثقافى الذى ينبع من الدين، حرمت على الكثيرين الدخول فى حوارات تعتمد الحرية الفكرية والموضوعية.

ثامناً: الرفض المطلق لكل من يختلف عنا أو يخالفنا الرأى ورفض الآخر المختلف عنا ديناً أو جنساً أو عرقاً أو لغة..

تاسعاً: إعلاء المصلحة الفردية فوق مصلحة المجموعة.. مما أدى إلى تبرير الفساد والرشوة تحت مبررات الفقر والخوف من المستقبل.

أضف إلى كل ذلك القبول الطوعى للمكانة الدونية للمرأة بحيث حرمت من حقها المتساوى فى كل ما يختص بأمور حياتها.

التعليم وحده غير كاف لإحداث التغيير المطلوب للتقدم يجب أن تتوفر الإرادة الصلبة التى تريد التغيير لما فيه مصلحة المجموعة، ومصلحة الأجيال القادمة.. الخروج من ظاهرة العنف التى استولت على العقول وأبدت ظاهرة فى كل مفارق الحياة للفرد المجتمع.. الخروج من حالة التحدى المستمر سواء من الفرد أو من المجموعة على أننا متميزون أو مختلفون عن بقية البشر.

أحلام أكرم
ناشطة وباحثة فى حقوق الإنسان



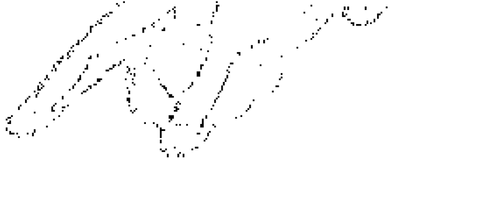
تصويب

تحرص «وجهات نظر» دوماً على تحرى الدقة فيما يصل إلى القارئ بين غلافيها. وهنا نعتذر عن خطأ غير مقصود اعتور باب كتاب الزاوية العدد قبل الماضى فى قصيدة شوقى الشهيرة زَحْلَة. ونعيد هنا نشر البيتين بشكل صحيح:

يا جارة الوادى، طربت وعادنى
ما يشبه الأحلام من ذكراك
مَثَّلتُ فى الذكرى هواك وفى الكرى
والذكريات صدى السنين الحاكى

وقد جاء هذا الخطأ نتيجة لاعتمادنا على طبعة لديوان الشوقيات صادرة عن شركة دار الأرقم بن أبى الأرقم (بيروت).

كتاب الزاوية

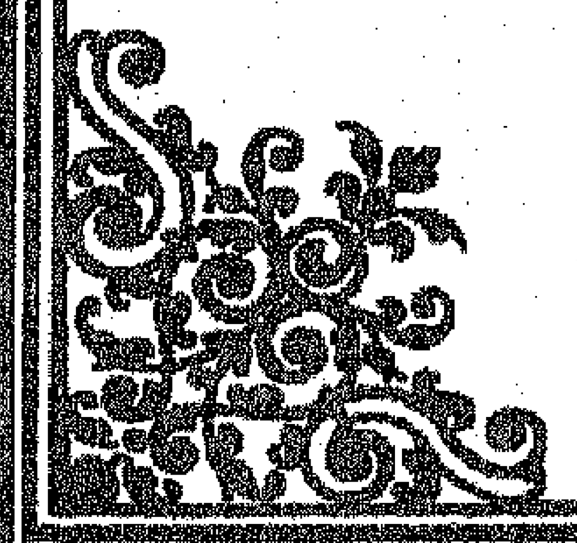


هكذا غنى طاغور

أيتها الأرض

أيتها الأرض
لتقبلى اليوم تحيتى
آخر تحية
ترفع إليك فى هيكل اليوم الذى يزول
أنت بطلة، يتحقق فرحك فى الأبطال
أنت جميلة وقاسية
امرأة ورجل فى وقت واحد
تزعزعين حياة الإنسان بصراعات لا تطاق
باليد اليمنى تملئين الكأس بالرحيق
وباليسرى تبددينه بدداً
وفى مكان لهوك يتردد صدى السخرية الصاخبة
إن حياة البطل، وريث الحياة النبيلة
ترهقينها وتجعلينها قاسية
إنك تجعلين من العسير بلوغ الخير
وليس فى قلبك رحمة للبائس
إن الصراع من أجل البقاء الذى أخفيته
فى أشجارك
يظهر انتصاره فى الثمار والغلال
أيها العالم
أنت محبوب وقاس، قديم، وجديد على الدوام





قـــــراءة ..

يحـــــدث غـــــداً!

اليوم.. الأول من يوليو ٢٠٠٤، تنتقل «السيادة» بمعناها الاصطلاحى المبتكر إلى «العراقيين».

أى سيادة.. وأى عراقيين؟

تتباين الإجابات كما ألوانُ الطيف. فلم يعد العراقُ واحداً ولم تعد السيادةُ، كما عرفناها منذ عرفنا الدولةَ الحديثة، والقانونَ الدولى، وعلبة الكبريت الشامخة فى مانهاتن. حيث شهدنا، فى العام الرابع من القرن الواحد والعشرين، وزيرَ خارجيةِ العراق يقف أمامَ مجلس الأمن ليرفض أن تتولى حكومته الإشراف على عمليات قوات «الاحتلال» الموجودة فى أرضه! كما رفض أن يكونَ لحكومته حق الاعتراض على تلك العمليات!

لا غرابةَ، ولا مجالَ حقاً لعلامات التعجب. فى عصر التطبيع مع ما لم يكن قابلاً للتصديق قبل الحادى عشر من سبتمبر الذى أرادوه. عنوةً. أن يكون مفصلياً فى التاريخ. وكان لهم. حتى الآن على الأقل. ما أرادوا.

أى سيادة.. وأى عراقيين؟!

لم يعد العراقُ واحداً؛ بالمحاصصة والتريص والتذبيح. ولم تعد السيادةُ محددةً؛ بالتعريف. ولم يعد بعضُ «ما يحدث غداً». رغم حقيقة أن الكلَ يقفز إلى المجهول. فى بطن الغيب.



الكولونيل مايك تيرنر كان مساعداً شخصياً للجنرال شوارتسكوف، قبل أن يعمل «مخططاً سياسياً» فى هيئة الأركان المشتركة فى البنتاجون ضمن فريق الجنرال ويسلى كلارك (الذى كان مرشحاً فى الانتخابات التمهيدية لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية) كتب ملحاً على إعادة رسم الخريطة: «من أجل سلام يدوم فى الشرق الأوسط، يجب تقسيم العراق إلى ثلاث دول..».

يقول المخطط السياسى، والذى نشرت تقريرَه أكثر من صحيفة أمريكية: ان إعادة تشكيل العراق كدولة ديمقراطية واحدة داخل حدودها التى «فرضها البريطانيون من عام ١٩١٨» مهمةٌ مستحيلة. وأن الحلَ البسيط، والذى يمكن أن يخرج إدارة الرئيس بوش مما هى فيه ويحققُ رؤية باول، دولة ذات هدف سياسى قابل للتحقيق، وهدف عسكرى محدود فى الشمال، وخطة خروج سهلة من العراق، وضمان للتأييد الدولى، يتمثل فى الذهاب إلى ما يبدو بعيداً «رغم أنه على أطراف أصابعنا»: أن نسمحَ بإقامة ثلاث دول منفصلة تضم ما نطلق عليه العراق الحديث؛ الأكراد فى الشمال، والسنة فى الوسط، والشيعة فى الجنوب.

يظن تيرنر أن هذا الحل «البسيط جداً» يمثل مفهوماً عملياً يتناسب أكثر مع الأوضاع الإقليمية. ويجنبنا أنهاراً من الدماء تتجمعُ عند المنبع. حيث الثقافات والطموحات تتباين وتتعارض. وحيث يتجذر فى التاريخ تراثٌ من الثأر.

وحسب تخطيط تيرنر. وهى وظيفته على أية حال. فإن الأكراد ستسعدهم «كردستان» التى ستضم كركوك المدينة الرئيسية فى إنتاج النفط. وحينها يمكن للأمريكيين أن ينسحبوا من بقية العراق الرافض لهم ليتمركزوا شمالاً «حيث لا عداء، بل مشاعر ود، وأزهار ورياحين حقيقية استقبلت جنودَنا هناك..». أما الأتراك فلن يغامروا بوضعهم فى حلف الأطلسى. كما أنهم ربما اطمأنوا إلى العازل الأمريكى الشمالى، الذى سيضمن قطعاً هدوء الأوضاع هناك.

ولا يرى تيرنر الذى يعتقد أن الشيعة سيتحالفون مع إيران على أى حال، مشكلةً إقليميةً فى دولة شيعية فى الجنوب، حتى وإن تحالفت مع جارتها المزعجة الكبيرة. لاسيما مع ازدهار دولة كردية فى الشمال، لها أيضاً حدودها (وامتداداتها الثقافية) مع إيران.

أياً ما كان حظ سيناريوهات مايك تيرنر على المسرح الذى يُفتح عنه الستارُ اليوم، فإن بعض المشاهد «الفعلية» فى الكواليس تظلُ مهمةً وموحية.. ودالة:

١. رسالة مسعود بارزانى وجلال طالبانى إلى الرئيس بوش عشية تشكيل الحكومة الجديدة (نُشر النص كاملاً فى الثامن من الشهر الماضى).

٢. أصدرت محكمة عراقية مذكرة باعتقال «عضو مجلس الحكم الانتقالى» سابقاً عبد الكريم المحمداوى.. فى قضية قتل ضابط شرطة.

٣. تقارير الصحف الأمريكية (منها الواشنطن بوست ونيويورك تايمز) عن إياد علاوى. وتهكم رجال المخابرات الأمريكية الذين عمل معهم فى السابق على تعهده بالعمل على إيقاف التفجيرات وأعمال العنف.. مذكرين بأنه نفسه كان مسؤولاً عن حملة تفجيرات ضد المنشئات المدنية العراقية فى أوائل التسعينيات.

٤. تأكيد بريماكوف رئيس الوزراء الروسى الأسبق وصاحب العلاقات العراقية المتميزة مؤخراً على أن صدام عقد اتفاقا مع الأمريكيين عشية الحرب وأنه سلم نفسه قبل وقت طويل من إعلان اعتقاله.!

٥. ما يجرى من «تكريد» للأقليات فى كركوك كوجه آخر لمشروع صدام لتعريب الأقليات ونزع هوياتها.

٦. حيث تختلط المقاومة المشروعة بالثأر، وحتى بالجريمة غير المشروعة، تبقى حقيقة أن المقاومة العراقية بدون وجه سياسى، وبالتالى بدون برنامج سياسى.

٧. الدماء.. والدماء فقط تكاد أن تكون العامل المشترك الوحيد بين قطع «البازل» المتناهية تلك والتى تبدو عصيةً على التركيب. فمعظم الرصاص الذى اعتاد العراقيون أزيزَه اليومى، لا تعرفُ مصدره أو هدفه. من قتل مثلاً عالمة الكيمياء أو عميدة الحقوق مع أسرتها قبل أيام.

٨. صار العراقُ. فعلياً. أرضاً مفتوحة لكل من له ثأرٌ مع أمريكا. مهما تباينت الدوافع والأسباب. وصارت أرضُه مقبرة تفتحُ كُوتها كل يوم بعد أن صارَ القتل على الهوية ولمجرد الاشتباه.



بحكم الجغرافيا يعرفُ العراقُ وجيرانُه ماذا تفعل الرمالُ المتحركة فى «الربع الخالى». هل يختلفُ الحالُ كثيراً عما يجرى فى العراق؛ أرضاً ومشهداً. حيث لا شيءَ مستقراً.

حتى المصطلحات والمفاهيم التى استقرت معانيها فى الكتابات والقواميس لعشرات السنين مادت بها الرمالُ المتحركة. فمفاهيم «السيادة» التى عرفناها فى كتب السياسة والقانون الدولى منذ كنا طلبة، ليست هى السيادةُ التى سيتمتعُ بها العراقيون بدءاً من اليوم. و«الاحتلال» لم يعد هو بالضبط منذ أن ذهب «المحررون» لاحتلال العراق (الوصف القانونى قال به الأمريكيون لا غيرهم). وكذلك «المقاومة» التبست معانيها وأصاب ثوبَها الطاهر. بحكم التعريف. كثيرٌ من الشبهات. بعد أن صارت إراقة دماء «العراقيين». لا غيرهم. من الطقوس اليومية هناك. حتى صدام الذى وحَّدَهم يوماً تحت الخوف، اختلفوا عليه. فإياد علاوى قال: «نتسلمه بعد الثلاثين..» وأيده البريطانيون. أما بوش فقد قال بصراحة: ليس الآن.. وإنما فى «الوقت المناسب» الذى يبقى ككل مصطلحات الحالة بلا تعريف. هذا على ضفة من يريدون رأسه. وعلى الضفة الأخرى ما كان المشهدُ ليبدو مختلفاً. محمد رشدان المحامى الأردنى قال: نحن محاموه «حصرياً». وجاك فيرجيس الفرنسى الأشهر أكد مطمئناً: أن بحوزته وكالةً من ٤٢ من عائلة الرئيس (المخلوع/ السابق/ الشرعى... إلخ) لك أن تختار ما يحلو لك.. ولا تثريب. فحتى الصفةُ مختلَفٌ عليها. وكلُ المصطلحات قد باتت بلا تعريف.

أيمـــن الصيـــاد